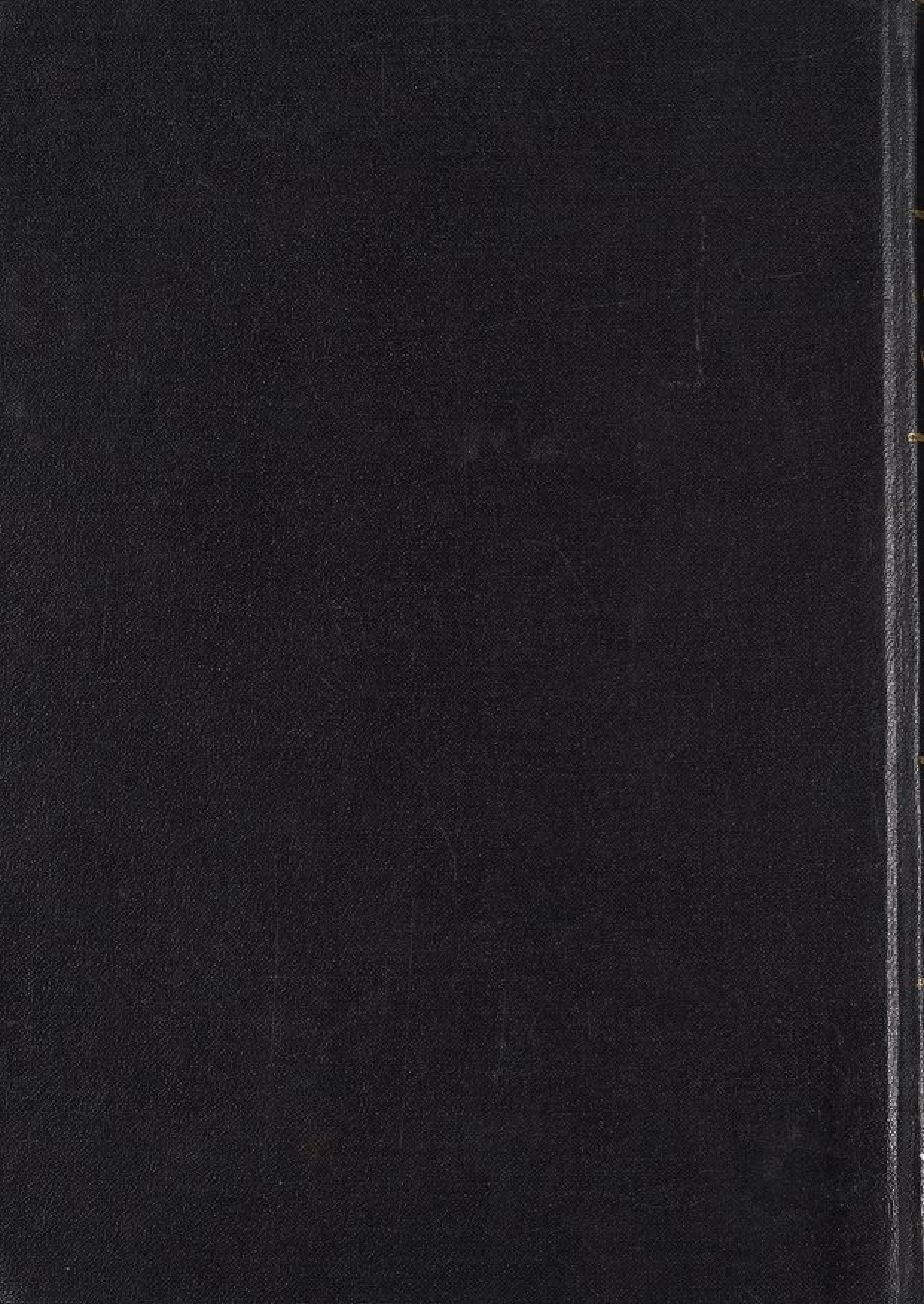


2274
.87678
.923

2274.87678.923
Shibli
al-Shidyaq wa-al-Yaziji

DATE	ISSUED TO

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
DUE JUN 1 3 1985			
RETURNED JUL 5 1984			


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 007174335

Shiblī, Anṭūniyūs

الشدياق واليازجي

al-Shidyaq wa-al-Yaziji

مناقشة علمية ادبية

سنة ١٨٧١

بين الشيخين فارس الشدياق وابرهيم اليازجي

يليها

عدة مختارات من نفثات اقلامهما

جمعها ونسقها

الأب أنطونيوس شبلي

اللبناني

طبع سنة ١٩٥٠

2274
.87678
ant. 923

مقدمة

لجامع الكتاب

يعلم الراسخون من اهل البحث والتدقيق في لغة الضاد ، انها اوسع اللغات علماً واغزرها مادةً وأطربها انشاءً وأرحبها فناءً واقدمها لساناً وأجلّها قدراً ومقاماً . ولم يدع العرب علماً من العلوم او فناً من الفنون إلا وكدّوا فيه اذهانهم وأجالوا اقلامهم ففكّوا عُقَدَهُ وشكالاته وكشفوا اسرارهُ ومعمّياتهِ وابرزوا دفائنهُ ومكنوناتهِ ، وبسطوها للعيان وسهّلوا تناولها للاذهان بتلك الفصاحة والبلاغة السائلة على أسلات يراعتهم فأتت كتاباتهم وتآليفهم اهدى دليل وافصح برهانٍ على ما ميّزهم الله تعالى به من مواهب نادرة وذكاءٍ فطريّ ، فكانوا السابقين المبرّزين في حلبة الثقافة والاشعاع الفكريّ . ومنهم اقتبس ابناءُ الغرب فشدوا شدوهم وتأثروا خطاهم وبنورهم اهتدوا وبهم اقتدوا وعنهم اخذوا . فالفضل كلّ الفضل للمتقدّم ، وليس من سبيلٍ الى طمس هذه الحقيقة او انكارها او مواراتها تحت ستار التضليل والتمويه ، فآثارهم في التاريخ السنةٌ ناطقة بصحة ما رويناه .

وانت خبيرٌ ان اللغة العربية بحرٌ بعيد الغور واسع الاطراف وقد كثر الغائصون على دررهِ ولآلئه ، فمنهم من احرز منها نزراً يسيراً ومنهم قسطاً وفيراً ، ومنهم من التطموا فارتدّوا على اعقابهم خاسرين مكتفين من البحر بالوَشَل ومن الجواهر بالصدَف فكانوا بها مدلين معجبين . ومنهم من عكفوا على دراستها فسبروا غورها ونفذوا الى اعماقها ظافرين بدررها ولآلئها فأحسنوا سلْكَ معانيها في سموط مبانيها وارسلوها عقوداً غالية الاثمان باهرة اللمعان تزدان بها اجياد الادب تيّاهةً على أولي حلي الذهب ! فأمام هؤلاء الائمة نحني الرؤوس احتراماً .

10-3-69

ومن هذه الطبقة التي نبغت فسمت وطمحت فظفرت ، الرجلُ الفذّ النابغة ، والفارس المجلي في مضمار كل سباق ، الشيخ فارس الشدياق صاحب صحيفة « الجوائب » ومحرّرها ، وسرّ الليال ، والجاسوس على القاموس ، والساق على الساق ، الذي طبّقت شهرة علمهِ الآفاق واصبح اسمه مرادفاً للعبقرية والذكاءِ . لقد درس فوعى وتعمق فأجاد وكتب فأفاد ، وسطع نورهُ فأضاء كاسفاً كلّ ضياء ، وكان مفخرةً من مفاخر لبنان ونادرةً من نوادر الزمان ، وحسنةً من حسناتهِ وفلتةً من فلتاتهِ فحقق قول المثل : ان لبنان مبعث الحضارة ومهبط الوحي والالهام ومهد العبقرية والنبوغ .

ولما كان الشدياق على يقينٍ من سعة علمه وبسطة معارفه ومرهف احساسه ، يكبر عليهِ ان يقارعهُ مقارع وينازله منازل في ميدانهِ ولا يعترف لهُ بالفضل والسباق والعجز عن اللحاق في كل مناظرة ومجادلة ، فيهوّل على خصمه اولاً باقلامٍ هي السيوف القواطع والحراب اللوامع حاملةً على رؤوسها الدلائل الواضحة والحجج اللائحة ، ولا يجبنُ لكثرة عدد مناوئيه وعُددهم فيناصبهم القتال في كل بحثٍ وجدال حتى اذا لم يذعنوا لهُ ويستخذوا ويعلنوا انهُ فريع دهرهِ ووحيد عصرهِ ، يشكّ رماح تلك الاقلام في صدورهم ويرسلها ساعدهُ الى الصميم غير آبهٍ ولا متأثرٍ لشخب دمائها وشحطها وشخيرها ونخيرها ، فيمشي على اشلائها جاراً ذيل الغبطة والمسرّة . وتلك سجيّة متأصلة فيه ولّدها طبعهُ السوداويّ ودّ الناس لو خلا منها وتنزّه عنها . ولله في خلقهِ شؤون .

وانك لتلمس فطرتهُ هذه او بالحري عادتهُ وخُلقهُ في هذه المناقشة العلمية الادبية التي دارت رحى معركتها بينه وبين شيخ اللغة وفتاها المسمّى أمّها واباها الشيخ ابرهيم اليازجي ، وقد حمي وطيسها واستعرت نارها وتلظّى اوارها واستطار شرارها وانتهت اخبارها الى جميع الاقطار العربية فوقف الادباءُ ينظرون الى شابٍ فرهدٍ غسانيّ وشيخٍ مغضّنٍ لغويّ يتناقشان ويتصاولان وللشاب حجتهُ وعنادهُ وللشيخ حجتهُ واستبدادهُ .

ومن تصفّح تآليف الشدياق وجوائبهُ معناً فيها الفكرَ ادرك بداهةً فيضان بحر معارفهِ وصحّة تركيب جملتهِ ، وان لهُ في كل علمٍ اثراً وفي كل فنٍّ خبراً ، وبينا كان الكتّاب وارباب الصحف في عهده يسفّون على الركاكة وحوشيّ الكلام وسقطهِ اسفاف الطائر لالتقاط الحَبّ ، كان الشدياق يسبح محلقاً في سماء البلاغة والفصاحة مسابح النسر في الفضـــاء لامساك الدراري والنجوم ، فيسيل قلمهُ باروع المعاني مصبوبةً بقوالب فصيحة التركيب متنوعة الاساليب يضفي عليها من سحر بيانه وبديع تبيانه حلةً منوّرة السناء تسترعي الابصار وتستوقف الافكار مما اهاب به الى العتوّ والنفور من كل اديبٍ سوّلت لهُ نفسه التطاول عليهِ بجدلٍ او انتقاد فيمطره من شق قلمه حمماً ولهباً ، فان لم يختبىء من لسان نارهِ ويجهر بخطاءِ ويدلف الى استغفارهِ أعاد عليه الكرّة بسلاحه المصمّم ولا يتركه الا جثّةً مهشمة الاوصال متناثرة الاشلاء .

* * *

ويعلم العالمُ العربيّ بسطة علم الشيخ ابرهيم اليازجي وقَدَمهُ الفارعة في اللغة العربية حتى انهُ بزّ المتقدمين والمتأخرين في دراستها وحذقهـــا وتبوأ أعلى منصّةٍ من نباهة الذكر وجلالة القدر . وقد تفرّد بمعرفة اصولها وفروعها واشتقاق كلمها وشواردها واوابدها وصرفها ونحوها وبديعها وبيانها وعروضها وقوافيها وجزلها وركيكها ، واحاط باخلاق العرب وعاداتهم وانسابهم ووقائعهم ورواية اخبارهم احاطة الشدياق بها . ولما عبّ عبابها وعنَت له صاغرةً تنيلهُ عنانهـا ، اركض جواد قلمه في ميدانها فجال وصال وبرع وابدع يعينه توقد ذهنٍ فطريّ وذاكرة مرهفة الشعور وعَت فاستوعبت واصبح حجّةً يعوّل عليه وعماداً يُرجع اليه في حلّ عقد لغة الضاد وجلاء مبهماتها وهو العارف بموارد الكلام ومصادره والبصير بجيّده وسفسافه والطويل النَفَس في بحوثه اللغوية البعيد غور الحجة ، فانه لم يتورّع من ان يحمل حملةً عنيفةً على كتابات الاقدمين والمحدثين فخطأهم وأقام الدليل على سلامة نقـــده بالحجج القواطع والبيّنات النواصعِ غير تاركٍ زيادةً

لمستزيد . فكان يصوّب سهم يراعته الى تلك الخطيئات او السقطات عن قلبٍ مُليء بالشجاعة غير متوارٍ وراءَ معاقل المخابيء فيصيب المرمى ، ويوسل مباضعه الى الجراح الوسخة العفنة فيشفي المعضل منها غير عابيءٍ بأنين المتألمين ودمدمة المدّعين . وبلغ من حبه لهذه اللغة ان نال نقده كبار المتبسطين في الانشاء من حمَلة الاقــلام واصحاب المعاجم وارباب المعرفة والشهرة الواسعة وله بينهم الاصدقاء الاوفياء ، خشية ان تسري اغلاطهم الى اذهان المنشئين وذوي التحصيل فيشوّهوا محاسن اللغة ويجنوا عليها وعلى طلابها من حيث يريدون المبرّة والاحسان ، فكسر من شرّة غطرسة اصحاب الدعوى العريضة وكبت من عجْبهم من حيث لا يريد فذلّوا فوقفوا بحضرته ساكتين .

* * *

فلم اشتهر الشيخ ابرهيم بأدبه الرفيع وخُلقه الكريم وفسحة رقعة صدره ، وبرصانته ورزانته وضنانته بصيته وكرامته من التبذّل والتسفّل . يترفع عن المهاترة والمقاذعة والمهاوشة والمخاشنة في مجاهداته ومجادلاته ، يجلّ خصمه اجلالاً لنفسه وينتقد الخطأ محترماً صاحبه متجاوزاً هجر الكلام الداعي الى التنابذ والتنافر والتقاطع والتدابر وجرّ المرء الى هبوط منزلته واخلاق ديباجة وجهه . وانك لتبصر اخلاقه هذه العالية متجليةً في مناقشته الشدياق الذي كال له السباب ونعته بألم النعوت واخبث الاوصاف ، ومــا كانت غضبته الا لتزيد اليازجي حلماً وهداءَة اعصاب وترفعاً عن مقابلته بمثــل بضاعته من السباب . مع ان المناقشة من شروطها ان لا تتعدى البحث الدائر حوله الجدل وان تظل عالقة باذيال الحكمة آخذة باهداب الملاطفة بادية فيها الآراء عارية غير مكسوّة بكساء الغلاظة والفظاظة .

ولا يندّ عن افهام اهل العلم والادب ان الشيخ ابرهيم اليازجي كان برّاً بابيه الشيخ ناصيف يؤلمه ان ينال احد قلامةً من ظفره باللوم والانتقاد . ولما توفي ابوهُ ، رحمة الله عليه ، رثاهُ الشيخ فارس الشدياق بقصيدةٍ عامرة واتى بثناء مستطاب على فضله وادبه في مقــالٍ نشرهُ في « الجوائب »

وضمّنه تخطيئاً في عروبة بعض كلماتٍ وردت في « مجمع البحرين » من امثال « الفحطل » « والمرابض » ثم تساءَل عن سبب اغفال الشيخ ناصيف لاسم الشدياق في مرثاةٍ كان اليازجي قد نظمها بوفاة انسباء للشدياق وفي خلال ابياتها تقريظٌ لصاحب « الجوائب » لماذا لم يأت بذكر اسمه اذ اثبتها في ديوانه المعروف ، مع ما كان بينهما من روابط المودّة والمراسلة والجوار. فظن الشيخ ابرهيم ان الشدياق قد تحدّى اباه بالنقد لهذا السبب فهب يذود عن حماه فكتب بحثاً مستفيضاً في مجلة « الجنـــان » لصاحبها المعلم بطرس البستاني يبرّىء اباه من تلك الاغلاط التي خصها الشدياق بالذكر ، وتطرق الى تخطئته في بعض مواضع من كتبه كالواسطة في معرفة احوال مالطة ، وسرّ الليال ، والساق على الساق بما جرّت اليه هذه المناقشة وجرّته من حواشٍ وذيول . وكان اليازجيّ ابرهيم وقتئذٍ شاباً في عنفوان شبابه وغضّ اهابه ، وكان الشدياق شيخاً علا رأسه غبار وقائع الايام فعزّ عليه ان ينازله فتىً في مقتبل عمره فأرغى وازبد وابرق وارعد وعصفت في رأسه ريح الكبرياء فاندفع يصبّ عليه من فوهة قلمه المخصاب النضناض سيولاً من الكلم اللواذع شاهراً عليه الحرب من البحر والبرّ والجوّ ، يرميه بالسيف والنار وبالزعازع والعواصف العاصفة القاصفة الناسفة مستذرعاً بكل وسيلةٍ لتخطئته واسقاط منزلته .

وكان لهذه المناظرة دويّ ردّدت صداه جميع البلدان العربية التي انتفض جمهرةٌ من ادبائها يستجيشون العدّة لمناصرة الشدياق ومساعفته على خصمه وقرنه اليازجي ، فاستصرخوا اعوانهم وتنادوا وتساندوا مسددين اليه والى ابيه سنان اقلامهم ، فظل الشيخ ابرهيم على سجيّته في سكونه ورباطة جأشه لا تصرفه هذه الهيعات او التهاويل عن المضي في ردوده التي نظمتها مراشف يراعته وبراعته في سلك البيان ونشرها في خمسة اجزاء من «الجنان»

***

ولما كانت هذه المناقشة العلمية الادبية حافلةً بفرائد الفوائد وجلائل العوائد الفراقـــد الشاهدة للشيخين الشدياق واليازجي بالتفوّق والتحليق ،

افرغتُ جهدي في التفتيش والتقصي عنها نحواً من عشر سنين ، ويعلم الله ما عانيت لاحرازها والوقوف على بعض مجلّدات من سني « الجوائب » من جهدٍ ونصب وها قد مضى عليها تسعة وسبعون عاماً ولم يبل كرّ السنين جدّتها او يغير ديباجتها . وكانت وما زالت وضّاحة الجبين ومطمح ابصار المتأدبين تشهد لمنشئيها بامارة الكـلام وكل منهما مقدام وإمام . واني اقدّمها لاولئك الذين يقدرون كدّ الافهام على نحو ما فعل الشاعر حافظ ابرهيم في تقدمته كتابه « البؤساء » الى استاذه الامام محمد عبده . وقـد كاشفتُ فريقاً منهم بأمر طبعها فاثنوا ونشطوا ورغّبوا وهوّنوا ، ونزولاً على رغبتهم قدّمتها للطبع على علاتها مع ما يتعلق بها ويدور حولها ، وزففتها الى العالم العربيّ بديعة الاتقـان والاشراق ، مجلوّة كالحسناء حاملة اسمي اليازجي والشدياق ، متضمنة أنفس الذخائر والاعلاق ، بارزة الدلائل على سمو مدارك بطليها وبراعتهما في لغة الضاد الشريفة .

ورأيت من المناسب ان انشر هذه المناقشة مذيّلة بعدّة مختـارات انتقيتُها من كتابات الشدياق واليازجي رغبةً في توسيع نطـاق مدارك القارىء وتبياناً لفضل هذين الرجلين على اللغة العربية ومقيـاساً للمفاضلة والموازنة بينهما وبين اولئك المتنفشين المدّعـين التضلع والامامة في اللغة ليفهموا اين هي منزلتهم من اليازجي والشدياق .

***

وقد قُضي عليّ ان اتمّ لنسخ هذه المناقشة واعدادها للطبع وانا بين حلّ وترحال ، تتنازعني مشاق واشغال يضيق بها الذرع ويفرغ عندهـا الوسع . ومن غرائب الصدف والاتفاق ان اكتب هذه المقدمة في الحازمية حيث كنتُ القي رياضةً روحيةً ، على مقربة من ضريح الشدياق . وقـد ذهبتُ اليه والقيت نظرةً طويلةً عليه وهو مقفل بابه ، فسألت ولم اهتد الى مفتاحه فاكتفيت بالتفرس فيه من خلال زجاج نوافذه ، ولم اتبيّن بجلاء ووضوح أبيات الاشعار ذات القافية السينية المنتهية باسمه المحفورة على حجرٍ مستديرٍ مستطيل مرتكزٍ عليه .

وقفتُ حيال هذا الضريح المطبقة صفائحه على جثمان الشدياق فعادت بيَ الذكرى الى استعادة مراحل حياة ضجيعه الى ذهني ، ومـا مرّ عليه من حوادث وعبر ومآسي وشجون وتطورات وشؤون ، وشقاء وصفاء وفقر وثراء ، وما تبدلت عليه احوال واعترضته صعاب ، وما قاسى من غصص وكرب الاغتراب ، وتأملتُ كم حنّ في هجرته الى اقرباء واصحاب ، وكم سأل شقيقهُ طنوس وهو مزدهف اللب عن عافية والدته راغباً في الاطلاع على اخبار الوطن واحوال قريته ، متمنياً العودة الى لبنانه والعيش في اواخر ايامه بين اهله وسكنه ، ولم تمالئه التقادير فرجع اليه مسجّى ليرقد رقدته في ظلال ارزه وشربينه ، وكم كدَّ ذهنهُ وأسهر جفنهُ وأخرج قلمه من بدائع الآثار التي تقصر عن الاتيان بمثلها عشرات الرجال ، وكم ارسل من جدٍّ وهزل ودعابةٍ ومجون ونكتٍ ومُلح ، وكم اودع جوانبه من مقالات متنوعة مستظرفة واخبارٍ مستطرفة وكم عرَّب عن اللغات الاجنبية ونقل الى اللسان العربي بعبارةٍ محكمة الضبط والسبك لا اثر فيها للعجمة ، وكم وطيء عتبة بابه من كبراء وعظماء يفاخرون بمودّته ، ومن ذوي حاجاتٍ يستدرّون غوث عنايته ، وكم صاول ونازل وجادل وصال وارتفع واستطال ومدَحَ وقدَحَ وبرّز وحلق تتدفّق من مجـــاري قلمه ينابيع العوارف والمعارف فتُنبت حولها الاخضلال والظلال والروعة والجمال ، فترامت شهرته الى اقاصي الشرق والغرب فأقرَّ له الكتّاب والشعراء بانه افرس الفرسان ، ان اطلق لقلمه العنان كرّ سابحاً سابقاً في ميدان المعاني والبيان فدانت له رقاب المعاني وانقادت افصح التراكيب والمباني . وقد قال يوماً :

غيري له فرسٌ وليس بفارسٍ وانا وما ليَ من حمارٍ فارس

والعبقرية واحدٌ في المئة نبوغٌ والهام ، وتسعة وتسعون في المئة عرَقٌ وجهاد ونَصَبٌ وسهاد . فكان ذاك الرجل الذي يصدق فيه الامران . قال الشاعر :

انما الزعفران عطرُ العذارى ومداد الدواة عطرُ الرجالِ

لقد خطرت كلّ هذه الخواطر في خاطري والذهول يشيع في ارجاء نفسي ، ثم امعنت في الضريح فرأيت الشدياق ممدّداً فيه وهو بالتحنيط صحيح الجسم عديم الحس والحركة ، فعجبتُ كيف وسعه القبر ولم تكن الدنيا لتسعه . وما لبثتُ ان اغمضت عينيّ ثمّ فتحتها فبصرتُ رماد الامجاد والعظائم والثراء والعلم والنبوغ منتثراً على كفن الشدياق في مبيته وقد صبغه بلونه الكامد، وسمعت صوتاً يدوي في اعماقي :

ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ

فانتبهتُ واستأنفت كتابة هذه السطور معلناً ان الشدياق واليازجي لم يموتا — كم مات قومٌ وهم في الناس احياءُ — لانهما حيان بآثارهما الخالدة التي لن تتبع جسميهما بالفناء خلافاً لما قال المتنبي بهذا المعنى :

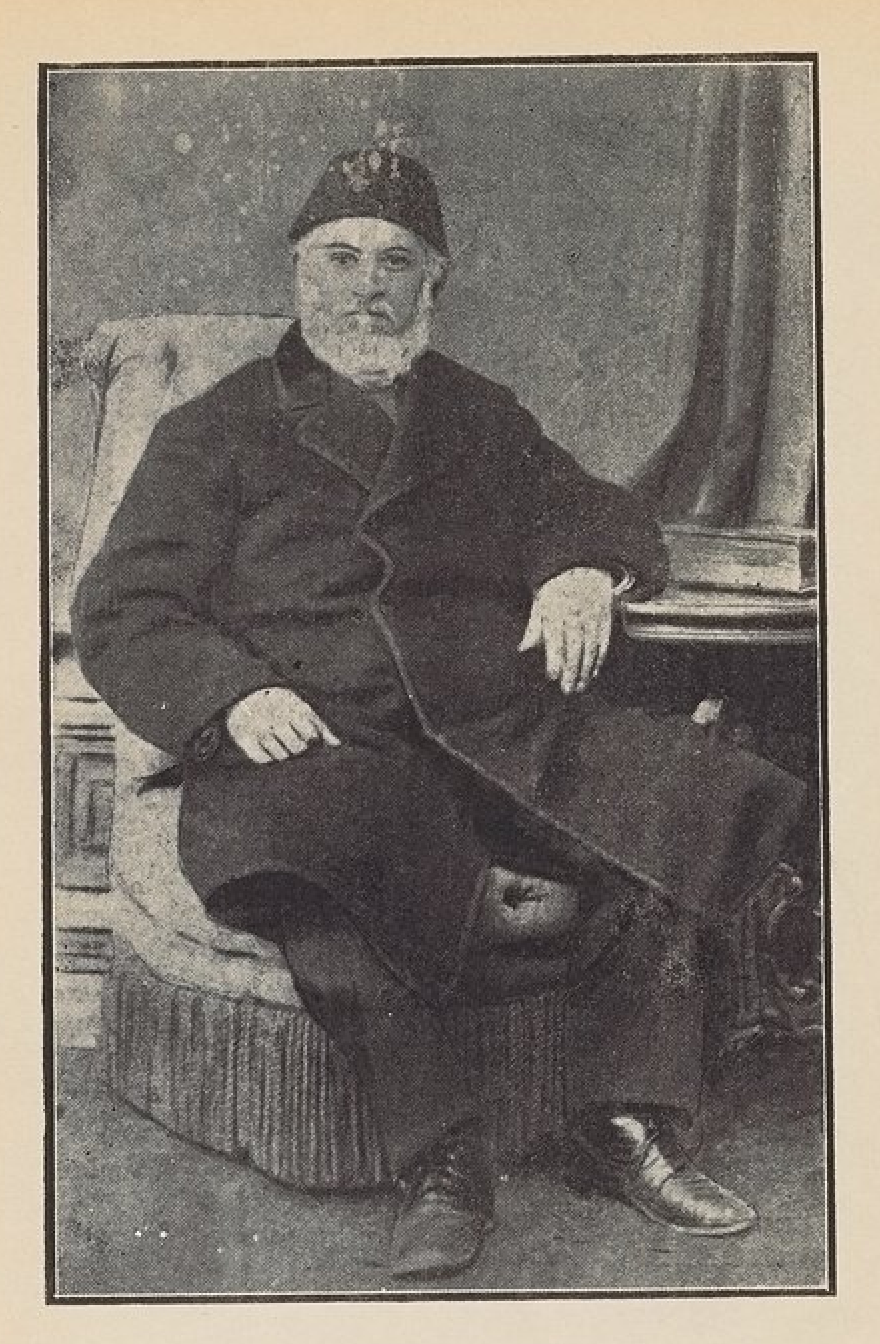
تتخلّف الآثار عن اصحابها　　　زمناً ويدركها الفناء فتتبعُ

فانها ستستمرّ ثابتة على وجه الدهر هدى ومحجّةً لكل طالب ، يتناقلها الخلَف عن السلف على تراخي الاجيال والاحقاب .

الاب انطونيوس شبلي

اللبناني

في ٣١ اذار سنة ١٩٥٠

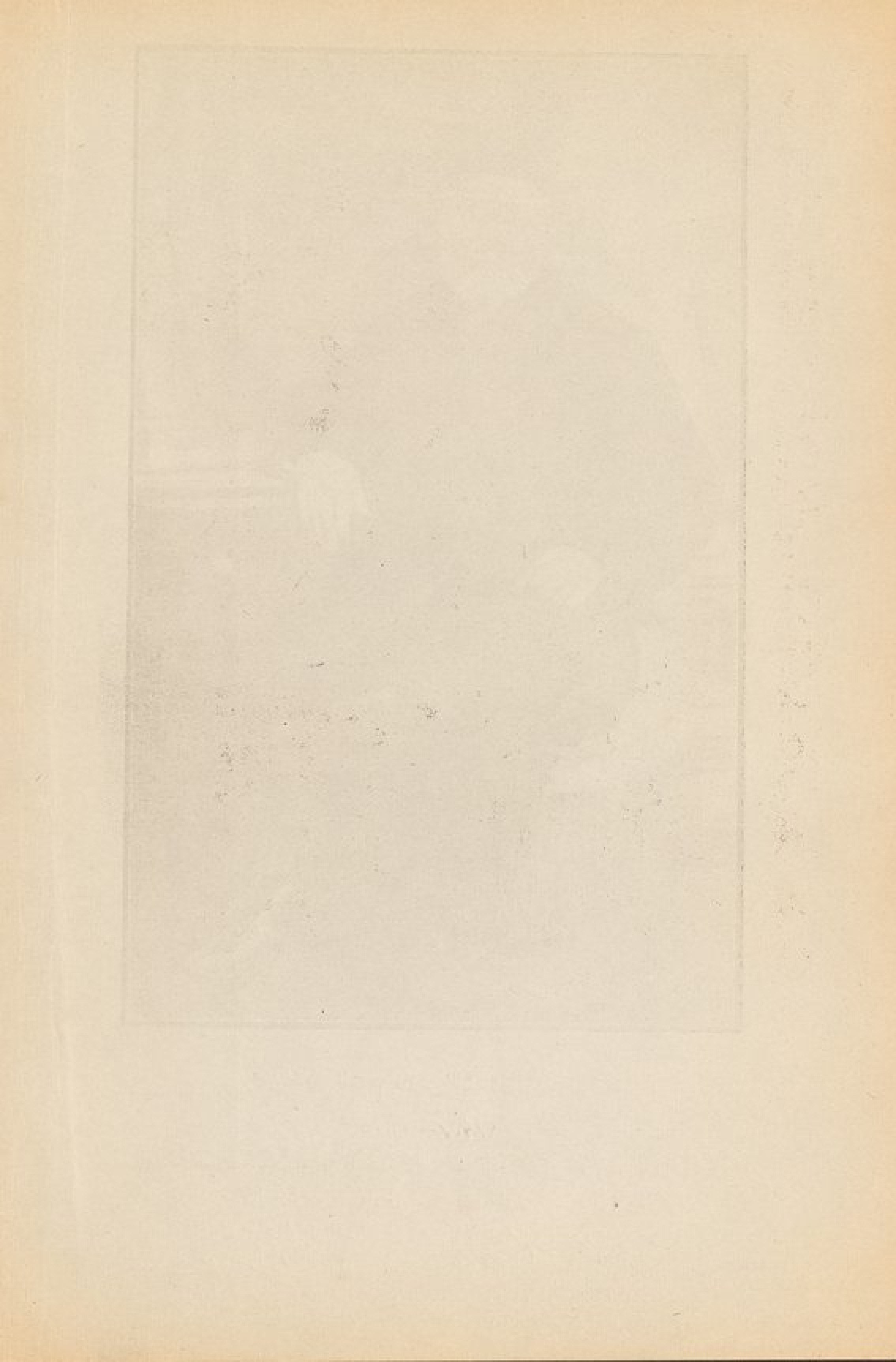


الشيخ فارس الشدياق

١٨٠٥ — ١٨٨٧

هو الفارس السباق في كل حلبةٍ   تجمّع فيها كل قرم ممارس
اذا صال لم يترك مصالاً لفارس   وان قال لم يترك مقالا لنابس
فما كل من رام العلى ادرك العلى   ولا كل من يعلوالسروج بفارس
اقام مناراً هادياً كل حائرٍ   واوقد ناراً امّها كل قابس
غدا ذكره ملءالزمان ولم تكن   لآثاره الايامُ غير فهارس

(الامير شكيب ارسلان)



الشيخ فارس الشدياق

بقلم بولس مسعد

رأينا ان افضل ترجمة للمغفور له الشيخ فارس الشدياق هي الترجمة المنشورة في كراس خاص بقلم المؤرخ المدقق بولس مسعد وقد نشرت بالطبع في مطبعة الاخاء بمصر ١٩٣٦ على نفقة النطاسي المرحوم الدكتور فيليب الشدياق فآثرنا اثباتها هنا برمتها وهي :

بيت المشروقي

قبل ان نبدأ في تدوين سيرة فارس الشدياق نرى أن نشير بكلمة الى أبيه وإخوته بعد أن نلمع الى البيت الذي نشأوا فيه والاسرة التي أنجبتهم وأنجبت سواهم من أقطاب الطائفة المارونية ورجال لبنان البارزين الذين طارت شهرتهم كل مطار وملأوا الاقطار والامصار شرقاً وغرباً بجميل المآثر وجليل الآثار .

بيت الشدياق فرع من اسرة كبيرة متشعبة تزيد فروعها على نحو ستين فرعاً متفرقة في أنحاء شتى من لبنان وسورية والعراق ومصر وسواها . تنتسب الى جدها الجامع الشدياق شاهين المشروقي الذي نشأ في حصرون بجبة بشري احدى مقاطعات لبنان الشمالية في أوائل القرن الخامس عشر . وكل من هذه الفروع او البيوت ينتسب اما الى الجد المتحدر منه واما الى حصرون موطن الجد الاصلي الجامع .

اما لقب مشروقي فقد لقب به هذا الجد الجامع لهجره موطنه حصرون الى صدد الشرق في جوار حمص مع من هجرها من سكانها فراراً من ظلم المقدمين الذين حكموا البلاد قبل عهد حفيده المقدم خاطر الحصروني وعوده اليها سنة ١٤٧٠ بعد استتباب الامن فيها على نحو ما ذكر الدويهي والسمعاني

ودفن هذا الجد بعد موته فيها عند الجدار الشرقي من كنيسة مار لابي بحصرون في حكاية ليس هذا مقام الالماع اليها . ومن ثم تعين علينا أن نطلق على هذه الاسرة اسم « بني المشروقي » أو « الاسرة المشروقية » اقتداء بالعلامة السمعاني والذين اخذوا مأخذه من المؤرخين الثقاة واخصهم بالذكر البطريرك بولس مسعد المؤرخ النسّابة الشهير . واول من اطلق على اولاد الشدياق شاهين لقب بني المشروقي أولاد جمعه العناحلة الذين تعرف أعقابهم اليوم ببيت كيروز . ذلك انهم نصروهم على معارضيهم من اهل حصرون حين دفن والدهم حتى تمكنوا من دفنه عند جدار الكنيسة الشرقي وعلى أثر ذلك لقبهم هؤلاء ببيت المشروقي ولزمهم هذا اللقب الى ان تفرقوا بيوتاً شتى اتخذت لها اسماء مختلفة على نحو ما ذكرنا .

والشدياق شاهين هو ابن سليمان بن داود بن الخوري يعقوب (وهو المطران حنين أو حنانيا الذي عاش في دمشق وتوفي في قبرس ودفن هناك في كنيسة مار يوحنا) بن يوحنا بن ابراهيم بن يعقوب بن يوحنا بن إلياس بن يوحنا بن سمعان بن يوحنا بن إلياس الذي يمتّ بصلة النسب إلى الأمير يوحنا من أمراء المردة وهو أمير الموارنة الذي قتل في قب الياس بمكيدة من يوستنيانس الثاني الأخرم ملك الروم كما سيجيء .

والبيوت المتحدرة من صلب الشدياق شاهين ترجع الى ثلاثة أصول جامعة مصدرها أولاده الثلاثة وهم : رعد ومخايل وشمعون .

١ — **رعد** : أما رعد فمن صلبه أعقاب المقدم خاطر الحصروني وإخوته عواد وشمعون ومطر وهم جدرد بيت داود وبيت ثابت وبيت مسعد وبيت بركات وبيت عواد وفروعه وبيت السمعاني وفروعه وبيت مطر وبيت فرحات وهو فرع منه . وهناك فروع أخرى تحدرت من صلب رعد نظير بيت سعاده وبيت شمعون وبيت فهد وهو عدة فروع أهمها فرع الشدياق في حدث بيروت وهو موضع كلامنا في هذه النبذة .

٢ — **مخايل** : ومن صلب مخايل بيت العفريت وهو عدة فروع معظمها في حصرون وسواها من قرى جبة بشري .

٣ ـ **شمعون** : ومن صلبه بيت الحوراني وهو عدة بيوت .

وقد نبغ من هذه البيوت عشرات من رجال العلم والأدب والسياسة بينهم علماء أعلام يحتلون المقام الاول بين علماء الشرق ومصلحيه ويعدون من أعظم مفاخره نظير المونسنيور يوسف السمعاني العلامة الشهير مؤسس القسم الشرقي في مكتبة الفاتيكان والبطريرك يعقوب عواد وابن أخيه البطريرك سمعان عواد والمطران اسطفان عواد السمعاني ابن أخت المونسنيور السمعاني ويوسف لويس السمعاني والمطران مخايل سعاده والمطران يوحنا الحوشبي والعالم الشهير المطران جرمانوس فرحات الذي احتفل بنصب تمثال له في حلب في شهر ايار سنة ١٩٣٤ وفارس الشدياق الذي كان أكتب أهل زمانه وشقيقه طنوس الشدياق المؤرخ الشهير ، والكاتب اللغوي الكبير المدبر يوسف الشدياق والبطريرك بولس مسعد العلامة والمؤرخ الشهير والبطريرك يوحنا الحاج القانوني الكبير والمطران بولس عواد العالم المدقق ، والعالم اللغوي الشهير الاب أنستاس ماريني الكرملي (من بيت عواد) والاستاذ الكبير النابغة داود بركات رئيس تحرير الاهرام سابقاً والآباء العلماء الأفاضل الخوري برديوط يوسف فاضل السمعاني وابن شقيقه المونسنيور لويس السمعاني والمونسنيور بولس عبده السمعاني والمونسنيور انطون عبود من العفارنة وغير هؤلاء من الرجال الذين نشأوا من هذه البيوت وكان لهم شأنهم ومقامهم بين رجال لبنان وسورية وهم يعدون بالعشرات بل بالمئات وسنأتي على ذكرهم وسيرة كل منهم في كتابنا « تاريخ بني المشروقي » الذي نحن آخذون في إعداده للطبع راجين ان يوفقنا الله الى ذلك في القريب العاجل .

وقبل أن نختم هذه المقدمة نرى ان نبدي هذه الملاحظة وهي ان لقب الشدياق الذي لقب به غير واحد من أعقاب شاهين المشروقي إنما هو من ألقاب الشرف التي كان يلقب بها كبار القوم من ابناء البلاد وكان يطلق أولاً على الشمامسة ثم توسعوا في مدلوله فصاروا يطلقونه على المتعلمين وهم في الغالب من اهل الطبقة الخاصة أو بعبارة أصح من سادة البلاد وحكامها وما يقال في لقب « الشدياق » يقال مثله في لقب « المقدم » فان اعقاب

شاهين كانوا يعرفون ايضاً بالمقدمين ولو ان الذين حكموا البلاد منهم اثنان فقط وهما الشدياق يوسف ابو رعد المعروف بالمقدم خاطر الحصروني وابنه المقدم رعد الذي كانت حصرون قاعدة حكمهما[1] وفي هـذا ما فيه من الدلالة على ان شاهين وأولاده وأعقابه كان لهم شأنهم ومقامهم بين زعماء البلاد وكبرائها وإلا لما توصلوا الى تقلد زمام الحكم وهم محاطون بالحساد النافذين من أقطاب البلاد وزعمائها في ذلك الحين ولما أحرزوا — بعد نكبتهم الشهيرة التي ضاع بها الحكم من أيديهم (١٦١٣) وتشتتهم في أنحاء لبنان وسواه — من النفوذ وعلو الكلمة ما مكنهم من التقرب الى امراء البلاد وحكامها واستلال حكم غير أقطاع من الاقطاعات من المقدّمين الذين جاءوا بعدهم واقتناء الامـلاك الواسعة حيث حلوا بعد هجرتهم والتوصل بعد فترة من الزمان الى استرجاع مكانتهم السابقة حتى كان ما كان من تلقيب أمراء البلاد لهم بلقب مشايخ وهو اللقب الذي يعرف به غير بيت من بيوتهم الى اليوم .

بيت الشدياق

اما بيت الشدياق فينتسبون الى جدّهم الشدياق فهد بن الشدياق شاهين المشروقي فهو جدهم الأعلى . واما جدهم الأدنى فهو الشيخ فهد ابو يونس جد بيت فهد في عشقوت وسواها، وهم من هذا البيت غير انهم انتسبوا فيما بعد الى الشدياق منصور فهد وعمه الشدياق بطرس بعد وفاة بطرس هذا وانتقال ولديه مع منصور الى حدث بيروت .

---

(١) ان هذا الرأي في لقب مقدم وشدياق ينطبق على لقب أمير وشيخ . فالأمير او الشيخ هو الذي تقلد الامارة أو المشيخة فعلاً فكان هذا اللقب حقاً له دون سواه ثم أصبح على توالي الايام لقباً وراثياً يلقب به أبناء الامير أو الشيخ وحفدته وأنسباؤه بحيث أصبح ذلك تقليداً وسنّة مرعية درجت عليها القبائل والعشائر حتى في الامم العريقة منذ قرون .

يوسف منصور الشدياق

(١٧٦٢ – ١٨٢١)

اما فارس الذي نحن في صدده فهو من بيت يوسف أبي حسين الشدياق[١] ووالده يوسف منصور الشدياق هذا كان يلقب بالحاج يوسف لانه حجّ غير مرة الى بيت المقدس . وقد ولد يوسف في سنة ١٧٦٢ – ١٨٢١ . وفي سنة ١٧٩٤ تزوج من بنت الشيخ يوسف زياده مسعد عمة البطريرك بولس مسعد الشهير[٢] وولد منها خمسة أولاد : طنوس ومنصور وأسعد وغالب وفارس (صاحب هذه السيرة) .

وكان يوسف راجح العقل يتوقد ذكاء وفطنة، كريم الاخلاق فارساً شجاعاً مهاباً حاد المزاج غيوراً سخياً متديناً ، درس الانشاء والادب والرياضيات على والده الشدياق منصور الشهير (١٧٢٣ – ١٧٩٣) الذي صرف شطراً من حياته في تدبير شئون حكام لبنان من الأمراء الشهابيين واولهم الامير قاسم عمر ثم ولداه الاميران حسن وبشير وهو الامير بشير الكبير ، ثم الامير حيدر الحرفوش من امراء بعلبك وسواه من الامراء . ولما تقلد الامير سليمان سيد احمد شهاب زمام الحكم لم يجد خيراً منه لادارة شئون البلاد فاستدعاه اليه في سنة ١٧٩٠ وعهد اليه في تصريف الامور وعين أولاده كتبة في مجلسه . وفي سنة ١٧٩١ حاصر عسكر الجزار بالاشتراك مع رجال الامير بشير الكبير دار الامير حيدر شهاب في بعبدا، فحمل يوسف عليهم بأربعين مقاتلاً من رجاله حملة صادقة وهزمهم الى ما وراء الشياح

---

(١) آل الشدياق في حدث بيروت ثلاثة بيوت – ١ بيت فارس ابي كنعان – ٢ وبيت يوسف أبي حسين – ٣ وبيت سليمان أبي مروة .

(٢) يوسف زياده مسعد خلف علاوة على أولاد الذكور الخمسة ثلاث بنات الاولى تزوجت مخايل المعروف بأبي منصور اده والثانية تزوجت ديب الحاج من عشقوت والثالثة تزوجت عباس أبا حيدر الشدياق (من بيت آخر) ثم ترملت فتزوجت يوسف أبا حسين الشدياق ولقبت بأم حسين نسبة الى زوجها هذا الذي كنوه بيوسف الحسن أو الحسين تحبباً

بعد ان فتك بنحو ٤٠٠ رجل منهم . وفي سنة ١٧٩٨ عين مدبراً لولديّ الامير يوسف شهاب . وفي سنة ١٨٠٣ توفي الامير سيد احمد وظل يوسف مدبراً لاولاده الى السنة التالية حيث استدعاه اولاد الامير يوسف الى جبيل وعهدوا اليه في تدبير شئون ولايتهم . وفي سنة ١٨٠٥ أسند اليه الامير حسن قاسم شهاب مهمة تصريف الامور في ولايته، وسمح له بالاقامة في كسروان ، فأقام في عشقوت بعد ان اشترى داري أبيه منصور وعمه بطرس فيها من بنت الشيخ صليبي الخازن ووالدتها[1] . وفي سنة ١٨٠٩ توفي الامير حسن فعهد اخوه الامير بشير الى يوسف وشقيقه فارس في تصريف شئون حكومته . وفي السنة التالية عاد يوسف الى حدث بيروت وقطع صلاته بعشقوت بعد ان باع الدارين المذكورتين الى اولاد الامير يوسف، وانتقل هؤلاء من درعون الى عشقوت واستوطنوها .

وفي سنة ١٨٢١ آلت ولاية البلاد الى الاميرين حسن علي وسلمان سيد احمد ، فاتخذ ثانيهما يوسف مدبراً له . وفي تلك السنة نفسها كانت عامية لحفد فقاتل الاميران الشيخ حمود النكدي في الحدث وهزماه وكان يوسف واقاربه في جملة الذين أبلوا بلاءً حسناً في قتال الزعيم الدرزي . وفشلت الثورة ففر الاميران من وجه الامير بشير الكبير الى تل منين في جوار دمشق ثم انتقلا الى دمشق مستصحبين يوسف مع بعض اقاربه . وكان هذا مريضاً فاشتدت وطأة المرض عليه ووافته منيته تلك السنة نفسها وعمرهُ ٥٨ سنة

اما اولاد يوسف ، فاليك سيرة كل منهم :

---

(١) كان الامير ملحم بن الامير حيدر موسى شهاب سخط على مدبره الشدياق بطرس لانه احتاج الى المال لاشباع جشع والي صيداء وخيل اليه ان في استطاعة بطرس تدبيره ، فعجز هذا عن تلبية الطلب وكانت نتيجة سخط الامير عليه أنه انتحر، وصادر الامير املاكه واملاك منصور الشدياق ابن اخيه جعفر ، وفي جملتها داراهما في عشقوت ووهبهما الى الشيخ ابي صليبي مرعب الخازن، ومن ثم ارتحل منصور من عشقوت مع ابني عمه الى حارة البطم في حدث بيروت بين سنة ١٧٣٩ وسنة ١٧٤١ .

١ ـ طنوس يوسف الشدياق

(١٧٩١ - ١٨٦١)

هو ابن يوسف البكر . كان ذكي الفؤاد حاد الذهن رزيناً مهاباً وكان أستاذاً في اللغة وادابها وفي الفقه وفروعه ، وذاع صيته في الآفاق حتى باتت داره محجاً لطلاب الفتاوي من اقصى الاقاليم ومن كل طائفة ومذهب . وكان قليل الكلام إذا نطق كان نطقه حجة قاطعة ، واذا ابدى رأياً كان رأيه حكمة ولذلك كان جلاسه يتهيبونه ويحترمون مجلسه احترامهم لمجالس الأئمة والعظماء . وكان الاميران حسن علي وسلمان سيد احمد شديدي الثقة فيه وقد عهدا اليه في تمثيلهما لدى عبدالله باشا والي عكاء فقام بالمهمة قياماً كان باعثاً على اعجاب الوالي بحذقه وحكمته ، وصرف مدة في تدبير شئون ثانيهما وفرّ معه من وجه نسيبه الامير بشير امير البلاد وقتئذ على أثر حبوط عامية لحفد المعروفة بعامية النصارى، وصرف الشطر الاخير من حياته في نسخ الكتب والدرس والمطالعة والتنقيب لجمع مواد تاريخه الشامل «أخبار الاعيان في جبل لبنان» الذي هو حجة المؤرخين وله فضل عظيم في انشائه لانه جمع مواده من حيث لا منسوخ ولا مطبوع ولا مصدر ثقة يرجع اليه ولا مواصلات سهلة يستعين بها على احتياز شتاته ، وعرف اهل الفضل والادب له فضله فقدروا تاريخه واكبروا جهاده دونه وعدوه بحق أبا المؤرخين العالميين في لبنان . وكان يجيد الخط وقد نسخ كتباً كثيرة في الطب والهندسة وعلم الفلك والصرف والنحو وغير ذلك من العلوم ، وقد وقفنا على عدة مخطوطات منها في خزانة كانت محفوظة لدى حفيد عباس ابي حيدر الشدياق في عشقوت حيث كان طنوس يصطاف في المرحلة الاخيرة من عمره لان عباس هذا هو عمه اي زوج والدته ام حسين .

٢ ـ منصور يوسف الشدياق

(١٧٩٥ - ١٨٤١)

هو ثاني ابناء يوسف منصور الشدياق . اقتبس العلم في مدرسة عين ورقة

وأتقن الخط السرياني ونسخ به كثيراً من الكتب . ولما بلغ أشده عينه الامير سلمان سيد احمد شهاب كاتباً في ديوانه وقيماً على املاكه واختصه بعطفه ورعايته من دون رجال حكومته جميعاً لصفاته الجميلة وفضائله الرائعة ، فقد اتصف بالفطنة والدعة وسلامة الطوية والتدين ، وامتاز بلسانه الفصيح ومنطقه الصحيح وقلمه السيال وهـــذا ما يشهد له بالاجتهاد وسعة الاطلاع والعبقرية . وكان مهاباً شجاعاً فارساً عزيز النفس كريم الخلق يهاب الناس جانبه ويحسب الحكام له حساباً وبهذه السجايا الطيبة أحرز مكانة عالية يغبط عليها . وقد توفي في بيروت كهلاً .

٣ ـ اسعد يوسف الشدياق

(١٧٩٨ — ١٨٣٠)

هو ثالث أنجال يوسف منصور الشدياق . كان بهي الطلعة تجلت في محياه الوسيم مخايل النجابة والذكاء ودماثة الخلق والصراحة، صادق اللهجة فصيح اللسان رصيناً . صرف شطراً من صباه يتردد على مدرسة القرية . ودرس على أخيه طنوس آداب السريانية والعربية . وفي ١٥ حزيران سنة ١٨١٢ دخل مدرسة عين ورقة الاكليريكية وعمره ١٤ سنة وفيهـا درس اللغات والمنطق والفلسفة والطبيعيات والخطابة واللاهوت . وفي سنة ١٨١٨ عهـد اليه في تدريس السريانية واللاهوت في دير القديس انطونيوس بعبدا للرهبان الانطونيين ، واختصر اللاهوت الادبي للعلامة أنطوين ونسخ كتاب الالحان السريانية وجمع منظوماته وتولى الكتابة في ديوان البطريركية ثم في ديوان أسقفية بيروت فترة من الزمن . وفي سنة ١٨٢٢ عين مدبراً للشيخ علي العماد الى سنة ١٨٢٤ . وفي سنة ١٨٢٥ درس عليه الاستاذ لويس كَيْن المرسل الاميركي اللغة السريانية ولفت نظره ما هو عليه من الفطنة والذكاء فقال فيه : « إنه على حداثته من أفهم شبان جبل لبنان » . وفي سنة ١٨٢٦ درس عليه الاستاذ برد المرسل الاميركي اللغة العربية وكان المرسلون الاميركيون قد انتهزوا فرصة اختلاطه بهم وتردده عليهم لاستمالته الى معتقدهم ولم يطل

به العهد حتى انس من نفسه الانقياد الى آرائهم . وكان صريحاً حر الضمير سليم الطوية فانخدع لهم وجهر بميله الى معتقدهم ، واتصل خبره بالبطريرك يوسف حبيش فشق عليه الامر ولاسيما أن أسعد من تلاميذ مدرسة عين ورقـــة البطريركية الاكليريكية ، وخروجه على الدين في مثل ظروفه هذه يعدّ في نظر البطريرك ورجال الدين جرماً عظيماً ولاسيما أن لبني الشدياق فضلاً على هذه المدرسة الطائفية يرجع الى عهد عميدها بطرس الشدياق الذي وقف عليها بقاعاً واسعة من جبل موسى الذي كان يمتلكه . فاستدعاه اليه ووبخه على عمله واذ رآه متردداً تركه يخلو لنفسه ليتدبر الامر . وبعد ان قضى أياماً في الرياضة الروحية استدعاه ثانية وثالثة وكان اسعد صلب العود لا تلين له قناة فظل مصرّاً على رأيه حتى رأى البطريرك نفسه مكرهاً عـلى معاملته بالشدة فأمر بعزله في مكان منفرد في دير سيدة قنوبين وهو المقام البطريركي وقتئذ ، وانقضت مدة وهو في تلك العزلة الموحشة المؤلمة للنفس والجسد معاً ورجال البطريركية يترددون عليه ويبذلون له النصائح لعله يرعوي عن غيه ويرجع عن ضلاله فلم يفلحوا برغم ما كان قد بلغ اليه من السقم والاعتلال . وتوسط ذووه في امره وهم من اعيان الطائفة وكبارها ، فسمح له البطريرك بالخروج من عزلته فغادر المقر البطريركي الى كسروان مصحوباً ببعض الاهل واستقر مدة في عشقوت مسقط رأسه ورأس ابيه واجداده وأزف موعد عودته الى قنوبين فاخفاه اقاربه بنو فهد في بقعاتة عشقوت فنقم البطريرك عليهم وأوعز الى حاكم البلاد أن يقتص منهم ويكرههم على تسليم أسعد اليه فأجابه الى رغبته وأعيد أسعد الى سجنه في دير قنوبين حتى وافاه القدر المحتوم بعد أن عانى آلاماً مبرحة سنة ١٨٣٠ أي في تلك السنة نفسها التي عين فيها ابن عمته الخوري بولس مسعد (البطريرك بولس فيما بعد) سكرتيراً للبطريرك يوسف حبيش على أثر عودته من رومية .

وقد اطلعنا على صورة رسالة مخطوطة بتاريخ ٢٤ ايلول سنة ١٨٢٦ كتبها الشيخ طنوس شقيق اسعد الاكبر الى البطريرك يوسف حبيش يتنصل فيها من تبعة ضلال شقيقه هذا ويلتمس له المغفرة من البطريرك .

وهناك رسالة اخرى موجهة بتاريخ ١٠ تشرين الاول سنة ١٨٢٦ من

آل الشدياق الى البطريرك يوسف حبيش يلتمسون فيها السماح لاسعد بالعودة الى بيته للاستشفاء لان صحته كانت قد اعتلت .

والرسالتان محفوظتان في مكتبة مدرسة بيت مسعد في عشقوت مع وثائق أخرى تتعلق بانسبائهم آل الشدياق . وهذه المدرسة كانت في الاصل دارين متصلتين لمنصور وعمه بطرس الشدياق .

٤ ـ غالب يوسف الشدياق

(١٨٠٠ – ١٨٤٢)

هو رابع أبناء يوسف منصور الشدياق . نشأ ذكي الفؤاد قوي الذاكرة حكيماً صائب الراي مرهف القلم عالماً فقيهاً كثير الحفظ من الفقه فارساً شجاعاً مهاباً سكوتاً أي أنه كان من بعض الوجوه مشابهاً لشقيقه الشيخ طنوس . نزح الى مصر في سنة ١٨٢٧ – وشقيقه فارس فيها وقد احرز لدى رجال معية المغفور له محمد علي باشا الكبير مؤسس دولة مصر الحديثة مكانة يغبط عليها – فعين كاتباً للحسابات في الديوان العالي ولكنه لم يلبث ان عاد في السنة التالية الى لبنان وفي سنة ١٨٣٤ – وهي السنة التي ارتحل فيها شقيقه فارس الى جزيرة مالطة – عينه الامير بشير الكبير مع ابن عمه انطون فارس الشدياق كاتبين في ديوانه . وفي سنة ١٨٤٠ كانت عامية لحفد المعروفة بعامية النصارى وانحاز غالب وانطون الى جانب الذين اشتركوا فيها من اعيان اللبنانيين وزعمائهم ففشلت الثورة ونفاهما الامير بشير مع من نفاهم من أولئك الاعيان الى مصر ومنها الى سنار في السودان . وفي السنة التالية عادا من منفاهما مع المنفيين الآخرين . وعلى اثر عودة غالب الى لبنان اقامه الامير عبدالله حسن ابن اخي الامير بشير قاسم الكبير وكيلاً له في دعاويه وعهد اليه في مهمة كبيرة في دمشق فقام بها على خير ما يرام . ولما عاد من دمشق كانت صحته قد اعتلت فانتقل بعائلته الى الكفور في فتوح كسروان وهناك وافاه القدر المحتوم بداء الاستسقاء في سنة ١٨٤٢ ودفن في كنيستها .

٥ ـ فارس يوسف الشدياق

(صاحب هذه الترجمة)

(١٨٠٥ – ١٨٨٧)

هو فارس الملقب بالشيخ احمد فارس الشدياق اصغر ابناء يوسف الملقب بالحاج ابي حسين بن منصور الملقب بالشدياق منصور فهد (الذي اليه ينتسب بنو الشدياق في حدث بيروت) بن جعفر (شقيق الشيخ بطرس الملقب بالشدياق الذي مات منتحراً وهو اعظم رجال بني الشدياق) بن ابي يونس فهد بن ابي فهد شاهين بن الحاج جعفر الاول بن رعد بن فهد الاول بن رعد الاول بن الشدياق شاهين المشروقي الذي يمت بصلة النسب الى الامير يوحنا من امراء المردة وهو امير الموارنة الذي قتل في قرية قب الياس في البقاع احد اقاليم لبنان بمكيدة كادها له يُوستنيانس الاخرم بن الملك قسطنطين اللحياني ملك الروم في اواخر القرن السابع[1].

---

(١) جاء في الصفحة ٣٦٤ من كتاب « سفر الاخبار » للمطران يوسف الدبس ما نصه : « وخلف قسطنطين اللحياني ابنه يوستنيانوس الثاني الملقب بالاخرم لجذع انفه وكان شريراً خبيثاً جائراً واتبع بدعة القائلين بالمشيئة الواحدة . . . وفي السنة الاولى من ملكه ارسل اليه عبدالملك بن مروان وفداً لتجديد الصلح الذي كان عقد في ايام ابيه بشرط ان يصدّ عساكر المردة الذين في جبل لبنان ويمنع هجومهم وعبدالملك يدفع اليه كل يوم ألف ذهب والف جواد والف مملوك فاجابه يوستنيانوس الى ذلك وعقد الصلح معه واخذ الملك من المردة ١٢ الفاً لكنه اضعف بذلك قوة مملكته . . ذلك ان يوستنيانوس أرسل عسكراً بحجّة قتال العرب وارسل مع قائده رسائل وهدايا الى امير الموارنة (الامير يوحنا) وامره بأن يمكر به ويقتله فاتى قائد الجيش الى يوحنا امير الموارنة الذي كان يسكن حينئذٍ في قب الياس فقبله يوحنا بمزيد التكريم وبينما كان القائد يحدثه بشأن غزوة العرب اشار الى جنوده فوثبوا على الامير يوحنا فقتلوه مع كثير من اعوانه وجنوده » وجاء في الصفحة ٧٣ ما نصه : « وبعد مدة شرع قائد جيش الملك يعتذر للموارنة عن هـذا الصنيع ويظهر لهم ان الملك يحتاج الى انجادهم له في القسطنطينية وان من مضى لنجدته نال خير الجزاء فاقتنع كثيرون من الموارنة فتوجهوا وعلى رأسهم الامير سمعان ابن اخت الامير يوحنا المقتول وكانوا نحو ١٢ الفاً فاخذوا اولاً الى ارمينيا ثم الى تراقية واستمر خلفاؤهم في مقاطعة بمفيليه اجيالاً حيث كان ملك الروم يعين لهم والياً منهم يقيم في اضاليا ويسمى قبطاناً .

ولد فارس في عشقوت احدى قرى كسروان من اعمال لبنان سنة ١٨٠٥ وليس في سنة ١٨٠٤ كما يزعم بعضهم خطأ . ومن المتفق عليه انه ولد في عشقوت ووالداه انتقلا من حارة الحدث المجاورة لبيروت الى هذه القرية في سنة ١٨٠٥ على اثر ايعاز الامير حسن عمر شهاب الى والده يوسف منصور الشدياق بالاقامة في كسروان بعد ان عينه مدبراً لشؤونه، فقصد يوسف هذا الى عشقوت واشترى داري ابيه منصور وعمه بطرس من بنت الشيخ صليبي الخازن ووالدتها لان هاتين الدارين كان قد صادرهما الامير ملحم شهاب الوالي ووهبهما الى الشيخ ابي صليبي مرعب الخازن كما ذكرنا في ما تقدم، فيكون فارس والحالة هـذه ولد في سنة ١٨٠٥ بعد انتقال والديه الى عشقوت . غير ان والديه لم تطل اقامتهما في هذه القرية فغادراها مع أولادهما عائدين الى حارة الحدث سنة ١٨٠٩ . وفي سنة ١٨١٠ باع يوسف داريه في عشقوت الى اولاد الامير يوسف بن الامير ملحم شهاب فرحل هؤلاء من درعون الى عشقوت وتوطنوها . ومن ذلك الحين لم يعد آل الشدياق الى عشقوت الا زائرين او لقضاء فصل الصيف .

ترعرع فارس في حارة الحدث أو حارة البطم حيث بدت عليه مخايل النجابة والفطنة والنبوغ ودرس أولا وهو في حجر والديه وتلقن عن اخيه أسعد شيئاً من اللغة والنحو، ثم ادخل الى مدرسة عين ورقه الاكليريكية في كسروان حيث اتم العلوم الابتدائية، وقبل ان يجاوز العاشرة من عمره نظم الشعر واجاده وكان مولعاً باللغة الفصحى يطالع الكتب التي كانت في مكتبة والده وهي زاخرة بالمؤلفات النفيسة، ويقف عند كل لفظة غريبة استجلاء لمعناها وادراكاً لمرماها، وهذا الميل الى سبر غور الالفاظ اللغوية كان فطرياً فيه، فكبر وكبر معه حتى اصبح ملكة فيه وانتهى به الامر الى ان سما به الى منزلة أئمة اللغة وجهابذة العلم ولذلك لا نكون مغالين اذا حكمنا بعد ان قارنا بينه وبين سواه من الكتاب والعلماء بأنه اكبر كتبة القرن التاسع عشر وفي طليعة الذين اسسوا النهضة العلمية والأدبية الحديثة في مصر والشام .

توفي والده في سنة ١٨٢١ وهو يافع لم يكد يناهز البلوغ وادرك انه

اصبح يتيما يتعين عليه ان يعمل لنفسه بعد الاتكال على الله فعكف على الدرس والتحصيل توسيعاً لدائرة معارفه واتقن الخط العربي وانصرف الى نسخ الكتب اقتداءً بطنوس شقيقه الاكبر الذي كان يجيد الخط لرواج المخطوطات وقلة المطبوعات في ذلك الزمن . وحدث في خلال ذلك ان شقيقه اسعد (١٧٩٨ – ١٨٣٠) اعتنق المذهب الانجيلي فنقم عليه البطريرك يوسف حبيش . وكان فارس وقتئذ يفكر في مغادرة لبنان الى الخارج جاداً في طلب الرزق والعلى وكان شديد الحب لشقيقه اسعد ، والاميركيون يعرفون ذلك، فلجأ اليهم ورأوا ان من وراء شدهم لازره فائدة محققة لهم فارسلوه الى مصر في سنة ١٨٢٥ لتعليم المرسلين الاميركيين فيها اللغة العربية وقواعدها فشد الرحال اليها وحاكمها يومئذ محمد علي باشا مؤسس الاسرة العلوية[١]

هجرة الى مصر

وفي مصر انبثق فجر نبوغه فما كاد يستقر به المقام حتى انكب على العلم يطوي الايام والليالي في الدرس والتحصيل والتعليم الى ان اتم علومه العربية وسواها ، وكان يكثر من مطالعة كتب اللغة والادب من منظوم ومنثور ولاسيما ما انطوى منها على التعليق الذي يبين مآخذ الكلام من اللغة ، وطالع ، ديوان المتنبي مراراً فاشتد ولعه بالشعر وانصرف الى نظمه وخصوصاً في المدح والهجاء والغزل والحماسة واربى ما نظمه على ٢٢ الف بيت من الشعر الجيد . وتمكن من علوم اللغة كالنحو والصرف والاشتقاق والمنطق تمكناً جعله مرجعاً فيها جميعاً . وكان كثير الاختلاط بعلماء مصر ولاسيما بالشيخ محمد شهاب الدين ونصرالله الطرابلسي الحلبي وهما من كبار الاساتذة الذين كان يعجب بعلمهم ويأخذ عنهم وهذا ما مهد له السبيل الى

---

(١) من اكبر البواعث على هجرة فارس ان بني الشدياق كانوا في جملة الذين تآمروا على الامير بشير الكبير واحبط الامير مساعيهم في حادثة المختارة الشهيرة وخاف هؤلاء انتقامه ، وفارس يومئذ شاب تطمح نفسه الى المجازفة والجهاد في مطارح الغربة فوافقوه على الرحيل انقاذاً له من شر الامير .

الاتصال برجال معية عزيز مصر واحراز ثقتهم مما ادى الى ان يعهد اليه في تحرير « الوقائع الرسمية » بدلا من العلامة رفاعه رافع الطهطاوي فانصرف الى عمله بهمة لا تعرف الكلال حقبة من الزمان ابدى فيها من آيات الذكاء والعبقرية ما اكسبه احترام الحكام وجهابذة العلم وسما به الى مكانة رفيعة عجز دونها كثيرون ممن تقدموه في خدمة الامارة المصرية او عاصروه من رجال العلم والفضل .

وتزوج وهو في مصر من بنت الصولي من اعيان السوريين ورزق منها ولدين سليم (١٨٢٦ — ١٩٠٦) وفايز (١٨٢٨ — ١٨٥٦)

في مالطة

وفي سنة ١٨٨٤ طلبه المرسلون الاميركيون في مالطة فغادر مصر اليها وأقام فيها ١٤ سنة يعلم في مدرستهم ويصحح ما كان يطبع في مطبعتها من الكتب العربية . وانصرف الى التأليف والتصنيف حتى لا يكاد يخلو كتاب مطبوع هناك وقتئذ من آثار قلمه ونفثات صدره . واعتنق وهو في مالطه هناك المذهب الانجيلي مسوقاً بعاطفة الانتقام لاخيه اسعد من بطريرك الموارنة .

في اوربا

وفي سنة ١٨٤٨ سافر الى لندره بايعاز وزير خارجية انكلترا اجابة لدعوة جمعية ترجمة الأسفار المقدسة فاعانها في ترجمة هذه الاسفار الى العربية تحت اشراف الدكتور « لي » واعجب الدكتور بعلمه وغزارة مادته وشدة تدقيقه . وبعد الفراغ من عمله امّ باريس وهناك تمكن من اللغتين الفرنسية والانكليزية وعكف على التأليف وقضى زهاء عشرة اعوام جائلاً في انحاء اوربا ودوّن سياحته هذه في كتابه : « كشف المخبا في احوال اوربا » وصف فيه الممالك الأوربية وصفاً بديعاً يستهوي القلوب . اما باريس فاوجز الكلام في وصفها اكتفاء بما كان قد كتبه عنها رفاعه بك العلامة المصري الشهير . وانشأ في ذلك الحين كتابه : « الساق على الساق فيما هو الفارياق » .

وفي اثناء وجوده في اوربا تزوج بسيدة انكليزية لم يرزق منها اولاداً وأنعمت عليه الحكومة الانكليزية بحمايتها وهي لم تكن سهلة المنال وكانت مقيدة بشروط يتعذر توافرها في رجل ما لم يكن نظير فارس الشدياق من اهل الموهبة الخارقة ، ونظم وهو في باريس قصيدة عصماء في مدح السلطان عبد المجيد على اثر حربه مع روسيا وقد استهلها بقوله :

الحق يعلو والصلاح يعمرُ   والزور يمحق والفساد يدمر

ومنها

طغت الطغاة الروس لما غرهم   في الارض كثر سوادهم وتجبروا

فوقعت هذه القصيدة في نفس السلطان احسن وقع وبعث يستقدم ناظمها الى الاستانة لمكافأته وهمّ هذا بالرحيل غير انه اتفق ان احمد باشا باي تونس زار عاصمة فرنسا وفارس الشدياق هناك فتعرف اليه ونظم قصيدة في مدحه لما رأى من جوده وسخائه على الفقراء والمعوزين ومطلع القصيدة :

زارت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ   فما الرقيب بغير النشر مدلول

فاحبه الباي وقرّبه اليه واعجب بعلمه وفصاحته . وبعد ان عاد الى بلاده بعث يستقدمه اليه على مركب حربي مبالغة في اكرامه فاكبر فارس هذا الاكرام وقال : « لعمري ما كنت احسب ان الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيه ، ولكن اذا اراد الله بعبدٍ خيراً ، لم يعقهُ عنه الشعر ولا غيرهُ » .

في تونس

فلم يجد له من ثم مندوحة عن السفر الى تونس نزولا على ارادة الباي ولاسيما ان احد اقطاب الباب العالي حبب اليه الاقامة فيها دون الاستانة ، فشد الرحيل اليها واكرم الباي مثواه وولاه أسمى منصب لديه وعهد اليه في تحرير جريدة « الرائد التونسي » وهي الجريدة الرسمية لحكومة تونس الى اليوم . وكانت ذكرى وفاة شقيقه اسعد في الظروف التي ألمعنا اليها في ما

تقدم لا تزال راسخة في ذهنه تؤلمه وتقض مضجعه فسولت له نفسه اعتناق الاسلام وسمي احمد فارس . وصرف في تونس مدة كان فيها قبلة الانظار ومرمى الابصار وموضع الاعجاب والاحترام وذاعت شهرته في الاقطار العربية والاسلامية شرقاً وغرباً، وسمع السلطان عبد المجيد بعلمه وادبه وسعة اطلاعه وسمو اخلاقه فطلبته الصدارة العظمى من باي تونس وشق على الباي ذلك ولكنه رأى ان النزول على رغبة الخليفة أمر لا مناص له منه فسمح لفارس بالرحيل وغادر هذا تونس الى الاستانة فرحب به أقطاب الدولة وعظماؤها ورجال الفضل والادب في عاصمتها وقضى هناك عدة سنين في تصحيح مطبوعات الحكومة وسواها في المطبعة العامرة حيث كان المرجع الاخير في كل امر من امورها الهامة . وظفر بعطف السلطان والتفاته السامي فانعم عليه بالرتب والاوسمة العالية الشأن ونسجت الحكومات الاوربية على منواله فاغدقت عليه اوسمتها واختصه الملوك والامراء برعاية خاصة وخاطبه عظماء العالم واقطابه وكبار علمائه ونعتوه باحسن النعوت واجل الاوصاف، وبالاجمال قد احرز وهو في القسطنطينية من المكانة السامية والنفوذ السياسي والادبي ما لم يحرزه احد من معاصريه في عاصمة بني عثمان.

جريدة الجوائب

وفي سنة ١٨٦١ م. الموافقة لسنة ١٢٧٧ هـ. انشأ جريدة الجوائب الشهيرة في الاستانة نفسها واجاد في انشائها كل الاجادة وابدع كل الابداع فاقبل الناس على مطالعتها وجابت اخبارها وفوائدها الممالك والاقطار من مصر الى المغرب الى الشام الى العراق وبقية البلاد العربية برمتها الى بلاد فارس والهند، وكانت مرجعاً لأهل الطبقات الراقية في كل هذه الاقطار بما لم تفز به جريدة سيارة في ذلك الحين حتى في الاقطار الاوربية نفسها . وكانت كبريات الصحف في باريس ولوندرا تستقي منها انباء الشرق مستشهدة في ما تكتبه عن السياسة الشرقية باقوال محررها وتلقبه بالسياسي الشهير والاخباري الذائع الصيت ، ولا غرو فهو بلا نزاع بكر الصحافيين الشرقيين بل هو اميرهم ونقيبهم وقدوتهم .

ثم حال تراكم الاعمال عليه ووفرة المهام الملقاة على عاتقه دون تمكنه من مواصلة العمل منفرداً في تحرير الجوائب وهو عبء ثقيل يعجز دونه من كان في مقام فارس يحدق به طلاب الحاجات وتزدحم في بابه مناكب أهل العلم والمعرفة ، فعهد في تحريرها الى نجله سليم فاقتفى اثره في انشائها وجال فيها جولات صادقة في السياسة والاجتماع والأدب كان لها صدى عظيم في اندية العلم والسياسة حتى صدق فيه القول المأثور : « ان ذاك الشبل من ذاك الاسد » وواصل سليم العمل في تحرير الجوائب الى ان كانت سنة ١٨٨٤ فقضت الظروف السياسية التي نشأت على اثر احتلال الانجليز لمصر بتعطيلها لانها كانت شوكة في جنب كل طاغ جبار يوم كانت الافكار هاجعة والقرائح جامدة والاقلام ساكنة ساكتة غارقة في سبات عميق ، والانشاء يرفل في الاطمار البالية فوشاه فارس المبتكرات والمنحوتات ورصعه بالاوضاع المحيطة باغراض المستحدثات . على ان هذه الصدمة لم تكن لتوهن عزيمة هذا الفارس المغوار ولا لتثبط همة نجله فشدد هذا الرحال الى تونس وهي معقلها الحصين وهناك استأنف اصدار الجوائب وارسالها الى الممالك العثمانية وفي جملتها مصر حيث كان دخولها محظوراً بحكم سياسة الاحتلال الى ان حالت عوامل قاهرة دون مواصلة اصدارها[١] ثم انشأ سليم جريدة القاهرة الحرة بالاشتراك مع الاستاذ يوسف بك آصاف المحامي الذي هو اليوم صاحب جريدة المحاكم .

وظل فارس عاكفاً على التحرير والتأليف الى آخر مرحلة من حياته غير حافل بوقر الشيخوخة ووطأة الايام . ولم يكف عن الكتابة والمطالعة الا في سنة ١٨٨٤ حيث اعتراه ضعف في بصره اضطره الى اعتزال العمل والجهاد .

رجوعه الى مصر

وفي شتاء ١٨٨٦ عاد مصحوباً بعائلته الى مصر التي شهدت بزوغ شمس عبقريته ونبوغه وهو شيخ جليل احنت الايام ظهره ولكنها لم تحن هامته

(١) أقدم احد انجال يوسف بك الشدياق بن غالب شقيق فارس على اصدار الجوائب في بيروت بعد الحرب العالمية العظمى ولكنها لم تلبث ان احتجبت ثانية الى اليوم .

ولم تفل من غرار عزيمته ومضاء ذهنه وظل كما عهده جلاسه في وادي النيل رقيق الجانب لطيف المعشر ابي النفس لين العريكة طلق المحيا محباً للخير وفاعليه يكيل المعروف بغير حساب، لا يتقدم اليه طالب حاجة ويعود خائباً، فصيح اللسان ميالاً الى المجون مولعاً بالنكتة البيانية .

وفي مصر رحب به العلماء ورجال الادب والفضل احسن ترحيب . وقد اطلعنا على قصيدة نظمها حضرة العالم حبيب غزاله بك تحية له وترحيباً به في جملة ما جاء فيها قوله :

قل للذي قد رام حصر كماله هذي الجوائب انبأت بعلائه
مصباح آداب اللغات بأسرها تجـلى لياليها بسر ضيائه

وزاره الوزراء والكبراء وحظي بالمثول بين يدي توفيق باشا الخديو الاسبق فلقي منه كل رعاية واثنى عليـه ذاكراً جهاده في سبيل العلوم والمعارف وبلاءه في سبيل اللغة والشرق . وكان قد وطن النفس على العودة الى لبنان ليختم فيه ايامه متفيئاً ظلال الارز ولكن الظروف قضت عليه بالنكوص والعودة الى الاستانة في ربيع تلك السنة نفسها . اما نجله سليم فقصد الى اوربا .

وانهى فارس جهاده الطويل في سبيل اللغـة بانجاز كتابه النفيس : « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » فابى نكد الطالع الا ان يحرم الناطقين بالضاد من درره الغالية فالتهمته السنة اللهيب مع ما التهمت من مخطوطاته وكتبه النفيسة التي كانت في مكتبته يوم اضطرمت النار في قصره بالاستانة . ولو ان صناديق المجوهرات وهدايا الملوك والسلاطين والامراء والعظماء كانت سريعة الالتهاب لما ظفروا بانقاذها .

ولما آن الاوان لان تفجع اللغة والوطن به وآذنت شمس حياته بالمغيب همّ بالعودة الى لبنان ليموت فيه بين اهله ومواطنيه فوافته منيته قبل ان يدرك امنيته .

وقبل وفاته بايام سأل حرمه ان تشترك معه في احصاء عدد الذين سبقوه الى عالم الارواح من خلانه واصدقائه وذكر ١٨١ نفساً . قال ان اعزهم لديه سامي باشا ونجله صبحي باشا وكمال باشا وعالي باشا وفؤاد باشا — وهم من اقطاب الدولة في ذلك الحين — واستاذان يعرف لهما فضلهما عليه هما الشيخ شهاب الدين الخفاجي والسيد نصر الله الطرابلسي الحلبي وهما اللذان اتم عليهما دروسه في العلوم العربية وهو في مصر .

موته في الاستانة

وفي اول سبتمبر (ايلول) انحرفت صحته ونجله سليم في باريس، وحدثته نفسه بدنو اجله فارتبك وكان الاستاذ نجيب هندية احد محرري جريدة القاهرة التي انشأها سليم ملازماً له وقتئذٍ فانبأه بأنه قلق البال مضطرب الافكار واوعز اليه ان يستقدم ابنه من باريس على جناح السرعة ففعل . وفي صباح ١٩ ايلول وصل سليم الى الاستانة فابتهج فارس بلقياه وانتعشت نفسه وخيل الى اسرته انه بات في منجاة من الخطر ولكن ما غربت شمس اليوم التالي وهو يوم الثلاثاء الواقع في ٢٠ منه حتى ساءت حاله، وبعد ان طبع قبلة على جبين نجله اتكأ على الوسادة واستغرق في النوم ثم استيقظ يقظة الموت . وفي الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة من تلك الليلة نفسها لفظ انفاسه الاخيرة بين ذراعي نجله سليم .

وكان لوفاته دوي عظيم تردد صداه في انحاء الشرق والغرب . وفي صباح الاربعاء ظهرت صحف الاستانة مطوقة بالسواد حداداً عليه ورثاه كتابها بمقالات ضافية عددوا فيها مآثره ذاكرين فضله على اللغة والعلم، ووصلت صحف لندره وباريس فاذا بها تنعيه لقرائها بعبارات مؤثرة تشف عن تقديرها لعلمه وفضله، وطير منعاه الى الاقطار العربية فاكبرت فجيعة العرب فيه وابدعت صحفها في رثائه ووصف جهاده، ورثاه الشعراء والكتاب في كل ناد وصقع بينهم طائفة مختارة من أئمة اللغة واقطاب الاقطار الشرقية وامرائها وعظمائها، وبالاجمال ان وفاته عدت في المحافل العلمية والاندية الادبية والسياسية

سواء في الاستانة او في الممالك الاسلامية او الاوروبية خسارة عظيمة على اهل الادب والفضل في الاقطار العربية .

وكان فارس اوصى بأن يدفن في وطنه لبنان وعملاً بوصيته هذه حنطت جثته ووضعت في تابوت من الرصاص ووضع هذا التابوت في تابوت آخر من الجوز ثم في صندوق متين من الخشب ونقل النعش اولاً من قصره في « قاضي كوي » الى قصر نجله سليم المجاور لنظارة المعارف .

وفي صباح الخميس ٢٩ ايلول غصّ القصر بالمعزين من الامراء والنبلاء والعلماء ورجال الفضل والادب من وطنيين واجانب وارباب المناصب العالية من ملكيين وعسكريين بينهم كثير من الصدور العظام السابقين والوزراء واقطاب الدولة وكبراؤها نظير منيف باشا ناظر المعارف العمومية وكبار موظفي نظارته واعضاء مجلس المعارف الكبير وحسن فهمي باشا ناظر العدلية سابقاً وصاحب السماحة الشيخ محمد ظافر افندي شيخ جلالة الخليفة وانجاله وانسباؤه وشقيقه وصاحب السماحة الشيخ حمزه افندي وكبار موظفي نظارتي النافعة والتجارة ومحمد سعدي بك افندي مكتوبجي النظارتين وصهر نامق باشا ياور السلطان وموظفو مجلس شورى الدولة وصاحب السيادة السيد اسمعيل افندي نقيب اشراف مكة المكرمة وعربي رزوق باشا من امراء تونس واحمد عزت باشا الفاروقي وسليم افندي المدير العام لادارة الديون العمومية وغيرهم من كبار رجال الدولة ، ووصل سفراء فرنسا وروسيا وايران ومندوبو البنك العثماني واعيان الاجانب والمحامون والاطباء وكبار التجار واصحاب صحف الاستانة وكتابها ومراسلو الصحف الاوربية ومندوبو شركتي روتر وهافاس وجم غفير من مشايخ الطرق وسواهم . وخرج الموكب من القصر في نظام بديع بين صفين من الجماهير المحتشدة على جانبي الطريق حتى الميناء. فكان مشهداً فخماً رائعاً قلما شهدت الاستانة مثله وكان اثنان من وزراء الدولة الفخام يرافقان نجل الفقيد ويعزيانه . ونقلت الجثة الى الباخرة النمسوية التي اعدت لنقلها الى لبنان على زورق جميل نشرت فوقه الاعلام منكسة بين صفين من الزوارق تقل عظماء الدولة وكبراءها .

مأتمه في لبنان وتشييد ضريحه

وفي صباح الاربعاء ٥ تشرين الاول وصلت الباخرة الى ثغر بيروت فصعد اليها العلماء ورجال الفضل يتقدمهم الشيخ عبـد الباسط افندي مفتي المدينة ثم انزل النعش الى الميناء على زورق مخصوص من زوارق الحكومة وسير به في مشهد عظيم الى الجامع العمري الكبير تحف به كوكبة من الفرسان وتتقدمه فرقة من رجال البوليس وجاويشية المجلس البلدي ومحضري المحاكم النظامية الى الحدث مسقط رأسه وازدحمت الطرق بالجماهير ازدحاماً هائلاً. وحـين خروج الموكب من بيروت استقبلته عند حدود لبنان فرقة من فرسان الجند اللبناني ومشاته بقيادة ضابط كبير محيطين بالنعش تعظيماً لمقـام الفقيد ، ثم ساروا في الموكب الى بلدة الحدث وهناك اجتمع عشرات الالوف من اللبنانيين بينهم كثير من اقطاب البلاد وكبرائها واعيانها وفي مقدمتهم الامراء بنو شهاب والمشايخ من كل طائفة . وقبل ان يوارى في رمسه أبنه بعض العلماء والادباء منهم العلامة الاستاذ الشيخ ابراهيم الاحدب والاستاذ الشيخ قاسم ابي حسن الكستي والاستاذ محمـد اللبابيدي والاستاذ الكبير الامير شكيب ارسلان وسواهم .

وبعد حفلة الدفن ذهب سليم الى الحدث حيث تلقى تعازي المعزين من كبراء لبنان واعيانه ووفود بلدانه ثم قصد الى بيت الدين ليشكر دولة واصه باشا متصرف لبنان على اصداره الاوامر اللازمة للجند اللبناني بالسير في جنازة والده فحيته لدى وصوله ثلة من الجند ورحب بـه دولة الباشا ترحيباً جميلاً وانزله في ضيافته ، ثم عاد الى الحدث وابتاع ارضاً في الحازمية نقل اليها جثة والده واقام له هناك ضريحاً فخماً يليق بمقامه ومقام اسرته وهو قائم الى اليوم يحدث الرائح والغادي بعظمة هـذا الرجل ونبوغه وعبقريته وسمو مقامه .

تأبينه

اما الذين رثوه من رجال العـلم والادب في الديار السورية والمصرية

فكثيرون وقد عني حضرة الاستاذ الكبير يوسف بك آصاف المحامي الشهير وصاحب جريدة المحاكم بجمع مراثيه وطبعها في كتاب سماه « هو الباقي » وفي جملة القصائد التي نظمت في تأبينه قصيدة عصماء لحسن حسني بك صاحب جريدة الانسان ، واخرى لسليمان الصولي الشاعر المعروف واخرى للعلامة الشهير الشيخ ابرهيم الاحدب من علماء بيروت وقصيدة للشيخ قاسم ابي الحسن الكستي البيروتي ، وقصيدة للاستاذ محمد اللبابيدي وقصيدة للسيد عبد الرحمن النحاس نقيب اشراف بيروت وقصيدة لابرهيم بك كرامة وقصيدة عصماء للاستاذ الكبير الامير شكيب ارسلان وقصيدة للاستاذ بشاره الشدياق وقصيدة للعالم الاستاذ حبيب بك غزاله وقصيدة للشيخ علي الليثي من شعراء مصر وقصيدة للاستاذ سليم جدي وقصيدة لاحمد عزت باشا الفاروقي من خاندان العراق وقصيدة للعلامة الشيخ يوسف الاسير من ائمة اللغة في الديار الشامية وكان من اعز اصدقائه وقصيدة للشيخ عمر بن ابي بكر من علماء تونس وقصيدة للاستاذ الكبير يوسف بك آصاف وقصيدة للعلامة الشيخ احمد الاديب رئيس ادارة اوقاف الحرمين الشريفين في تونس واخرى لفيليب نصرالله طرازي من علماء بيروت واخرى للشيخ نعمان آلوسي زاده من علماء بغداد وقصيدة للشيخ يوسف النبهاني من علماء اللاذقية الخ .

اقوال الصحف فيه

واما الصحف التي ابنته وعددت مآثره فأخصها جريدة « القاهرة الحرة » و « الوقائع المصرية » وجريدة الوطن وجريدة الاهرام وجريدة الفلاح وجريدة الصادق والاجبسيان غازت والفار دالكساندري والبوسفور والمساجري ايجبسيانو وجريدة الحقوق والاتحاد المصري وجريدة الاعلام وثمرات الفنون وجريدة بيروت ولسان الحال والمصباح وحديقة الاخبار ، وذلك علاوة على الصحف الاوربية والاميركية والفارسية وسواها مما يضيق المقام دون ذكرها

واليك مقتطفات مما قالت بعض هذه الصحف فيه .

جريدة القاهرة الحرة : ... كان شعلة الذكاء ومثال الولاء واسع الاطلاع

طويل الباع في العلم والادب حر الضمير ، كاتباً مشهوراً ولغوياً عالماً قوي التصور حاد الذهن ، قضى العمر بين الموائد والمحابر فالف وصنف كتباً نفيسة جليلة الفائدة جزيلة المائدة ... تولى تحرير الوقائع المصرية فافتن قراءها ببلاغة اقواله وفصاحة الفاظه ، فانه كان طلق اللسان متوقد الجنان واسع المعارف طويل الباع في السياسة والمباحث ... كانت عبارته تنطلق بين الرقة والانسجام فتفتن الالباب وتلعب بالعقول على ابدع نظام ، وكان العظماء والوجهاء يتباهون بأقواله ويتفاخرون باشعاره ويعجبون بالفاظه اي اعجاب . والحق يقال انه خدم العلم وفن الانشاء في الجوائب خدمة جليلة تخلد له الاثر الجميل والذكر الحسن ... وله خدمات جليلة نحو الدولة العلية استحق بهـــا ان يكون اهلا لاسمى نياشينها ... ولم يكن يبخل بآرائه السديدة عند كل ملمة غير خاش في الحق لومة ولا متلبس بمظاهر الخداع والمخاتلة . وكانت جرائد باريس الخطيرة وصحف لندره الشهيرة تأتي بذكره كثيراً في اقوالها عن سياسة الشرق مستندة في آرائها اليه مقدرة اياه حق قدره فتصفه بالسياسي المشهور والاخباري الطائر الصيت والكاتب اللوذعي الكبير . وكانت منزلته عند كتاب الصحف في اوربا وعلماء الغرب والشام ومصر والعراق ونجد وبغداد سامية جداً ، فمدحه جميع الشعراء واثنى على فضله جميع الخطباء والبلغاء من سائر بلاد العربية حتى من أقاصي الهنـــد وبلاد فارس ... وما من قادمٍ الى الاستانة كان يقصدهُ في قضاءِ لبانة ويعود خاسئاً خائباً ... نبغ في فنون الشعر واشتهر بالحماسة والغزل والمدح والهجاء والمجون وفي النحو والصرف والاشتقاق والمنطق وهذه مزية ما امتاز بها احد من العلماء قبله . وله قصائد في التطريز والتشطير والتخميس والتسميط وحبك الطرفين في غاية البلاغة والانسجام، فضلاً عن انه في النثر كان كاتباً لوذعياً وكان طويل الباع في احكام طرق الاخبار والتفنن في ضروب الحكاية ، وما من علم عرف في زمانه حتى بذل فيه جهد امكانه فسهل حزنه ووطأ متنه وصاد شواردهُ . وقاد أوابده ... قد كان ريحانة العرب في مصر والشام والغرب والعراق وسائر البلاد العربية ، ولا بدع فالشرق قد خسر بفقده أعظم عالم وافضل كاتب .

الوقائع المصرية – وحق لنا ان نأسف على وفاة رجل العلم وخادم الامة العالم الشهير والكاتب البليغ المرحوم « احمد فارس » صاحب الجوائب الشهيرة .... أمضى عمره في افادة اهل الادب والفضل وفي خدمة اللغة الشريفة العربية .

جريدة الوطن – يوم الاربعاء ورد خبر من الاستانة بنعي العالم العلامة الفصيح البليغ الفهامة « احمد افندي فارس » الذي له في اللغة العربية أجزل وافضل المغارس .. فقد انثلم بموته ركن الادب وانهارت دعائم لغة العرب فكان في اللغة العربية المجلي وكل لغوي يأتم به وورائه يصلي ، فكان يرجع اليه في مهماتها ومبهماتها وكناياتها واشاراتها ورموزها وكنوزها وتراكيبها واساليبها وحكمة واضعها واسباب شارعها .. لو عاصره الاخفش لاعترف من بحره الزاخر ، ولو رآه ابو عبيد لأصبح له عبداً واتخذه ركناً مشتداً : ولو شاهد ابن فارس ما لهُ من حسن المغارس لاعترف بأنه لم يخرج عن كونه ابناً له ، ولو رآه صاحب اللامع المعلم العجاب لقال اين انا من هذا العباب .. وكان اول من انشأ في بلادنا العربية الجرائد وبث منها الفوائد ، فالجرائد العربية بهديه اهتدت وبمثاله اقتدت . انه الف وصنف وابتدع وابدع وعرب وهذب ونثر ونظم واجاد وافاد فكان كالبحر الزاخر بل كان آية من آيات الله في نثره ونظمه وتأليفه وتصنيفه .

الاهرام – نعت انباء الاستانه العالم الفاضل واللغوي البارع الشيخ احمد افندي فارس .... كان من افاضل العلماء المدققين والكتاب البارعين والشعراء المجيدين . خدم اللغة العربية الشريفة بتأليف كثير من الكتب الادبية واللغوية واصدر جريدة الجوائب مدة طويلة وطبع في مطبعتها كثيراً من الكتب التاريخية والشعرية .

جريدة الفلاح – كان من ذوي الفضل والوجاهة والعلم والنزاهة .. فان آثار الفقيد لا تحصى وتآليفه الغراء التي يفتخر بها الشرق لا تستقصى .

جريدة الصادق – ... فجعنا باستاذ العصر وقدوة الفضلاء الغني بفضله

عن اطناب الواصفين « الشيخ احمد فارس » الامام الذي كانت له في الفنون الادبية والسياسية والعلوم العربية اليد العليا والفضل الباذخ

الاجبسيان غازت — علمنا بمزيد الاسف وفاة العالم العلامة الشيخ الجليل « احمد افندي فارس » شاعر زمانه واحد آحاد المنشئين الافاضل والعلماء الاماجد، والد سعادة زميلنا الفاضل سليم افندي فارس مدير « القاهرة الحرة » وللفقيد عدة تآليف غراء فريدة في بابها . وكان عزيزاً بين قومه محبوباً لدى العظماء مقرباً من الملوك والامراء فكانوا يقدمون له انفس الهــدايا واسمى النياشين الافتخارية وقد انشأ الجوائب في الاستانة العلية وتولى تحريرهـا مدة اربعين عاماً (والاصح نحو ربع قرن) نال فيها اعظم شهرة في حسن التعبير والتحرير وبلاغة الانشاء وفصاحة العبارة فنالت الجريدة بذلك شهرة واهمية ما نالتها قط جريدة عربية لا قبلها ولا بعدها . ولا شك اننا فقدنا بفقد هذا العلامة العظيم اعظم ركن للادب .

الفار دالكساندري — .. كان رحمه الله عالماً فاضلاً له جملة مؤلفات طائرة الصيت عند اهل الادب والمعارف ولا شك ان الآداب فقدت بفقده طوداً عظيماً وركناً متيناً .

جريدة البوصفور — خطف الموت جوهرة كان يتحلى بها جيد العلم ويتنافس فيها أهل الفضل والادب . قضى العالم الشهير والكاتب الكبير « الشيخ احمد فارس » ... وكان صاحب شهرة غنية عن الوصف في البلاغة والفصاحة وله عدة تآليف تشهد بفضله .

جريدة الميساجري ايجبسيانو — نعي الينا العالم العلامة « الشيخ احمد فارس » والد سعادة سليم افندي فارس مدير جريدة القاهرة .

جريدة الحقوق — .. أسفنا غاية الاسف على فقد هذا الرجل الفريد وكان جاهداً في تحصيل العلوم والتأليف مدة تنيف على خمسين سنة وله مصنفات عديدة .

جريدة الاتحاد المصري — كان رحمه الله أديباً اريباً وشاعراً مجيداً بل لغوياً فريداً، تآليفه الجمة المدبجة بالمعان تغني عن الافصاح والبيان .

جريدة الوطن – .... فشيع جنازته (في الاستانة) كثير من وزراء الدولة العلية وكبار موظفيها وعلمائها الاعلام وغيرهم من كبار الاوربيين وسفراء الفرس وفرنسا وروسيا ونواب البنك العثماني ولجنة الدين العمومي. وهذا ليس بكثير على نابغة هذا الزمان.

جريدة الاعلام – . هو علامة اللغة في هذا العصر السابق في ميدان البراعة بلا نكر، صاحب التآليف العديدة والمصنفات المفيدة والجوائب الفريدة، ابو الجرائد العربية.

ثمرات الفنون – (من امهات صحف سورية) – نعي الينا العالم الفاضل والجهبذ الكامل فارس الانشاء والانشاد .. من لم ينسج على منواله وقد عقم الدهر ان يأتي بمثاله « احمد فارس الشدياق » المحلى بروائع الحكم وبدائع الاخلاق ... جاوز سنه الثمانين وهو متقلد اليراعة ومطارد لفرسان البراعة ... وجاء من سعادة ولده سليم رسالة تلغرافية الى العلامة الشيخ يوسف الاسير يعهد اليه بها القيام بالاحتفالات اللائقة بمشهد دفنه.

وفي عدد آخر نشرت نبأ وصول الجثة الى بيروت على الباخرة النمسوية متطرقة الى وصف الاحتفال باستقبالها بما لا يخرج عما اوجزناه فيما تقدم.

جريدة بيروت – فارس مضمار البلاغة والبراعة وقادح زند الفصاحة واليراعة، العالم النحرير الذي اخرج درر المعاني من كنوزها، والعلامة الشهير الذي اظهر خبايا الحقائق من زوايا رموزها، السابق في حلبة الفنون والادب، الجامع في صدره علوم العجم والعرب، ركن المعارف وينبوع اللطائف والعوارف، الكاتب الذي لا يجاريه في مضمار القلم مجار والبليغ الذي لا يباريه في حلبة العلوم مبار، كنز المعقول والمنقول الذي تتيه في بيداء معارفه العقول، صاحب الجوائب التي جابت الاقطار وانارت الديار، المؤلف الشهير الذي اغنى بتآليفه المفيدة المكاتب، والمصنف الخبير الذي طأطأت لفضله الشهب الثواقب، الجامع لبلاغة قس وفصاحة سحبان الذي سارت بذكره الركبان واشتهر فضله في كل مكان « احمد فارس افندي الشدياق » ... فكسفت لفقده شمس العلوم وخسف بدر المنطوق والمفهوم ودك طود الفضل وهار كوكب النبل ...

جريدة لسان الحال — .... العالم البارع والناظم الناثر ... المخلد الاثر بمنشوراته الذي طار ذكره في الآفاق ، فقد جابت جوائبه الارض وكفى بذلك شاهداً لفضله . وكان للعربية ركناً ولارباب القلم عماداً، عالماً تغني شهرته عن الاطناب وناظماً ناثراً تغني براعته عن الاسهاب ...

جريدة المصباح — ... هو العالم النحرير واللغوي البارع الشهير ذي اليد الطولى في صناعة النظم والنثر ، فارس ميدان البلاغة والبيان وصاحب الجوائب التي جابت البلدان... وكان من ائمة اللغة العربية وفحول كتبتها وشعرائها .

حديقة الاخبار — ... العالم الفاضل العلامة النحرير والشاعر الناثر اللغوي الشهير صاحب الجوائب الغراء والتآليف الفريدة العديدة .

مجلة الانسان —

مضى فارسٌ لو كل من مات مثلهُ غدا الموت في أهل الحياة هو الطلب

... هـــذا جامع المحاسن وفذلكة الاحاسن ومستجمع الفضائل ومستودع الفواصل ومثال العلماء الافاضل ومشكاة البلغاء الاماثل ... هو الحجة العليا في اللغة العربية والمرجع الوحيد في فنون الادب ... والنسخة الكبرى لمكارم الاخلاق ، لطيف المعاشرة انيس المحاضرة حكيم السكوت وقور الكلام متواضع الجانب عميق الفكر قوي الحجة كبير الهمة ثابت الجأش شديد العزيمة عظيم الذاكرة، اذا رأيته رأيت علماً متجسماً ومكارم اخلاق قد حلت فاستحالت انساناً كاملاً، اذا خاطبته خاطبت لغة العرب واذا ذاكرته ذاكرت العصر الثالث عشر احاطة لم تقعد همتــه العالية شيخوخة ولم يضعف نزعته كبر ... كانت حياته من انفس الغنائم واجل الذخائر...

وهذا غير ما نظمه الاستاذ حسن بك حسني صاحب هذه المجلة في رثائه نظير قوله في مطلع قصيدة :

ابكي وان البكا من بعض ما يجب على امام بكاه العلم والادب
ابكي ويحزنني ان لست اذكره الا بكيت المعالي وهي تنتحب

ومنها :

مضى وابقى الثنـــا يتلو مآثره   في ذمة العلم والاعلام يحتسب
مضى وغاية مـــا قلنا نؤرخه   تبكي اجل فارس الآداب والكتب
١٣٠٥ هـ.

مراثي الشعراء

اما الذين رثوه من الشعراء فكثيرون لا يتسع المقام لذكرهم والالماع الى ما نظموه من الدرر الغوالي في رثائه . وحسبنا ان نورد على سبيل المثال بعض ما قاله اشهر هؤلاء الشعراء مما يعد من انفس الشعر وبديع القول :

قال سليمان الصولي من كبار شعراء الشام من قصيدة :

افارس ميدان البلاغة في اللحد   ينوح عليه العلم ام علم المجد

ومنها :

وشاءت تفدّيه الدراري فلم تجد   كواكبها للجوهر الفرد من ندّ

ومنها :

ولولا ابنه ابن المجد ما دام للعلى   عماد بلا دكٍّ وسور بلا هدّ

ومنها :

ولا مات من ابقى لنا الله شبله   سليم سليماً ماجد الخال والجدّ
فتى حليتاه العزم والحزم كاتب   يراعته امضى من الصارم الهندي

وقال العلامة الشاعر الشيخ ابرهيم الاحدب :

راعت بني الآداب منه لوعـــة   توري الاوار وحرقة لا تخمد
قد حل في دار السعادة وقعه   لكن بما قـــد جاء قلّ المسعد

ومنها :

علامة العصر الجديد وان غدا   فينـــا خليقاً فضله المتجدد
نشر العلوم فكان موت يراعه   في روض افنان الفنون يغرد
والشعر اغـــلى سعره ببدائع   تتنزل الشعرى لهـــا والفرقد

ومنها :

والیه لبنان تشوق فاغتدى يدعو بلوعة حرقة تتوقـــد
فاجاب دعوته ليغمد في الثرى نصل لجوهره تدانى العسجد

وقال العالم الشاعر الشيخ قاسم ابي الحسن الكستي البيروتي :

فانت احمد هـــذا العصر فارسه وانت احرزت فيه المجد والادبا

ومنها :

ادرجت في كفن اغناه طيبك عن طيب الحنوط فابدى للنهى عجبا

ومنها :

آثار فضلك في الدنيـــا مخلدة فأشبهت عند من يدري بها الشهبا

وقال العالم السيد عبدالرحمن النحاس نقيب اشراف بيروت :

فهو الذي عمت الدنيا طرائفه وكل فضل بـــه للناس مشهود

وقال الشاعر البليغ ابرهيم بك كرامه :

سألت عن فارس الشدياق حين نأى عنـــا السماء فقالت انه فيها
فقلت قد عاد علم الارض اجمعه الى السماء فقل سبحان معطيها

وله من قصيدة :

فالعصر والفخر والعلياء تندبه والترك والفرس والافرنج والعرب
تبكي اللغات عليه والكلام كما تبكي الكتابة والكتّاب والكتب
صاح الصحاح بوجد والعباب جرى بلوعة وغدا القاموس يضطرب

ومنها :

من ثغره كم جرى درّ ومن يده خير ومن كفه بين الورى ذهب
جابت جوائبه الدنيا على شرف وهذبت كل قوم ما لهم ادب
لقد كفى ربها فخراً فان له اقرّ بالفضل من قالوا ومن كتبوا

ومنها :

وكان لبنان شيخ القطر والده يشكو الفراق ومنه العود يرتقب
فعاد لكنّ مغلول اليدين على صمت باكفانه البيضاء يحتجب

موشحاً بالتقى والفخر تحمـــله سفينة قلبهـــا بالحزن ملتهب
سفينةٌ في بحور الدمع جارية بخارها من لظى الاكباد ينتشب
فشيعوه بتعظيم يليق بـــه الى ضريح سقاه الدمع والسحب
والقلب في حرق واللب في قلق والعين في أرق والصبر منسلب
لو كان يفدى فديناه بانفسنا لكنما الموت لا يفدى ولا يهب
تبكي عليه مدى الايام اعيننا ودمعها بدما الاكباد مختضب
كيف المنية مـــا خافت يراعته وخافه النبل والارماح والقضب
هل كان كشف المخبا غير مكتشف عـــلى خيانتها ام خانه الحجب
وكيف جاسوسه ما كان منتبهاً لها وما جس ما اجرته فاعتجبوا

وقال العلامة الكبير الاستاذ الامير شكيب ارسلان :

تمادت علينـــا بالخطوب الدوامس ليال لها بالمجد عصف الروامس
واصمت رجالاً للزمـــان وانهم لنعم رجال الدهر شم المعاطس
احقاً عباد الله ذا اليوم انـــه وجوماً قد اسودت وجوه المدارس
واصبح مضمار البلاغة خاليـــاً لدن غاب عنه اليوم احمد فارس
هو الفارس السباق في كل حلبة تجمّع فيها كل قرم ممـــارس
اذا صال لم يترك مصالاً لفارس وان قال لم يترك مقالاً لنابس
اقام مناراً هادياً كل حـــائر واوقد ناراً امّهـــا كل قابس
غدا ذكره ملء الزمان ولم تكن لآثاره الايام غير فهـــارس
وشيد للفصحى قصوراً شواهقاً على عفو هاتيك الرسوم الطوامس
لقـد جابت الدنيا جوائبهُ التي بانشائه كانت طراز المجـــالس
تبلج نور الشرق عن وجه سافر بها وتثنى العصر عن عطف مائس

ومنها :

فمن لفصول كان يكسو بيانها من الوشي والديباج ابهى الملابس
وآيات فضل كان يمحو بنورها دجى الشك محو الصبح ليل الحنادس

وقال الاستاذ بشاره الشدياق :

اشعاره سارت تزف الى الملا   مثل الكواكب او كبدر سار
تغني المطالع ان اشاد بنظمها   عن حسن تلحين وصوت هزار

ومنها :

والفارياق وكل تصنيف له   يغني الورى عن نغمة الاوتار
وبمنتهى العجب العجاب لأنه   بحر يفيض الدر كالابحار
لولاه لم يك للجرائد عندنا   شأن وكانت في شفير هار

ومنها

من للمحابر واليراع اذا بدا   قد مات رب بدائع الأبكار
من للعلوم وقد كساها حلة   من سندس التوشيح في الامصار

ومنها

حملوك فوق الفلك يا بحر الحجى   يا ذا المحيط تطوف فوق بحار
نوحوا بني الشدياق فقد كبيركم   من بعـــده يا قلة الأنصار
وابكوا عليه بالدموع تحرقاً   اذ كان فارس ثالث الأقمار

وقال العالم الاستاذ حبيب بك غزاله من كبار ادباء مصر

ربّ النهى فارس الاداب احمدها   من لا يباريه في العرفان من رجل
ذابت قلوب الورى حزناً عليه وقد   سالت غيوث الدما دمعاً من المقل
فاق الانام بانواع الفنون فمن   حماس فخر ومن مدح ومن غزل
جابت جوائبه الافاق وانتشرت   شرقاً وغرباً وان رمت البيان سل

وقال الشاعر العالم الشيخ علي الليثي من كبار شعراء مصر

كانت زواهر فكره عنـــد السرى   نوراً وناراً للسريّ القابس
كشف المخبا واستنار بفكره   سر الليالي في سماء مدارس
وابان جاسوس التفكر والنهى   عن درّ قاموس دنا من لامس
هل غير احمد في ميادين العلا   اجرى اليراع وقال هل من فارس
جابت جوائبه البـــلاد فواصلت   بين المسوس وبين أعظم سائس

واستجمع المجـــد الاثيل ولم يدع لسواه فخراً يزدهي بمجالس
عجباً لفلـــك قله وجرى بـه بين الخضم وبحر علم نفائس

ومنها

وفروق ان لم تبك حر فراقه فالنيل يبكيه بغير تقاعس

وختمها بهذا البيت :

حال المريض سليم اذ قـــد أرخوا فاض المصاب بموت احمد فارس ١٨٨٧

وقال الشاعر الكبير الاستاذ احمد عزت باشا الفاروقي من خاندان العراق من قصيدة

جادت قريحته بكل جمانة أمست تباهي في سناها الجوهرا
بمؤلفات لن ترى عين الورى أمثالها ولو البغاث استنسرا

ومنها

جذب المعـــاني آخذاً بزمامها مثل النياق انوفها طوع البرى
شعر كمبتسم الرياض نفـاسة او كالنسيم لطافة انّى سرى
لم أدر أحسن منظراً ان جئته في بغية أو كان احسن مخبرا
اسفاً على فقدان ذات ما رأت أمثاله عين الوجود ولن ترى
ان كان هذا اليوم أصبح صامتاً فلقد عراه ما عرى الاسكندرا

ومنها

هذي الشهود بدت لنا فهلالهـــا قد سلّ من فوق الخليقة خنجرا
ذبح النفوس بنصلها فجسومهـــا مذخورة «والصيد في جوف الفرا»

ومنها

بمناقب بيض الوجوه انيقة كالروض أو كالورد لما أزهرا
فالمجد بعدك قـد تهدم ركنه وانصاع بعدك وهو منفصم العرى
ما كنت ادري البحر يدفن في الثرى حتى توارت عين ذاتك بالثرى

ومنها

حملته أعناق الرجال تكرما والشعب راح مهللا ومكبراً

تمشي الرجال بنعشه فكأنهم زمر أرادوا يحضرون المحشرا
جئنا به والبحر يرعد مزبداً فكأنه لبس الرداء الاغبرا
او أنه عرف المصاب حقيقة وأصابه ما نابنا فتكدرا
فمشى به الاسطول يذرف دمعه وبجرّ انفاس الدخان تأزرا
أو ما درى البحر الخضم باننا من فوق لجته وضعنا الابحرا
قد ودّ قلب المجد ان يغدو له لحداً اذا كان الضريح المحجرا

وقال الشاعر النجيب محمد بك عفت نجل خليل باشا عفت مدير الدقهلية بمصر :

ألم تعلم بان الفضل اودت به الايام واختل النظام
ومات العلم والشرف المعلّى واحمد فارس الحبر الهمام

ومنها :

مصاب هدَّ اركان المعالي وهابته الفلاسفة العظام

ومنها :

فكيف يغيب بدرك عن بلاد وكنت ضياءها وهي الظلام

ومنها :

وكم بيت من الشعر كسحر حلال بل هو البيت الحرام
اذاع بعلمه سر الليالي ففي وجه الدجى انحط اللثام

ومنها :

وما الجاسوس في خوض المعاني سوى ملك له جيش لهام
الا يا فارس البلغاء ولّت بك الآداب والهمم الجسام
فتبكيك المحافل كل وقت وتندبك العواصم والشآم
فهمّك كان في شرف وعلم وهمّ الغير كأس او طعام

وقال العلامة الشيخ يوسف الاسير من كبار علماء سورية :

معارفه شتى ومن كان مثله يعز علينا ان يموت ويصعب

ومنها :

فضائله جاءت فما انا محصياً ... جميع مزاياه ولو كنت اطنب
فألف كتباً نافعات عزيزة ... وكم فائدات عنه تروى وتكتب
فقد انبأتنا عن عزازة فضله ... وفي مثلها الامثال للناس تضرب

ومنها :

بنى لبني الشدياق مجداً مخلداً ... ولم ينس من قد كان من قبل يصحب

وقال العلامة الشيخ عمر بن ابي بكر من اقطاب حكومة تونس وعظمائها :

يا مقلتي افلا تنعين من جفلا ... بدر جلا وعلا بالشرق قد افلا
شد الرحال وآلى واستحال ولم ... يعط السؤال ووالى البيد والسبلا
اصبحت والقوم قد واروا مؤرخهم ... صلداً فلم استطع افضي به املا
١٣٠٥ هـ

وقال العالم الشيخ احمد الاديب رئيس ادارة اوقاف الحرمين الشريفين في تونس :

يا قبر واريت امرءاً شيدت به ... للعلم ابنية اكتفاء اليائس
من طيب كل مؤلف طابت به ... اركان ناد او شروط مدارس

ومنها :

ان جزتما يا صاحبيّ بقبره ... بالشام فاقتبلا برأس ناكس
واسترجعا متأدبين وارخا ... مات النبيه القوم احمد فارس
١٣٠٥ هـ

وقال العالم الشاعر فيليب نصرالله طرازي :

فقت الاوائل والاواخر شهرة ... وسموت مقداراً وعشت ممجدا

ومنها :

هو فارس الشدياق بهجة عصره ... من طاب اصلاً في العلوم ومحتدا
عين النباهة والحذاقة والكرا ... مة والفصاحة والحصافة والندى
دار السعادة فجعت لمصابه ... اذ كان للاداب فيها مقصدا

وبكى عليه الشرق دمعاً بل دماً والغرب في حسراته رد الصدى
يبـــكي عليه كل حي ناطق بالضاد اذ كان الامام المفردا
كم من تآليف اجاد بوضعهـــا ومن المآثر والمفاخر جـــددا
جابت جوائبه البلاد بأسرهـــا وغدت لهـــا غرر المعاني سجدا
كشف المخبا عن فنون اوربا في تصنيفه هذا الكتاب الجيدا
سر الليالي بعلمه هو شاهـــد ولحذقه الجاسوس جاء مؤيـــدا
والفارياق صفاته من ذكره تغني وكم انشا وصاغ واوجدا
وكفى به فخراً وعزاً انـــه هو فارس الكتّاب ما طال المدى
هيهات تأتينا الدهور بمثـــله رجلاً بـــه اعتز الزمان واسعدا

ومنها :

هتف الوجوه وارخوه بفـــقده عرش الوجاهة ثل بعدك احمدا
١٨٨٧ م

وقال الاستاذ الشيخ نعمان آلوسي زاده من علماء بغداد :

هوى بدرهم من افقـه فتفرقت ايادي سبا تلك العلى والنفائس

ومنها :

نعى فارس الآداب والفضل والنهى ومن قصرت في السبق عنه الفوارس
تبوأ من دست المعالي مكانةً اعادت رؤوس الصيد وهي نواكس
هو الفاضل النحرير والاسد الذي لهيبته ليث الشرى متقـــاعس
فما كل من رام العلى ادرك العلى ولا كل محمول على السرج فارس
واقفر رسم الشعر بعد ازدهائه فما هو بعد اليوم في الناس طامس
بدائع آثار لاحمـــد فارس حوت حكماً لم يحوها ارسطالس

ومنها :

مجالس آداب تقضت بغبطـــة فكيف اغتدت كالطيف تلك المجالس
خوى المجد وانحلت عراه واصبحت معالمـــه قفراً وهنّ عوابس
فيا عجباً كيف احتواه ضريحه وعن فضله ضاق العراق وفارس

ومنها :

فان تخل من علياه فينا مجالس فقد ضمنته في الجنان فرادس

وقال الاستاذ الشيخ يوسف النبهاني رئيس محكمة الجزاء في اللاذقية :

من للسياسة في الآفاق ينشرها على الورى ومتى ما شاء يطويها
من للعلوم يرينا سر غامضها وان ابت حكمت اقلامه فيها
من للكتابة تعطيه قيادتها وللخطابة يرقى في مراقيها
من للبراعة ان ضلت جهابذها عن البراعة يهديهم ويهديها
من للعظائم او من للمكارم او من للنسائم تحكيه ويحكيها
من للخلائق او من للحقائق او من للدقائق يبديها ويخفيها
من للمحافل او من للفضائل او من للرسائل ينشيها ويوشيها
من للجرائد او من للمحامد او من للقصائد تقفوه قوافيها
ماتت بميتته تلك الخلال فمذ قد قام ناعيه فينا قام ناعيها
يا سفح لبنان حيتك الصبا وسقى اكنافك الغر ساقي المزن ساريها
ثوى بك الدهر ثاو حين فرقته دار السعادة قد ناحت نواحيها
كل البقاع تمنت ان يكون بها ثواؤه وتقاضته مثاويها
لكنه اختار ارضاً كان منشؤه في حجرها وسقاه الدر ساقيها
كانت تود اشتياقاً لو يواصلها حال الحياة وتفديه باهليها
كانت اذا سمعت اخباره ضحكت وها هي اليوم تبكيه بواكيها
من اول الدهر حتى الآن ما ولدت له شبيهاً وآتيها كماضيها

وقال الاستاذ الكبير يوسف بك آصاف جامع مراثي الفقيد

غصن ذوى من حر انفاس الجوى لما ثوى باللحد شخص الفارس

ومنها :

من عطلت جيد القريض وفاته وكست عرائسه سواد ملابس
وتدكدكت ابياته اسفاً على من شادها من دره بنفائس
واغرورقت عين البلاغة والذكا حزناً على نهج البيان الطامس

ومنها :

يا فارساً كانت مطاياه العـــلى فاعتاض عن صهواتها بروامس

ومنها :

واذا ذكرت بمجلس او منتدى سجد اليراع وقام لاسم الفارس
لا قلّبت من بعد دفنك بالثرى طرباً ولا قلماً يمـــين الدارس

وقالت جريدة اجبسيان غازيت — ضع الكتبة الانكليز ، سكيت وامرسون ووارد زوورث وابكلف وبلويز ، في شخصية واحدة فيمكنك حينئذٍ ان تتصوَّر عظمة هذا الرجل . ولو وُلد فارس الشدياق في اوربا لدفن مع نخبة العظماء ولنُصبت له تماثيل في اكثر مدن بلاده .

مواهبه ونبوغه

كان فارس الشدياق متوسط القامة بيضاوي الوجه عريض الجبين واسع الحدقتين يسبح انساناهما في يمّ من النبوغ، حاد النظر ينم على حذق وفطنة وتوقد ذهن ونشاط عقلي بعيد الغور، كل ذلك تجلّى على اتمه في قلمه المرهف السيال الذي لم ينضب معينه ولم يجف مداده منذ اليوم الذي قطر فيه مداداً على قرطاس الى ان جمدت تلك اليد الفولاذية التي كانت قابضة عليه، وفي مادته المبتكرة الفياضة التي زخر ينبوعها وملأت العالم العربي حكمة ذكّرته بحكمة سليمان وبلاغة هي نهج البلاغة انسته بلاغة قس بن ساعدة وفصاحة هي نبراس الفصاحة ذكرته بفصاحة سحبان .

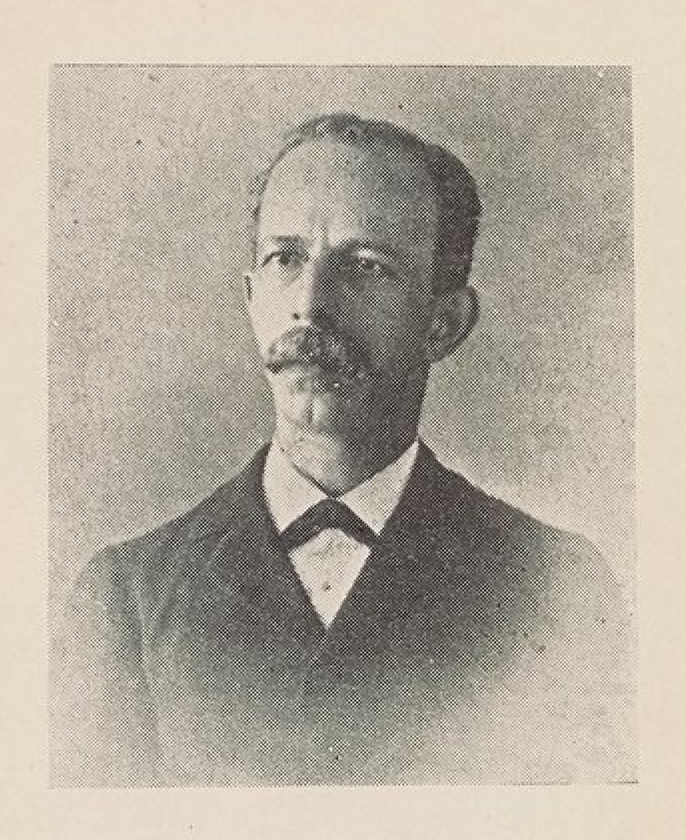
كان شاعراً بفطرته والا لما نظم الشعر وهو دون العاشرة وقد اجاده كما اجاد النثر لانه كان قاموس اللغة وعى الفاظها ومرادفاتها فاذا كتب انقادت له اللغة الفصحى بمبناها ومعناها فيفرغ المعنى في القالب الذي يختاره له بلا تكلف ولا مشقة فتجيء كتابته منسجمة طلية تستهوي النفوس وتستأسر القلوب . وهذا ما يرجع السبب فيه الى توقد ذهنه وفرط ذكائه وقوة ذاكرته وسعة اطلاعه . وكان صريحاً حر الضمير جريئاً في القول والعمل ، وهذا ما يتجلى في كل ما كتبه فلم يكن يحتاط لهفوة يخشى ان يقع فيها ولو ادى به الامر الى اثارة الرأي العام عليه فكان الناس عنده

سواء، يكتب لهم ما شاء لا ما يشاؤون كما يرى مثلاً في فارياقه الذي آخذه كثيرون على بعض ما جاء فيه من العبارات والالفاظ التي اراد بها المجون .

ومما امتازت به كتاباته الانسجام والسلامة والارتباط الوثيق القائم على المنطق فاذا وصف عادة من عادات امة قابلها بما يماثلها من عادات أمة اخرى واتى على وجه الخطأ او الصواب فيها وكيف نشأت وتطورت ولا يلبث ان يرجع الى الموضوع الذي تطرق منه الى ذكرها باسلوب طلي جذاب يستهوي القارىء الى متابعة الكلام للنهاية .

ومن خصائصه انـه مغال يسمو بممدوحه الى ارفع منزلة ويهوي بالذي يهجوه الى الدرك الاسفل . وعبارته على بلاغتها ومتانتها سهلة منسجمة وهذه هي الفصاحة بعينها وهو ما يدل على انه كان لا يخفي فكرة تجول في خاطره لانه كان مستقل الرأي ، وهذه ميزة له انفرد بها عن كتاب عصره . كما انه امتاز بما ادخل في كتاباته من الالفاظ اللغوية تعريفاً لمستحدثات لم يعرفها العرب . وهذا له شأنه وقيمته عند أئمة اللغة وعلمائها .

وصفوة ما يقال في فارس الشدياق انه من اكبر علماء الشرق الذين نشأوا في القرن التاسع عشر وهو في اعتبار ائمة اللغة اقدر من عاصره من كتابها وارسخهم قدماً في قواعدها واقدرهم على نفع طلابها بصرف اذهانهم عمّا يعدّ حشواً الى ما يحلو ويصلح من لبابها . وهو من اولئك الرجال الذين لا تسعد حال الامم الا بهم ولا تنهض البـــلاد التي تلتمس الرقي الصحيح من دونهم .



الشيخ ابراهيم اليازجي

١٨٤٧ — ١٩٠٦

يا سمير الكتاب وابن نصيفٍ   اين في لفظك الانيق الصفاءُ
اين ذاك الضياءُ في اللغة الفصحى   اما غاب حين غاب « الضياءُ » ؟
كنتَ للضاد حجةً فتوارت   مذ تواريتَ ، حجة شهباءُ

(شبلي ملاط)

مؤلفاته

سر الليال في القلب والابدال

هو كتاب لغوي سرد فيه مفردات اللغة بحسب الفاظها وشفعها بالالفاظ المقلوبة وفي جملتها المترادفات مستدركاً ما شط عنه قلم صاحب القاموس من الالفاظ والمعاني والامثال. وهو يحتوي ٦٠٠ صفحة. طبعه في الاستانة سنة ١٢٨٤ هـ. وقد جعل هذا الكتاب جزئين ولكنه لم يطبع منه سوى الجزء الاول. وانتقل الجزء الثاني الى حيازة نجله سليم مع ما انتقل اليه من مخطوطات والده.

الساق على الساق في ما هو الفارياق

كتاب ضخم يشتمل على نحو ٨٠٠ صفحة انشأه وهو في اوربا وقد انفتحت له مغالق الحرية على صفحاته، فهو صورة حياته في مراحلها الاولى ومرآة نفسه الثائرة الناقمة على رجال الدين من اجل ما فعلوه بأخيه اسعد، وقد ملأه بالمترادفات على اسلوب بديع نحا فيه نحواً جديداً لم ينسج على منواله احد في العربية (وحذا حذوه فيما بعد الشيخ ابراهيم اليازجي في كتابه «نجعة الرائد» المطبوع في سنة ١٩٠٤ بمصر). وفي هذا الكتاب عبارات والفاظ يؤاخذ عليها، قصد بها المجون ولكنها جاوزت الحدود. وقد طبعه في باريس سنة ١٢٧٠ هـ. و ١٨٥٢ م. والفارياق لفظ مقتطع من اسمه فارس الشدياق.

الجاسوس على القاموس

انشأ هذا الكتاب في الاستانة وهو يقع في نحو ٧٠٠ صفحة ويشتمل على مقدمة و ٢٤ نقداً وخاتمة. عني فيه بنقد «معجم الفيروزبادي» وقابل بين تعريفه لمفردات اللغة واعادتها الى اصولها ودلالتها على معانيها وبين تعريف سواه من منشئي المعجمات العربية الذين هم من اقطاب اللغة وأئمتها نظير

صاحب لسان العرب وصاحب الصحاح ومنشىء المحكم ومؤلف العباب . وقال في نقده هذا انه اكتفى من القلادة بما احاط بالجيد . وفي هذا الكتاب تجلت عبقريته على اتمها في ما بدا للعيان من مقدرته اللغوية العظيمة مما جعله نابغة اللغة ومرجع اوضاعها واصولها ومعين فلسفتها ، وهو مع كل ذلك يعترف بفضل الفيروزبادي عليه وعلى اللغة .

كشف المخبا عن فنون اوربا

كتاب كبير طبعه سنة ١٨٥٤ . وصف فيه سياحته في اوربا واستعرض احوالها متبسطاً في الكلام عن عادات الاوربيين واخلاقهم مع المقارنة بينها وبين اخلاق الشرقيين والمالطيين شافعاً ذلك بتعريف لغاتهم ووصف مجالسهم وآدابهم ، فمدح وقدح وجال وصال مسترسلاً باسلوبه البديع الساحر مما يستهوي القلوب ويخلب الالباب .

الواسطة في معرفة احوال مالطة

وضع هـذا الكتاب سنة ١٨٣٤ وهو في جزيرة مالطة فتكلم عن جغرافيتها وتاريخها ولغات سكانها وعاداتهم واخلاقهم وكل ما يتعلق بحالتهم الاجتماعية والسياسية والادبية .

ترجمة الكتاب المقدس

عني بترجمة الاسفار المقدسة وهو في لندن اجابة لرغبة المرسلين الانجيليين هناك على نحو ما ذكرنا في وصف سيرته ، فجاءت الترجمة دقيقة صحيحة مفرغة في قالب عربي فصيح اتخذها الذين اشتغلوا بعده في ترجمة هذه الاسفار او تعريبها مرجعاً لهم في ضبط مبناها واستيعاب معناها .

اللفيف في كل معنى ظريف

انشأ هذا الكتاب وهو في اوربا وهو ينطوي على نكات لغوية وامثال ادبية وحكم مأثورة وقصص تهذيبية مفرغة في قالب من الفصاحة وحسن الاسلوب ودقة التعبير يأخذ بمجامع القلوب .

غنية الطالب ومنية الراغب

كتاب في علم الصرف والنحو نحا فيه نحواً جديداً جعله في مقام المؤلفات الحسنة الموضوعة في هذا العلم .

السند الراوي في الصرف الفرنساوي

كتاب مدرسي انشأه وهو في باريس لتعليم اللغة الفرنسية ويعدّ من الكتب المدرسية المفيدة . ولو ان صاحبه تعلم هذه اللغة بعد ان جاوز سن الشباب ومضى عليه دور الدرس والتحصيل .

الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية

كتاب مدرسي وضعه بعد ان اتقن اللغة الانكليزية في اوربا وهو سهل المأخذ حسن الاسلوب ويخيل الى من يطالعه انه من وضع واحد من أخص ابناء هذه اللغة وكبار اساتذتها .

منتخبات الجوائب

هو كتاب ينطوي على فصول منتخبة من مجموعة جريدة الجوائب الشهيرة التي انشأها في الاستانة وصرف زهاء ربع قرن في تحريرها . وقد جمع هذا الكتاب نجله سليم فارس وهو في نحو ستة مجلدات .

مخطوطاته

وهناك كتب اخرى مخطوطة لم يتسع له الوقت لطبعها منها : « المرآة في عكس التوراة » وهو سفر ضخم يقع في نحو ٧٠٠ صفحة أفرغه في قالب بديع لم ينسج احد على منواله. وقد شرع في انشائه على اثر ترجمته للتوراة في لندن على ما ذكرناه واتمه في آخر مرحلة من حياته وكان قد اوعز الى نجله ألا يطبعه الا بعد وفاته . وله : « النفائس في انشاء احمد فارس »

و « الروض الناضر في أبيات ونوادر » و « التقنيع في علم البديع » وله ديوان شعر يحوي ٢٢ ألف بيت من الشعر النفيس وقد صححه في سنة ١٨٨٢ . هذا علاوة على نبذة مخطوطة شيقة في الرد على المطران اثناسيوس التونجي في مالطة[1] وفصول ورسائل شتى في الادب منها ما هو محفوظ الى اليوم عند بعض اقاربه وهي مكتوبة بخط جميل يستوقف الابصار . وكلل جهاده الطويل في خدمة اللغة بكتاب مطول عنوانه : « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » وقد قضى في تأليفه أعواماً فجاء سفراً نفيساً طويلاً بلغ عدة مجلدات بحث فيه خصائص الحروف الهجائية عند العرب ونسج في وضعه واسلوبه على منوال لم يسبقه اليه احد من أئمة اللغة . ولكن هذا الكتاب احترق مع ما احترق من مخطوطاته هذه وسواها من الاوراق والمؤلفات التي لم يتصل بنا نبأها على نحو ما ذكرنا في ما تقدم .

على ان فضله على اللغة لم يقف عند هذا الحد بل جاوزه الى خدمتها من ناحية اخرى لها شأنها واهميتها في عالم الادب ، وهي انصرافه الى طبع المخطوطات العربية النادرة في مطبعة الجوائب واذاعتها في العالم العربي وهي مأثرة له تذكر بالشكر والاطراء مع ما يذكر له من الأعمال المجيدة والمآثر الغراء .

---

(١) عرب فارس للانكليز كتاباً يشتمل على صلواتهم وعقائدهم وطبع في مالطة وذهب المطران اثناسيوس التونجي الى بلاد الانكليز فسئل عن تعريب ذلك الكتاب وغيره مما عربه لهم فارس فقال : ان عبارته اسلامية لا تناسب أهل الكنيسة ، ففوضوا اليه النظر في كتاب الصلوات هذا وتصحيحه ، فجعل يبدل الفصيح منه بالركيك القبيح والكلام العربي بالاعجمي وحرّف وصحف وزاد واجحف واوهم القوم انه قد صححه اي تصحيح وقد رد عليه فارس في نبذة أسماها « الدر اللجي في تغليط المطران اثناسيوس التونجي » وذلك في سنة ١٢٦٠ وصدره بقصيدة جاء فيها :

أكل طويل اللحية اليوم عالم ... وكل مشير بالبنان مناظر
وكل امرىء يبري اليراعة كاتب ... وكل فتى يحوي الدفاتر شاعر
أفي كل دهر يهضم الحق هاضم ... وفي كل عصر يكفر الفضل كافر
وفي كل وقت يخذل العلم خاذل ... وفي كل جيل ينصر الجهل ناصر
ألم يخل يوم عن حسود ومفتر ... يطاول أرباب العلى وهو قاصر
يظن المعالي انما طول جبة ... وتوسيع اكمام وعلج يماقر
ويحسب ان الفضل ما شهدت به ... له عجم لم تدر ما هو هاذر

أولاده

وقد خلف فارس ثلاثة أولاد : سليم ولد سنة ١٨٢٦ في القاهرة وتوفي سنة ١٩٠٦ في لندره . وفايز ولد سنة ١٨٢٨ في القاهرة وتوفي سنة ١٨٥٦ في الاستانة واسعد ولد سنة ١٨٥٠ وتوفي سنة ١٨٥١ في ضواحي لندره وقد رثاه والده بقصيدة عصماء مؤلفة من ٧٢ بيتاً قال في مطلعها :

الدمع بعدك ما ذكرتك جار   والذكر ما واراك ترب دار

سليم فارس الشدياق

أما سليم فهو بكر اولاده وساعده الايمن عاونه عدة سنين في تحرير الجوائب ثم استقل بتحريرها تحت اشرافه إلى ان قضت الظروف السياسية بتعطيلها سنة ١٨٨٤ .

وسليم كان قطباً من أقطاب السياسة العثمانية ومستودع اسرار المابين واحد رجال توركيا الفتاة ومن واضعي القانون الاساسي الذي اقترحه مدحت باشا الملقب بأبي الاحرار في عهد السلطان عبد الحميد ، ومن اكبر انصار السلطان مراد واعوان صاحبي السمو اسمعيل باشا ونجله توفيق باشا الخديويين الاسبقين ، عالم كبير وكاتب متفنن مجيد وله في الجوائب جولات سياسية واجتماعية كان لها صدى عظيم في عـــالم الادب واندية السياسة في الشرق والغرب وخاض غمار السياسة في شئوون الممالك الهامة فاحرز مكانة سامية يحسد عليها .

وقد ظفر بثقة السلطان عبدالحميد فاختصه بالرتبة الأولى المتمايزة ، وجال في عواصم أوربا واتصل باقطابها وحكامها وورث عن ابيه كنوزه وثروته العظيمة مادية كانت او ادبية فكانت له عوناً على الاحتفاظ بمقامه ومكانته الادبية العالية .

ولم يعقب سليم ولداً ذكراً ومات عن بنت وحيدة تسمى روز فآلت اليها

ثروته الطائلة وهي مسلمة ولدت من أم جركسية اقترن بها والدها في الاستانة .

وقد امتازت روز بظرفها وجمالها وتلقت العلوم في كلية روبرت الشهيرة . وفي سنة ١٨٩٦ سافرت الى لندره في صحبة خالتها صفية هانم زوجة والدها الاولى وهي بريطانية الأصل اعتنقت الاسلام وتزوجها سليم . وفي لندره عرفت روز (او كل هانم اي وردة او روز كما كانت تسمى قبل الزواج) الجنرال ليج وهو يومئذ ضابط برتبة يوزباشي في الجيش البريطاني فتزوجته بعد ان اسلم من اجلها وسمي نوري افندي وتولى عقد زواجهما الشيخ عبدالله كويليام الرئيس الديني لمسلمي ليفربول وبذلك انتقلت ثروتها الى زوجها وكان لا يملك شيئاً وولدت له عدة اولاد ذكور اسمت احدهم باسم والدها سليم ، وفي اثناء الحرب العظمى ارتقى زوجها الى رتبة جنرال . والخلاف وقع بينهما يرجع الى عدم سماحها له بالتصرف في الثروة التي ورثتها عن والدها طلقها بحجة انها تأبى ان تتقيد بتقاليد الزوجية التي تخول الرجل الحق في السيطرة على مال زوجته طبقاً للقانون الانكليزي . وكانت في لندره لا تزال تحتفظ بالذخائر الادبية النفيسة المتروكة عن جدها فارس وتأبى التخلي عنها لذويها من آل الشدياق مع ما ابدوا لها من الرغبة في احتيازها لطبعها واذاعة ما احتوته من الدرر الغوالي وهذا ما يبعث على الأسف . ولعل عذرها كان يعود الى شدة حرصها على هذه المخلفات التاريخية وخوفها ان تعبث بها يد الضياع ولاسيما انها مخطوطة بيد جدها نفسه . ولكن ذلك العذر الذي قد تكون انتحلته فيما مضى لا يبرر هذا الاصرار من جانبها على الاحتفاظ بتلك المخلفات ولاسيما وقد ايقنت انها لم تلبث ان تبرز الى عالم المطبوعات بحلة قشيبة ادعى الى تمجيد اسم المؤلف واضافة ركن جديد الى صرح مجده الباذخ وعظمته الخالدة .

مصر في أول مايو (ايار) سنة ١٩٣٤

بولس مسعد

الشيخ ابرهيم اليازجي

بمناسبة وفاة فقيد العلم والادب الشيخ ابرهيم اليازجي اثنت صحيفة « لسان الحال » الغراء على ترجمته وعلى كلمة في وصف مآثره . ولما كانت هذه الترجمة وافية بالمرام اثبتناها بحرفها : قالت اللسان في عددها ٥٢٩٨ ، المؤرخ في ٧ كانون الثاني سنة ١٩٠٧ :

هو ابرهيم بن ناصيف اليازجي اللبناني وُلد في مدينة بيروت في ٢ اذار سنة ١٨٤٧ وبها نشأ وتلقّى العلم عن ابيه وتعلق على اللغة والادب وقال الشعر صبياً ثمّ انصرف عنه . وله ديوان ليس بالكبير غالبه من نظم الشباب وكله من الاقوال التي

انطلقت لم تأوِ بعد انطلاقها　　جداراً معلىً او طرافاً ممددا

ولما اشتهر بهذه المنزلة من الشعر ، كثر تقاضي الناس له النظم في اغراض مختلفة من تهنئةٍ ومدحٍ ورثاءٍ وغير ذلك ، وتواردت عليه رسائل الشعراء حتى وجد ان استمرار تلك الحال سيفضي به الى الانقطاع للشعر واهمال ما سواه فترك النظم بتّةً وعكف على الاشتغال باللغة وسائر فنون الادب والعلوم العقلية . وقرأ مبادىء الفقه الحنفي على المرحوم محيي الدين اليافي من مشاهير ائمة بيروت .

وفي سنة ١٨٧٢ تولى كتابة جريدة « النجاح » فلبث على تحريرها اشهراً ثم انتدبه حضرة المرسلين اليسوعيين في بيروت للاشتغال بتعريب الاسفار المقدسة ، فقضى في هذا العمل مع تصحيح كتب أُخر لهم ، نحواً من تسع سنوات تولى امر التعريب فيها مع احد اكابر علمائهم ، ودرس اللسان العبري بنفسه تلقياً عن الكتب الفرنجية لتطبيق عبارة التعريب على الاصل ، ولذلك جاءت هذه النسخة من اصحّ ما عُرّب الى الآن من نسخ الكتاب فضلاً عما اشتهرت به من فصاحة العبارة وجزالة الاساليب .

وفي سنة ١٨٨٤ شرع في كتابة مجلة « الطبيب » المشهورة بمعاونة اثنين من اصدقائه الاطباء فاصدر منها مجلداً واحداً ثمّ توقف عن اصدارها لما رأى من قلة طلاب البضاعة العلمية لذلك العهد . وكان في سنة ١٨٨٢ قد شرع في تتميم شرح ديوان المتنبي وكان المرحوم والده الشيخ قد علق على بعض ابياته شرحاً موجزاً فعكف على اتمامه باقتراح جماعة من افاضل الادباء حتى اتمّه في مدة اربع سنوات . والشرح مشهور متداول فلا حاجة الى الاطناب في وصفه ، غير اننا لا بدّ ان ننبّه الى امرين قد خلت منهما بقية الشروح احدهما ما اضاف اليه من الشعر الذي يروى للمتنبي مما لم يثبته في ديوانه ، نقله عن متفرقات كتب الادب والتاريخ وهو يزيد على مئة بيتٍ اكثرها مقطعات في وقائع واغراض مختلفة . والثاني ما علقه في آخره من النقد على شعر المتنبي واقوال شرّاحه فيما يبلغ خمسين صفحة كبيرة ، فجاءَ فيه بما لم يكتبه احدٌ قبله نهج فيه منهج الانتقاد العصري في دقة النظر والمبالغة في التحقيق مع التزام النصفة في القول والتجرّد عن التشيّع او التحامل بما عهد في اكثر الناقدين عندنا .

وفي اثناء ذلك اقترح عليه بعض رؤساء المدارس الكبرى في بيروت وضع كتاب في النحو يستوفي فيه قواعد هذا العلم على نمطٍ يوافق حالة العصر ، فعمد الى كتاب والده المسمى « بنار القرى في شرح جوف الفرا » واختصره بحذف كل مـــا يزيد عن حاجة الاستعمال من اللغات المهجورة والمذاهب المرجوحة حتى طبّقه على مقتضى الطلب . ثمّ اتبع هذا الاختصار باختصار كتابه الآخر في الصرف المسمى « بالجمانة في شرح الخزانة » وذلك لانه كره ان يؤلف على تأليف ابيه في هذين العلمين . وشرح كتاباً آخر له في الصرف والنحو كان قد سمّاه « الجوهر الفرد » لبلوغه في الاختصار الى ما لا غاية بعده ، فبسط عبارته باوضح واسهل ما يمكن وسمّاه « مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد » . وله كتاب في اللغة سمّاه « نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد » ذكر فيه اكثر الدائر في الانشاء من الالفاظ والتراكيب المترادفة مما لا يستغني عنه منشىءٌ ولا معرّب ، وقد ظهر قسمٌ منه والقسم الآخر لا بدّ من ان يمثل بالطبع[1] بهمّة وفضل ذويه تكملة لهذه الخدمة

(١) قد طبعته مطبعة القديس بولس في حريصا، سنة ١٩١٣ و١٩١٤، في جزئين طبعاً نظيفاً متقناً

الجليلة ، مع ما ترك من المؤلفات التي لم تزل خطاً كمعجم في اللغة سمّاه « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » نبذ منه كل ما لا يجوز استعماله من الالفاظ الوحشية واللغات المتروكة ، واضاف اليه ، ما عثر عليه من الالفاظ المولدة استخرجها من نحو عشرين الف صفحة من كتب المؤرخين وعلماء الادب ممن يصحّ الاقتداء بهم . وكلٌّ من هذين الكتابين يبلغ نحواً من الف صفحة . وله عدا ذلك رسائل شتى غالبها من الاخوانيات عارض فيها نسق متقدّمي الكتاب مثل الخوارزمي والصابي وهذه الطبقة . طبع بعضها في بعض الكتب المحدثة[1] . وله خطبٌ علمية وادبية منها خطبتان طويلتان القاهما في محفل المدرسة البطريركية في بيروت احداهما في اصل اللغات الساميّة بحث فيها بحثاً تاريخياً ولغوياً فأثبت ان هذه اللغات كلها في الاصالة سواءٌ وانها ترجع جميعاً الى عهدٍ واحد . والثانية في ادب الدارس بعد المدارس ذكر فيها الخطة التي ينبغي لطالب العلم سلوكها بعد خروجه من حلقات الدرس للوصول الى الغاية التي فيها ينتفع بعلمه . وقد طُبعت الأولى في اشهر المجلات العلميّة ، والثانية مرّتين في كرّاسةٍ مستقلة بنفقة المدرسة المشار اليها ووُزعت على تلامذتها وغيرهم ، وتناقلتها كثيرٌ من مجلات البلاد وجرائدها . ومنها خطبة القاها في محفل علمي استدرك فيها على علماء العروض في الوزن المعروف بمخلع البسيط واثبت ان هذا الوزن يرجع الى بحرين مختلفين هما البسيط والمنسرح ، وليس من البسيط خاصة كما هو المتعارف الى هذا اليوم . وقد طُبعت هذه في « النشرة الاسبوعية » .

****

وخلا ما ذُكر من تبحّره في العربية وفنونها فانه من العارفين بالفرنسية والانكليزية وقد اسلفنا انه درس العبرية بنفسه ثمّ جنح الى درس السريانية فادرك من كلتيهما حظاً صالحاً كما يُستدل عليه من مقالته في اللغات الساميّة . وله عدا ذلك مشاركات في العلوم الرياضية والطبيعية ولاسيما علم الهيئة وله فيه مباحث دقيقة اشتهر بها بين ارباب هذا العلم في اوربا واميركا . وقد

(١) طبع هذه الرسائل الكتبي المعروف في مصر يوسف توما البستاني .

انتدبته كلٌّ من الجمعية الفلكية في باريس وفي انفرس والجمعية الفلكية في السلفادور ان ينتظم في عضويتها . ومما ذُكر عنه في ذلك ما عرضه على الجمعية الفلكية في باريس وطُبع في مجلة اعمالها وفي مجلة الكسموس المشهورة ، وقد عرّبته زميلتنا « الاحوال » في عددها الصادر في ١٩ ك ١ سنة ١٨٩٣ . وهذا نصّ ما جاء في الجريدة المذكورة تحت عنوان « مأثرة علمية وطنية » . قالت :

قياس ابعاد النجوم على الطريقة المحدثة . قرأنا تحت هذا العنوان في في مجلة الكسموس العلمية الفرنسية الصادرة بتاريخ ٢ من هذا الشهر الكلام الآتي وهو ولا شك مما يفتخر به وطننا السوري ولذلك احببنا تعريبه ونشره وهو هذا :

قد اشرنا منذ نحو شهرين الى البحث الخطير الذي توصلت اليه المس كلارك بمقابلتها بين مراكز نجوم الثريا واثباتها ان هذه النجوم قد انتقلت عن مراكزها استناداً على رصدين مختلفي التاريخ تتخللها مدة خمس واربعين سنة . وقد ارتأت في ذلك رأياً لا يبعد عن شبه الحقيقة هو ان هذا الانتقال يمكن ان يكون مرئياً فقط مسبباً عن حركة العالم الشمسي في الفضاء . وبما ان الحركة المذكورة ، اي حركة العالم الشمسيّ معلومة السرعة على التقريب فالمسافة التي قطعها في مدة خمس واربعين سنة تكفي لان تُتخذ قاعدةً لبناء زاوية يُقاس بها بُعد هذه النجوم القاصية وهي طريقة يمكن ان تُستخدم في ما يأتي لقياس مسافات كواكب اخرى .

ونزيد الآن انه بينما كانت المس كلارك مهتمة بعرض هذه الطريقة كان عين ما خطر لها قد تمثّل لفكر عالم من ذوي الشهرة الرفيعة هو الشيخ ابرهيم اليازجي من سكان مدينة بيروت ، وقد اثبت ما بدا له من ذلك في فقرةٍ من رسالةٍ عرضها علينا حضرة الاب اغناطيوس الحمصي وهي هذه : (واوردت المجلة صورة الفقرة المشار اليها مكتوبة باللغة الفرنسية ونحن نعرّبها بالحرف) . قالت :

« من المعلوم ان الشمس في اختراقها الفضاء تقطع بنا مسافة تُقدّر بنحو

مئتين واربعين مليون كيلومتر في السنة وهي مسافة تبلغ ما يقرب من اربعة اخماس قطر فلك الارض . وبما ان الشمس مستمرة الاتجاه في خطٍ واحد فان هذه المسافة تزداد في كل سنةٍ ضعفاً آخر بحيث يمكن على توالي السنين ان تمتد الى ما لا نهاية له . واذا كان ذلك افلا يمكن ان يُستخدم فلك الشمس عينه عوض قطر فلك الارض قاعدة لزوايا ابعاد النجوم . فان لم يكن ثمّ ما يعترض صحّة هذا الرأي كان فيه ولا ريب اعظم فائدة لسبر مسافات ابعد الاجرام الغائصة في اعماق الفضاء .

قال : وليست هذه باول مرة اتفق فيها في المباحث العلمية ولاسيما الفلكية منها، توارد عالمين على فكرٍ واحد في آن واحد وان تباعدت مواطنهما بمسافات شاسعة . ولا يخفى ما لمثل هذه الاتفاقات من جليل الوقع بما حدانا على اثبات ما ذُكر ، فضلاً عما في اثباته من فائدة تعزيز هذا الرأي والزيادة في تقريره » انتهى كلام الكسموس .

تلك هي الفقرة التي كان العلامة الفقيد قد بعث بها في رسالةٍ الى المسيو كاميل فلاماريون الفلكي الشهير في باريس بتاريخ ٢٧ تموز من السنة المذكورة .

****

اما الكتب التي تولى تصحيحها وتهذيب عبارتها فكثيرة ، منها الكتاب المشهور في تاريخ بابل واشور . تأليف جميل افندي مدوّر ، فانه بيّضه بقلمه وافرغه في قالب لفظه واسلوبه فجاء من ابلغ ما كُتب في هذا العصر وافصحه عبارة . ومنها كتاب عقود الدرر في شرح شواهد المختصر للمعلم شاهين افندي عطيه وضعه في شرح الشواهد الشعرية الواردة في مختصر كتاب نار القرى المشار اليه قبيل هذا في علم النحو . وله عليه تذييل لطيف في تحقيق رواية بعض الابيات ومعاني بعضها مما يوقف عليه في محله[1] . ومنها غير ذلك مما لا نطيل باستقصائه .

---

(١) ومنها الكتاب المسمَّى بدليل الهائم في صناعة الناثر والناظم جمع شاكر البتلوني . وله « تحفة المودود في المقصور والممدود » للعلامة جمال الدين بن مالك الطائي الاندلسي . وهي نسخة خطية درسها وجلاها وصحح روايتها وقدّم لها بكلمة وطبعها في مصر في مطبعة البيان سنة ١٨٩٧ ؛ تقع في ثماني واربعين صفحة كبيرة .

وبقي ذكر ما اثبته من الفوائد اللغوية في مجلة « البيان » تحت عنوان: اللغة والعصر ثمّ في مجلة « الضياء » تحت عنوان : لغة الجرائد ، مما دلّ على احاطته بالفاظ اللغة واحكامها مما انقطع الكلام فيه من اعصارٍ كثيرة وهي متصلة بما سبق له في هذا البحث في مجلة « الطبيب » تحت عنوان : آمالي لغوية .

وبقي ان نذكر ما له من الباع في الصناعة اليدوية مما كان يتعاهده الحين بعد الحين تقصياً من عناء الاشغال العقلية ، منها صناعة التصوير الشمسي والرسم والتصوير بالالوان الزيتية . ومنها صناعة حفر الحروف لصنع الامهات التي تُسبك عليها حروف المطابع .

وقد عُنِيَ باختصار قاعدة الحروف المعروفة الى يومنا هذا تسهيلاً لمعاناة الطباعة وتخفيفاً من كلفتها ، فردَّ عدد الامهات الى خمس ما هي عليه بانه حصرها في نحو ستين اماً حال كون عددها في المألوف لا يقل عن ثلاثمئة .

وقد قضى الفقيد اكثر ايامه في بيروت ولبنان وهو عاكفٌ على الاشتغال والتأليف والتدريس لا يلوي على غير ذلك . وقد نُدب مراراً لان يكون قائمقام على مدينة زحلة من لبنان وكان اكثر اقامته في المدرسة البطريركية وقد تخرّج عليه كثيرون من رجال العصر في العلوم الادبية وغيرها ونال على ذلك الوسام العثماني من سيدنا ومولانا السلطان الاعظم . ونال ايضاً نوط العلوم والفنون من حضرة الملك اوسكار ملك اسوج ونروج وقتئذٍ . وقد اهدى الى المجمع اللغوي الذي عُقد تحت رايته طائفة من كتبه .

وفي سنة ١٨٩٤ سافر الى البلاد الاوربية ثم انقلب الى مصر واقام فيها بين المحابر والاقلام مشتغلاً بالتصنيف والتأليف الى ان ادركته الوفاة . رحمه الله واجزل ثوابه .

مأتمه

احتشد له السراة والاعيان والعلماء والادباء من كل طائفة حتى بلغ ثلاثة الآف او يزيد عدد مشيعي جنازته وكانت محمولة على العربة تجلّلها الازهار مجموعة اكلّة من الاصدقاء والمعارف وكثيرٌ ما هم ، تجرّها ستة من جياد الخيل وعلى جانبيها ثمانية من فرسان البوليس ويتقدّمها ستة عشر نفراً منهم ، وتلميذات الراهبات واكليروس الروم الكاثوليك والموارنة وفي مقدّمته السيدان الجليلان المطران سابا والمطران يوسف دريان . وكان بساط الرحمة بايدي كبار الكتّاب السوريين منهم سليمان افندي البستاني والدكتور شبلي افندي شميّل واحمد بك زكي ونعوم بك شقير وجرجي افندي زيدان وغيرهم . وبعد الصلاة عليه نُقلت الجنازة الى الدفن في مصر العتيقة وقد كان المشهد من المشاهد التي قلّما شهدت مثله مصر . ولما كان الوقت يضيق دون وقوف المؤبنين كلهم تقرّر تأجيل ذلك الى يوم الاربعين ، فوقف فقط منهم مؤبناً ، الفضلاء الشيخ رشيد مصوبع وسليمان افندي البستاني وخليل افندي مطران[1] .



(١) سنأتي في ما بعد على اثبات بعض هذه التآبين .

بدء المناقشة

الشدياق يرثي اليازجي

قد مهدنا لهذه المناقشة العلمية الادبية بين الشيخين الشدياق واليازجي بذكر ترجمتهما . وذكرنا في المقدمة الباعث على نشوبها . ولما توفي الطيب الاثر الشيخ ناصيف اليازجي سنة ١٨٧١(١) ، كتب الشيخ فارس الشدياق هذا المقال مذيلاً بقصيدة رثاه بها (الجوائب ، ١٠ ايار سنة ١٨٧١ ، عدد ٥١٩) قال :

قد كان بيني وبين الشيخ ناصيف اليازجي مودة قديمة كما اشار اليه سليم افندي دياب في صفحة ١٩٢ من الجزء السادس من « الجنان » لاننا كنا جيراناً في ساحل بيروت ، فكان مقرّه في كفرشيما ومقرّي في حارة الحدث . ولما كنت في مالطة جرت بيننا مراسلات ادبية فارسل اليّ قصيدة من الجناس العاطل مطلعها :

لاهل الدهر آمالٌ طوالُ ... واطماعٌ ولو طال المطالُ

وهي مطبوعة في اول جزءٍ من ديوانه صفحة ٢٢ واجابني ايضاً عن قصيدةٍ بابيات مطلعها :

هوىً في القلب يعذب وهو داء ... كذا الدنيا وما فيها رثاء

وهي في صفحة ٢٥ وفيها يقول :

تقطعت الزيارة منك عنا ... الى ان كاد ينقطع الرجاء
ولم يكُ بيننا نارٌ ولكن ... تعرّض بيننا كالنار ماء

---

(١) قد أعجبنا التاريخ الذي نظمه ابراهيم بك كرامه في رثاء الشيخ ناصيف اليازجي ، فننقله عن جريدة الجوائب وهو :

مضى من قد علا علماً وشعراً ... مقاماً لم يصل احدٌ اليه
فطاب كذكره ناصيف أرّخ ... ختاماً رحمة الله عليه

وهو كلامٌ في غاية الرقّة . ثمّ ارسل اليَّ قصيدةً اخرى عنوانها : وقال يعزّي صديقاً له بانسباء له قد توفوا كتب بها اليه في بلاد المغرب :

لا تبكِ ميتاً ولا تفرح بمولودِ فالميت للدود والمولود للدودِ

وهي في صفحة ٢٩ . ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي مع صفاء الحبّ بيننا . ثم بعد ان استقرّ بي المقام بالاستانة العلية ارسل اليَّ كتاباً ذكر فيه انه بلغه ان احد سكان الاستانة يريد ان يطبع مقاماته ولا يكون ذلك على وفق رضاهُ فان في نيته زيادة شيءٍ عليها وتغيير شيءٍ منها ، فاجبته باني استقصيت عن هذه القضية فلم اقف لها على اثر فاذا علمت شيئاً بعد ذلك انهيته اليه واطلعته عليه . وكان اول ما خطر ببالي من من التغيير الذي نواه لفظة الفحطل المذكورة في المقامة الانطاكية صفحة ٢٥٧ بقوله : « ويصبح غاضباً ولا يزال عاتباً يذكّرني زمن الفِحَطْل وينجز الوعد بالمطل » ثم قال في تفسيرها : « هو زمن قبل ان يخلق الناس ويمكن ان يكون المراد به زمن الطوفان لان الفحطل هو المطر الشديد . والمراد انه لا يزال يذكّرها بامور قديمة ، وهو مثل لما تقادم عهده اه »

وهو وهمٌ فان حق اللفظة تقديم الطاء على الحاء قال في القاموس : الفِطَحْل كهزبر : دهر لم يخلق فيه الناس بعد . او زمن نوح عليه السلام . او زمن كانت الحجارة فيه رطاباً . والسيل والتارّ العظيم والضخم من الابل . وقال في الصحاح : الفطحل على وزان الهزبر . زمن لم يخلق الناس فيه بعد . قال الجرميّ : سألت عبيدة عنه فقال : الاعراب تقول انه زمنٌ كانت الحجارة فيه رطبةً وانشد للعجاج .

وقد اتانا زمن الفطحلِ والصخر مبتلٌ كطين الوحلِ

وفطحل بفتح الفاء اسم رجل . وفي بعض نسخ الصحاح :

انك لو عمّرت عمرَ الحسلِ او عمرَ نوح زمن الفطحلِ
والصخر مبتلٌ كطين الوحلِ كنت رهين هرمٍ او قتلِ

واهل بيروت يقولون للرجل المحنّك : فحطل على وزن جعفر وهي ايضاً محرفة . ولا شك في ان قول الشيخ ناصيف في المتن والشرح فحطل

بتقديم الحاء على الطاء هو من غلط الوهم الذي يغتفر للشاعر . وهو كقوله في صفحة ٨١ :

تكثر الخيل في المرابض ان عدت ... ولكن تقلّ عند السباقِ

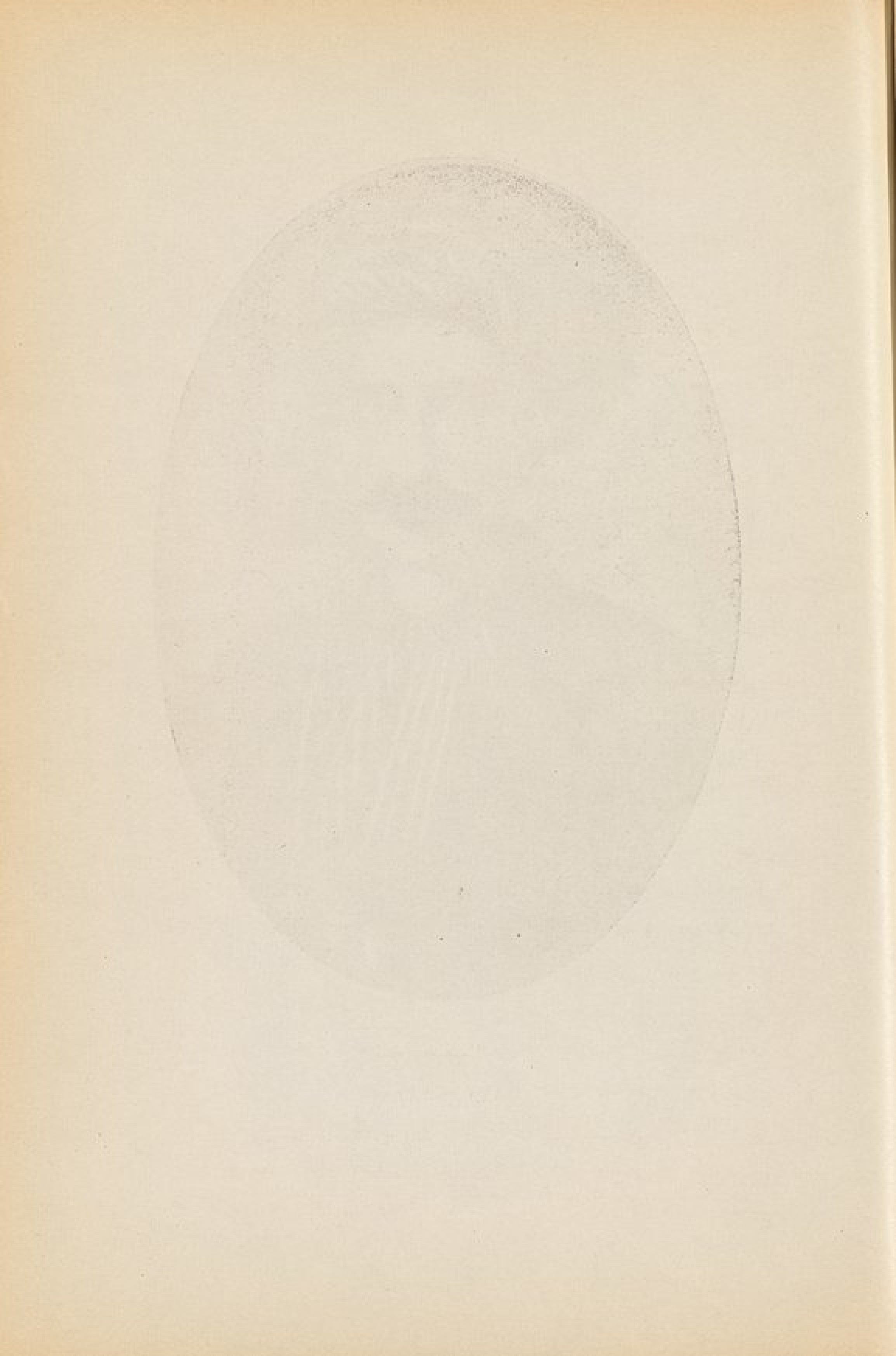
ونحو هذا قول المتنبي :

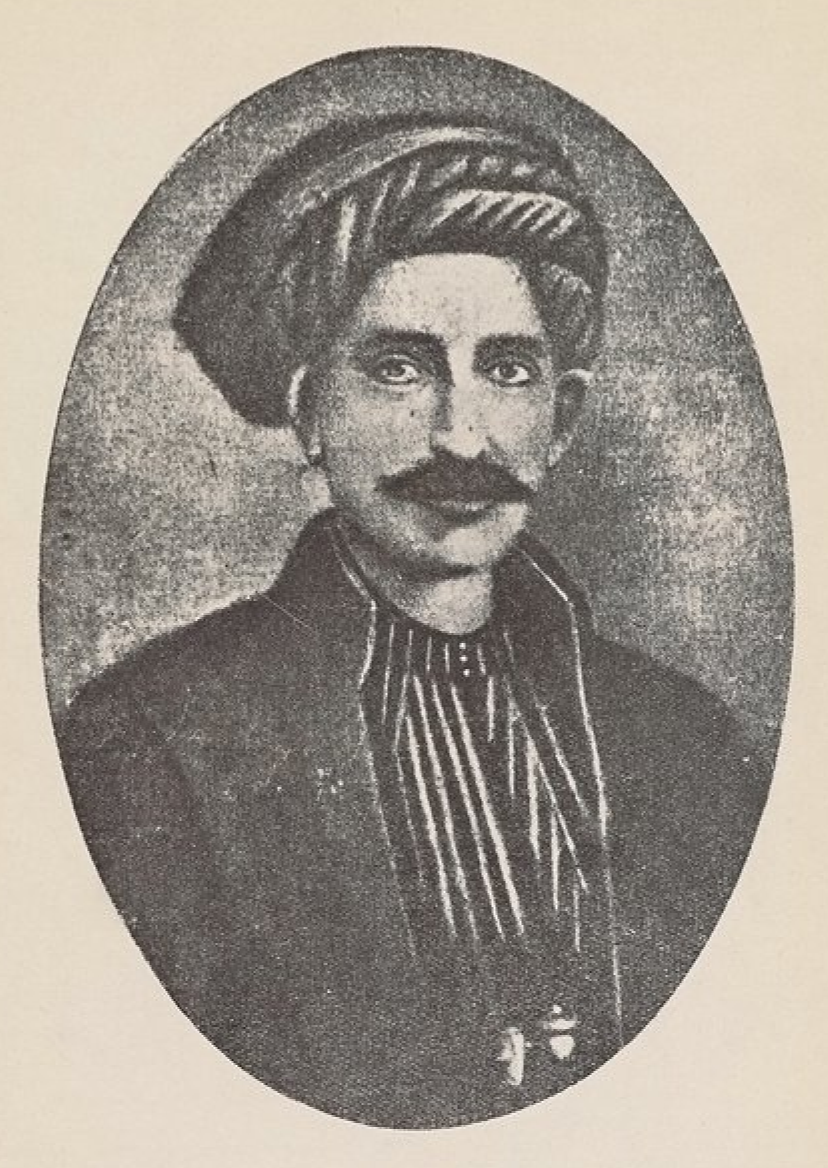
وما الخيل الّا كالصديق قليلةٌ ... وان كثرت في عين من لا يجرّب

وانما المرفوض من الغلط غلط الجهل كقول القائل : يوصف ويوعد في يصف ويعد . فأمّا الغلط الذي يكون من سبق الوهم فلا يخلو منه احد. فان الشيخ ناصيف لم يكن يجهل ان المرابض للغَنَم والمرابط للخيل وانما سبق وهمه الى ابدال الطاء بالضاد . ومن العادة ان الشاعر اذا سبق وهمه الى تحريف لفظة استمرّ عليها ولو كتبها بخطه عدة مرار . وفي الجملة فان الشيخ كان مطبوعاً في الشعر ولم يكن في كلامه تكلف ولا تعسّف ولا تصلف وكان ينحو به منحى المتنبي في ضرب الامثال وله فيه بدائه وبدائع.

وذكر محرّر ترجمته اعني سليم افندي الموما اليه في الصحيفة التي تقدم ذكرها : انه في اواخر ايامه اخذ في نظم قصيدةٍ ليرسلها اليّ وفي اثناء نظمها دهمهُ المصاب العظيم بولده الشيخ حبيب فلم يتمّها . قال واذ وجدتها من القصائد النفيسة احببتُ ذكر ما وقفت عليه منها وهو هذا :

يا سفح نعمان لولا خزر نعمانِ ... لمـــا سقاك زلالاً دمع اجفاني
ولا شجاني حمامٌ ناح فيك علـى ... فراق إلفٍ وجيرانٍ فابكاني
قد علم البين اجفاني البكا فغـدا ... يحلو لها كالكرى في عينِ وسنان
بانت سعاد فبان النوم عن دنفٍ ... يسامر النجم حتى الصبح سهران
ناديتها يوم جدّ البين فالتفتت ... كظبيةٍ جفلت في رمل عسفان
لهـــا من الظبي عيناهُ ولفتته ... ووجه بدرٍ لها لا وجه غزلانِ
كحلاء ما مسّ كحلٌ هدب مقلتها ... ولا تحلّت باصباغٍ والوانِ
قد علّمت شعراء العصر بهجتها ... سبك القوافي على الحان عيدانِ
تداولتها رواة العاشقين لنـــا ... بكل بيتٍ بديع السبك رنّان
يجري بها الركبُ من سهل الى جبل ... جريَ الجوائب في مدنٍ وبلدانِ





الشيخ ناصيف اليازجي

١٨٠٠ — ١٨٧١

مضى من قد علا علماً وشعراً مقاماً لم يصل احدٌ اليه
فطاب كذكره ناصيفُ ارّخ ختاماً رحمةُ الله عليه
(ابراهيم كرامه)

جوائب البيد والابحار واردةٌ عن احمد الفارس المفضال ذي الشان
اكرم بها جنّة طابت فكاهتها نضيرةٌ وجناها حاضرٌ دانِ
جريدة جرّدت اخبار عالمنا عن كل زورٍ واخلالٍ وبهتانِ
لا غرو والحاذق الشهم اللبيب لها على الحقيقة انشا ايَّ بنيانِ
تاجٌ على لغة الاعراب شرّفها وزانها بحلى درٍّ ومرجانِ
قد آنس اليوم دار الملك معتفياً رحيله وحشةٌ في ارض لبنانِ

وقلت ارثيه على ما يوجبه عهد المودة ويقتضيه :

مضى وكلّ قطينٍ بعده فانِ مَن كنتُ في البعد ارعاه ويرعاني
ومن على موته عيني مسهدةٌ ترعى النجوم وليل الهمّ يغشاني
ومن اتانيَ منعاه ولم ارهُ فهاج حزني وانضاني واضناني
يا طور لبنان هل تشجيك اشجاني لفقد إلفٍ عزيزٍ للصبى ثانِ
وهل ذوى منك دوح باسقٌ اسفاً كما ذوى من فؤادي كلّ سلوان
وهل اتاك حديث الاولين مضوا وفخرهم دائمٌ من دون نقصان
امثال فردك ناصيف فهل لك من فقدانه بدلٌ يا فجع فقدانِ
هيهات ليس له ندٌّ فينسينا فرط الحنين اليه بعض نسيان
يا سائلي هل شجا ناعيه ذا شحط ولاع منه فؤاداً لوعة الداني
انظر الى دمعيَ القاني وقس لهباً عليه بين الحشا من نار احزاني
حرٌّ تحرّى حلى الآداب في زمن فيه المآدب تحدو كل انسانِ
فلم يُضع ساعةً من عمره عبثاً ولم يضع قوله في غير احسان
كانت قوافيه تطوي البيد سائرةً سير النجوم فتهدي كلّ حيران
تنزّهت عن عيوب الشعر رائقةً لفظاً ومعنىً هما في الحسن صنوان
كما تساوى لديه من نزاهته مالٌ وعدمٌ هما للحرّ سيّانِ
لو لم تكن درراً ما كان ناظمها فكرٌ لهُ ثاقبٌ في جيد ازمان
له البلاغة مذ عهد الصبى خُلقٌ لم يثنه عنهُ في السبعين من ثان
ما كان يهجو ولا يُهجى ولا حجبت ذكا قريحته احلاك حدثانِ

كانت اسرَّته عنوان نبتـــه على المصافاة في سرٍّ واعلان
وشانئ شانه تهجين ذي شأنٍ لكنه عاش ذا شأنٍ بلا شاني
مضى وفي ثوبه الآداب قد طويت من بعدما نشرت عنه بتبيان
ان الذي انتشرت اشعارهُ حكماً حيٌّ وان درجوهُ ضمن اكفان
ان كنتُ بالغتُ في تأبينه فلكم في مدحه بالغت صحبي واقراني
لا تنكروا فضل ذي فضلٍ لمذهبه وفي «اطلبوا علم اهل الصين» برهاني
واحسرتاه عليه اذ نؤرخــهُ مضى وكل فطينٍ بعدهُ فان

سنة ١٨٧١

وانا بهذا القدر معذور

رد الشيخ ابرهيم اليازجي

لما وقف الشيخ ابرهيم على مقال الشدياق، نشر هذا الردّ (الجنان، ١٥ حزيران، سنة ١٨٧١، الجزء الثاني عشر) قال:

قد ورد في العدد ٥١٩ من «الجوائب» ابيات من محررها احمد فارس افندي الشدياق، يرثي بها، المرحوم ابي، ناصيف اليازجي قد صدَّرها بكلام طويل اشار به الى مودّةٍ قديمة بينهما اوجبت عليه رثاءه. فتمنينا له طول البقاء من بعده. غير اننا وجدنا في اثناء كلامه من الانتقاد عليه، رحمه الله، ما حملنا على الاستغراب والعَجَب. ولقد وددنا ان نحمل كلامه هذا على مقتضيات المودّة كما حمل الرثاء عليها رغبة ان يسلم له الجميل وان كنا لا نجد لذلك وجهاً سديداً.

ولما كان ما اورده من الكلام لا يخلو من مَظنّة جاهل واهم، او من نقد عالمٍ بصير، رأيتُ من باب الوجوب ان اتصدّى لاجابته ردّاً لاوهام الواقفين عليه الى كنه الصواب والحقيقة. على ان تصدّي له هو على غير ما اهوى لِما لا يخفى على اللبيب، فانا على الحالين مدفوعٌ الى ما اكرهه. غير اني آثرت الردّ ولو كرهاً رجاء ان اكون ادنى الى العذر، فقد وقع الواقع ولا عتب على المضطرّ. فاقول:

قد ذكر صاحب «الجوائب» في صدر كلامه مقدّماتٍ اشار بها الى مودّةٍ بينه وبين أبي رحمه الله، كان منشأها الوطن والجيرة، ثم استمرّت بالمراسلات الحبيّة والمطارحات الادبية. والامر كذلك فان ابي بعث اليه بقصيدةٍ عزّاه بها عن انسباء له، مطلعها:

لا تبكِ ميتاً ولا تفرح بمولود   فالميت للدود والمولود للدود

وقد اجابه عنها بما مطلعه:

ما بين يومٍ وليلٍ دهر تنكيد   فما البقاء وان نحرص بمحمودِ

وقد وجدتُ نسخة من الجزء الاول من كتابه الذي يدعوه «سر الليال» بعث بها اليه وعلى ظاهرها بخطّ قلمه :

الى جناب العلامة الفاضل الشيخ ناصيف اليازجي مع سلامٍ من كاتبه احمد فارس — في غرّة ربيع الثاني سنة ٨٥

وقبل وفاته ، عفا الله عنه ، كان قد اخذ في نظم قصيدةٍ ليبعثها اليه فلم تسمح له الظروف باتمامها .

ثم لم تمض ايامٌ حتى توفاه الله عزّ وجلّ الى رحمته فطُبِعَت في ترجمته مع بعض ما نظمه في مدة مرضه. وهي التي ساقت ما ساقت مما تكرّم به صاحبنا مقابلةً لها اذا صرفنا النظر عما يوجبه عهد المودّة ، بيّض الله وجهه .

وقد اشار في اثناء كلامه غير ما ذكرتُ ، الى قصيدتين يقول ان ابي اجابه باحداهما عن قصيدةٍ له وبعث اليه بالاخرى . وبين ذلك مَدح وأثنى وذكَرَهُ بالجميل . ثم استدرك بذكر موجدةٍ قديمة وعتبٍ لعدم تصريحه باسمه في عنوان القصيدة التي عزّاه بها حين طبعها في ديوانه . قال:

« ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي مع صفاء الحب بيننا » .

اقول . والعجب من هذا فانه مع ما عنده من صفاء الحب قد اضمر له ما اضمر الى ما بعد وفاته . ولعل في ذلك سراً يدركه أولو الالباب . ولا ادري ما ضرّه عدم التصريح باسمه وليس في القصيدة مدحٌ له وانما هي حِكَمٌ وامثالٌ يعزّيه بها . ومن الغريب ان امراً كهذا قد اثقل منكبي الامام واقلق وقاره حتى نشره في جريدةٍ سيّارةٍ وألقى به نفير العتاب في الاقطار واعمل الافكار في البحث عن سبب ذلك ، وربما خطر لها ما لا يرضيه ، اصلحه الله وايانا .

ثم استطرد الى ذكر كتابٍ قال ان ابي بعثه اليه في الاستانة يقول فيه : انه بلغه ان احد سكانها يريد طبع مقاماته وان ذلك لا يكون على وفق رضاه ، فان في نيّته زيادة شيءٍ عليها وتغيير شيءٍ منها .

ثمّ قال : « وكان اول مـــا خطر ببالي من التغيير الذي نواه لفظة

الفِحَطْل المذكورة في المقامة الانطاكية » الى آخره .

والظاهر ان هذا هو الذي دعاه الى ذكر الكتاب فجعله تمهيداً لِما نواهُ ، سامحه الله . واعجب كيف لم يدرج هذا في جوابه لهُ حينئذٍ وقد كان المقام اليقَ به من كل الوجوه . وشهد الله اني مذ اليوم لم اكن اتوقَع مثل ذلك من هذا الصديق القديم ، اذ لم يقع بيننا ما يبعث عليه كما تقرّر من كلامه . ولا كان عندي انه ممن يحاول النضال عند مَظَنّة الانفراد وقد كان ما في نفسه ممكناً على وجهٍ اليق واجمل به . وهـذا حَسْبُ اللبيب .

امّا وجهُ الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء منهـا مقدّمة على الطاء في الواقع ، والحق العكس وان يقال الفِطَحْل بتقديم الطاء . وقد اورد على ذلك شواهد وادلّةً من كتب اللغة شهدنا له فيها بالفضل والبراعة

ومن جملة ما اورد من ذلك قال : « وفطحل بفتح الفاء اسم رجل » .

اقول : وقرائن كلامه تقتضي بقاءَ ما سوى الفاء على حاله فيكون مفتوح الطاء ايضاً مع سكون الحاء . ولا وجود لهذه اللفظة على هـذا الوجه اصلاً . قال في القاموس : الفِطَحْل كهِزَبْر ، دهرٌ لم يخلق فيه الناس بعدُ ، او زمن نوح عليه السلام ، او زمن كانت الحجارة فيه رطاباً والسيل والتارّ : العظيم والضخم من الابِل . وكجَعْفَر وقُنْفُذ ، اسم . اه.

ففي قول صاحبنا وهمٌ ظاهر ، او حمل الكلمة على وزن جَعْفَر وفيه سهوٌ . وكان الأولى ان يقيّده بفتح الحاء ايضاً ، او يقتصر على ان يقول بالفتح كما جرى اصطلاح اللُغَويّين ويترك ذكر الفاء التي انما هي زيادةٌ في اللفظ تؤدي الى نقصٍ في المعنى . ويذكر الوجه الثاني ايضاً وهو الضمّ

قلتُ : ومثل هذه الزيادة قوله في كتابه « سر الليال » في صفحة ٣ ، في كلامه عن لغات الاعاجم ، قال : « فما مثَلهن إلا مَثَل الثوب المرقع والوجه القبيح المبرقع » فانه قصَد المبالغة في قبحه فالتوى عليه المعنى وجاء عكس المقصود .

هذا واذا سلّمنا بعدم انثلام عبارته ، او سلّم بصحة انتقادنا ، وثبت على الوجهين ان الكلمة هي بوزن جَعفَر او قُنفُذ ، ورد عليه الاعتراض من وجهٍ آخر وهو ان المقـــام لا يحتمل وزن جعفر ولا قُنفذ ، لوقوع الكلمة في الفاصلة مقابلةً بالمطل ، ولا يخفى ان للفاصلة حكم القافية . على انه لو ترك ايراد هذه اللفظة اصلاً لكان اسلم من الانتقاد . وما ادري ما الذي ساقها وهي اسم رجلٍ لا مدخل لها في المقام البتّة فضلاً عما تقدم

والشيء بالشيء يُذكَر فما مرّ الكلام عليه من الخلل في احكام الفاصلة هو على حدّ قوله في كتابه سرّ الليال المارّ ذكره في الصفحة عينها : « لكنهم عدلوا عن هذه الجادّة الى جادّة اخرى جاهدة » . ومثلهُ قوله بعد ذلك : « فظهرت اسارير حسنها وتباشير فنّها وحكمة وضعها وبهجة مطلعها . » فان الجادة لا توافق جاهدة ، ووضعها لا توافق مطلعها . وانما تكون الجادة بازاء النادّة مثلاً ، وجاهدة بازاء شاردة وهلمّ جرّا .

ومنه قوله ايضاً في اثناء ذلك : « مع ان الجمع في لغة العجم له علامةٌ واحدة واشارة غير شاذّه ولا نادّه وفي النسخة نادره بزيادة رآءٍ بعـــد الدال وهي مختلةٌ لفظاً ومعنىً . وما ادري ايتهما المعوّل عليها عندهُ ، ولعلها الثانية ، كما ان الفِحَطْل بتقديم الحآء عـلى الطآء هي المعوّل عليها عند أبي على رأيه .

وهنا اعجبُ كيف جزم بقوله : « ولا شك في ان قول الشيخ ناصيف في المتن والشرح فحطل ، بتقديم الحآء على الطآء هو من غلط الوهم » . الى آخره . ولو بنى كلامه هذا على الاحتمال لكان أسدّ . على ان غلط الوهم لا يخلو منه احدٌ كما اشار بعد ذلك ، فلا عيب فيه والا فكلّ عـائبٍ معيب . غير انني قد كشفتُ في النسخة الاصلية التي بخطه رحمه الله ، فلم اجد لذلك من اثر ، وانما هو غلطٌ في الطبع من النوع الذي وقع للمولى في ما ذكرتُ . ومنه ابدال البدائع بالمدائع في صحيفة الجوائب المذكورة في العمود الثاني من صفحة ٣ ، وغير ذلك مما لا يخفى عـلى ذي عينين .

وامثال هذا في اكثر الكتب المطبوعة كثيرةٌ قلّ منها ما يخلو من كميّات من الاغلاط التي اخصّها القلب والابدال كما يعلم الاستاذ. فينتبه المؤلف الى بعضها فيُدْرَج تحت اصلاح الغلط كما جرت العادة، ويُغفل عن بعضها فيبقى عرضةً لعبث الناقدين الى ما بعد وفاته.

ومن ذلك قوله: « واهل بيروت يقولون للرجل المحنّك فحطل على وزن جعفر، وهي ايضاً محرّفةٌ »، اقول: وقصده بهذا ظاهرٌ واذا سلم بان اللغة معلقةٌ على موضع الاقامة، فما اخالُ القول بهذا الحكم يرضيه. وهو المخيّر في اثبـــات ما قاله او نقضه، واما حقيقة اللفظة، فالصحيح ان التحريف قد حدث من قِبَله وانما هم يقولون فلانٌ من الفطاحل. بتقديم الطآء على الحآء بخلاف روايته. وهي مسموعة عندهم بصيغة الجمع فقط كما اشرتُ، ولم يجرِ لها على ألسنتهم مفردٌ ولا مثنّى. ولذلك يصعب التسليم بكونها على وزن جعفر او غيره. غـير ان للمولى عذراً بالنظر الى تقادم عهده ببيروت، فربما ورد عليه ذلك من طريق النسيان. والله اعلم.

وأمّا اعتراضه بان المرابض للغنم دون الخيل، فهو وهمٌ. والصحيح انها عامّةٌ تتناول جميع انواع الدابّة كما نصّت علماء اللغة. وهي جمع مربض اسم موضع من الربوض او الرَبْض. والظاهر ان هذا المعنى مأخوذ في الاصـل من الرَبَض بفتحتين وهو الامعاء، او مجتمع الحوايا في البطن. يُستعمل للدابّة لان رَبَضها حينئذٍ يلاصق الارض، فيُقال ربَضَت. وهذا لا يختصّ بدابّة دون اخرى. كما أخذ البروك للابل من البَرْك بالفتح، وهو الصدرُ لانها تبرك على صدورها. ولذلك وُضع في الاصل لها. على انهم تسامحوا في هذا الاخير واشباهه من المختصّات في الاصل فأجروها مجرى المشتركات كما يشهد الاستقراء. ولا يسعنا المقام لايراد شواهد على ذلك من أئمة اللغة وشعرائها فنتخطاه الى ما كنا عليه.

فممّا جآء من النصّ على عموم المرابض في كتب اللغة قول صاحب القاموس ملخّصاً. قال: والربض بالكسر من البقر جماعته حيث تربض — والربض

بالضمّ وبضمّتين ويُفتح ويحرّك ، الزوجة لانها تربّض زوجها — وربضت الشاة ربضاً وربضةً وربوضاً كبركتْ في الابل . قال في تعريف الشاة : والشاة الواحدة من الغنم للذكر والانثى . او يكون من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحُمُر الوحش والمرأة . انتهى — والربّاض ككتان الاسد — وربض الاسد على فريسته والقِرن على قِرنه بَرَكَ — واربض الاناء القوم ارواهم حتى ثقلوا وناموا ممتدّين على الارض . وغير ذلك وكلها بمعنىً

وورد في الصحاح : وربوض الغنم والبقر والمعزى والفرس والكلب ، مثل بروك الابل وجثوم الطير — واربضت الشمس اشتدّ حرّها حتى ربض الظبي والشاة — وقولهم : دعا باناءٍ يُربِض الرهط اي يرويهم حتى يثقلوا فيربضوا .

وقال في المصباح المنير في كتاب الراء : ربضت الدابّة ربضاً من باب ضرب ، وربوضاً وهو مثل بروك الابل . وقال في كتاب الدال : وكل حيوان في الارض دابّة وأمّا تخصيص الفرس والبغل بالدابّة عند الاطلاق فعُرف طارىءٌ . وقال في القاموس : والدابّة ما دبّ من الحيوان وغلب على ما يُركَب .

وقال في الكليّات : الدابّة تقع على كلّ ماشٍ في الارض عامّة ، وعلى الخيل والبغال والحمير خاصّة . انتهى . وهنا اعتبار دقيق لا يخفى على اللبيب . وفي ما اوردناه كفاية ، فقد وضح باجلى بيان واصرح عبارةٍ من كلام اشهر علماء اللغة وائمّتها ان المرابض لا تختصّ بصنفٍ من الدوابّ فضلاً عن ان لا تتعيّن للغنم . فتأمّل .

واما المرابط التي قال انها للخيل على وجه التعيين ، فالصحيح انها مشتركة ايضاً . قال صاحب القاموس : والمِرْبَط كمِنْبَر . ما رُبط بـه الدابّة كالمِرْبَطة وكمَقْعَدٍ ومَنْزِلٍ موضعه . وقد مرّ قُبيل هـذا من عبارة صاحب المصباح وغيرهِ في تفسير الدابّة ما يغني عن التكرار .

وفي الصحاح ربطتُ الشيءَ اربُطهُ واربِطهُ ايضاً عن الاخفش اي شددتهُ . والموضع مَرْبَط ومَرْبِط . يقال . ليس لهُ مربط عنزٍ . وفلانٌ يرتبط كذا رأساً من الدوابّ . ويُقال نعم الربيط ، لما يرتبط من الخيل . انتهى . ولا حاجة الى الاسهاب بايراد غير ما ذُكِر وفي كتب اللغة ما يكفينا ويكفيه .

ومن المستغرَب ان الامام مع طول اشتغالهِ باللغة وحسن نقدهِ فيها ، قد سقط في مثل هذا مما لا يكاد يُصدّق عن مثله . ولهذا يترّجح عندي ان ذلك قد وقع منه من باب التسرّع بان قلمه قد سبق فكره فاثبت ما كتبه قبل الثقة بصحته . وكثيراً ما يقع ذلك للكتّاب فيسقطون في ما لا يُظَنّ انهم يجهلونه .

ومن هذا الباب قوله في كتابه سرّ الليال ، في الصفحة المسمّاة آنفاً : « فلهذا كان اقصى همي ان اغوص في بحر هذه اللغة على دراري اسباب هذه الالفاظ . » الى اخره . فان المراد بالدراري بتخفيف الياء وبعدها همزة ، او بتشديدها بلا همزٍ : الكواكب . ولا يتصوّر الغوص في البحر على الكواكب . والمقام يقتضي الدُرَر وهي اللآلئُ فيستقيم المعنى كما لا يخفى .

وهنا امسك عنان القلم اكتفاءً بما ذُكر عما لم يُذكَر . على انني علّقتُ ما علّقته عن غير اختيارٍ مني كما اشرتُ في ما سبق ، ولكن قد جرى القلم ولعلي في جانب العذر . ولم اتخطّ في الجوائب ما نحن فيه من كلامه ، حاشا الابيات التي رثاه بها فانه لا يليق مقابلتها الا بالقبول . كما انني في ما تداركتُ على سر الليال ، لم اتجاوز الصفحة الواحدة ولم اورد منها إلا ما ساق اليه اسلوب الكلام مما احتمله المقام .

ولا بدّ من ملاحظة ما ذكرهُ صاحب الجوائب مراراً في اثناء انتقاده من الاعتذار عن أبي ، رحمه الله ، في ما احتسبه خطأ منه . وكأني به وراء ذلك يقصد بسط العذر لنفسه ايضاً في وجه مَن ربّما خيّل له الواقع

ان الذمم عنده تموت بموت اصحابها ، والعياذ بالله . وذلك مما تأباه اخلاقه ولا يرضى به من تحلى بشعائر الكرم والشهامة . فانه قد حفظ له ذلك العهد زمناً ينيف عن ستين سنة وبينهما مسافةٌ من الارض . فمن اصعب ما يُخال التسليم بانه قد تنازل الى نكثهِ معه حين اصبح ولا مُطالِبَ بهِ الا امانته وذمته.

هذا ما خطر لي تعليقه من هذا القبيل . واسأل الله ان يوفقنا جميعاً الى سوآء السبيل . وهو حسبُنا ونعم الوكيل .

قالت مجلة « الجنان » في آخر هـذا الردّ : « انتهى رد الشيخ ابرهيم اليازجي . ولا ريب ان اكثر مطالعي « الجنان » يرغبون في الوقوف عـلى هذه المباحثة الادبية المبنية عـلى اساسات الوداد والصداقة ، ولذلك قد عزمنا ان شاء الله على طبع ما ربما يُكتب في هذا الباب من الردّ والاجوبة من الفريقين مما كان خالياً ممـا يتعلق بالشخصيات » .

رد سليم أفندي فارس

(نجل صاحب الجوائب)

لما ارسل الشيخ ابرهيم اليازجي هذا الرد المسطر في الجنان كان صاحب الجوائب غائباً عن الاستانة تبديلاً للهواء وانتجاعاً للعافية ، فكتب ابنه سليم هذه الكلمة (الجوائب في ١٥ تموز سنة ١٨٧١ ، عدد ٥٢٨) قال :

لا يخفى ان سيدي الوالد كان قد رثى المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي بقصيدة بليغة كما في عدد ٥١٩ من الجوائب وصدّرها بمقدّمة اشار فيها الى ما كان بينهما من المكاتبة والمودّة التي اقتضت ان يرثيه . ثم لم تمض علينا ايامٌ الا وقد اطلعنا في جرنال الجنّة المطبوع في بيروت على صورة رسالة ارسلها الخواجه ابرهيم اليازجي ابن الشيخ ناصيف المذكور لتطبع فيه يقول فيها : ان ما صدر من محرر الجوائب مردودٌ من وجوهٍ شتّى (وكأنه عنى بردّها في رأيه . أمّا في الواقع فهي ثابتة) وذكر انه علق عليها رداً قياماً بما عليه من الحقوق نحو والده .

اقول فكما ان على الخواجه المومأ اليه حقوقاً لوالده توجب قيامه في ردّ ما لا يردّ عنه ، فكذلك لوالدي عليّ حقوقٌ تقتضي ان انتدب لذكر ملاحظة نيابةً عنه في مدة غيابه وسيظهر الحق الحكم المنصف ، فاقول : ان ما ذكره سيدي الوالد فيما يتعلق بالمكاتبة التي وقعت بينهما امرٌ ثابت لا يمكن نكرانه لوجود الرسالات التي وردت من الشيخ ناصيف المذكور الى سيدي الوالد ، مع ان الرد الذي طبعه في الجنان كلامٌ لا يصدر ممن له تمكنٌ في الادب بل كله حشوٌ وتخيلات كقوله فيه : « وقد وجدت نسخة من الجزء الاول من كتابه الذي يدعوه سر الليال ، بعث به اليه وعلى ظاهرها بخطّ قلمه : الى جناب العلامة الفاضل الشيخ ناصيف اليازجي مع سلام من كاتبه احمد فارس . فهذه العبارة لا دخل لها في الرد فكأنه اراد بوضعها فيه نفخ بطن جوابه او الاظهار للعامّة بان سيدي الوالد كان قد اتحف والده بالسلام . ويغلب على ظني انه لم يُرِدْ شيئاً منها وانما صار يتكلم بما لا يجدي حين اخذه الغضب ، فعوضاً عن ان يسيّر القلم بما اراد سار به القلم بالتضاد . أمّا ابطال ما اجاب به فسيرى تفصيل ردّه فيما بعد .

ردّ الشدياق على اليازجي

عاد الشدياق من رحلته الى مقرّه في الاستانة ، واعلن فور وصوله (الجوائب ، ٢٣ آب ١٨٧١ ، عدد ٥٣٦) عن الردّ المزمع ان يضمه بما نصه : «في الجوائب الآتية ندرج الرد على الخواجه ابرهيم اليازجي بما لعله يرتدع به عن مزيد المماحكة والافتراء. وان كان له من صحيفة الجنان ظهير» واضيق المجال ارجأه الى عددٍ آخر ، وما لبث ان نشره في العدد ٥٣٨ ، في ٣٠ آب ، تحت هذا العنوان :

(الرد على الخواجه ابرهيم اليازجي)

لا يخفى ان الخواجه ابرهيم اليازجي كان قد كتب في صحيفة الجنان في الجزء الثاني عشر مقالةً خطّأني بها فيما اوردته على لفظة الفحطل والمرابض ، ثم انتقل منها الى تخطئة بعض الفاظ وردت في مقدّمة سر الليال واطال لسانه بالتهكم والتنديد مكافأة لي على كوني رثيت أباه ، وحيث كان وصول مقالته اليّ وانا اطوف في البلاد لتبديل الهواء وكان اعتناءي بصحتي اذ ذاك اوجب عليّ من معارضة السفهاء ، لم يهمني الردّ عليه وتخطئته فيما خطّأني به ، ولاسيما ان تخطئته كانت ظاهرة من عين كلامه لانه كله مبنيٌّ على المغالطة والتمويه وهو صفةُ كثيرٍ من امثاله الذين زبّبوا من قبل ان يحصرموا فاذا قالوا شيئاً فانما يقصدون به اعجابَ جيرانهم ومعارفهم من الاغبياء المسفسفين لا ارضاء العلماء. الا اني لما استقر بي المقام بالاستانة رأيت الجواب عن سفسطة المذكور أولى من السكوت ، لكي يعلم الناس اني لم ازل مراعياً لحقوق العربية التي تقضي عليّ بان اردع كلّ سفيهٍ عنها. فاقول ان قولهُ : « ولا ادري ما ضرّه عدم التصريح باسمه وليس في القصيدة مدحٌ له وانما حِكَمٌ وامثالٌ يعزّيه بها . الخ » محضُ مواربة ، فان اباه صرّح بمدحي في قصيدته الهمزية بقوله :

وربَّ رسالةٍ عذراءَ جاءت ... لها بالمسك ختمٌ وابتداءُ
من اللفظ الفصيح لها خباءٌ ... على المعنى الصريح له بناءُ

لآلىءُ لجّةٍ بيضٌ عليها رجالُ الحيِّ غارت والنساءُ
اذا قلنا اليتيمة كذّبتْنا لها شِيَعٌ تجلّ وانسباءُ
رأيتك ما أنِفتَ لمدح مثلي فذاك عليك من كرمٍ ثناءُ

الى ان يقول :

خلعتَ عليّ فضلاً أدّعيه وحسبي ان مثلك لي جلاءُ

وكذلك صرّح بمدحي في قصيدته العاطلة التي مطلعها :

لاهل الدهر آمالٌ طوالُ ... وكنت قد ذكرت هاتين القصيدتين مع قصيدة التعزية فما باله يقول الآن ، وليس في القصيدة مدح له . فهل ذلك الا من العمى او التعامي .

أما قوله : « الظاهر ان هذا هو الذي دعاه الى ذكر الكتاب فجعله تمهيداً لِما نواه . » فالجواب اني لم أنوِ طعناً في مقامات أبيه . ولو كان في قصدي ذلك لم اقتصر على لفظة الفحطل ، وانما اختصصتها بالذكر لغرابتها . ومن شأن الشاعر اذا تعمّد ايراد لفظةٍ غريبة ان يتروى فيها ولا يوردها مجازفة . اما قوله انها من غلط الطبع فيكذّبه ورود المطل بعدها . فتأمل .

اما قوله : « أما وجه الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء منها مقدّمة على الطاء في الواقع ، والحق العكس وان يقال الفِطَحْل » . فقوله في الواقع ، صوابه في المقامات . فان الواقع هو تقديم الطاء على الحاء . وهنا اطال الكلام هذراً وهذياناً فزعم انه يلزمني ان اقول وَفَطْحَل بفتح الفاء وسكون الطاء وفتح الحاء ، لانه يقول : ان قرائن كلامي تقتضي بقاء ما سوى الفاء على حاله . فالعجب من هــذا التبلتع فانه اذا قال احدٌ وَفَحطل بفتح الفاء لم يفهم منه سوى وزان جعفر ، اذ ليس للرباعي المفتوح الفاء سوى هذا الوزن ، فما موجب هذا الهذيان كله في هذه الكلمة ؟

اما قوله : « ومثل هذه الزيادة قوله في كتاب سر الليال في كلامه عن لغات الاعاجم : فما مثَلُهنّ الا مَثَل الثوب المرقّع والوجه القبيح المبرقع ، فانه قصد المبالغة في قبحه فالتوى عليه المعنى وجاء عكس المقصود» .

فلعمري انه لا يرى في هذا المعنى التواء إلا من التوت نيّته وقصر فهمه وطال لسانه . فان القبيح قد يكون مبرقعاً ، كما ان المبرقع قد يكون قبيحاً فلا تضاد بين هاتين الحالتين . فمن اين جاء الالتواء . وقد قال ابو الطيّب :

قبحاً لوجهك يا زمان فانه وجه له من كل قبحٍ برقعُ

فما الفرق بين الكلامين .

ثم انه بعد ان خلط في فطحل اسم رجل ، انتقل الى الاعتراض على قولي في « سر الليال » لكنهم عدلوا عن هذه الجادة الى جادة اخرى جاهدة. فقال : « ان ذلك لا يجوز في السجع ، وانما تكون الجادّة بازاء النادّة مثلًا ، وجاهدة بازاء شاردة » . والجواب ان انكاره هذا من غير دليلٍ ليس بشيء . وانه كما يصح ان يقال مثلًا ، عظم جدّه وطال جهده كذلك يصحّ ان يقال جادّة وجاهدة . نعم ان الاحسن ان تكون الجادّة مقابلةً للمادّة ، غير ان الاحسن لا ينفي الحسن . كما ان الافصح لا ينفي الفصيح.

وبعدُ فمن اين عَلِمَ اني مقيّدٌ بالسجع في جميع هذه الفِقَر . وقوله : « ان لفظة النادرة مخلة لفظاً ومعنى » . فهذا الاختلال انما نشأ من قصور فهمه . فان المراد بالنادرة هنا معنى الشاذة ، فان صحّت هذه صحّت تلك وإلا فكان يجب عليه ان ينكر الشاذة ايضاً .

وقوله : « ان اهل بيروت لا يستعملون مفرد الفطاحل وانما هي مسموعة عندهم بصيغة الجمع فقط » ، يكذبه ما حرره الفاضل سليم افندي نوفل فانه قال في كتاب ارسله الي من بطرسبرغ : واما لفظة الفطحل فاني وجدتها غير مرّة في رسائل قُسٍ من اهل بيروت يستعملها في محل علّامة او فحل رجال ، بل جعم بها مرة في خطاب القاهُ امام احد الكروش في بيروت.اه.

وما اورده الفاضل الموما اليه كان على سبيل الاتفاق وكان من جملة الالفاظ الحوشية التي وجدها في « الجنان » فانكرها . اما قول اليازجي : ان قصدي بايراد هذه اللفظة ظاهر . فالاظهر ان يقال انه ندب اضرابه من اهل بيروت للتحزّب معه عليّ .

ثمّ انه انتقل الى لفظة المرابض وقال : « ان تخصيصي لها بالغنم وهمٌ ، وان الصحيح انها عامّة تتناول جميع الدابّة لانـه يقال ربضت الدابّة » . والجواب ان كلامه كله في هذه اللفظة خلطٌ في ثلط وخبط في حبط ، لاننا اذا سلمنا باشتراك الفعل لم ينتج منه اشتراك اسم المكان . فان العرب كثيراً ما تفرد اسم المكان بمعنىً مخصوص من معاني الفعل المتعددة وذلك لكثرة استعمالها له . فمن ذلك لفظة المحافل فانها لا تُستعمل عنـد الاطلاق الا بمعنى المجالس التي يحفل فيها القوم اي يجتمعون . مع انه يقال حَفَل الماء واللبن كما يقال حفل القوم ، فان اراد الشاعر الرجوع الى اصل الفعل كان لا بدّ له من التقييد ، كأن يقول مثلاً محافل الماء . وامّا عند الاطلاق فينصرف المعنى الى المجالس . وامثال هذا كثيرة ، ومن هذا القبيل لفظة المرابض . قال في العباب : المرابض للغنم كالمعاطن للابل . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم : صلوا في مرابض الغنم ، ولا تصلوا في اعطان الابل . وقال في لسان العرب : والمرابض للغنم كالمعاطن للابل ، واحدها مربض مثال مجلس . وقال صاحب القاموس : وربضت الشاةُ تربض ربضاً وربضةً وربوضاً وربضةً حسنةً بالكسر ، كبركتْ في الابل ومواضعها مرابض . وقال صاحب الصحاح : والمرابض للغنم كالمعاطن للابل . وقال صاحب المصباح في اول المادة : والمربض وزان مجلس للغنم ، مأواها ليلاً . فانت ترى ان أئمة اللغة خصّوا المرابض بالغنم والمعترض اقتصر على ذكر الفعل مغالطةً وتمويهاً . على انه عين الاعتراض عليه . فقد جاء في لسان العرب : ربض بالمكان يربض اذا لصق به واقام ملازماً . فهل يصحّ عنده اطلاق المرابض على الناس ؟ فان اصرّ على المكابرة والعناد بعد هذا النص الصريح ، فأئمة اللغة في هذا العصر تحكم بيننا .

امّا قوله : « والظاهر ان هذا المعنى (اي الربوض) مأخوذٌ في الاصل من الربض بفتحتين وهو الامعاء ومجتمع الحوايا في البطن ، يستعمل للدابة لان ربضها حينئذ يلاصق الارض فيقال ربضت وهذا لا يختصّ بدابّة دون أخرى » ، فمنتهى التشدّق والتبلتع لانه يقال له اذا كان الربوض من الربض بفتحتين . فمن اين اخذ الربض ؟ بل الاولى ان يقال ان الربض للامعاء من

معنى الملاصقة من قولهم ربض بالمكان اذا لصق به ، كما اشار اليه صاحب لسان العرب . اذ القاعدة ان الاشياء الظاهرة تكون اصلاً للباطنة كما أخذ العقل من عقلت البعير، والحِكمة بالكسر من الحَكَمَة بفتحتين والذكاء لتوقد الذهن من ذكت النار ، ومثله ثقوب الفكر كما اشرت اليه في مقدمة سرّ الليال صفحة ١١ . واصل معنى ربض ربّ ، اي لزم المكان واقام به كأرب . ومثله لبّ وألب ، وهذا المعنى وارد في ربث وربد وربص وربع وربغ . ويقرب منه ربط وربق فتأمّله

ولا عجب من ان هذا المتبلتع يقول مثل هـذا الكلام ، فانه غرّ لم يمارس اللغة ، وانما العجب من كاتب الجنان ان ينشره عنه مع كونه حشر نفسه في عداد المؤلفين في هذه اللغة الشريفة ، وما ذلك الا لان كلام اليازجي اصاب منه موضع جَرَبٍ فحكّه

أمّا اعتراض اليازجي على قولي في مقدّمة سرّ الليال : فلهذا كان اقصى همّي ان اغوص في بحر هذه اللغة على دراري اسباب هذه الالفاظ ، فان الدراري غلط وصوابها الدرر . فالجواب اني ذكرتُ في آخر سرّ الليال اني سأبين الغلط الذي وقع فيـــه في جدول مخصوص بعد ختام الكتاب باسرهِ ، اذ لم تكن لي فرصة لجمع ما كان يُطبع منه . وليكن معلوماً هنا اني كنت أحرّر هذا السفر كما كنتُ أحرّر الجوائب ، اعني صفحةً صفحة ، وكلما نجزت صفحة منه سلمتها الى المرتب فلم تمكني الفرصة من تهذيبه كما اردت ، ولم يكن لي همّ سوى في اظهار اصل معاني الالفاظ على النسق الذي تحريته ، واعظم شاهدٍ عـلى ذلك اني في مقدمة الكتاب المذكور انكرت عـــلى صاحب القاموس خلطه الافعال الرباعيّة والخماسية والسداسية بالفعل الثلاثي ، وكان من قصدي تمييزها عنه فلم يتهيأ لي ذلك لسبب العَجلة .

وبقيَ هنا تنبيه المعترض الى ما ارتكبه من الخطأ ، فمن ذلك قوله في صفحة ٤٠٩[1] : عند مظنّة الانفراد . ضبط الظآء بالفتح وهي مكسورة.

---

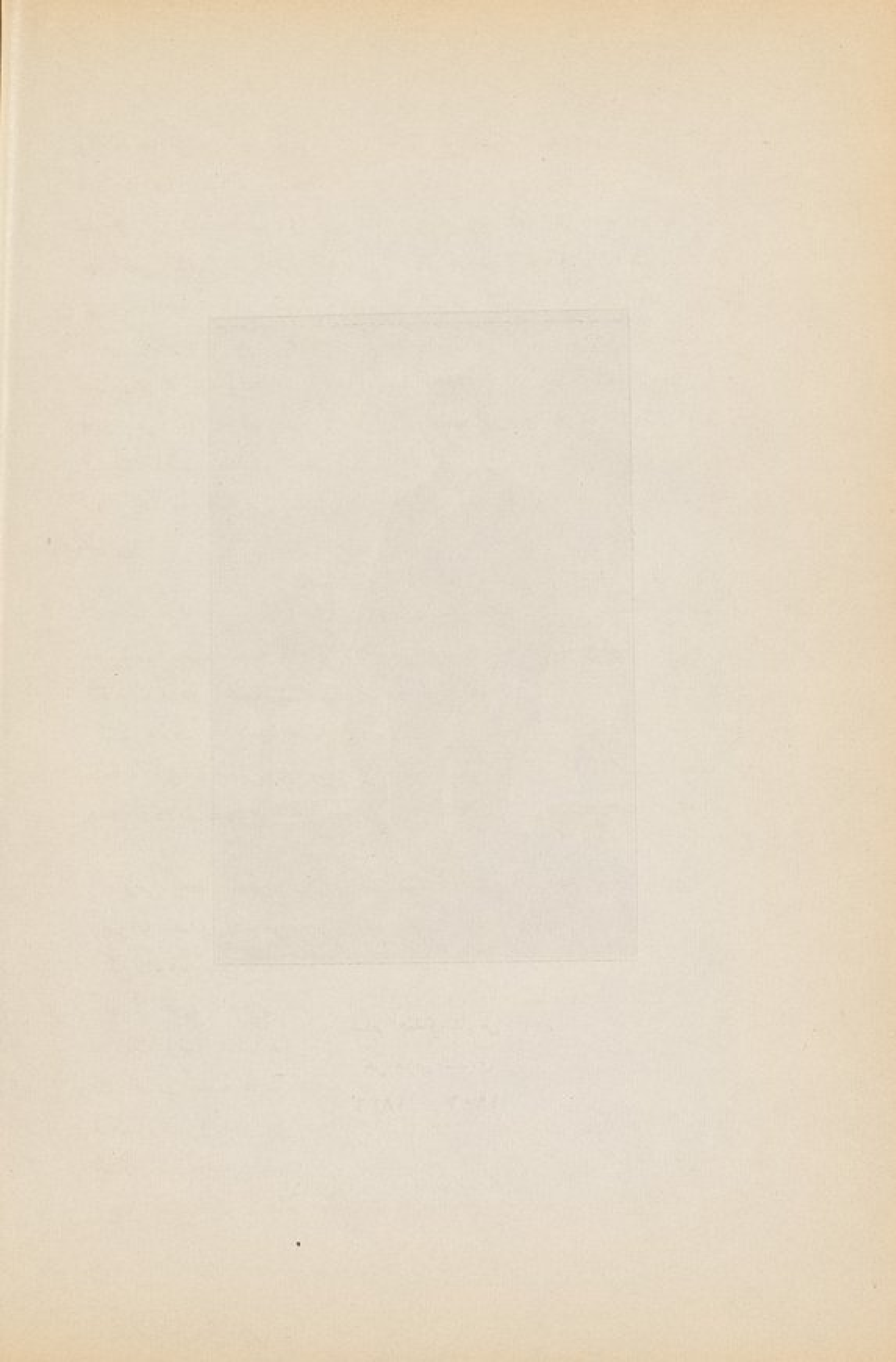
(١) من ردّه في الجنان ، الجزء الثاني عشر .



سليم افندي فارس

نجل فارس الشدياق

١٨٢٦ - ١٩٠٦



وقوله هذا يشير الى اني لم اكن اجسر على تخطئة ابيه وهو في قيد الحياة، فلما ان توفي تصدّيت لتخطئته ، والحال اني لما اوردت الفطحل والمرابط ، نسبتها الى غلط السهو لا الى غلط الجهل ولم اتجاوزهما مخافة ان يُنسب الي نقض الذمم كما ذكر ابنه ، ولو كان قصدي التخطئة لما اقتصرت عليها ، على ان غلط الجهل ايضاً لا ينفي عن الشاعر الشاعرية ، فكم قد رأينا من اناس يجيدون الشعر وهم غير متضلعين من العربية . وكم من علماء متضلعين منها وهم لا يحسنون ان ينظموا بيتاً واحداً . لا جَرم انه ما من شاعر قال شعراً الا وأُخذ عليه . الا ان حسناتهم في ضرب الامثال وجودة السبك اذهبت سيئاتهم ، ولم يلتّ ذلك شيئاً من فضلهم ، وكذلك المؤلفون . فاذا كان هذا المعترض يدّعي بان اباه كان معصوماً من الغلط ، فتلك بدعةٌ شؤمى .

امّا قوله : انه كان يلزمني إشعار ابيه باختلال لفظة الفحطل ، على ما يقتضيه عهد المودة ، فهو لا يلزمني لان لهذه اللفظة اخوات كثيرة في المقامات ، فلو اختصصت منها بالذكر لفظة الفحطل لما كنتُ مصيباً ، ولاني كنت مترقباً اصلاحها منه ، فلما بقيت على الخطأ نبّهت عليها قياماً بحق اللغة ، فاني لا اخشى في حبها لومة لائم . على اني اقول كما قلت آنفاً ، ان هذه الاغلاط مغتفرة بالنظر الى ما في المقامات من جودة السبك والفصاحة .

ومن خطأ المعترض في الرسم قوله : على ان تصدّي ، بتشديد الياء ، وصوابه تصدبي . ومن خطائه في المعنى قوله : وشهد الله اني مذ اليوم لم اكن اتوقع مثل ذلك من هذا الصديق القديم . وصوابه : الى هذا اليوم ، كما لا يخفى . ومن خطائه في اللغة قوله في صفحة ٤١٢ : فانه قد حفظ له ذلك زمناً ينيف عن ستين سنة . والصواب على ستين . ومن ذلك قوله : ان الذّمم عنده تموت بموت اصحابها . ضَبط الذال من الذمم بالضم وهي مكسورة . وأقبح من ذلك قوله في آخر كلامه : امانته وذُمته . ضَبط الذال من ذمته بالضم وهي مكسورة . على ان اجهل العامّة في بيروت وجبل لبنان يقول عند الحَلف : على ذِمّتي بالكسر . ومن ذلك قوله في

صفحة ٤١٠ : على ان غلط الوهم لا يخلو منه أحد كما اشار . والصواب كما اشار اليه .

فمن كان رأس ماله من العربية هـذا المقدار فليسكت والا فليستعن بصاحب « الجنان » على تنقيح كلامه . فأمّا تعقيد كلامه واضطراب عبارته واسهابه في غــير موضع الاسهاب ، فنكلهُ الى من له ذوق سليم وطبع مستقيم ، وانكر من ذلك كله قول صاحب الجنان : « ولذلك قد عزمنا ان شاء الله على طبع ما ربّما يُكتب في هذا الباب من الرد والاجوبة من الفريقين » . وحاصله انه عازم على تشريف صحيفته بكلام اليازجي مرّة أخرى بل مراراً متعدّدة ، لان موضع الجَرَب منه لم يُشفَ بعد . فليعلمن ان المنتصرين للجوائب اكثر من المنتصرين للجنان واليازجي . وان هذه المناقشة لا تلبث ان تغري بعض الادباء بتخطئة مقامات الشيخ ناصيف من اوّلها الى آخرها .

عَجباً لمجترىءٍ عليَّ ومـا له عند البراز سوى عتاد هرائهِ
فكأنه الظربان معتمداً على دفع المُلمّ بـه بريح فسائهِ

ردّ اليازجي على الشدياق

اعلن الشيخ ابرهيم اليازجي ، في الجزء التاسع عشر من مجلة الجنان سنة ١٨٧١ ، التصريح الآتي : « اننا قد وقفنا على رد صاحب الجوائب الوارد في العدد ٥٣٨ منها ، واطلعنا على جميع ما تفضل به . ولما كان عندنا الآن من الاشغال ما هو اهم من هذا الشان لم يتهيأ لنا ان نتفرغ لاجابته في الجزء الحالي من الجنان ، ولذلك لم نجد بدًا من تأخير الردّ الى وقت آخر » .

وقد بدأ بنشر هذا الردّ في الجزء الحادي والعشرين من الجنان وفي ما يليه من الاجزاء : وهذا نصه :

في من هو المعتدي

قد علم الاكثرون ما وقـع بيني وبين احمد افندي فارس الشدياق ، بسبب ما اورده في صحيفة الجوائب من الاعتراض على أبي ، رحمه الله ، في مسئلة الفحطل والمرابض ، وما اجبته به اذ ذاك في الجزء الثاني عشر من صحيفة الجنان . فكأنما أوغر ذلك صدره وكبر عليه امر تخطئتي له في ما اعترض به وتنبيهي على بعض ما رأيته من الخطاء في كتابه سر الليال مما اوردته في ردّي المشار اليه . فاخذ في الوعيد والتنديد مرة بعد الاخرى حتى ورد منه الجواب في العدد ٥٣٨ من صحيفته المذكورة ، واذا به قد عدل الى المسافهة والمهاترة وصرّح بما لا يليق ذكره . فعجبت او ما عجبت من ارتكابه هذه الخطة المنكرة لاننا كنا في اول الامر قـد دخلنا من باب المناظرة الادبية ولم نكن في شيء من قصد المهاجاة والمشاتمة ولا كان عندي انه اذا دعت الحال الى مثل هذا يتنازل الى المواطأة عليه ويرضى به لنفسه .

ولقد كنت احسب ان تمادي الايام قد حان له ان يهذب من اخلاقه ويمكّن عنده أسباب الحلم والدمائة والصبر على المكروه اكثر مما أرى من نفسه هـذه المرّة . فاذا دمه لم يزل على حرارته المعهودة ايام كانت تلك

النار تُقرى بفحم الشباب ، فكأنما كان ثلج المشيب أدعى الى المبالغة في ايقادها فما زاد على ان اثار شواظها فاذا هو هي .

وقد علمتَ انني لم اكن مبادئاً له في هذه المناقشة ولا سبق بيني وبينه عهدٌ في امر من الامور وانما كان هو المتجني المعتدي ، ولاسيما انه ألمّ بابي المرحوم وخطّاه عَبَثاً فلم يكن يسعني والحالة هذه إلا ردّه وفاء بحق من انا مندوب في كل شرعٍ ان ادرأ عنه كل عابثٍ بحقه . وبالتالي اظهاراً للحقيقة التي لا احسب اني اكون معذوراً اذا سكتّ عن ابرازها مع معرفتي لها وعدم تمكني من الاغضاء عنها كما لا يخفى .

وكنت اود لو استمرت هذه المناقشة مجردةً الى البحث في المسائل الادبية والحقائق العلمية دون ما يُسمع كل يوم من غلمان الازقة وسفهاء الناس واجلافهم السفلة . ولو كان في ذلك فضل لكان الفضل لمثل هؤلاء لان فيهم من له اليد الطولى في هذا الباب . ولعمري هذا ما طالما اشرت اليه في ردّي السابق وعرّضت في غير موضع بحب اجتناب هذا الرجل حذر انبعاثه عليّ بمثله سامحه الله . على انه لو شاء ان يقابلني بأحسن منه لكان اقدر عليه وكان اجمل به . وما اخاله يجهل ان من يبذل نفسه في مجال كهذا انما يتعرض لان يشرب بالكأس التي عاطى بها فهل يسوغ عنده ذلك . ولئن ساغ عنده ، ما فعلت ابداً ، وأبى الله ان اجري الا على ما أدّبتُ عليه من الرزانة والنزاهة .

ولعمري ما كنت لاقتحم موقفاً كهذا اكون فيه عرضة لملامة الحليم وهزء السفيه . وبناء على ذلك كان الأولى ان اقتصر عن الاجابة ، لان المناظرة من شرطها التكافؤ بين الجانبين ، ولا تكافؤ بيننا لرجحانه عليّ بهذا المعنى . ولكن لئلا تَتَوَهّم بي ظِنّة القصور لم اجد بداً من ان اجيبه هذه المرّة مقتصراً على ما نحن في شأنه او ما هو من شأننا وأخلصه رداً علمياً كما يليق بالاديب المهذّب ، او بالأولى بالشيخ الكامل وليكن آخر ما يصدر من قِبَلي في هذا الباب . فاقول :

في عدم التصريح باسم الشدياق

مما انكره علي صاحب الجوائب قولي في الرد السابق : ولا ادري ما ضرّه عدم التصريح باسمه وليس في القصيدة مدحٌ له وانما هي حكمٌ وامثال الى آخره . فزعم ان ابي رحمه الله صرّح بمدحه في قصيدته الهمزية والقصيدة العاطلة اللتين ذكرهما قبل قصيدة التعزية هذه واني اغفلتها واقتصرت عليها مواربة وتمويهاً . ولعمري ما اظن احداً له ادنى الهام بفهم المعاني يلتبس عليه مثل هذا ويحتمل عنده نزاعاً . واعجب كيف فاته ادراك ما كتبه بيده حتى جاء الآن بهذا الاعتراض وحاول ان يتعسّف بنفسه وبي الى هذه الغاية . ولا بدّ قبل ان اجيبه عن كلامه هذا ان اورد نصّه الذي نحن في صدده لينظر فيه أولو البصيرة فلعل هناك ما لم اكاشف به من اسرار المعاني . وهو هذا بحروفه قال : « ولما كنت في مالطة جرت بيننا مراسلات ادبية فأرسل اليّ قصيدة من الجناس العاطل مطلعها :

لاهل الدهر آمالٌ طوالُ ... واطماعٌ ولو طال المطالُ

وهي مطبوعة في اول جزءٍ من ديوانه صفحة ٢٢ واجابني ايضاً عن قصيدة بابياتٍ مطلعها :

هوى في القلب يعذبُ وهو داء ... كذا الدنيا وما فيها رياءُ

وهي في صفحة ٢٥ وفيها يقول :

تقطّعت الزيارة منك عنا ... الى ان كاد ينقطع الرجاءُ
ولم يكُ بيننا نارٌ ولكن ... تعرّض بيننا كالنار ماء

وهو كلامٌ في غاية الرقّة . ثم ارسل اليَّ قصيدة اخرى عنوانها : وقال يعزّي صديقاً له بانسباء له قد توفوا ، بعث بها اليه في بلاد المغرب :

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود ... فالميتُ للدود والمولود للدود

وهي في صفحة ٢٩ . ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي مع صفاء الحب بيننا » . انتهى

فقد رأيت انه ذكر القصيدة العاطلة والقصيدة الهمزية ولم يورد هناك ما يُشعر بانه صرح باسمه او لم يصرح به اصلاً حتى انتهى الى قصيدة التعزية فأورد عنوانها ثم قفّى على اثره بالاعتراض . فهل يتأتى والحالة هذه ان يكون المراد بقوله : ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي ، الا العنوان المذكور . وهل الاشارة بذلك الا الى قوله فيه يعزي صديقاً له ؟ فما باله جاء يقول الآن ان ابي صرّح بمدحه في القصيدة الهمزية والقصيدة العاطلة . واين هما مما نحن فيه ؟ وقد اعجبني بعد كل ذلك قوله : « فهل ذلك الا من العمى او التعامي » . فتأمل واحكم والله خير الحاكمين .

في الفاصلة

ثم ما لبث ان كذّب قولي ان الفِحَطْل غلط طبع واستدل على ذلك بورود المطل بعدها يعني وقوع كل واحدة منها فاصلة . فما ادري كيف ورود المطل بعدها اوجب عنده تأخير الطاء كأنه لا يجيز ان تكون احدى الفاصلتين المطل والاخرى الفِطَحْل ، مع ان الفِطَحْل والفِحَطْل على رويٍ واحدٍ ووزنٍ واحدٍ ايضاً ، وماذا عسى ان تقتضي الفاصلة غير ذلك . ولعله يحسب التزام حرفٍ قبل الروي من الامور الواجبة في السجع ولذلك لم يُجز مع المطل الا الفِحَطْل . والصحيح ان ذلك جناس من البديع يسمّونه التزام ما لا يلزم وفي تسميته اكبر دليل . وقد تصفحت في سجعه فلم اجـده يلتزم ذلـك . واذا كان في ريب من علمه ففي القرآن وفي مقامات الحريري وغيرها من افصح الكتب المفصّلة ما يأتيه بالبرهان الفاصل ويتكفل بجلاء المسئلة باوضح بيان .

في الفِطَحْل

ثم اعترض على قولي : أما وجه الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء منها مقدّمة على الطاء في الواقع والحق العكس . الى آخره . قال : « فقوله في الواقع . صوابه في المقامات فان الواقع هو تقديم الطـاء على

الحاء . » انتهى . ولم يبين وجه اعتراضه ولا ادري ما عنّ له . والظاهر من عبارته ، انه توهّم في لفظة الواقع معنى الصواب او الصحيح فانكرها. وحسبك بهذا دليلاً على امعانه في اللغة . لله درّه .

ومن ذلك قوله : « فزعم انه يلزمني ان اقول وَفَطْحَل بفتح الفآء وسكون الطآء وفتح الحآء لانه يقول ان قرائن كلامي تقتضي بقاء ما سوى الفآء على حاله . » الى آخره . قلت وهذا من الغرابة بمكان قصيٍّ ، فانه ينكر عليّ الزامي له ان يقول َفطْحَل على الوجه الذي ذكره ، يعني على وزن جَعْفَر ، مع اني لم ألزمه بهذا الوزن ولا تعرّضت له به ، وانما هو ألزم نفسه به وأورده نقلاً عن الأئمّة وما أظن عربياً ينكره فما باله يتبرّأ منه . وليس مرادي كذلك ، وانما الزمتُه بل ألزم نفسه ان يقول فَطَحْل بفتح الفآء والطآء وسكون الحاء حسب مقتضى نصّه وهو هذا بحروفه : « وقال في الصحاح والفطحل عـــلى وزان هِزَبْر . زمن لم يُخلق فيه الناس بعد . قال الجرميّ : سألت ُعبيدة عنه فقال : الاعراب تقول انه زمن كانت الحجارة فيه رطبة ، وانشد للعجّاج :

وقـــد اتانا زمن الفِطَحْلِ والصخرُ مبتلٌ كطينِ الوحلِ

وفطحل بفتح الفاء اسم رجل » انتهى . فقوله وفَطحل بفتح الفاء بعد ذكر الفِطَحْل على وزان الهِزَبْر اي بفتح الطاء وسكون الحاء يقتضي بقاء الطاء على فتحها والحاء على سكونها ، لانه ضبط الفاء على خصوصها ولم يتعرّض لها ففُهم بقاؤهما على ما كانتا عليه بالضرورة . وهذه قرائن كلامه التي اشرت اليها هناك والامر ظاهر .

ثمّ ما زاد على ان قال : « فانه اذا قال احدٌ وفَطحل بفتح الفاء لم يُفهم منه سوى وزان جعفر اذ ليس للرباعي المفتوح الفاء سوى هـــذا الوزن » . انتهى .

فقد رأيت هنا انه أقرّ بنقص عبارته ووكل تكميلها الى فهم القارىء . وقد ذهب عنه ان من شرط الحدود وما يجري مجراها ان تستوفي جميع

جهاتها ولو كانت معلومة بحيث ينبغي ان تكون مستقلة بمفهومها مع صرف النظر عن كلّ جهة خارجية الا ما جرى عليه الاصطلاح فلا مشاحّة. فهل في عبارته شيء من الامرين ? ولا ريب ان كل انسان انما يطالَب بقدر ما عنده او قدر ما يُري من نفسه. ومثل الامام لا يُسامح بهذا ولاسيما انه قد نصب نفسه نقاداً على اهل العلم وجعل يأخذ عليهم كلّ مأخذ. فكان ينبغي ان يحرّر عبارته ولا يترك عليه سبيلا. على ان انكاره مجيء الرباعي المفتوح الفاء على غير وزن جعفر وهمٌ. فقد جاء الكرَفس والكرَنب وغيرهما على خلاف زعمه. فتأمّل

قلت وورد في هذه العبارة ما يُؤيد دعواي بان الفحطل غلط طبع في المقامات. فقد وقعت لصاحبنا في اثناء ردّه على الوجه عينه اي بتقديم الحاء على الطاء. (انظر الجوائب عدد ٥٣٨ صحيفة ٢ عمود ١ سطر ٧) وهذا من غريب الاتفاق.

ومما طال عنده تعجبي واستغرابي قوله بعد كل ذلك: «ثمّ انه بعد ان خلط في فطحل اسم رجل انتقل الى الاعتراض». الى آخره. فلا جَرم ان قوله هذا مما يقضي له بالبراعة والسبق المبين. فانه اخذ يتخطى ويتمطى ويتلمظ ويتعظعظ ويهيط مرّة ويميط طوراً ويفكر تارة ويقدّر حيناً. ثمّ اخرج الحكم باثبات غلطه، وحسبك باقرار المعترف مغنياً عن البينات. وهو يحسب انه قد خطأني واوقعني في حيص بيص والعياذ بالله من كلّ زلة فاضحة. وقد مرّت بك عبارته التي نقلتُها قبيل هذا حيث يقول: وفَطحل بفتح الفاء اسم رجل. وهي التي جاء الآن يخطئني بها، مع انها عينُ ما خطأته به في ردّي السابق وهي التي جرّت عليه هناك حديث الفاصلة والانتقاد على سرّ الليال وكان لها شأن كبير. ومن كان هذا مقدار فهمه فليقُل ما شآء ولا حَرج. وليته توهم في سائر اغلاطه ما توهّمه هنا فكفاني واياه هذا النزاع الكريه.

في الوجه القبيح المبرقع

ثمّ خطأني في اعتراضي على قوله الوجه القبيح المبرقع . قال : « فان القبيح قد يكون مبرقعاً كما ان المبرقع قد يكون قبيحاً فلا تضاد بين هاتين الحالتين فمن اين جاء الالتواء . وقد قال ابو الطيب :

قبحاً لوجهك يا زمان فانه   وجهٌ له من كل قبحٍ برقعُ

فما الفرق بين الكلامين » . انتهى .

قلت : أمّا قوله ان القبيح قد يكون مبرقعاً والمبرقع قد يكون قبيحاً فلا تضاد بين هاتين الحالتين ، فهو تمويه لا طائل تحته . لانني لم ادخل في مبحث الامكان والامتناع ولا كان اعتراضي من هذه الحيثية . ولكن ما زال هذا دأبه اصلحه الله . فان كلامي كان موجّهاً هناك الى فساد المعنى الذي قصده في نفسه لا الى استحالة الجمع بين الوجه والبرقع . وذلك انه في مقدمة سر الليال لما انتهى الى الكلام عن لغات الاعاجم اخذ يصفهنّ بكل نوعٍ من انواع القباحة وشبّههنّ بالوجه القبيح المبرقع ارادة انهنّ قد بلغن من القبح كلّ غاية . فان كان من لوازم البرقع ان يكون اقبح من الوجه المبرقع به صحّ كلامه واستقام لان ذلك يفيد المعنى زيادة في المبالغة فيكون قد حصل المقصود . والا لزم ان تبقى قباحة الوجه مستورة فلم يبدُ للعين الا البرقع وضاع التشبيه جزافاً .

واما قول ابي الطيب المتنبي الذي اشار اليه وايّد به كلامه فقد اخطأ منه الغرض ، لان المتنبي اراد ان يكون القبح هو عين البرقع على سبيل المبالغة . وهذا هو المعروف عند البديعيين بالتجريد والا فما معنى مِن الداخلة على كل . وهذا هو الفرق بين الكلامين . فتأمل بعينٍ بصيرة

في الخلل في احكام الفاصلة

ثم ما لبث ان انكر عليّ اعتراضي على خلله في احكام الفاصلة ، فزعم

ان انكاري ذلك من غير دليل ليس بشيء ، وانه كما يصح ان يقال مثلاً عظم جدّه وطال جهده كذلك يصح ان يقال جادّه وجاهده . اه.

قلتُ انني لم اورد على ذلك دليلاً لضيق المقام ولظني ان مثل هذا لا يغرب عن علمه الدقيق فكنت اعدّه من غلط السهو . اما الدليل فانه لا بدّ في القوافي المؤسّسة من موافقة بعضها لبعض في التأسيس والاشباع مُطلقاً فحيثما وقع التأسيس وقع القيد هناك من جهة الاشباع ايضاً وهذا النوع هو من ادقّ انواع القوافي . أما التأسيس فهو الف يقع بينها وبين الروي حرفٌ واحد يسمّى بالدخيل كألف جاهده . والاشباع هو حركة الدخيل ككسرة الهاء من جاهِده. وهذه الحركة قد استقصوا فيها حتى انكر اكثرهم الجمع بين الضمّة والكسرة كما في قول الشاعر :

وكنا كغصنَي بانةٍ ليس واحدٌ يزول على الحالات عن رأي واحد
تبدَّل بي خلاً فخاللتُ غيرهُ وخلّيته لما اراد تباعُدي

واما الجمع بين احداهما والفتحة فهو منكرٌ بالاجماع وهو عيبٌ في القافية يعرف بسناد الاشباع كقوله :

يا مَن لهُ النِعم التي بالشكر ليس تُقابَلُ
لم يُعرِضوا جهلاً بها لكنّ ذاك تجاهُلُ

وقول الآخر :

يا نخلُ ذات السرو والجداول تطاوَلي ما شئتِ ان تطاوَلي

ومنشأ هذا السناد انما هو اختلاف هيئة اللفظ بين قافية واخرى ، وقباحته مرتبة على مراتب هذا الاختلاف فكلما بعُد كان مكروهاً ولذلك كان الجمع بين الضمّة والكسرة أيسر منه بين احداهما والفتحة . وانت ترى ان ما بعد ألف التأسيس من قوله جاهِده وهو الهاء مكسور وما بعد ألف التأسيس من قوله جادّه وهو الدال المُدغمة ساكن . فاذا كان الجمع بين حركةٍ واختها قبيحاً مرفوضاً كما علمتَ والحرف مع كلتيهما انما يكون متحركاً فلا يكون الفرق الا من حيثيّة هيئة الحركة فقط . فما

القول فيما اذا وجدت الحركة مرّة وفُقِدت مرّة من اصلها . لا جرَم انه من اقبح العيوب .

وقد ذكرتُ هناك ان الفاصلة حكم القافية فهي تجري مجراها . قال الامام السكاكيّ : السجع في النثر كالقافية في الشعر . وبسط الامام التفتازانيّ في كتابه المطوّل على التلخيص قال : وانما اراد السكاكيّ بالاسجاع حيث قال انما هي في النثر كالقوافي في الشعر الالفاظ المتواطأ عليها في اواخر الفِقر وهي التي يقال لها فواصل . وقال في هذا الباب : (والاسجاع مبنية على سكون الاعجاز) . اي اواخر فواصل القرائن لان الغرض من السجع ان يزاوج بين الفواصل ولا يتمّ ذلك في كل صورة الا بالوقف والبناء على السكون كقولهم : (ما ابعد ما فات وما اقرب ما هو آت) . فانه لو اعتبر الحركة لفات السجع لان التاء من فاتَ مفتوحة ومن آت مكسورة منوّنة . وهذا غير جائزٍ في القوافي ولا وافٍ بالغرض اعني تزاوج الفواصل . الى ان يقول : (ومنه) اي من اللفظي (الموازنة وهي تساوي الفاصلتين .) اي الكلمتين الاخيرتين من الفقرتين او من المصراعين (في الوزن دون التقفية نحو ونمارق مصفوفة وزرابيّ مبثوثة) فلفظا مصفوفة ومبثوثة متساويان في اللفظ لا في التقفية ، لان الاول على الفاء والثاني على الثاء اذ لا عبرة بتاء التأنيث على ما بُيّن في علم القوافي . الى آخر ما قال على هذا النمط . فانت ترى انه في كل هذا قد قرن بين احكام الفواصل واحكام القوافي وراعى هنا ما يُراعى هناك ولاءم بين الجانبين ملاءمة تامة وقاس بين الواحد والآخر ، وبالجملة لم يعتبر الفاصلة الا قافية. وعليه جرى جميع الائمة بلا خلاف . على انك اذا تفرست في السجع لم تجده الا مفرّعاً عن الشعر تفريعاً بان تركوا منه الوزن وابقوا التقفية فاصبح السجع شعراً غير موزونٍ ، والدليل على هذا التفريع ان الشعر شائع مستفيض بين الاعاجم كما هو عند العرب ولا وجود للسجع عندهم فما ظنك به .

***

قال صاحبنا في مقدّمة سر الليال صفحة ٣ : « وللعربية مزايا أخرى فاقت بها غيرها فضلاً وقدراً وشأناً وفخراً ، منها السجع وما ادراك ما السجع كلم متناسقة يعلقها الطبع ويعشقها السمع » . الى ان يقول : « فتلك هي المعجزة التي لا يمكن لاحد من الاعاجم ان يتحداها ، او يقارب حدّ ذراها ، وهي الراح التي تُسكر كل ذي ذوق سليم ، من دون تأثيم . فمن اين لسائر اللغات مثل ما للغة العرب ، وانّها يجاريها في حلبة الادب . وقد فاتها هذا الاسلوب الاشرف ، والنوع الالطف » . الى آخر ما قال .

فاذا ثبت ما تقدم الكلام عليه افلا تكون الفاصلة هي عين القافية وحكمها حكمها ؟ ولقائل هنا ان يعترض بان نحو المادة لا يصح ان يقع قافية فكيف يصح وقوعه فاصلة وهما في حكم واحد ؟ فاقول : ان امتناع وقوعها قافية انما هو وارد من قبيل احكام العروض لا من قبيل احكام القافية ، لان الشعر مقيّد بوزن هي لا تنطبق عليه لاجتماع ساكنين فيها ليس آخرهما آخرها وليس في النثر شيء من ذلك . فتأمل . والاغرب من كل ذلك قوله : « انه كما يصح ان يقال عظم جده وطال جهده ، كذلك يصح ان يقال جاده وجاهده . فما ابعد هذا القياس ! وكأنه اعتبر الاشتقاق بين الجدّ والجادّة والجهد والجاهدة فظنّ ان هذا من ذاك . وليس بشيء لان المسئلة من قبيل علم القافية ولسنا في شيء من امر الصرف . ولعله ذهب وهمه الى ذلك لكثرة اشتغاله بتفريع الالفاظ واشتقاقاتها . وكيفما انقلب الحال فالمسئلة غريبة . لانه ما هي المناسبة بين الجانبين ، واين التأسيس والاشباع في جدهُ وجهدهُ ، وهل فيهما شيء من كل ما ذكرناه ؟ واغرب منه انه اجاز وقوع جدّهُ وجهده فاصلتين مع انه لم يجز وقوع القَطحْل مع المطل كما مر بك . واغرب من الجميع انه جعل كل واحد من حكم الامتناع هناك والجواز هنا حجة في موضعه . فتأمل في كل ذلك وتعجّب .

في السجع

واما قوله : « فمن اين علم اني مقيّد بالسجع في جميع هذه الفِقَر » .

فما ادري أمراده بهذا الانكار انه لم يقصد السجع في شيء منها اصلاً ام سجّع بعضها دون بعض فوقع اعتراضي على غير المسجّع منها ؟ وكيف كان الحال فلا بدّ لي من ان اثقّل على القارىء بايراد جانب كبير من الصفحة التي اخذت منها تلك الفِقَرات يكفي للدلالة على وجود السجع هناك في جميع الفِقَر باسرها . وهذا نصّه على ما أَشرت :

« فما زال المتأخرون يستدركون فيها على المتقدّمين ، والراوون عنها يقولون بالحدس والتخمين . ويجملون في وصفها ويفصلون ، وينطقون بما لا يعلمون . حتى كسوها ثوباً غير ما لاق بها ، وكادوا يحلئون الظامي الى مشربها . ولو انهم قصروا عليها اشتياقهم ، ولم يخلبهم من غيرها ما شاقهم . وتذللوا لها حرصاً على معرفة مكنونها ، وتاقوا اليها كلفاً بادراك شؤونها ، لاطلعتهم على ما عناني اطلاعه ، وشاقني انتجاعه . وهو الوصول الى علم اسرار الفاظها لفظة لفظة ، فحبذا الحظّ ونعم الحظه . لكنهم عدلوا عن هذه الجادّة ، الى جادّة أُخرى جاهده ، ستراً لقصورهم ، وتكفيراً عن عثارهم بعثورهم . فتراهم مثلاً يقولون انّ باع الشيء يأتي بمعنى باعه ، وبمعنى اشتراه . ولم يبينوا لنا سبب هذا ولا اصل معنى البيع ولا مغزاه . ومن دون معرفة السبب ، وادراك الأرب ، لا يلذ للانسان ان يعرف ان لفظة واحدة تأتي لمعنيين متضادين ، ومغزيين متباينين . اذ ظاهر ذلك من دون تعليل ، مخالف للحكمة التي بُنيَ عليها هذا اللسان الاصيل . فلهذا كان اقصى همّتي ، وأوفى حظي وغنمي ، ان اغوص في بحر هذه اللغة الزاخر ، على دراري اسباب هذه الالفاظ المتضادة في الظاهر . فأدنيتها للعيان ، ووشحتُها بالبرهان . فظهرت اسارير حسنها ، وتباشير فنها ، وحكمة وضعها ، وبهجة مطلعها » .

« ثمّ معما ذكرت من الشغف الذي شفّني حباً بهذه اللغة الباهرة ، التي هي وسيلة لجميع علوم الدنيا والآخرة . فان الحق والانصاف قضيا عليّ بان انظر فيما يعترض عليه من اساليبها ، ولا اقول انه من عيوبها . ولكن باعتبار اللغات الاخرى ، يظهر في بادىء الرأي انه لم يكن من النوع

الاخرى ، فمن ذلك الجمع المكسر ، فانه فيها اكثر من ان يُحصر . وربما كان للاسم الواحد عدّة جموع كالناقة والعبد ، مما يقضي بالعناء والجهد . وربما جُهل جمع لفظٍ غريب المبنى او كان لتعريبه قد شذّ وزناً كجمع البك والافندي وموسيو وسنيور ، وغير ذلك مما صار كاللفظ العربي المشهور . مع ان الجمع في لغة العجم له علامة واحدة ، واشارة غير شاذة ولا نادرة . لا تختلف بكثرة حروفها وقلّتها ، ولا بمبناها وصيغتها . ومن ذلك النسبة والتصغير ، فان قواعدهما تفوت ذكر كل ذكير ».

« أما الاشتقاق وسائر الاساليب الاخرى ، فليس لسائر اللغات كما للعربية فمن ينظرهنّ بها فقد جاء نُكرا ، فهي بذلك افضلهنّ ، واشرفهنّ واكملهن. فهنّ الفقيرات وهي الغنيّة ، وهنّ المتشاكسات وهي السويّة . كيف لا وفي غيرها ترى اسم الفاعل من مصدر ، واسم المفعول من آخر . فما مَثَلُهنّ الا مثَل الثوب المرقع ، والوجه القبيح المبرقع . وما مَثل العربية الا مَثل دوحةٍ ذات افنان ، في كل فنٍ منها افنان ».

وهكذا جرى الى آخر ما قال في هذا الصدد معتمداً على السجع في جميع كلامه . ولم يعدل عنه الا عند قوله : له علامة واحدة . واشارة غير شاذة ولا نادرة . فان الفاصلة الاولى على الدال والثانية على الرآء . وما ارتأيته من ان الراء في نادره زيادة من المطبعة . وان الاصل ناده باسقاط الرآء وتشديد الدال حتى تلحق بجادّه وجاهده لم يسلم به فاضرب عنه صفحاً. واذا تقرر ذلك فقد وقع هناك الاكفاء ، وهو ان يُقرن الرويّ بما يقاربه في المخرج كالدال والرآء هنا . وهذا من اقبح عيوب القوافي ، لله دره .

فقد ظهر لك بأجلى بيان انه كان مقيّداً بالسجع وقد تجشّم له اشد النصب كما يظهر مما ارتكبه فيه من الحشو والركاكة والتعقيد في اكثر الفِقر لاجل اقامة الفاصلة . ومن الادلة القاطعة على انه قصده الفصل بين كل فقرةٍ وأُخرى بانه ترك هناك فسحة تُشعر بالوقف . ومنها رسم تاء التأنيث في الفاصلة غير منقّطة كما ترى مما نقلته وقد تحرّيت مطابقته للاصل من جميع الوجوه . وما ارى له بعد كل هذا سبيلاً الى الدعوى بانه لم

يقيّد بالسجع ، او ان فقراته جاءت مسجّعة كلها بغير قصده ولا علمه . وان فعل فتكون المسئلة اغرب .

في عيوب الفاصلة

وعلى فرض ذلك فقد وقع له من عيوب الفاصلة حيث لا تتأتى له هذه الدعوى شيءٌ كثير وذهب في انواع السناد كلّ مذهبٍ . وها انا اورد لك شيئاً من مقاماته الاربع التي ضمّنها كتابه « الساق على الساق » وقد صرّح هناك بما قاساه في تسجيعها من المشقة وانه عارض بها مقامات الحريريّ الى غير ذلك . فما جاء في المقامة الاولى قوله في صفحة ٨٤ : « اذا امتثل خوداً يداعبها وتداعبُه ، هزّته نشوة طرب مال بها سريره ومركبُه » فقد وقع هنا سناد التأسيس وهو التزامه في قوله تداعبه ، وتركه في قوله مركبه . ومثله قوله بعد ذلك في الصفحة عينها : « لما تصوّرت الشخص المتهوّم ، والناعس والمتثائب وانا متناوم » . وفيه ما في الاول . وفي المقامة الثانية قوله في صفحة ٢٣٥ : « ثمّ انّ انين الثكلى ، وقال واني ازيد على ما قاله الالمعة قولا » . وفيه سناد الردف وهو حرف اللين قبل الرويّ فانه مفقود في احدى الفاصلتين ، او موجود في احدى الفاصلتين . وفي الثالثة قوله في صفحة ٤٦٧ : « ثمّ مالت اليّ الثانية عشرة . وكانت قصيرة حادره . تارّةً حارّه » . فقد وقع هنا سنادان احدهما سناد التأسيس بين عشره وما يليها . والثاني سناد الاشباع بين حادره وحارّه على ما مرّ في الجادّه وجاهده . وفي الرابعة قوله في صفحة ٦٠٧ : « وان شاء داعَب ولاعَب . وان ابى الا الجدّ فالجدّ طوع له كما أحبّ » . وفيه سناد التأسيس ايضاً . ولو فرضنا نزع التأسيس من لاعب لم يُؤمن جانب التشديد في احبّ فانها مشدّدة هناك بالرسم ايضاً . ومن هذا الباب قوله في صفحة ٨٨ : « علمت ان قوله هو الاسدّ . وان قول غيره هذيان وفَنَد » بتشديد الدال من الاسدّ والعبارة من المقامة الاولى .

ولا سبيل الى الدعوى بغلط الطبع ، فقد أثبت في آخر كتابه هذا ما

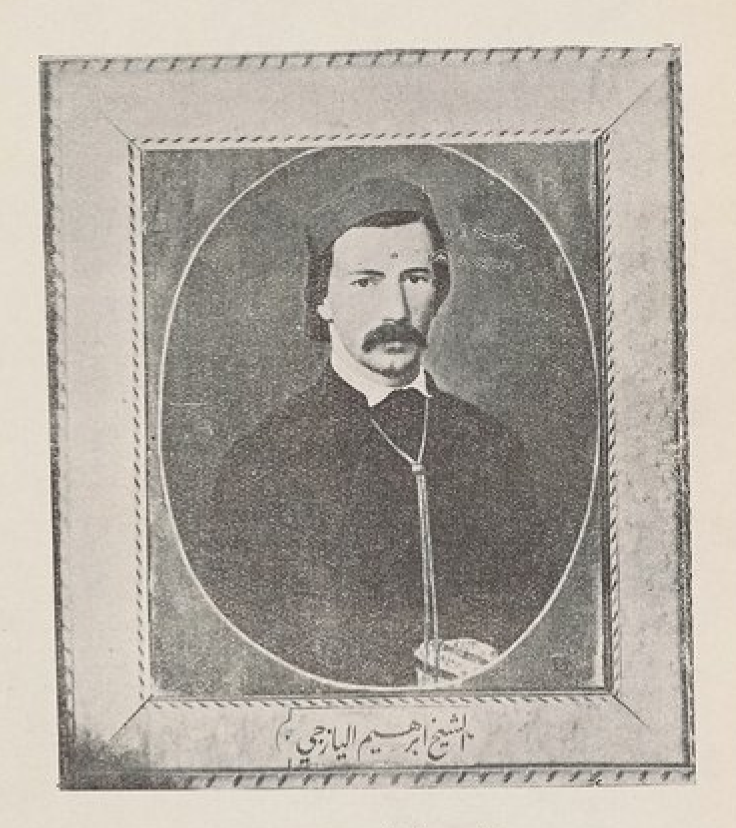
نصه : « من عادة الاساتيذ المزبورين (يريد بعض علماء الاعاجم) ومن اشبههم ممن ألف في العربية شيئاً ان يعتذروا عن اغلاطهم الفاضحة بالتورّك على الطبّاع او على صفّاف الحروف بان يقولوا ان وقوع الغلط انما ينشأ عن جهلهما باللغة . قال وهو عذر اقبح من ذنب : فان الصفّاف كيفما وجّهته اتجه ومهما ترسم له يمتثله . الا ترى ان مسيو بيرو مع كونه لم يعرف من العربية شيئاً فقد امتثل كل ما رسمنا له في كتابنا هذا من التصحيح والتبديل بغاية التأني وبذل مجهوده في صف الحروف وجودة الطبع حتى جاء بحمد الله احسن ما طُبع بلغتنا في البلاد الافرنجية » . اه.

(تنبيه) في مسئلة الدراري . لم يكن القصور من صفَاف الحروف لانه كيفما وجّهته اتّجه ومهما ترسم له يمتثله . فان قيل لك غير ذلك فلا تصدق فانما هو مجرد اعتذار ، وان تقرّر امامك انه عذر اقبح من ذنب

(تنبيه آخر) قد وضع المؤلف لهـــذا الكتاب اصلاح غلط في آخره فاعرف ذلك .

في النثر

قلتُ وربما حملت اغلاطه في المقامات المذكورة على ارتباك القريحة ، لان من عادة الشاعر او الناثر اذا عمد الى شيء من ذلك واكثر فيه العناية َقصْدَ ان يأتي نفيساً جمدت بادرته فجاء متكلفاً بارداً وربما سقط ولم يدر . وقد تقدم ان صاحبنا كان من قصده معارضة الحريري في مقاماته ، ولا يخفى مــا هناك من صعوبة المرتَقَى . فـــلا بأس ان أردف ما اوردته منهـــا بشيءٍ من غيرهـــا مما ثبت عنـــدي قصده التسجيع فيه لتعلم ان كلّ المراقي في جنب همّته سواءٌ . فمن ذلك قوله في صفحة ٤٩ من هـــذا الكتاب : « يتنازعون كأس البحث والمناظره . ويخوضون في امور الدنيا والآخره » . وفيه سناد الاشباع . وفي صفحة ٥٤ : « فان هذه الحالة لا يمكن كونها دائمة . فتكون غبطتها غير تامّة » وفيه ما في الجادّة وجاهده . وفيها : « هذا وان اكله المرازمَه . وثيابه الناعمه »



الشيخ ابراهيم اليازجي

بالزي اللبناني ورسم يده عن المرآة

صان الامام اليازجي امّ اللغى بعميق فكرته وحسن ادائه
سهر الليالي باحثاً ومنقباً وسقى يراعته ذكيّ دمائه
ما راعه جيش الفناء مهاجماً وخلوده « ببيانه وضيائه »

(اديب صعبي)

وفيه سناد الاشباع ايضاً . وفي صفحة ٥٨ : « فانها تغتنم انس زائرها وماله . وتتبّله بحبها حتى يرى ذلهُ فيها عزّاً له » وفيه سناد الردف . وفي صفحة ٣٤٤: « في تحصيل اسباب المعاش ساعون . وفي التظاهر باللباس والزينة معنّـون » وفيه سناد الحَذْو وهو حركة ما قبل الردف . وفيها : « ذوي طلعـــة ناضره . وشمائل سارّه » وهو لاحقٌ بالجادّه وجاهده . وفي صفحة ٣٥٧ : « لكلّ منهم من العناء والجهد واللوعه . ما يكفيه وآخرين مَعـه » وفيه سناد الردف . واجتزىء بهذا عن غيره من هذا القبيل مما لو وسعني المقام لاتيت منه بما لا يحصى .

في مفرد الفطاحل

ثم اخذ فعارضني في قولي ان اهل بيروت لا يستعملون مفرد الفطاحل واستشهد بما اورده له سليم افندي نوفل في كتابٍ ارسله اليه من بطرسبوغ من انه وجدها غير مرّة في رسائل قسٍّ من اهل بيروت الى آخر مـــا روى عنه .

قلتُ ان صاحب الجوائب في اثناء ما اورده في اعتراضه على الفِحَطْل قال : « واهل بيروت يقولون للرجل المحنّك فحطل عـــلى وزن جعفر » واوردها هناك بتقديم الحاء على الطاء او بتأخير الطاء على الحاء . والذي رواه الآن عن سليم افندي نوفل عكس ذلـك . فحكاية الافندي المشار اليه اولى ان تكون تخطئةً له من ان تؤيد كلامه . وهنا ايضاً صحّح اعتراضي عليه بالتحريف على ما ذكرت في الردّ السابق . ولا يخفى ان قصده بايرادها هناك التعريض بان ابي رحمه الله ، انما ذكرها في المقامات على وجهها في نسخة الطبع وانه اخذها عن لفظ عامّة اهل بيروت . فما لبث الآن ان خطّأ نفسه بحجّة . اللهمّ الا ان يكون ورودها هناك بتقديم الحاء على الطاء غلط طبع كما في المقامات . وان صاحبنا اراد ان يقول واهل بيروت يقولون فطحل بتأخير الحاء فيكون ذلك غفلةً من صفّاف الحروف سامحه الله . على فرض انه يمكن ان يغلط ولا يمتثل احياناً مـا ترسم له سهواً . او يكون مكراً منه ، قاتله الله على ابطال هذا الفرض

وفاقاً لمعتقد صاحبنا العصمة عنده فيكون قد حرّفها عمداً لمقصدٍ من المقاصد والله اعلم . ويكون مراد صاحبنا بايرادها مجرّد الاستشهاد بكلام عامّة بيروت تأييداً لما استشهد به من كلام الائمة قبل ذلك ، وتلك عادته غالباً . فاني رأيت له في سرّ الليال من كلام العامّة في مقام الاستشهاد شيئاً كثيراً حتى انه قلما تخلو منه مادّة . ويجري هذا المجرى استشهاده بكلام الاعاجم فقد رأيت الفاظاً كثيرة من اللغة الفرنسية والانكليزية وغيرهما حتى صار يسوغ ان يقال ان جانباً كبيراً من الكتاب اعجميّ ، وناهيك ما هناك من الفائدة للعرب !! اثابه الله . ولولا خوفي ان يسقط شأن هذا المؤلف ويضيع افتخار صاحبه ، زاده الله فخراً ، لصرّحت لك بانه احياناً يورد الفاظاً من لغة اهل مالطة . فهل كل ذلك الا دليل فضلٍ واسع وعلم باهر .

وأمّا احتجاجهُ بان ذلك القس البيروتي اوردها بلفظ المفرد خلافاً لما رويته فلا تمسّك له به لانه يحتمل ان يكون قد تصرّف بها فردّها الى المفرد . وانما تُورد هذه الحجّة في ما اذا قيل ان بناء مفردها غير ممكن ولو تدبّر كلامي وكلامه لظهر له فساد حجته لانني قلت ان مفردها لم يجر على السنتهم . فتأمّل . وبالتالي من اين علم ان ذلك المفرد ينبغي ان يكون على وزن جعفر ، فربما اذا كلفنا ذلك القس او غيره ان ينطق به ، اورده بالضم او بالكسر لان هذين الوزنين معروفان عندهم وربما اورده بالفتح ايضاً كما ذُكر فالحكم على كل الوجوه لا يخلو من الشطط .

في المرابض والمرابط

وأمّا مسئلة المرابض التي لم يزل مصرّاً على رأيه فيها وزعمه انه اذا ثبت الاشتراك في فعل الربوض لم يُستنتج منه الاشتراك في اسم الموضع منه ، فغايةٌ في الغرابة . ولعمري لم نرَ احداً من علماء الصرف او اللغة نبّه على ان اسم المكان يُبنى من الفعل في احد معانيه دون سائرها ، او يُقيّد بفريق من اصحاب المعنى الواحد وانما القوم اطلقوا القياس من غير تمييزٍ

ولا استثناء . ولا ورد عن احدٍ منهم ان الاشتقاق يغيّر المعنى فينقله من الاطلاق الى التقييد او بالعكس ، وانما المشهور ان الاشتقاق انما يغيّر هيئة مورد المعنى في الخارج دون ان يمس حقيقته . فان الضرب مثلاً وضرب ويضرب واضرب والضارب والمضروب والمضرب وهلمّ جرّا كلها من معنى واحد وانما طرأ عليه بالاشتقاق ان كان في احدها مجرداً فورد في غيره مقترناً بزمن او دالاً على الواقع منه او عليه او فيه الى غير ذلك . وحقيقته في الكلّ واحدة وما زالت كلها تتناول ما يتناوله المعنى الاصليّ في المصدر بلا خلاف . فما ادري من الذي قال له ذلك وأيّ الائمة نصّ عليه . وما اكتفى بما زعمه حتى حاول ان يثبته من كلام العرب فكان غلطاً مركباً.

قال : « فان العرب كثيراً ما تفرد اسم المكان بمعنىً مخصوص من معاني الفعل المتعددة وذلك لكثرة استعمالها له . فمن ذلك لفظة المحافل فانها لا تُستعمل عند الاطلاق الا بمعنى المجالس التي يحفل فيها القوم اي يجتمعون، مع انه يقال حفل الماء واللبن كما يقال حفل القوم » الى آخر ما ذكر . والصحيح ان ما توّهمه في لفظة المحافل على خصوصها انما هو في مادّة الحفل باسرها من المصدر والفعل وسائر المشتقات على وجه العموم . وذلك ان الحفل في الانسان اشهر واكثر استعمالاً منه في المـــاء واللبن ولذلك كان عند الاطلاق لا يتناول غيره ، وهكذا كل ما اشتقّ منه . كما ان المرابض يُفهم بها عند الاطلاق مواضع ربوض الدابّة دون الانسان ، لان الربوض في الدابة اشهر . فان نُصبت القرينة على ارادة غير المشهور لم يُفهَم الا ما اشعرت به القرينة . فيقال محفل الماء ومربض الرجل بلا خلاف . والعجب هنا انه اجاز في كلامه محفل الماء ولم يُجز مربض الرجل وما ادري ما الفرق بينهما . وهذا مثل ما مرّ بك من اجازته جدّهُ وجهدهُ في الفاصلة ومنعهِ الفِطَحْل والمطل . فتأمّل .

قلت وما تقدّم الكلام عليه من مبحث تغليب بعض معاني المادّة على سائرها كثيرٌ شائعٌ في اكثر مواد اللغة ، فقلّما ترى لفظةً متعددة المعاني الا ترى بعضها قد غلب في الاستعمال وهذا اشهر من ان يُنبّه عليه . وليس

ذلك خاصاً باسمٍ ولا فعلٍ ولا جامدٍ ولا مشتقٍ ولكنه ذاهبٌ في الفاظ اللغة كل مذهب . ومن هنا نشأ ما يسميه البديعيون نوع الاشتراك وهو عندهم ان يورد المتكلم لفظة تشترك بين معنيين يسبق ذهن السامع الى غير المراد منهما فيأتي المتكلم بما يصرفها الى مراده . مثال ذلك قوله : « والنجم والشجر يسجدان » . فان ذهن السامع يسبق عند ذكر النجم الى ارادة الكوكب لانه اشهر في معناه وهو الغالب في الاستعمال . فلما قفّى على اثره بذكر الشجر انصرف المعنى الى النبات لقيام القرينة عليه . وقال كثير عزّة :

وانتِ التي حبّبتِ كلَّ قصيرةٍ اليّ ولم تعلم بذاك القصائرُ

ثمّ فسّر فقال :

اردتُ قصيرات الحِجال ولم أرِد قصار الخُطى شرّ النساء البحاترُ

وقس عليه

وهذه الغلبة انما تُعتبر عند الاطلاق فيُعدل اليها بالمفهوم كما علمتَ . فاذا نُصبت القرينة انتفت الغلبة واستوى المشهور وغيره لتقيّد المعنى حينئذ بجهة معلومة . ولما كان الفعل لا يستقلّ بلا فاعله ومتى اقترن بالفاعل تقيّد به فلم يتناول غيره ، كمنت فيه مظنّة التغليب لقيام القرينة على المراد منه ابداً مشهوراً كان ذلك المراد في معناه كحفل القومُ ، او غير مشهورٍ كحفل الماءُ مطلقاً . ولذلك كان يُتوهم في بادىء الرأي ان مراتب معانيه في الشهرة سواء . ولما كان اسم الموضع يَرِدُ على حالة الاطلاق لاستغنائه ذاتياً عمّا يقيّد به خلافاً للفعل وكان الاطلاق علّة ظهور هذا التغليب كما مرّ بك لُمِح فيه ما كان مستتراً في الفعل فتُوُهّم ان التغليب خاص به وان العرب افردته بمعنى مخصوص كما زعم صاحبنا .

***

وهنا اعجب من تخصيصه اسم المكان مع ان ذلك اذا دققت النظر وجدته يتأتى في غيره ايضاً وهذا مما يدلّك على سعة علمه . فمن ذلك

المصدر في نحو قوله : طال الوقوف على رسوم المنزل . وقد جمع الامرين . ومثله اسم الزمان واسم الآلة . وبالجملة يقع ذلك على اسم الحدث وكل ما شاركه من اسماء الاعيان مُطلقاً . لان اسم الحدث يدل على معنى مجرَّد يعدل به المتكلم حيث شاء فلا يلزمه القيد بجهة معلومة . واسماء الاعيان تدل على ذواتٍ يُنسب اليها الحَدَث على وجهٍ من الوجوه كأن تكون ظرفاً لوقوعه او آلة له بحيث لا يكون بينها وبين مورد هـــذا الحدث علاقةٌ ذاتية . فاذا قلت المربض مثلاً فانما تريد موضع الربوض دون اعتبار الرابض فيه فرساً كان او ثوراً او غير ذلك كما لا يخفى . وكذا ما جرى مجراه فانه على حده من هذا القبيل . وكذلك الفعل يشاركه في لزوم التقييد اسم الفـاعل والصفة المشبهة به واسم التفضيل ، وبالجملة كلُّ وصف شاركه في الاشتقاق معلوماً . وذلك لافتقار كل واحد من الفعل والوصف الى صاحبه فاعلاً او موصوفاً لدلالته على معنى قائم بغيره فلا يستقل بنفسه .

ويخرج عن المصدر ما وُصف به منه ، وعن الوصف ما غلب على الذات وكلاهما في الشاهد العدل وقس عليه . والسبب ظاهر . ويخرج عن الفعل ما صيغ منه للمجهول لانه قد اجتزأ بالنائب عن الفاعل . ويلحق به اسم المفعول لانهما من جهةٍ واحدة وقد تقدَّمت الاشارة الى اخراج كليهما . هذا في ما يناسب ما نحن فيه فتأمل . والله اعلم بالصواب .

واما النصوص التي اوردها دلائل على صحة دعواه فلا تغني عنه شيئاً بل انما تؤذن بصحة كلامي وليست اول مرَّة فعلها . لان عبارة الحديث: «صلوا في مرابض الغنم ولا تصلوا في اعطان الابل » ، لا تنفي اطـــلاق المرابض على سائر الدابة إلا كما تنفي القيام عن عمروٍ مثلاً بقولك : قام زيدٌ . لان اثبات الحكم لواحد لا ينتج منه نفيه عن غيره كما لا يخفى . على ان الاعطان ايضاً لا تختص بالابل كما صرَّحت كتب اللغة . قال في القاموس : العَطَن محرَّكةً وطن الابل ومبركها حول الحوض ومربض الغنم حول الماء ج اعطان كالمعطن ج معاطن . وفي الصحاح قال ابن السكّيت : وكذلك تقول هذا عَطَن الغنم ومعطنها لمربضها حول الماء . وفي المصباح: وعطن الفحم ومعطنها ايضاً مربضها حول الماء . اه. وبهذا كفاية .

وكذلك ما جاء في العباب ولسان العرب والصحاح من قولهم المرابض للغنم كالمعاطن للابل فانه جارٍ مجرى عبارة الحديث فلا ينتج منه ما اراده. ولعلّ الذي اوهمه التخصيص قولهم كالمعاطن للابل مع اعتقاده انها خاصّة بها ففهم ان المراد ان المرابض خاصّة بالغنم كما ان المعاطن خاصّة بالابل. وعلى فرض صحّة هذا التأويل فقد علمت ان المعاطن تتناول غير الابل، فاين التخصيص. على ان المراد من هذا التعريف انه كما تُستعمل المعاطن لاوطان الابل ومباركها حول الحياض. تُستعمَل المرابض للغنم بمعناها اي لمواضعها في المآوي وحول الماء. وذلك من اصطلاحاتهم في كتب اللغة يقصدون به الهرب من التطويل غالباً بذكر التعريف بتمامه ولهم في مثل هذا شيءٌ كثير. منه ما مرّ في هذا التعريف. ومنه اقتصارهم على ذكر واحدٍ من الامثال كقولهم المرابض للغنم وهي تتناول غيرها، وانما ذكروا واحداً من جماعة هي سوآءٌ في ذلك الحكم اذ لا يسعهم تعديدها بافرادها كما لا يخفى. ومنها الوزن فانهم قلما يصرّحون بـه وانما يقولون مثلاً: الكرَنْب كسمنْد، بذكر ما يوازنه فقط وما اشبه ذلك. وعلى ذلك جروا في تعريف الربوض وربض. قال في الصحاح: وربوض الغنم والبقر والمعزى والفرس والكلب مثل بروك الابل وجثوم الطير. وفي القاموس: ربضت الشاة كبركت في الابل. وفي المصباح: ربضت الدابّة وهو مثل بروك الابل. انتهى. مع تصرّفٍ في الاخيرين. فكان ينبغي ان يحكم بالتخصيص هنا ايضاً لانه لا فرق بين التعريفين. فما ادري من اين جاءت هذه الضدّية.

واما اتفاق النصوص على صورةٍ واحدة حيث قيل في الكل مرابض الغنم، فكثيراً ما وقع لهم ذلك وتابعوا بعضهم بعضاً في التعريف حتى جاء واحداً كما يشهد الاستقرآء. فيُظنّ والحالة هذه ان الاستعمال مقصورٌ على تلك الصورة. مثال ذلك قول صاحب الصحاح: غلَتِ القدر تغلي غلياً وغلياناً. وجاءَ في القاموس: غلَت القدر تغلي غلياً وغلياناً. وفي المصباح: غلت القدر غلياً وغلياناً. فلم يذكر احدٌ منهم غير القدر في هذا المعنى ولا اطلق استعمال الفعل فكان ذلك يوهم التقييد. وليس كذلك فقد ورد في

القاموس : جاش البحر والقِدر وغيرهما يجيش جيشاً وجيوشاً وجَيشاناً : غَلى . فترى انه اطلق الغليان هنا مع انه قيّده في موضعه . وقس عليه كثيراً من المواد .

****

وبقي هنا مما استشهدَ به عبارة صاحب القاموس وهي تصرّح ببطلان دعواه . قال : « ربضت الشاة تربض ربضاً وربضة وربوضاً وربضة حسنة . بالكسر كبركت في الابل . ومواضعها مرابض » انتهى فقوله ومواضعها مرابض يعني به مواضع الشاة التي ذكرها لان الضمير راجعٌ اليها . وقد مرّ تفسير الشاة في الردّ السابق من عبارة صاحب القاموس عينه حيث يصرّح بانها تتناول جماعةً كثيرة من انواع الدابّة عدّدتها هناك فـلا حاجة الى تكرارها . فتبيّن هنا ان المرابض غير خاصّةٍ بالغنم وانها تتناول ما يتناوله الفعل من غير تمييز كما يفيد نصّ العبارة فتأمّله .

وان كان كلّ هذا لا يُقنعه اوردت له شيئاً من « سرّ الليال » لان كلامه يعجبه . قال : « ثمّ ربضت الشاة تربض ربضاً وربضةً وربوضاً كبركت في الابل ومواضعها مرابض وهو مستغنى عنه » . انتهى . وهي عبارة صاحب القاموس . غير انه اسقط منها الربضة لهيئة الربوض وتدارك على المرابض بانه يُستغنى عن ذكرها . والاشارة في الموضعين الى ان مثل هذا يتناول بالاشتقاق فيُستغنى عنه بقواعد الصرف كما صرّح في المقدّمة فرجع الى ما قرّرته من الاخذ بالاشتقاق . ولا ريب ان المشتق لا يكون الا بعض المشتق منه كما تقدّم فانطبقت المرابض على معنى الربوض . والا لزم ان يقرّرها ويستدرك عليه انه لم يقيّدها بالغنم وفاقاً لاعتقاده .

وقال بعد ذلك : « وعبارة المصباح ربضت الدابّة ربضاً وربوضاً وهو مثل بروك الابل . والرَبَض بحرّكة والمربض كمجلس للغنم مأواها . اهـ » مع تصرّفٍ . فاطلق في الاول وقيّد في الثاني . وفي « فقه اللغة » في تقسيم الجلوس : جلس الانسان . برك البعير . ربضت الشاة الخ . ولم يذكر المربض في تقسيم الاماكن . انتهى كلامه .

فقد رأيت انه انكر على صاحب القاموس ذكر المرابض كما اشرت آنفاً . ثمّ انكر على صاحب المصباح الاطلاق في الاول والتقييد في الثاني، يعني اطلاق الفعل وتقييد الظرف مع انه عين ما يحاوله الآن . وصرح بان صاحب فقه اللغة لم يذكر المربض في تقسيم الاماكن . فمن قال له بعد كل هذا انها خاصّة بالغَنَم . لا جَرم ان هذا هو عين المكابرة والعناد .

ويجري هذا المجرى تخصيصه المرابط بالخيل هناك والظاهر انه لا يعرف منشأ هذا التخصيص ولا كيفيته ولا مواقعه وذلك من مثله غريب . وهو انما يقع احياناً في المترادفات فيفرّق بينها على هذا الاسلوب تفريقاً اعتبارياً تحسن معرفته ولا تجب مراعاته دائماً . قال الامام الثعالبي في تقسيم الاماكن : وطن الناس . مراح الابل . اصطبل الدواب . زرب الغنم وهلمّ جرّا . ولكن ائمّة اللغة قد تصرّفوا في هذه المختصات حتى في تعريفها في كتب اللغة . فان الوطن مما ذُكر يطلق على غير الناس ايضاً ، ومنه ما مرّ بك في تفسير العَطَن حيث قيل هو وطن الابل وقالوا اوطان الغنم ايضاً مرابضها . وغير ذلك ، وفسّر بعضهم المُراح قال : هو حيث تأوي الماشية بالليل . وقال الآخر . حيث تأوي الابل والغنم . وقس على ما ذُكر ما لم يُذكر . وعلى ذلك جرى صاحب فقه اللغة عينه في نفس كتابه الذي جمع فيه هذه القيود فاستباح ما نصّ على تقييده . الا تراه يقول مثلاً : فصلٌ في تقسيم النسج . ثمّ يقول نَسج الثوب . رَمَل الحصير . سفّ الخُوص ، الى آخره . فصلٌ في تقسيم الخياطة . ثم خاط الثوب . خَرَزَ الخفَّ . خَصَفَ النعل الى آخره . فصلٌ في تقسيم الرعدة : ثمّ الرعدة للخائف والمحموم . الرِعشة للشيخ الكبير والمدمن للخمر . القرقفة لمن يجد البرد الشديد الى آخره . ومثل هذا كثيرٌ في كتابه أفنعدّه خطأ منه . وقال بِشر ابن ابي حازم :

يخرجنَ من خلل الغبار عوابساً خَبَبَ السباع بكل اكلفَ ضيغم

وفي فقه اللغة وغيره ان الخَبَب للخيل . وهذا من باب المرابض للغنم . وقال النابغة الذبيانيّ :

اذا استنزلوا للطعن عنهن ارقلوا الى الموت إرقالَ الجمال المصاعبِ

أطلق الارقال على الرجال ، وفي فقه اللغة انه للجمال كما صرّح في عجز البيت . وقال عمرو بن كلثوم :

متى نعقد قرينتنا بحبلٍ تجذّ الحبلَ او تَقِصِ القرينا

والذي في فقه اللغة حَذَق الحبل . وامثال كل ذلك لا تُحصى . والاظهر ان من قال بالتقييد انما يريد اظهار اصل الوضع فقط والا لزم الحكم بخطأ من لا يُسلّم بخطئه . فتأمل .

وعلى فرض ان المربط والمربض هما من هذا الباب فقد علمت ان القوم لم يعتدّوا بشيءٍ من ذلك . على انه شتّان بين الجانبين ، لان المربط مشتقٌّ من ربط الشيء بمعنى شدّه فهو يدل على موضع الربط . واذا قلنا المربض فانما نريد موضع الربوض فكلٌّ واحدٍ منهما يُستعمل بما يراد من معناه الوضعيّ . وقد تقرّر بتسليم صاحبنا ان الربوض يتناول الخيل كما يتناول غيرها ، فان لم نعبّر عن موضع ربوضها بالمربض فماذا يريد هذا البارع ان يقول .

قلتُ وهذه المسئلة أشبه بما وقع لبعضهم قال : لا يقال الراكب الا لراكب البعير خاصّة . فردّ بقول امرىء القيس الكنديّ :

كأنيَ لم اركب جواداً ولم اقل لخيليَ كرّي كرّة بعد إجفال

وكأني بهذه المسئلة لو وقعت لصاحبنا لم يسلّم بها ولماحك فيها ما شاء الله او يُوردَ له شاهدٌ على لفظة الراكب بصيغتها والعياذ بالله من كل امرٍ مريب .

ولعمري انني لاستغرب كثيراً مشاحنته في هذه اللفظة على ما رأيت . وهو الذي يقول في كتابه « الساق على الساق » صفحة ٢٠١ : « ومن خصائصها ان البغاث بها يستنسر والناقة تستبعر » . كأنه يريد طباق قولهم استنوق الجمل . مع ان البعير يُستعمل للذكر والانثى فالتوى عليه الطباق وفسد المعنى . قال في الصحاح : البعير من الابل بمنزلة الانسان من الناس ، يقال للجمل بعير وللناقة بعير . وفي القاموس : البعير الجمل البازل او الجذع وقد يكون للانثى . وفي المصباح المنير : البعير مثل الانسان يقع على الذكر

والانثى يقال حلبتُ بعيري . والجمل بمنزلة الرجل يختصّ بالذكر . والناقة بمنزلة المرأة تختص بالانثى . انتهى . واكثره مما انطوى عليه سر الليال . وهو الذي يقول في هذا الكتاب صفحة ٤٥ : فأجمعا رأيهما على ان يستبضعا . فزيادة رأيهما غلطٌ بيّن والصواب تركه او جعله فاعلاً للاجماع بان يقال فأجمع رأيهما . قال في الصحاح : قال الكسائيّ يقال اجمعت الامر وعلى الامر اذا عزمت عليه . وفي المصباح : واجمعت المسير والامر ، واجمعت عليه يتعدّى بنفسه . وبالحرف عزمت عليه . وفي حديثٍ : مَن لم يُجمِع الصيام قبل الفجر فلا صيام له ، اي من لم يعزم عليه فينويه . وأجمعوا على الامر اتفقوا عليه . وفي القاموس : والاجماع الاتفاق ، والعزم على الامر اجمعت الامر وعليه . اه . وفي هذا الاخير تصرفٌ وكله واردٌ في سر الليال . وربما احتج بأن رأيهما في العبارة هو المعزوم او المتفق عليه لان الاجماع يتعدى بنفسه ، والمعنى انهما عزما على هذا الرأي . ولكن ذلك مردودٌ بقوله : على ان يستبضعا . فان الرأي لا يُعدّى بعلى فتعيّن ان تكون من صلة الاجماع . وكيفما توجّهت المسئلة فأحد الموضعين خطأ لا مفرّ منه .

وهو الذي يقول في صفحة ١٦ من هذا الكتاب : « الى ان تصيروا كَهْلاً ثم شيوخاً » . وكهلاً مضبوطة بفتح الكاف وسكون الهاء . والصواب كهولاً او كهّلاً بضم الكاف وتشديد الهاء مفتوحةً فيستقيم . وقد تصفّحت في ما وضعه من اصلاح الغلط لهذا الكتاب فلم اجد لها تصحيحاً . ولا ارى له عذراً فيها بعد ان قال ان كتابه خالٍ من غلط الطبع ثم علق عليه اصلاحاً . فلم يبق شبهة في ان هذه اللفظة مرّت على نظره او ان نظره مرّ على هذه اللفظة ووثق بها . وقد حان لي ان ارجع الى ما كنت عليه فاقول:

***

ثمّ انكر عليّ توجيه مأخذ الربوض من الرَبَض للامعاء كما عللت هناك وجزم بالعكس . قال : « اذ القاعدة ان الاشياء الظاهرة تكون اصلاً للباطنة » . واطال الكلام في هذا المعنى على غير طائل .

قلت انني في توجيهي المشار اليه انما اعتمدت على ما ورد في كتب اللغة

من اقوال العلماء الذين لا اجد لي بداً من التسليم بصحّة ما اجمعوا عليه فبنيت كلامي على ما رأيته من كلامهم في مثل هذه اللفظة لاعتقادي انه يصحّ ان يقاس على ما قرّروه . فان وافق حكمي حكمهم كنت مصيباً بالنسبة اليهم على ما ارى وان كنت مخطئاً بالنسبة اليه ووقف الحكم بيني وبينه على الحكم بين صحّة رأيه او رأي العلماء . فتبصر ، وان كانت المسئلة مشكلة . وهذا الذي اشرت اليه .

قال في الصحاح : ورَكَ يَرِكُ وروكاً وضع وركه على الارض . وتورّك على الدابّة اي ثنى رجله ووضع احدى وركيه في السرج وكذلك التوريك . وتورّكت المرأة الصبي اذا حملته على وركها . وفي المصباح: قعد متوركاً اي متكئاً على احدى وركيه . وفي القاموس : ورك يرك وركاً وتورّك وتوارك اعتمد على وركه . وقال : في المغرب البروك للبعير كالجثوم للطائر والجلوس للانسان ، وهو ان يُلصِق بَرْكه بالارض . وفي الصحاح : وابترك الرجل اي القى بركه . وابتركته اذا صرعته وجعلته تحت بركك . وفي المصباح : برك البعير بروكاً من باب قعد ، وقع على بركه وهو صدره . وقد اشرت اليه هناك . وقال في المصباح : والضَبْع بالسكون العَضُد . وضبعت الابل والخيل تضبع بفتحتين مدّت اضباعها في سيرها وهي اعضادها . واضطبع من الضبع وهو العضد . وهو ان يدخل ثوبه من تحت ابطه اليمين ويُلقيَه على عاتقه الايسر . وجاء في الصحاح : وضبعت الرجل مددتُ اليه ضَبْعي للضرب . وضَبَعَت الخيل والابل تضبع ضَبعاً ، اذا مدّت اضباعها في سيرها وهي اعضادها . وفي القاموس : وضبعه كمنعه مد اليه ضبعه للضرب . والخيل والابل ضبعاً وضبوعاً وضَبَعاناً محرّكة ، مدّت اضباعها في سيرها كضبَّعت تضبيعاً وهي ناقة ضابع . والبعير اسرع او مشى فحرّك ضبعيه . واضطباع المُحرم ان يُدخل الرداء من تحت ابطه الايمن ويرد طرفه على يساره ويُبدي منكبه الايمن ويغطي الايسر . سُمي به لابداء احد الضَبْعين .

وقال في الصحاح : وتأبط الشيء اي جعله تحت ابطهِ . وفي القاموس . بعد تعريف الابط : وتأبطه وضعه تحته . وفي المصباح : وتأبط الشيء جعله

تحت ابطه . وفي الصحاح . الضِبن بالكسر ما بين الابط والكشح . واول الجنب الابط ثمّ الضِبن ثمّ الحضن . واضبنت الشيء واضطبنته جعلتهُ في ضِبْني . وفي القاموس : الضبن ما بين الكشح والابط . واضبن الشيء جعله في ضبنه كاضطبنهُ . وفي الصحاح : الحِضن ما دون الابط الى الكشح . وحَضَن الطائر بيضه يحضنه اذا ضمه الى نفسه تحت جناحه ، وكذلك المرأة اذا حضنت ولدها . واحتضنت الشيء جعلته في حضني . وفي القاموس : الحِضن بالكسر ما دون الابط الى الكشح او الصدر والعضدان وما بينهما . وحَضَن الصبيّ حَضناً وحِضانةً بالكسر جعله في حضنه او رباه كاحتضنهُ . وفي المصباح : والحضن ما دون الابط الى الكشح . واحتضنت الشيء جعلته في حضني . اه. وفي اكثرها تصرفٌ وامثال هذه كثيرةٌ لا تحصى فاقتصر منها على ما ذكرته ولعله يكفي دليلاً على صحة ما قرَّرته .

نعم انني لم اقف على نص يصرح بان الربوض مأخوذٌ من الرَبَض كما ذهبت ولكن القياس في بعض الاحوال لا يُنكَر ، ولاسيما ان صاحبنا يعتقد ان اللغة باسرها جارية على القياس والقاعدة وعليه عوّل في كتابه سر الليال . وسيأتي الكلام على هذا المبحث . فما الفرق والحالة هذه بين كل ما ذُكر وبين قولنا : ربض اعتمد على رَبَضِهِ مثلاً ؟ وما يمنع كون الربوض مأخوذاً من الرَبَض جرياً على ما مرَّ بك بما نصَّ العلماء على مأخذه على هذا الاسلوب ؟ فان صحّ كل ذلك صحّ هذا ايضاً . وان حكمنا بفساد هذا لزم الحكم بفساد جميع هذه النصوص وتخطئة ائمة اللغة دون تصحيح مذهب صاحبنا اعزّه الله ، وكل غالٍ في جنب مثله مُرخص . كيف لا وهو في كتابه المذكور قد سطا على اكثر علماء اللغة ، رحمهم الله ، ولاسيما الامام الفيروزابادي صاحب القاموس الذي بنى عليه هذا الكتاب . فانه خطّأه في مسائل لا تحصى فكأنما بنى الكتاب على تخطئته . ومنه ألمَّ ببقيّة العلماء وتطاول على كل واحدٍ منهم ، فغلّط ما شاء وصحّح ما شاء وذهب في تشويه مصنفاتهم كلَّ مذهب . وبين ذلك تراه تارة يختال بنفسه عُجْباً بانه قد كوشف بسر لم يُكاشَف به احدٌ من العالمين وادرك من اوضاع هذه اللغة ومبانيها واسرارها ما لم تدركه كبار الائمة ولا خطر على قلب

احدٍ من العلماء الاقدمين . ثم يثني على نفسه بالثناء والاطراء ، ويقترح على اولي الفضل ان يكبروا صنعه هذا ويعظّموهُ ويفضلوه على كل ما سبق في ماضي الاعصار . ثمّ يرجع على العلماء والمصنّفين باللوم والتفنيد ويأخذ عليهم ما يخال انه يضمن له قصب السبق في يده البيضاء . الى غير ذلك . وقد صرّح في مقدّمة سر الليال بكتابٍ وضعه في تخطئة قاموس الفيروزابادي سماه « الجاسوس على القاموس » . ولم اقف عليه ولعله لم يطبعه بعد . واما ما خطّأهُ به في سرّ الليال فقد رأيت منه ما قضى عندي بالعجب ، ولولا ضيق المقام لاوردت منه شيئاً كثيراً .

واغرب ما هناك انه انكر على صاحب القاموس انه يعيب على صاحب الصحاح شيئاً ثمّ يتابعهُ عليه . وهو عين ما فعله في مواضع كثيرة من سرّ الليال ، فتابع صاحب القاموس على ما خطّأه به . فمن ذلك ما خطه بقلمه الكريم ونشره في صحيفة الجوائب حيث يقول : انه انكر على صاحب القاموس خلطه الافعال الرباعية والخماسية والسداسية بالفعل الثلاثي . وهو عين ما وقع به في سرّ الليال كما قرّر عن نفسه . بارك الله فيه . واما اعتذاره هناك بان الفرصة لم تمكنه من تهذيبه كما اراد ، وانه كان يحرّر سرّ الليال كما كان يحرر الجوائب ، يعني صفحةً صفحة وكلما نُجزت صفحة سلّمها الى المرتّب . فهذا ساذكر جوابه في موضعه .

ومن ذلك انكاره على صاحب القاموس انه لا يحافظ على ترتيب المواد والمشتقات قال : ففي كدى وصلى وقهى وطمى وغبى وغطى وغشى . اورد اليائيّ قبل الواويّ . وهو في سر الليال اورد الاب بعد أبى وقد صرّح بان الاب واويّ حيث قال : وأصله أبوٌ محركة كما في القاموس . على ان في نفس هذا الاعتراض اعتراضاً عليه . فانه اورد فيه كدى قبل صلى وقهى قبل طمى وغطى قبل غشى فتأمل .

ومن ذلك انكاره عليه انه يقيّد في تعاريفه ما هو مطلق كقوله : بكأت الناقة قلّ لبنها . وهو يقول في سرّ الليال : وبَتِع الفرس فهو بَتِع ككتف وهي بتعة طالت عنقه مع شدّة مغرزها . وعبارة القاموس

في هذه المادة ، وبالتحريك طول العنق مع شدّة مغرزها . بَتِع الفرس كَفَرِح فهو بَتِع ككَتِف وهي بَتِعة انتهى . فانت ترى ان صاحب القاموس عينه قد اطلق في التعريف ثمّ ذكر الفرس بعد ذلك مثالاً لقصد بيان الفعل كما جرى اصطلاحهم ، وصاحبنا قيّد المادة بالفرس رأساً . وامثال هذه كثيرة . واما المسائل التي خطّأه فيها وكان هو المخطىء وتعنّته عليه احياناً في ما لا حرج فيه الى غير ذلك فشيء يطول الكلام عليه . واعود الآن الى ما كنت في صدده فاقول :

هل الاشياء الظاهرة تكون اصلا للباطنة

وامّا قوله : اذ القاعدة ان الاشياء الظاهرة تكون اصلاً للباطنة على ما ورد في لسان العرب ، وزعمه ان الرَبَض للامعاء هو من هذه الاشياء الباطنة ، فلزم ان يكون مأخوذاً من الربوض لان الربوض ظاهر . فهذا هو التشدق بعينه . لان المراد بالاشياء الظاهرة في عبارة صاحب اللسان ، الاشياء المحسوسة وهي التي تُدرك بالحواس الظاهرة وخلافها الباطنة ، والمراد بها الاشياء المعقولة التي لا تُدرك الا بالمشاعر الباطنة . فاين الرقمتان من وادي الغضا ؟ والظاهر انه يفهم بالاشياء الباطنة مـا كانت مستورةً عن العيان وخلافها عنده الظاهرة ، ولذلك عدّ الرَبَض باطناً وتكلف التعبير عن العَبَث في هذا التأويل لا يكون إلا من العَبَث فنتركه لأولي العلم ينظرون فيه . بل قد ورد في سرّ الليال صفحة ١١ ما نصه :

« ان اهل اللغة جميعاً قد اجمعوا على ان المهذّب للرجل الكامل مأخوذ من تهذيب الشجرة بناءً على ان الامور المعنوية او العقلية مأخوذة من الاشياء الحسية وذلك موجود في جميع اللغات ضرورة ان الحواس الظاهرة هي التي تبعث الحواس الباطنة على التفكر والتخيّل . فان من لم يَرَ الاسد مثلاً قط ولم يسمع به لم يخطر بباله ان يشبه به رجلاً شجاعاً وهذا كما يحكى عن ابن المعتز رحمه الله ، من انه كان ينظر الى آنية بيته ويشبّه بها . وتقرير ذلك ان العقل مأخوذ من عقلت البعير ، ومثله لفظة الحجْر اشتقاقاً ومعنى.

والحِكمة من حَكَمَةَ اللجام ، والذكاءُ لتوقد الذهن من ذكاء النار . ومثله الالمعي والثاقب » . الى آخر ما فصّل بالصواب .

وهنا كلّ العجب وما ادري ما الذي حمله على ان يعدل الى الجهل بعد المعرفة ويحاول ان يخطّىء نفسه في ما اصاب به . ولا اعلم والحالة هذه بماذا اعبر عن مثل هذه الخُلق فهو يشبه البله ولكنه ليس منه . ويشبه الخَرَق ولكنه ليس منه . وفيه طَرَفٌ من شَبه الحمق والله اعلم . اللهم الا ان يكون قد نسي ما قرّره في سر الليال بما تقدّم نصه فلا يشبه شيئاً من ذلك وانما تكون المسئلة من باب المعاندة . ولكن لا يصح هذا الفرض لانه قد ذكره في ردّه ودلّ على موضعه وأورد منه شيئاً ، فهل يكون النسيان في الذكر ؟ لا جرم ان ذلك يكون من خوارق الطبع . فتبصر والامر مشكل .

قلت وانما أخذَت الاشياء الباطنة من الاشياء الظاهرة ، لان الاشياء الباطنة لا وجود لها في الخارج فسمّوها بما يناسبها في المعنى من تلك . وذلك إما من حيث مفاعيلها كما في العقل والحِجْر بالكسر وقد ذكرهما والحِجى بكسرٍ ففتحٍ والنُهى بضم ففتح وكلها بمعنى . فان الاول مأخوذ من عَقْل البعير اي شدّه بالعقال ، والثاني من الحَجْر بالفتح اي المنع ، والثالث من قولهم حجا فلاناً اي منعه ، والرابع من النهي بالفتح اي الزجر والمنع . كأن المراد انه يعقل صاحبه او يحجره او يحجوه او ينهاه عن التجاور الى المحظورات . واما من حيث هيئتها المتوهّمة في الذهن كالتصور العقلي فانه مأخوذٌ من التصوير العملي بجامع ابراز الهيئة وتشخيصها فشُبه به . او غير ذلك من الوجوه التي تُعتبر في مثل هذا .

وربما أُخذ الظاهر من الظاهر على هذا التشبيه ككوكب العين لنقطة بيضاء تحدث في سوادها فانه مأخوذ من الكوكب بمعنى النجم بجامع الهيئة بينهما . وهذا كثيرٌ . وورد الضِلع بمعنى العود فيه عِرَضٌ واعوجاج فانه مأخوذ من ضِلَع الحيوان على التشبيه ايضاً . وعلى مذهب صاحبنا الآن ينبغي ان يكون هو اصلاً لضِلَع الحيوان لانه يعد ضلع الحيوان من الاشياء

الباطنة . وهو اظهر من ان يُتكلف له البرهان . وورد حبل الوريد لعرق في العنق وهو من باب اضافة الشيء الى نفسه . فانه مأخوذ من الحبل المعروف . وهو عكس ما تقدّم . وجاء الرئة والحرقدة مما يتوهمه باطناً ، والفهم والفطنة والبَله مما هو باطن حقاً وغيرها وليس في مادّتها ما يتأتى مأخذها منه . وقس على كل ذلك . واقرب ما اراه في مأخذ الرَبَض للامعاء انه من الرَبَض لحبل الرحل على التشبيه به . وانت تدري ان العرب كانت كيفما انقلبت فالرحال بين ايديها ونصب اعينها في الحَضَر والسفَر وفي جميع احوالها . فالمظنون ان هذا التشبيه اقرب ما يخطر لها . والله اعلم بالصواب .

واما كون رَبَض مأخوذاً من رب على ما زعم وان اللغة جارية بأسرها هذا المجرى فكل مادةٍ ترجع الى اصل يُحكم بأخذها منه على وجه الاطراد والقياس كما عوّل في كتابه سرّ الليال ، فشيء بينه وبين المحال نسبةٌ اقرب مما بينه وبين ان يصدّقه عاقل .

في تخطئة سر الليال

ولقد خطر لي الآن ما لو خطر له لما باشر تأليف هذا الكتاب ، ولا تجشّم لاجله عناء السهر وكدّ القريحة في غير شيء . قال في اول كتابه «الساق على الساق» في ما عنوانه تنبيه من المؤلف : «ومنه ايراد الفاظٍ كثيرة متقاربة اللفظ والمعنى من حرفٍ واحـــد من حروف المعجم نحو الغطش والغمش والبهز والبحز والبغز والحفز تنبيهاً على ان كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره وهو من اسرار اللغة العربية التي قلّ من تنبّه لها . وقد وضعتُ لهذا كتاباً مخصوصاً سمّيته «منتهى العجب في خصائص لغة العرب» . فمن خصائص حرف الحاء السعة والانبساط نحو الابتحاح والبداح والبراح والابطح والابلنداح والجح والرحرح والمرتدح والروَح والتركح والتسطيح والمسفوح والمسمح في قولهم : ان فيه لمسمحاً اي متسعاً والساحة والانسياح الى آخره . ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة والغضاضة نحو البرخداة والتيد والثأد والثعد والمثمعدّ والمثمغدّ والثوهد والثهمد

والجنداة الخ . ويلحق به من الامور المعنوية الرغد والسرهدة والمجـــد وغير ذلك . وربما عادلوا في بعض الحروف اي راعوا فيها الاكثار من النقيض . فان حرف الدال يشتمل ايضاً على الفاظٍ كثيرة تدل على الصلابة والقوّة والشدة وذلك نحو التأدد والتأكيد والتأييد والجلعد والجلمد » ، الى آخر ما قال على هذا النسق .

والحاصل انه عوّل هنا في تناسب معاني الالفاظ على الحرف الاخير منها دون اعتبار ما قبله . فكل طائفة منها خُتمت بحرف من حروف المعجم كانت مختصة بمعنى واحد يردُ في جميعها ولا يشاركها فيه غيرها مما خُتم بغير هذا الحرف . والذي جزم به في سرّ الليال ان تناسب معاني الالفاظ انما هو منوطٌ بالحرفين الاولين منها دون اعتبار ما بعدهما . فكل طائفة منها بُدئت بحرفين من حروف المُعجم كانت مختصة بمعنى واحد يردُ في جميعها ولا يشاركها فيه غيرها مما بُدىء بغير هذين الحرفين . وربما شرك بينها مجانسة الحرفين في بعض المواد للحرفين في غيرها . وبالجملة لا علاقة للحرف الثالث فما يليه بامر المعنى اصلاً . فهو يقول على هذا : « ان آب وأبا وأبت وأبث والأبج وابد وابر وابز وابس وابش وابص وابض وأبط وابق وابك وابل وابن وابه وابى وما يشاركها في موادّها كلها مأخوذةٌ من موضع واحد وهو أَب وهي متواطئة على معناهُ بأسرها . واصل معناها جميعاً في الهمزة والباء ، وما يليهما لا عبرة له في الدلالة على المعنى » . واذا رجعت الى قوله الاول وجدت ان آب مثلاً راجعةٌ في المعنى الى أبّ واتب وادب وارب وازب واسب وهلم جرًّا . وأبا لاحقة بأجأ وبأبأ وبدأ وبذأ وبرأ وبسأ وهلم جرًّا في الجميع . فيكون قد تنازع هذه الالفاظ تسعة عشر موضعاً على عدد الحروف المختومة بها وكل واحدٍ منها قد تواطأ مع طائفته على معنى مختص به دون غيره ، واصل هذا المعنى في الحرف الاخير .

فاذا تفرست في المذهبين وتدبّرت القولين لم تجد بينهما نسبة اقرب مما بين النقيض ونقيضه . والظاهر انه عندما خطر له اسلوب سرّ الليال كان قد نسي ما بثّه وذهب اليه في كتابه المذكور . على ان ما حتم به مردودٌ في الموضعين جميعاً كما لا يخفى على كل ذي بصيرة . وانما قد يتفق تناسب

بعض المواد في احد الرأيين ، والحكم بالاطراد لا يكون الا من باب العَبَث . ولولا ذلك لما اضطُرَّ صاحبنا في سرّ الليال ان يتكلف لبعض الالفاظ تأويلاً سخيفاً وتارة فاسداً ويسكت احياناً عن التأويل رأساً ، مع انه قطع في المقدمة بان ذلك قاعدة راهنة . فمن ذلك تأويل معنى حبّ واحبّ . قال ان له فيه آراءً احدها ان يكون من حبّة القلب فمعنى حبّه اصاب حبّة قلبه . اه. وفي هذا التأويل التواءٌ بيّن . فانه على فرض كون الحبّ في القلب كما يقال واليه ذهبت العرب ، فان المحب هو الذي تكون أُصيبت حبّة قلبه . والمحبوب معافىً سليمٌ من بوارح مُحبّه . لا يهمه الا ما اعتاده من التيه والدلال . والتمتع بما أُوتِيَ به من عزّة الجمال . وما برحت من ذلك في قلوب العاشقين حزازاتٌ لا تبرأ ويودّون ان لا تبرأ . وعند المعشوقين لذّة تباع دونها انفس العشاق وتُشرى . فما شكا محب ما به من الالم والبُرحاء الا لتّطفه بذكر صدّ محبوبه ، وهم يعتقدون ان الداء يشفى بالداء . وذلك من اسرار الصبابة التي دقّت فخفيت عن اوهام الحكماء . ولله ما قال الحاجري :

كذا من حاز في الحسن الكمالا — يصول علـى محبّيهِ دلالا
اعاتبه فيُعرض عن عيـاني — كأني قد ذكرتُ لهُ الوصالا
ملولٌ كلما ارخصتُ دمعي — لديه رغبـةً فيه تغـالى

وقول الآخر :

اشكو الذين اذاقوني مودّتهم — حتى اذا ايقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلمـا قمتُ منتصباً — بثقل مـا حمّلوني منهمُ قعدوا

وما ارقّ ما قال ابو نواس :

صليتُ من حبّها نارينِ واحدةً — في وجنتيها وأُخرى بين احشاءي
يا ويح اهلي يروني بين اعينهم — على الفراش ولا يدرون ما داءي
لو أنّ زهدك في الدنيا كزهدك في — وصلي مشيت بلا شكٍّ على الماء

على ان بحثنا ليس في هذا الصدد ، فعليّ هنا ان الاحظ امر اللغة فقط . وأمّا ما اخلّ به من اصول المحبّة وتعدّيه على احكامها ولاسيما ما ارتكبه

من الجناية في حق المحبوب ، فافوّض الى محكمة العشاق النظر في امره والاحتكام في جزائه . والله خير المنصفين .

في الشغف والبهق

واغرب منهُ قوله بعد ذلك : « وهو على حدّ قولهم شغفه حباً اي اصاب شغافه وهو غلافه او حبّته » . اه. وفيه تأييدٌ لما اعترضت به ، لان المحبوب يكون هو الشاغف والمحبّ المشغوف فانعكست المسئلة بخلاف ما تقدّم في الحب كما لا يخفى . ولذلك صدقت القضيّة هنا وكذبت هناك ، وما ادري كيف اعتبرهما سواءً . وهــذا يقابل منعهُ الفِطَحْل مع المطل واجازته جدّه مع جهدهُ ، لانه فرّق هناك بين حكمين هما سواءٌ وسوّى هنا بين حكمين هما ضدّان . فتأمّل .

ويجري هذا المجرى قوله : « بحدل اسرع في المشي ومثله بهدل . وبحدل ايضاً مالت كتفه وكأنه مسبب عن المشي » . اه. وهو من التأويلات الغريبة .

ومن ذلك قوله : « البَهَق محركةً بياض رقيق ظاهر البشرة ومعنى البياض في بهر لكنه قبحٌ هنا بالحاق القاف به » اه. وفيه نظرٌ من اوجهٍ. احدها انه لم يذكر في تعريف البَهق انه يكون قبيحاً . ومنها انه جعل الحاق القاف منشأ القبح . وهو اظهر من ان يُبيّن . ومنها تعبيره بالالحاق وانما هو ابدال . لانه لو كان الحاقاً لزم ان تكون اللفظة بهرق كما لا يخفى . ومن الغريب عدوله هنا الى الالحاق ، مع ان كتابه مبنيٌّ على القلب والابدال .

وقال بعد ذلك : « ثمّ البهلق كزبرِج وجعفَر وعُصفُر : المرأة الحمراء جدّاً ، فجاء لون البهَق مصبوغاً بالحمرة » . اه. ومقتضاه ان الحمرة نشأت من اللام هنا كما نشأ القبح من القاف هناك . واذا صحّ هذا حُسب له اختراعاً لم يسبقه اليه احدٌ وشفع في اغلاط الكتاب بامرها . على ان في قوله : فجاء لون البهق مصبوغاً بالحمرة ، خللاً وفساداً . لان البهق لون والحمرة لون ، فاذا وُجد احدهما انتفى الآخر . فأنّى جاءهُ هذا الدليل ؟

وامثال ذلك لا تُحصى كما يظهر لمن حمل نفسه على تصفّح هذا السِفر، فاقتصر على ما ذكرته مراعاةً للمقام

في الدراري

وأمّا اعتذاره عن الدراري بأنها غلط طبعٍ، وقوله بعد ذلك: « وليكن معلوماً هنا اني كنت احرّر هذا السفر اي سرّ الليال كما كنت احرر الجوائب، اعني صفحةً صفحة وكلما نجزت صفحة سلمتها الى المرتب فلم تمكني الفرصة من تهذيبه كما اردت »، الى آخر ما قال. فكلّ ذلك لا صحّة له، وما اكذّبه إلا من عين كلامه.

قال في صفحة ٦ من سرّ الليال ما نصّه: « ثم بعد ان صيغ هذا الكتاب على هذا المثال ونُسج على هذا المنوال نوّهت به في الجوائب لقصد ان يتصدّى لطبعه احدٌ ممن يؤثرون صحف الادب على صحاف المآدب فمضى على ذلك مدّة من دون ان ارى من احدٍ نجدة ». الى ان يقول من كتابٍ بعث به اليه رشيد بك الدحداح[1]: « اني بعد وصولي الى تونس بايامٍ، وصل اليها ايضاً نجلكم المكرّم سليم افندي فسررت باجتماعي به غاية السرور واخذت استقصي الاخبار منه عن ذاتكم وعن حركاتكم وسكناتكم فاخبرني بتأليفكم « سرّ الليال في القلب والابدال » وانكم مشتاقون الى نشرهِ. واتحفني ببعض صحفٍ من الجوائب تشتمل على نبذٍ من الكتاب ». الى آخر ما روى منه.

فقد صرّح هنا بما لا يحتمل التأويل ولا المغالطة ان الكتاب كان مصوغاً منسوجاً قبل ان يباشر طبعه بزمنٍ اقلّ ما يُفرَض منهُ والحالة تلك يكفي لتهذيبه وتكذيب مدّعى صاحبنا. وقد نوّه به مراراً في الجوائب ونشر فيها نبذاً منه، الى غير ذلك مما مرّ بك. فما باله الآن يقول انه كان يحرّره صفحةً صفحة وكلما نُجزت صفحة سلمها الى المرتب؟ وهل كان ما نشره في الجوائب وسيّره في الآفاق وهماً مكنوناً ونيّة مضمرة؟ لا

(١) هو الكونت رُشيد الدحداح الشهير

جَرم ان صاحبنا اصبح شديد النسيان كثير الغفلات ، وقاتل الله الكِبر .

ولما فرغ من كلّ ذلك انتقل الى تخطئتي في عبارة الرد السابق ، فاورد اشياء ليست باقل دلالة على غور علمه مما تقدّم . وكأني بهذه المناقشة قد كشفت بيننا سرّاً طالما كان مرصوداً بزخرفة المقال وحلّت طلاسم لُمح وراءها بدر المقنّع متهافتاً الى الافول . وما كان اغنى احدنا عن التعرّض والفضول وانما كان ذلك قدَراً مقدوراً ولله في خلقه شؤون .

في مظنّة الانفراد والذمّة

فمما خطّأني به قولي : مظنة الانفراد . وقد وردت في الطبع بفتح الظاء . ومن هذا القبيل قولي الذّمة والذمَم بضمّ الذال فيهما . والصواب الكسر في الكل . فزعم ان ذلك خطأ مني واخـــذ يتشدّق ويتمطّق بما لا طائل تحته . فقال : « ان اجهل العامة في بيروت ولبنان يقول عنـــد الحَلف على ذمّتي بالكسر » . وبالمُوجَب اقول ان ابلغهم ايضاً يلفظها بالدال المُهملَة مع تسكين الميم المشدّدة . فما رأي الامام ، أيصحّ ان نجري على لفظهم ؟ وهذا مثل قوله واهل بيروت يقولون فحطل او فطحل على تقدير غلط الطبع . والانكليز يقولون بابي . بامالة الالف ، بمعنى الطفل . واهل مالطة يقولون الحب بمعنى الجَيب (نقلاً عن سرّ الليال) . ومـــا اشبه ذلك مما يطول شرحه .

وعلى فرض اني علّقت هذه الحركات بيدي ورآها بخطّ قلمي . فاي غلطٍ جسيم ارتكبته هنا ؟ واية قاعدة خالفتها ؟ وما المعنى الذي فسد بهذا التغيير ؟ . ولعمري ان كل هذا أدنى الى ان يكون غلط طبعٍ من قوله الدراري ، وهو أيسر كثيراً لان غلطة الدراري تقضي بهبوط النجم الى قعر البحر والعياذ بالله . ولا عجب لان فيها زيادة الفٍ وياءٍ . وانت تدري شأن هذين الحرفين اللذين لا يُكنى بهما الا عن كل امرٍ جسيم . فاين مثل هذا في المظنة والذمم ؟ على ان اعتراضه على الذمم هو عين الاعتراض عليه والشاهد بقصوره . فانهم قد اجازوا الضمّ في جمع المكسور ايضاً كالذُمم

والحُلى . جمع الحِلية بالكسر . والعكس في العكس كالصِوَر . جمع الصورة بالضمّ . فتذكّر .

***

في كلمة التصدّي

ثم خطأني في قولي : على ان تصدّي ، بتشديد الياء . قال : والصواب تصدني بلا تشديد . فلا ريب ان هذه احدى آياته وكُبرى معجزاته . وانت تدري ان لكل شيء طرفين بينهما حدّ الاعتدال فكلاهما منحطان عنه ونسبته الى كليهما سواء . ألا ترى ان الانسان اذا تناهى في الشيخوخة تخلّق تارةً باخلاق الاحداث وربما تجاوز فعمّ الشبه . ولذلك قيل : اذا شاب المرء شبّ فيه خلّتان ، الحرص وطول الامل . والظاهر ان هذا من ذاك. وقال الشاعر :

وان البدر أوّله هلالٌ   وآخره يعود الى الهلالِ

وكذا من تناهى في العلم واسراره فقد يلتبس عليه ما لا يلتبس على الاغبياء ، ولذلك ينبغي انك كلما رأيت صاحبنا قد أوغل في ارتكاب الغلط تتخذ هناك دليلًا على شدّة تعمقه في المباحث العلميّة ، وعليه يجب ان تُحمل هذه المسئلة . وان كانت لا تعجبك هذه الفتوى فدونك ورأيك . وما اظنك تحتاج ان اصرّح لك باني عندما انتهيتُ الى هذه المسئلة هممتُ مراراً بترك الجواب اصلًا ، لا استخفافاً بقدر الامام شرّفه الله ، ولكن لان اشغالي لا تأذن لي في التفرّغ لمثل هذه المباحث مما يتطارحه غلمان المكاتب . وشهد الله انه لم يكن يخطر ببالي ان مثل مولاي يغرب عنه امرٌ كهذا ثمّ لا يلبث ان يخطئني به . فسأحمل نفسي مع ذلك على ايضاح هذه المسئلة لئلا تبقى حاجةٌ في نفس يعقوب ، وما أوضحُها له إلا من نصوص الأئمة . رحمهم الله .

قال الامام ابن مالك في ارجوزته المشهورة :

آخِرَ ما أُضيف لليا اكسرُ اذا   لم يَكُ معتلًا كرامٍ وقَذَى

او يكُ كابنَين وزيدِينَ فذي جميعها اليا بعدُ فتحُها احتُذِي
وتُدغَم اليا فيه والواو وان ما قبلَ واوٍ ضُمّ فاكسره يهِن

وفي شرحها لابن المصنف رحمهما الله : يجب كسر آخر المضاف الى ياء المتكلم الا ان يكون مقصوراً او منقوصاً او مثنى او مجموعاً على حدّه. الى ان يقول : واما المقصور والمنقوص والمثنى والمجموع على حدّه فاذا أضيف شيء منها الى ياء المتكلم وجب فتح الياء ، وان يُدغم فيها ما وليته الا الالف فانها لا تُدغم ولا يُدغم فيها . فالياء تُدغم ولا يغيّر ما قبلها من كسرةٍ او فتحةٍ فيقال في نحو قاضٍ ومسلمين : هذا قاضيّ ورأيت مسلمِيّ . الى آخرهِ .

وفيه لابن عقيل : يُكسر آخر المضاف الى ياء المتكلم ان لم يكن مقصوراً ولا منقوصاً ولا مثنىً ولا مجموعاً جمع سلامة لمذكر . كالمفرد وجمع التكسير الصحيحين وجمع السلامة للمؤنث والمعتلّ الجاري مجرى الصحيح نحو غلامي وغلماني وفتياتي وظبيي ودلوي . وان كان معتلّا فامّا ان يكون مقصوراً او منقوصاً . فان كان منقوصاً أدغِمت ياؤه في ياء المتكلم وتُفتح ياء المتكلم فتقول قاضِيَّ رفعاً ونصباً وجرّاً . الى آخره .

وفي الرسالة الوافية للإمام عمرو بن الحاجب : اعلم أن الاسم إمّا ان يكون صحيحاً او ملحقاً به ، او لا يكون صحيحاً ولا ملحقاً به وقد مرّ حكم الاولين . وان لم يكن احد الاخيرين فلا يخلو من ان يكون في آخره الفٌ او واوٌ او ياءٌ . الى ان يقول : وان كان آخره ياءٌ أدغِمت في الياء فيقال في الرامي والغازي : الراميَّ والغازيّ . فان كانت الياء محذوفة للتنوين رُدَّت وادغمت في ياء الاضافة الى آخره .

وفي حاشية الصبّان على الاشموني (قوله فتقول هذا راميّ) فرامي مرفوع بضمة مقدّرة على ما قبل ياء المتكلم ، منع من ظهورها اشتغال المحل بالسكون الواجب لاجل الادغام . الى آخره .

وفي هذا غنيٌ عن غيره من هذا القبيل وان كانت المسئلة لا تحتاج بياناً.

على ان أجهل العامّة في مصر والشام وربما في مالطة ايضاً يشدد في مثل هذا جارياً على الصواب . وما احسن ما قال ابو الطيب المتنبي :

وليس يصحّ في الافهام شيءٌ   اذا احتاج النهار الى دليل

وقد خطر لي هنا ما رأيته مرة في كتاب لبعض الدمشقيين من اهل القرن الماضي خطّأ فيه ديوان ابي الطيب المذكور(١) ، فكان من جملة ما اخذ عليه قولهُ في مديح عَضُد الدولة :

وقد رأيتُ الملوك قاطبةً   وسرتُ حتى رأيتُ مولاها

فما زاد هذا المنتقد على ان قال : فمن اعلمه ان الملوك عابسة الوجوه . وذلك انه لم يفهم معنى قوله : قاطبةً ، فظنهُ من القطوب بمعنى العبوس فأنكره وحكم على المتنبي بالعبث ، فذكرتُ قول المتنبي ايضاً :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً   وآفتــهُ من الفهم السقيمِ

وانما اراد في البيت انه رأى الملوك جميعاً فذهب وهمُ المعترض الى الخلاف . قال الشيخ ابو العلاء المعري في شرحه : ان سيف الدولة أُنشد هذه القصيدة فلما انتهى الى هذا البيت قال : ترى هل نحن في الجملة . اه.

قلتُ وتلك صفةٌ يتزيّ بها كثيرون من امثال هذا المعترض وهم اقوامٌ من المسفسفين قل خلاقهم من الادب وطمحت اطماعهم الى مباراة اهـــل الفضل فاذا تأزلت صدورهم وقصرت هممهم عدلوا الى تخطئة اقوال العلماء وشوهوا عرائس كلماتهم اعتقاد ان ذلك يكون دليلاً على سعة العلم وغزارة المادة . لانه قد تقرر عند مثل هؤلاء ان من ادرك زلة لعالمٍ كأنما ادرك علمه ، وربما سولت لهُ نفسهُ انه قد اسقط فضله واستقلّ به . ورحم الله أبا تمام حيث يقول :

---

(١) للشيخ ابراهيم اليازجي شرحٌ لديوان المتنبي وهو من امتن الشروح وابلغها وادقها . طبع سنة ١٣٠٥ هـ.

واذا اراد الله نشر فضيلة ... طُويَت اتاح لها لسان حَسود
لولا اشتعال النار في ما جاورت ... ما كان يُعرف طيب عرف العود

****

وأما صاحبنا حياهُ الله ، فقد ذكرتُ له بمسئلة تصدّيّ والادغام مسائل شتّى ثبت عندي بها انه يجهل قوانين هذا الباب ولا يعرف احكامه . فمن ذلك قوله في كتاب « الساق على الساق » صفحة ٥٢ : « لا يَغرُرَنَّ الغِرَّ منهنَّ تقىً » . وقوله في صفحة ٦٦٨ : « لا يَغررنكمُ كثير جموعهم » . فكّ الادغام في يغررنّ في الموضعين وهو واجبٌ لان حركة الراء الثانية فيها لازمة لبناء الفعل عليها مع نون التوكيد . ولعلّ الذي ذهب بوهمه الى جواز الفكّ ان الفعل واقعٌ بعد جازمٍ ، فحسب ان الجزم واقعٌ على لفظه وان الحركة فيه عارضة كما في قوله : ومَن يضلل الله فما له من هادٍ . وهو وهمٌ بعيدٌ ، لان حركة اللام الثانية من يضلل في الآية انما أتي بها دفعاً لالتقـــاء الساكنين ، فهي في حكم السكون فلا يجب معها الادغام بخلاف ما هناك كما تقرّر ، وعليه قوله : لا يغرّنك تقلب الذين كفروا . وقال الشاعر :

لا يَغُرَّن امرءاً عيشهُ ... كلّ عيشٍ صائرٌ للزوال

وهو مستغن عن البيان . ولعله يحتجّ بضرورة الوزن كمـــا في قول بعضهم : الحمد لله العلي الاجلل . على انه ما زال عرضة للانتقاد ومثالاً عند الصرفيين للشذوذ وعند البيانيين للخروج عن الفصاحة يحذّرون من ارتكاب مثله . فلا بأس ان اورد له شيئاً من ذلك في النثر ايضاً . فمنه قوله في صفحة ٢٠٠ من هـذا الكتاب : « ان قوماً من الهُككاء » . والصواب الأهكاء كالصحيح والأصحاء ، لان صيغة فُعلاء لا تُستَعمَل في المضاعَف . وقوله في صفحة ٢٢١ : « ويتطالل الى بعض استعارات باردة » . مع ان الفعـل منصوب . وفي صفحة ٥٥٠ : « واذا تطالل واشرأبّ » . وامثاله كثيرة ، وكلّ ذلك مقرّر في علم الصرف ولكنه لم يدخل في علمه . ومن كان هذا مبلغ ما عنده فلينتدب لتخطئة العلماء ومعارضة أولي الفضل ، بل ليعتمد على القذف والتنديد في موضع الحجّة والبرهان . فيا لله .

في عبارة اني مذ اليوم . . .

ومما خطّأني به قولي : وشهد الله اني مذ اليوم لم اكن اتوقّع مثل ذلك . قال : والصواب الى هذا اليوم انتهى . وكأني به لو وقعت له هذه المسئلة لم يفتر ان يورد عليها عبارة صاحب القاموس في اثناء الكلام على منذ ومذ حيث يقول : ويليهما اسمٌ مرفوع كمنذ يومان وحينئذٍ مبتدآن ما بعدهما خبر . ومعناهما الأمد في الحاضر والمعدود واول المدة في الماضي . انتهى . ومثلها عبارة الكليّات والمغني وغيرهما . فان ثبت ان اليوم حاضرٌ كانت مُذ أمداً لمتعلقها ، اي غاية له . ولم يكن في العبارة خطأ سوى سوء الفهم او التعنت في غير محله . والظاهر ان صاحبنا يذهب الى ان ما وافق مفهومه كان صحيحاً ، وما ليس كذلك فهو خطأ وان نصّت عليه العلماء . والذي عندي ان متابعة ارآئهم أولى من متابعة رأيه وان كان ذلك يوجب غيظه مني .

في التعدية بعن وعلى

ومن ذلك قولي : فانه قد حفظ له ذلك زمناً ينيف عن ستين سنة . قال : والصواب على ستين . انتهى . وهنا تعسّف ايضاً واشطّ . فان قصره الصواب على تعدية الفعل بعلى خطأ . والصواب سواغية كليهما جميعاً لانك ان اردت معنى الاستعلاء استعملت على ، او المجاوزة استعملتَ عن بلا خلاف ، وكلاهما محتملان هنا كما لا يخفى . على ان عن قد تأتي لمعنى الاستعلاء ايضاً نحو فقال اني اجبت حب الخير عن ذكر ربي ، اي عليه كما في قوله : فاستَحبّوا العمى على الهُدى .

وجاء في كليّات ابي البقاء رحمه الله : « والزيادة تلزم وقد تتعدّى بعن كما تتعدّى بعلى لانَ نقَصَ يتعدّى به وهو نظيره » اه. فحمل زاد على نقص وهما نقيضان فما رأيك في اناف وزاد وهما نظيران مترادفان. ولعمري ! ما يعترض في مثل هذا مَن له إلمامٌ بالعربيّة واطّلاع على ما ورد في

اسفارها . وانما صاحبنا يرى عبارة في احد التعريفات فيستمسك بها ويظنّ ان اللغة مقصورةٌ هناك . ولو كانت كتب متن اللغة مستغرقة لجميع احكامها مغنيةً عن غيرها لاقتصر القوم عليها ولكان كلّ من حصل منها على كلمات يعيها في صدره او يكتبها امامه قد ملك عنان العربيّة وعرف جميع ضوابطها ودقائقها وما يظنّ ذلك الا القوم الغافلون .

واعلم ان هذا الباب ، اي باب التعدية بالحرف هو من ادقّ الابواب . فطالما ترى الكتّاب يغلطون فيه فيبدّلون بين حرفٍ وآخر على غير هُدًى، وربما عُدّيَ فعلٌ بحرفين او اكثر على اعتباراتٍ هناك فخلطوا بينها فما لبث ان جاء المعنى مختلطاً . وقد وقع الامران لصاحبنا كما سترى . فمن الاول نحو قوله في كتابه « الساق على الساق » صفحة ٩٠ : « فهل سوّل اليك الخنّاس ان تتغزّل » . والصواب سوّل لك كما في قوله : الشيطان سوّل لهم وأملى لهم . وفي صفحة ١١٠ : « وصحو بالي واستعداده الى ما يروق » . والصواب لما يروق . وهو كثيرٌ . ومن الثاني قوله في صدر هذا الكتاب تحت العنوان :

ودرس ثورين قد شُدّا الى قَرَنٍ   افنى وانفع من تدريس حبرَينِ

والصواب ان يقال : شُدّا بقرَنٍ وهو ما يُجمع به بينهما من حبل ونحوه فهما يُشدّان به لا اليه وانما بعضهما يُشدّ الى الآخر او كلاهما الى عود النير مثلاً ونحو ذلك . والعجب ان يخفى هذا على مثل صاحبنا . واذا احتجّ بضرورة الوزن فهي لا تبيح شيئاً إلا بشرط بقاء المعنى صحيحاً، فان ادّى ذلك الى فساده كان مردوداً عند العلماء وعُدّ غلطاً قبيحاً . على ان البيت كله سخيفٌ . وفي قوله : افنى ، ما لا يخفى على كل ذي بصيرةٍ .

في غلط الوهم

واما تخطئته لي في قولي : على ان غلط الوهم لا يخلو منه احد كما اشار ، وزعمه ان الصواب ان يقال : كما اشار اليه ، فما لم اسمع به الا منه ولا خطر لي وجه الخطأ في عبارتي ولا الصحّة في عبارته . والظاهر ان

الامرين لا وجود لها في الموضعين . وهذه احدى خطرات وساوسه المعهودة . لان مرادي في العبارة مجرّد الاشارة فقط دون قصد المشار اليه بها ، وانما ينبغي ان يُعقد الكلام على قدر الحاجة فان تجاوزها كان مخلّاً كما تقرّر في علم البيان . والعبارة على حدّ قوله : فادعُ واستقم كما أُمرت . اقتصر على ذكر الامر دون المأمور به لانه هو المراد مجرّداً . ومثله قوله : ليستخلفنّهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم . وقوله : ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل . وقوله : لو كان معه الهةٌ كما يقولون إذَن لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً . وهو كثيرٌ مستفيض وما نرى له من نكير . فان قُصد المتعلّق هناك او كان المعنى لا يستقلّ بدونه ، وجب ذكره كقوله : وأحسِن كما احسن الله اليك . وقد جمع الامرين كما ترى . وقوله : ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما اتمّها على ابويك . ونحو ذلك فتأمّل .

وبقيَ هنا النظر في ما وقع من الخطأ في عبارة ردّه . فمن ذلك قوله : « كما يصحّ ان يقال مثلاً عظم جدّه وطال جهده . كذلك يصح ان يقال جادّة وجاهدة » . فقوله كذلك بعد قوله كما ، زيادةٌ مخلّة وهي اشبه بالوجه القبيح المبرقع . لان قولك مثلاً كما تزورني كذلك ازورك ، يكون تقديره ازورك كما تزورني كذلك . فتأمّله . ومثل هذه العبارة قوله في كتابه « سر الليال » صفحة ١١ : « وكما جاءت الهمزة بهـذا المعنى كذلك جاء التشديد » . وقوله في صفحة ٦٧ منه : « وكما انه يتوهم في البعثقة زيادة العين كذلك يتوهم » . وفي صفحة ٨٣ : « كمـــا توافق المُبهم والمُصمَت كذلك جاء المُصمَت » وهو كثيرٌ .

ومن ذلك قوله : « ولا عجب من ان هذا المتبلتع يقول مثل هذا[1] الكلام » . وهو اوضح من ان ينبّه عليه ولعله غلط طبع ان كان يسلّم بان صفاف الحروف يغلط .

ومن اغلاطه الفاضحة قوله : « ولم يكن لي همّ سوى في اظهار اصل معاني الالفاظ » ، الى آخره . وهو من التراكيب الغريبة ولعله ناشىء عن شدّة

(١) سقط بعض الفاظ من ردّ الشدياق الاول كلفظة « هذا » وغيرها ، تنبه لها اليازجي فنسبها الى غلط الطباعة .

التعمق في العلم ، على انه تجاوز الحدّ وافرط . والصواب ان يُقال : لم يكن لي همّ في سوى اظهار . او إلا في اظهار . لان اقحام في بين سوى وما يليها وهما متضايفان ، خطأ قبيح كما قرّرت النحاة . والظاهر انه يتوهم الحرفيّة في سوى فيجريها مجرى إلا وهو لا يفرق بينهما . وانت ترى انهم في كتبهم يفردون إلا في باب الاستثناء فيعطونها حكمها ثم ينتقلون الى سوى وغير فيجعلونها في حكم آخر . وفي باب الاضافة يدرجون سوى وغير بين الاسماء الملازمة للاضافة . وفي كتب اللغة يفسّرون سوى بغير ، وربما صرّحوا باسميتها ايضاً . على ان مراده في العبارة الحصر والا نصٌ فيه ، بخلاف سوى كما لا يخفى ، فعدوله اليها معيبٌ لفظاً ومعنى . قلت ومقتضى قوله هذا انه كان مهتماً باظهار اصل معاني الالفاظ فقط وترك سائر الاحكام لاغضاء المطالع وتساهله لو ترك لذلك سبيلا . ومثل هذه العبارة قوله في « سر الليال » صفحة ١٣ : « لم يكن له همّ سوى بمجرّد جمع الالفاظ » . وينبغي ان تنتبه هنا الى انه جرّ ما بعد سوى بالباء ، وهناك جرّه بفي والتركيب في الموضعين واحد . وقوله في الساق على الساق صفحة ٤٢ : « ما الفرق بينهم وبين البهائم سوى باللحى » . وفي هذا ما يغني عن امثاله فقس عليه .

في تخطئة الساق على الساق

ومن اغلاطه في هذا الرد قوله : « ما من شاعر قال شعراً إلا وأُخذ عليه » . والصواب إلا أخذ بترك الواو على مذهب الجمهور . واقبح من زيادتها هنا زيادتها في قوله في الساق على الساق صفحة ٢١٣ : « ولا بد وان يكون عنده كاتب » . ومثله قوله في صفحة ٢١٦ : « فلا بد وان يكون هناك شيء . وفي صفحة ٢٣٥ : « ولا بدّ وان يكون النثر ايضاً مثله » . وفي صفحة ٢٣٧ . « فلا بدّ وان يمشي معه اثنان » . وهذا اكثر من ان يُحصى . وشهد الله لو استعمل هذا اجهل الاغبياء لعُدّ منه قبيحاً .

ومن زياداته المخلة قوله في الساق على الساق صفحة ٤٠ : « تنبّه الغافلين ان وراءها لقولاً شديداً » . فاقحام اللام على اسم ان هنا خطأ شنيع لانها

واقعة في موضع الجرّ بالاداة المحذوفة بعد تنبّه كما لا يخفى ، وذلك يوجب فتح همزتها على انها مفتوحة هناك بالرسم ايضاً . واللام تقضي بتعليق العامل عنها لانها من ذوات الصدر فالتبس الامر واختلط . وعلى حدّه قوله في صفحة ٢١٤ منه : « والذي يظهر لي ان في الهنات والجليدات لضرراً عظيماً » . وهي واقعة في خبر المبتدا . وامثالها كثيرة .

ومن ذلك قوله في صفحة ٤٣ : « وانهم وان يكونوا سيّئي الادب على الطعام فهم متأدبون » . فادخال الواو على إن يُشعر بانها الوصليّة ، وادخال الفاء على جملة الجواب يُشعر بانها الشرطيّة ، وضاع خبر ان . فاحدى الزيادتين خطاء . والصواب اما اسقاط الواو فيكون الشرط وجوابهُ خبراً ، وإما اسقاط الفاء فيؤخذ الخبر مما يليها ويتعيّن كون إن وصلية وجوابها محذوفٌ للاستغناء عنه بالخبر كما تقرّر في علم النحو . ومثله قوله في صفحة ٢٣٧ : « وهما وان اظهرا له الخضوع ففي قلوبهما منه حزازات » . واقبح منه قوله في صفحة ٣٢٧ : « فانه وان يكن مقامه بين الناس كريماً الا انه لا يمكنه » . وقوله في صفحة ١٢٥ : « اني وان كنت بشراً مثلك لكني وكيل » . فما ادري كيف صح عنده هذا التركيب . ويجري هذا المجرى قوله في صفحة ٦٧٩ :

« فاذا رضيت فكل سخطٍ هيّنٌ واذا وصلت فلم أبال بهاجرِ »

فربطُ جواب اذا الثانية بالفاء خطأ مُفسِد لانها تقضي بانفصال ما بعدها عما قبلها وجعله خبراً لمحذوفٍ لا جواباً ، ويكون التقدير فانا لم ابال فتمحّض المضيّ في الفعل وهو عكس المراد لانه مرتب على ما قبله في المعنى . والصواب اسقاط الفاء فينصرف الفعل الى الاستقبال لتسلط اداة الشرط عليه حينئذٍ كما لا يخفى . الا ترى ما قال بعد هذا البيت :

« واذا بقربك كنت يوماً نافعي لم اخشَ شيئاً بعد ذلك ضائري »

فالمعنى هنا صحيح لان الفعل المتحوّل الى المضي بلم قد تحول الى الاستقبال لوقوعه في الجواب مباشراً ، بخلاف الاول لانه واقعٌ في الخبر لا في الجواب كما علمت . ويقابل الزيادة عنده النقص احياناً ، اعني نقص حرف او كلمة

لا شيئاً آخر . وذلك كقوله في صفحة ٥٢٦ من هـــذا الكتاب : « قلت اتعنيهم ام تعنيهنّ » . حذف نون الرفع وهو خطاب للانثى . ومثله قوله :

« الم تفقهوا لابن الحُسين مقالةً   تقيكم عنا غماء فيها تخاطروا »

وفيه حذف النون ايضاً . وقوله :

« فلم يبقَ إلا من درى سؤ رأيكم   به وبدا من امركم ما تحاذروا »

وبين كل ذلك من سخافة التركيب وفساد المعاني في مواضع كثيرة وتعقيد العبارات الى غير ذلك ما لا يخفى على أُولي الذوق السليم .

ولقد اعجبني قوله وهو يعرّض بأبي رحمه الله : « ومن شأن الشاعر اذا تعمدّ ايراد لفظة غريبة ان يتروّى فيها ولا يوردها مجازفةً » انتهى . ومقتضاه ان الناثر لا يجري عليه هذا الحكم . على انه يشير بهذا الى لفظة الفحطل وهي انما جاءت في النثر لا في الشعر ، فما ادري مـــا الذي جاء بذكر الشاعر . والظاهر انه لا يفهم المراد من اطلاق لفظة الشاعر فيظن انه اذا نثر ايضاً سمي شاعراً . ومن كان هذا مبلغ فهمه لم ينكر عليه ان يتفنّح في كلامه بابلغ من ذلك .

ولعمري ! ان اجهل الاغبياء لا يقول كما قال في كتابه « الساق على الساق » صفحة ٦٦٤ : « فاما غيره من التراجين » اراد جمع الترجمان فاحوج الى ترجمان . وهو من الجموع التي لم يسبق اليها لسانٌ عربيّ ، فما ادري أنّى استفاده . والصواب تراجم كزعفران وزعافر على ما ورد في كتب الائمة . فيا ليت شعري أتراه تروّى في هذه اللفظة لما ذكرها ام اوردها مجازفة ؟ ألا وهو الذي يقول في صفحة ٣١ من هذا الكتاب : « تتعقّبني بزلة قلم وبغير زلة » . اراد وبزلة غيرها ونحوه فالتوى عليه المراد ، وان هي إلا زلة . وهذا يقرب من قول القائل : « صدارة عظمى الملك ان افل البدر» اراد صدارة المُلك العُظمَى . فلما قدّم الوصف اختل التركيب وفسد المعنى كما لا يخفى، وعلى حدّ عبارته التي مرّ ذكرها قوله بعد ذلك في حديث المرابض : « فان اراد الشاعر الرجوع الى اصل الفعل كان لا بُد له من

التقييد كأن يقول مثلاً محافل الماء » انتهى . وفيها ما في التي سبقت من نقص التعبير على انها وحدها كافية لنقض جميع ما ماحك به في لفظة المرابض . فانه يشير بها الى انه يصح ان تُستعمَل المرابض للخيل ولكن بشرط التقييد كأن يقال مرابض الخيل حذراً من الالتباس . وهو عين المصرّح به في البيت الذي اخذ عليه هـذا الاعتراض حيث قبل تكثر الخيل في المرابض ان عدّت . الى آخره . فتأمل .

***

ومن ذلك قوله : « اني ذكرتُ في آخر « سرّ الليال » اني سابيّن الغلط الذي وقع فيه في جدول مخصوص بعد ختام الكتاب باسره » انتهى . وهنا التوى عليه المعنى ايضاً ، فانه يقول انه ذكر ذلك في آخر سر الليال، ثم يقول انه سيبين اغلاطه بعد ختامه . فعبارته الأولى تُشعر بان الكتاب انتهى واتى على آخره . وعبارته الثانية تُشعر بان نهايته منتظرة فتدافع القولان . والصحيح انه ذكر ذلك في آخر الجزء الاول من الكتاب لا في آخر الكتاب . اللهم الا ان يكون سرّ الليال اسماً للجزء الاول من الكتاب فقط فلا يكون في المعنى التواء . ولكن يستدل به على سمو قيمة هـذا المؤلف بان وضع له اسماءً كثيرة فجعل لكل جزء منه اسماً مخصوصاً . ويحتمل ان يكون اشار بذلك الى غرابة الكتاب فدلّ عليها بغرابة التسمية . والله اعلم .

ومن ذلك قوله : « اني لما اوردت الفطحل والمرابط نسبتها الى غلط السهو » . انتهى . ومقتضى نصه ان الفطحل والمرابط غلط ، مع انه شاحن وماحك جهده لينسب اليها الصحة ، لا لينسبها الى الغلط فعاد هنـا الى تخطئة نفسه . وامثال ما ذُكر كثيرةٌ في كلامه ، فانك اذا تأمّلته تأمل المنتقد وجدت فيه ما يحملك على العجب من غباوته ومن تهافته مع ذلك على المعارضة والسجال . ورحم الله القائل :

ومن عجب الايام انك لا تدري   وانك لا تدري بانك لا تدري

في المماراة للتحزب

ومما أعجبني في هذا الرد قوله : « فأما قول اليازجي ان قصدي بايراد هذه اللفظة ظاهر ، فالاظهر ان يقال انه ندب اضرابه من اهل بيروت للتحزّب معهُ عليّ » . انتهى . فلا جَرَم انه من التأويلات المُضحكة ، وما ادري كيف استنتجه لله درّه .

ولعمري ! ما ارى في هذا الموقف ما يستحقّ ان يُندَب اليه احد ، ولكن ما زال هذا معظم خوف صاحبنا ومسند امله . فكثيراً ما عرّض به في هذا الردّ فنكّب عني وحزّب اليه ، وهو يظنّ المسئلة قائمة بكثرة المتحزّبين حتى بعثته صفاقة وجهه على ان صرّح في اواخر ردّه فقال : « فليعلمنّ ان المنتصرين للجوائب اكثر من المنتصرين للجنان ولليازجي » . فلا ريب انه كلام أولى ان يزّجه في قعر دوانه ويخجل من ذكره . وما اظن عاقلاً إلا يعذله عليه ويلومه . بل الاظهر انه يريد بكلامه هذا ان يبعث الفتنة ويبني على هذه المناقشة اموراً درست منذ زمنٍ مديد واصبحت هباءً منثوراً . وهيهات ما يتمنى ! فان تلك الاحاديث قد اصبحت في خبر كان وعناية دولتنا العليّة في آثارها يوماً فيوماً . فانها ايّدها الله بعد ان نشرت ما نشرت من ألوية التمدن والعرفان في ممالكها المحروسة وبثّت ما بثّت من نوايا السلام والالفة بين رعاياها قد اصبح ذلك امراً لا مطمع فيه . ولعمري ! ما ارانا في ساحة حربٍ تزدحم فيها الحوافر والاقدام حتى تقتضي كثرة المدَد . ولا ارى الناس في يدي ، ولا اظنهم في يده يندبهم حيث شاء . وانما نحن في مقام جدَليّ تزدحم فيه الافكار ولا ينفع فيه اصطدام الاقلام وكثرتها . وآية الاستظهار بيننا انما هي نصوص الائمة رحمهم الله ، والبراهين العلمية فمن ظفر منا بشيء من ذلك فنعمّا وإلا فما يغني عنه إلا السكوت ، فما الموجب لهذا القول الذميم ؟

****

ومن غريب ما جاء في كلامه زعمه انني خطّأته لأنه رثى أبي رحمه الله .

او كما عبّر نددت به . وهو يحسب التخطئة تنديداً وفيه اعتبارٌ ما . فلا ريب ان هذه كانت اولى حُظيّاته مما اشرت اليه كأنه يريد ان يحمل عليّ أولي الفضل بانني اتيت مثل ذلك في وجه من بادأني بالجميل . غير ان ذلك قد فاته بظهور كلام الفريقين ، ومن وقف على المقالين علم الحقيقة وانصف بيننا واغناني عن الاعتذار . بل الأولى ان يقال انه لم يتلقّني بما تلقاني به هذه المرّة إلا مكافأة لي على احترامي له وحفظي كرامة شيخوخته وعهد صداقته مع أبي رحمه الله ، كما تلقّى أبي بالانتقاد عليه بعد وفاته مكافأةً له على ما تكلفه من مدحه . وبالجملة ارى له ان لا يفتح على نفسه هذا الباب ، اي باب الحقوق الادبيّة لانه قلما يُحمَد فيه .

وأما زعمه اني ادّعي العصمة لأبي رحمه الله ، فذلك ما لم تسبق اليه مني اشارة واستغفر الله من هذه الدعوى لبشرٍ ، فان الانسان ما زال موضع الخطأ والتفريط . بل اذا وصفته بانه قابلٌ الغلط كنت كأنك وصفته بانه قابل العلم مثلاً ، لان كلا الامرين من لوازم الانسانيّة . غير اني اقول انه مع ذلك قد تعبث به الخُيلاءُ ويضرب على بصيرته حجاب الكبر فيتوهم في نفسه العصمة جهلاً وسفهاً ، ثمّ لا يفتر ان يأخذ على الناس سقطاتهم ويترقب هفواتهم . فمثله مَثل الاعمى يعيّر الاعمى بانه لا يبصِر ، وربّما عيّر البصير بذلك ايضاً لاستواء الكل في عينيه حرسهما الله . ومن كان كذلك وجب تنبيهه الى معرفة نفسه واظهار عجزه عن ادراك غلطه فضلاً عن غلط الآخرين، لكي يعلم انه من الضعف فوق ما يرى في نفسه من القوّة وان في غيره بقيّة من فضل الله والله لا يذخر فضله عن أحد .

في المحاماة عن حقوق العربية

ومن غريب هذيانه في هذا الردّ زعمه انه يريد ان يحامي عن حقوق العربيّة . وانه لا يخشى في حبّها لومة لائمٍ ، الى غير ذلك من الاقوال المضحكة . فأما محاماته عن حقوق العربية فما ادري مَن الذي سلمه مقاليدها وأقامه زعياً على اهلها حتى يدّعي لنفسه مثل هذه الدعوى ؟ وكأني به قد

نسي انه دخيلٌ فيها متطفلٌ على موائد اربابها . بل لعلهم رأوا فيه من العلم والفضل ما لم يروا في غيره من علماء العصر ففوّضوا اليه امرها . ولله الامر ولا حول ولا قوّة الا بالله .

وأما زعمه انه من محبّي العربيّة ، فقاتل الله هـذا الحبّ الذي جلب عليها تعفير وجهها وتشويه حسنها وهتك استارها . وما كان ابرّه بها لو انه لها عدوٌ خصيم . ولله قول ابي الطيّب :

ومن العداوة ما ينالك نفعهُ   ومن الصداقة ما يضرّ ويؤلمُ

وكأني بما ذهب اليه في سرّ الليال من ان معنى أحبهُ اصاب حبّة قلبه ، قد صدق هنا فانه كذلك احب هذه اللغة . اجارها الله من كلّ محبٍ مثله . وما احسن ما قال الآخر :

احبابه لِمَ تفعلون بقلبـــه   ما ليس تفعله بـه اعداؤهُ

والظاهر انه يذهب في الحبّ الى ما ذهب اليه ديك الجنّ الحمصي ولا شريك له سواه .

قيل انه كان عنده جارية وغلام يهواهما وكان شديد الكَلَف بهما . فسوّلت له الغيرة او شيءٌ آخر يشتق من اسمه انه ربما مات قبلهما فاستأثر بهما غيره من بعده . فعمد اليهما ليلةً فقتلهما ثمَّ احرقهما فجعل من رماد كلّ واحد منهما باطيةً للخمر . فكان بعد ذلك اذا اشتاق الى الجارية قبّل الباطية المصوغة من رمادها وملأ منها كأساً ثمَّ بكى وانشد :

يا طلعةً طلع الحِمامُ عليها   وَجنى لها ثمر الردى بيدَيها
روّيت من دمها الترابَ وطالما   روّى الهوى شفتّي من شفتيها
وأجلتُ سيفي في مجال خناقها   ومدامعي تجري على خديها
فوحقّ نعليها وما وطىء الثرى   شيء اعز عليَّ من نعليها
ما كان قتليِها لاني لم اكن   ابكي اذا سقط البعوض عليها
لكن بخلتُ على سواي بحسنها   وأنفت من نظر العيون اليها

واذا اشتاق الى الغلام فعل كذلك بباطيته وانشد :

اشفقتُ ان يَرِدِ الزمان بغدره | او أبتلى بعد الوصال بهجره
قمر انا استخرجته من دجنه | لبليتي واثرته من خـــدره
فقتلته وله عليّ كرامةٌ | فليَ الحشى وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتاً كاحسن نائمٍ | والطرف يسفح دمعتي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده | بالحيّ منه بكى له في قبره
غصصٌ تكاد تفيض منها نفسه | ويكاد يخرج قلبهُ من صدرهِ

نعوذ بالله واياه نحتسب .

****

ومما حَسُن عندي موقعه قوله في هذا الردّ : « أما قوله انه كان يلزمني اشعار ابيه باختلال لفظة الفحطل على ما يقتضيه عهد المودّة فهو لا يلزمني ، لان لهذه اللفظة اخواتٍ كثيرة في المقامات فلو اختصصت منها بالذكر لفظة الفحطل لما كنت مصيباً ولاني كنت مترقباً اصلاحها منه ، فلما بقيت على الخطأ نبّهتُ عليها قياماً بحق اللغة فاني لا اخشى في حبّها لومة لائم » اه.

قلتُ ان العبارة التي بنى عليها كلّ هذا لم ترد في كلامي على هـذا الوجه اصلاً ، فما ادري مَن الذي وسوس اليه بها . وما أحسن ما اعتذر به من قوله : فلو اختصصت منها بالذكر لفظة الفحطل لما كنت مصيباً . ولا ادري ما كان يمنعه من ان يذكرها له جميعاً . وما الذي كان يُلزمه بان يختصّ منها لفظة الفحطل فقط حتى يكون غير مصيبٍ . واحسن منه قوله : انه كان مترقباً اصلاحها منه . فما ادري كيف كان يرغب ان يقف على اصلاحها لان الكتاب لم يُطبع مرّة ثانية بعـد . بل ربّما سوّلت له نفسه انه كان من الواجب على أبي رحمه الله ، ان يُشعِره باختلالها بناءً على انه يعتدّ نفسه إماماً للعربية وزعيماً لاهلها ، وصبرٌ جميل . وابدع منـــه تعليله بان الذي اوجب عليه ان ينبّه عليها قيامه بحق اللغة لانه لا يخشى

باب الهمزة

الهمزة من حروف المعاني مخرجها أقصى الحلق. وهي تأتي حرف مضارعة للمتكلم مذكراً ومؤنثاً نحو أقوم. وتدخل في أول الفعل الثلاثي لمعانٍ منها التعدية وهي أشهرها نحو أجلسته. ومنها الدخول في الزمان نحو أصبح المسافر. وقصد المكان نحو أعرق. ووجدان الشيء على صفة نحو أحمدته. وحينونة الفعل نحو أحصد الزرع. والصيرورة نحو أغدّ البعير. والتعريض للشيء نحو أقتلته. والسلب نحو أشكيته. وتدخل في أول الاسم للتفضيل نحو زيد أعلم من عمرو. وللجمع نحو أنفس وفي الإلحاق نحو أبلم وإزيفرة. وتزاد للوصل فيما أوله ساكن نحو اجلس ومنها همزة المنطلق والمستغفر وأشباههما وحينئذ لا تنطق بها إلا في مفتتح الكلام وتسمى همزة وصل.

ووجدان صاحبه الشيء نحو ما [illegible] وأسبعتهم

[illegible] في أول [illegible] نحو [illegible] [illegible] وزنه

وتأتي حرف معنى فتكون مفتوحة مقصورة حرف نداء للقريب نحو أزيد. وحرف استفهام وهي تستعمل لطلب التصديق والتصور في الإيجاب والنفي جميعاً وحكمها أن يليها ما يستفهم عنه بها تصديقاً وتصوراً فتقول أقام زيد في الاستفهام عن القيام وأزيد قام في الاستفهام عن القائم. وتقول أقام زيد أم قعد وأزيد قام أم عمرو تبعاً لما تطلب تعيينه فيهما. وقد تخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي فيراد بها التسوية وهي تقع بعدها مطردة مع أم نحو لا أبالي أذهب زيد أم سافر. والإنكار نحو ألربه البنات ولهم البنون. والتقرير نحو أأنت فعلت هذا. والتوبيخ نحو أتقولون على الله ما لا تعلمون. والتهكم نحو أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا. والاستبطاء نحو ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع

مثال من خط الشيخ ابراهيم اليازجي

من الصفحة الاولى من معجمه « الفرائد الحسان من قلائد اللسان »

في حبّها لومة لائمٍ . وهو يقول : ان لهـذه اللفظة اخواتٍ كثيرة في المقامات ، فكان يجب عليه ان ينبّه على جميعها قياماً بما اخذه على نفسه من حق اللغة . والا فقد وقع تحت ملام اللائم ، وما عُدّ الا خائناً في حق اللغة لانه لم يَقُم به حق القيام فكان مسخوطاً من الجانبين . واذا كان يحسب ان ذلك عليه حق واجب وان كلّ غلطةٍ في اللغة انما يكون هو المُطالب بها فذلك هو عين الحمق . ولعمري لم يَقُلها قبله قائل . وشهد الله لو ادّعى لنفسه هـذه الدعوى جبريل عليه السلام لنازعه فيها الملئكة المقرّبون . واذا كان الامر كذلك فهو اوّل من يحاكم بهذه السُنّة التي وضعها . وقد بينت لك في هذا الردّ من اغلاطه ما لا يكاد يسقط به اغبى الجهلاء وان هو الا شيءٌ او بعض شيءٍ من اشياء . فمن تراه يطالب باغلاطه الكثيرة الفاضحة وكيف توفى اللغة حقها منه ؟

في العصمة من الغلط

واما المقامات فلا ادّعي لها الخلو من الغلط الذي هو دأب كل انسان، واعظمُ شاهدٍ على ذلك انه رحمه الله ، كان قد استدرك فيها ما فاته في الطبعة الاولى من غلط الطبع وغيره كعسفان بالفتح والحَجُوجيّ كدَجُوجيّ والاناآة بالمدّ ، وغير ذلك فنبّه عليه عـلى هامش إحدى النُسخ لكي يُراعى في الطبعة الثانية . وكذلك فعل بسائر كتبه المطبوعة ، وتبارك من اعتصم بالكمال . وقد اشار الى ذلك رحمه الله ، في الكتاب الذي بعث به الى صاحبنا حينما بلغه ان بعض اهل الاستانة يريد طبع المقامات وهو الذي كان فاتحة هذه المناقشة . وليس ذلك من الامور المستغربة بالنسبة الى الانسان ولا هو مما يُعاب به ، وقد قيل : كفى المرء نُبلًا ان تعد معايبه .

وقد وضع بعضهم في تخطئة مقامات الحريري المشهورة كتاباً برأسه ، وبعضهم في تخطئة ديوان ابي الطيب المتنبي وغيرهما في غيرهمـــا من اكابر العلماء والمدّققين . وما برح ذلك دأب العلماء والمصنفين في كل فنّ وزمن، فمنهم من اخطأ ومنهم من خطّأ ومنهم من جمع الامرين وهو اشأمهم .

غير ان صاحبنا لما انتدب للتخطئة في مقام الرثاء اطال الله بقاءه ، وكان مــا خطّأه به في غير موضعه لان الفحطل ليست إلا غلط طبع كما تقرّر والمرابض قد تقدّم من الكلام عليها ما يكفي لاقناع كل ممار عنيــد ، ولاسيما انك قد عرفت منزلة هذا المعترض بين نَقَدة الكلام ، رأيت ان أجيب عن ذلك لقصد بيان ما ذكر لا لقصد الدعوى بالعصمة كما زعم ، فانني لا ادّعي بان ابي رحمه الله كان منزهاً عن الغلط ، كما لا أسلم بان صاحبنا يخلو من الاصابة احياناً وان قال به جماعةٌ من المتعنتين . فما لبث حيّاه الله ان قابلني بالعنف ورماني بسوء المقال وذهب مذهباً لا يليق بالعلماء وبالحري من قام زعيماً بينهم وهو قد تعمم بالمشيب والتم . فما الرأي أأستبيح حرمة من كان كذلك . ام اطرح بنفسي في هـذا المجال والتطخ بما اكره ان ارى غيري ملطوخاً به . بل أجلّ شأن أولي الفضل الذين سيُلقى كلامي هذا بين ايديهم عن ان اقتحمهم بشيء من ذلك . وكنت أحبّ ان ارى سيّدي مواطئاً لي على هذا الرأي عينه ، ولكن الظاهر ان الذي حمّله على تلك الخطة هو اهمّ مما حملني على تركها واجتنابها لانه يقول انه يريد ان يُرضي العلماء . وشهد الله ان هذا ابلغ ما يمكن ان يقال في حقهم ، وهم اجــلّ من ذلك وارفع شأناً . سامحه الله واصلحه .

في الاستعانة بصاحب « الجنان »

وأمّا قوله : « فليستعن بصاحب « الجنان » على تنقيح كلامه » ، وزعمه ان صاحب الجنان ظهيرٌ لي في مناقشته ، فهذيان لا غاية بعده وهو لعمري اصغر مما يزعم وادنى كثيراً . بل مَن تراه يجسر على نقد الكلام وتنقيح خلله في جنب الاستاذ اعزّه الله ، وهو إمام العربية وزعيمها والمحامي عن حقوقها فهو أولى من نظر في سديد القول ومختله وفرّق بين صحيحه وفاسده . وهو أجدر بان افوّض اليه أمري والنظر في تنقيح كلامي وقد فعل اثابه الله . ألا تراه سدّد فقال : « ينبغي ان يُحكم بان الرَبض بفتحتين مأخوذ من الربوض ، لان الربض هو من الاشياء الباطنة ولا يصحّ العكس » .

وان يقال : « تصديني بيآءين مخففتين ومن شدّد مُشدِّد عليه » . وان يقال : « اناف عليه ومن قال اناف عنه فقد اخطأ » . الى غير ذلك مما مرّ بيانه . فما حاجتي بعد كل هذا بالمنقحين وسيدي الامـام متصدّر في مجلس العلماء تُرفع اقوالهم الى مسامعه الشريفة فيخـطّىء بعلمه كلَّ صحيح ويقتصّ منهم لحق اللغة . والامر لله والله خير المنصفين .

والعجب انه قبل ذلك قد لام صاحب « الجنان » على نشره كلامي في جريدته على ما فيه من الخلل ، فما ادري كيف يكون هو المنقح لكلامي وكيف يلام بعد ذلك على نشره له في الجنان مختلاً . لانه ان ثبت انه قد نقحه فقد ثبتت عنده صحته فلم يبق عليه للملام سبيل . وان ثبت انـه قد عرف اغلاطه كما عرفها الاستاذ ونشره في الجنان عـلى غلطه فكيف يدّعي انه قد نقّحه . ولكن ما زال ذلك شأن المولى فقلما تراه بتّ حكماً الا تراه بعد حين بتّ عكسه فتدافعا فاسقط احدهمـــا الآخر . ولله درّه

في تخطئة المقامات

واما ذلك الاديب الذي اشار اليه وقال : « ان هذه المناقشة لا تلبث ان تغريه بتخطئة المقامات من اولها الى آخرها » . فليشفعنّ في جنايتـه كلها اذا كان ذلك يتمّ عن يده . لانني عازمٌ ان شاء الله على اعادة طبعها ، فلعلّ أبي رحمه الله قد فاته شيءٌ من ذلك فينبهني عليه ففوق كل ذي علم عليم ، ويحق له عليّ الثناء الجميل . والمأمول انه اذا تعمد ذلك يعاملني باللطف والرفق كما يليق بمثله ، لا كما فعل صاحب المناقشة وبذلك يُخلص احسانه وما على المحسنين من سبيل .

في نقد قصيدة

هذا وانني لأعلم ان المطالع قـــد ضجر مني وربّما تغيّظ لسبب هذه الاطالة فاقول هنا ان الرد قد آذن بالنهاية والحمد لله لا ينتهي . واسأله

الاغضاء عما لعله طغى به القلم . وان أذن لي اطرفته بشيء آخر احسبه لا يخلو من فكاهةٍ لعلها تشفع في ما اشرتُ اليه ، واظن اني ان لم افعل الآن ربما فاتتني واياه . وذلك انـه قد خرجت في هذه الاثناء قصيدة من نظم صاحبنا في وقائع الحرب الاخيرة ، نشرها في العدد ٥٥٨ من الجوائب . ولما كان هذا الباب لم يزل مفتوحاً ولا احبّ ان اقرعه بعد ان يُغلق كما علمت ، وكان لا يغرب عنك ان لكلّ جديد طلاوة ، لم أجد بدّاً من ان ألحق بهذا الرد شيئاً منها لكي تعلم ان الامام لم يزل مراعياً لحقوق العربية كما ذكر في رده وانه لا يضيع مثقال ذرةٍ منها ان شاء الله . فمن ذلك قوله نفعنا الله به :

فهذه جيوشي وهو فيها محكّمٌ رئيسٌ عليهـــا آمرٌ امر مزيالِ

المزيال الخفيف الظريف فهو منافٍ او مباعد للمقام ، والمعنى يقتضي نحو الحاذق او المحنك ولا محل فيه للخفة والظرافة فتأمّله . وقوله :

واكثرهم صخباً وشغباً واحنةً غرامون شيخٌ ذو هياج وتصهالِ

فقوله صخباً يقتضي الوزن اسكان خائه واللغة تقتضي تحريكها فكل واحدةٍ من الحالتين خطأ من وجهٍ . وقوله تصهال ، الاظهر فيـه انه من قولهم رجل ذو صاهل ، اي شديد الصيال والهياج . ولكنهم قالوا ذو صاهل ولم يسمع ذو تصهال . وسائر معاني المادة لا يناسب المقام . وقوله :

ويا يوم فلّوا في بروت وادبروا شماطيط فلاّ عز عن كل منوالِ

فقوله عزّ عن كلّ منوال لا معنى له . وقوله :

وسار الى حصنٍ يسمّى بفردنٍ يظنّ بـه امناً وارجاء افشال

ففي قوله ارجاء افشال ، نظر والاظهر انه يريد بالافشال ان يكون مصدراً من معنى الفشل ، وبالارجاء التأخير . الا أن أفشَل الرباعي لا يأتي بمعنى الثلاثي . وقوله :

واكثر من هذا ابادتهم الوغى وذلك من بعد اقتحام وقيتالِ

ولا يخفى ما في قوله قيتال ، من الكراهة والغرابة وان اجازه القياس. وقوله :

وقد حصلا في كفّ جرمانيا معاً كمثل لجـــام للفرنسيس تـّلالِ

الاظهر هنا انه يريد بقوله تلال ، ان يكون فعّالا من قولهم : اتلّ الدابّة . اذا ارتبطها وقادها . جعله صفةً للّجام وفيه نظر . على ان في صيغته خطأ فاحشاً لان فعله رباعي لا ثلاثي كما تستعمله العامة فيقال اتلّ الدابّة كما تقدّم ولا يقال تلّها . وصيغة فعّال لا تبنَى من افعَل الرباعيّ الا في الفاظٍ شاذّة تسمَع ولا يقاس عليها ، على انها في غاية الندور . قال الشيخ أبو زكرياء التبريزيّ في شرح ديوان الحماسة لابي تمام الطائي رحمهما الله : ليس في الكلام أفعَل فهو فعّال الا احرف يسيرة وهي اسأر فهو سأّار وادرك فهو درّاك واجبر فلاناً على كذا فهو جبّار ، واقصر عن الشيء فهو قصّار . اهـ. وقوله :

فان جيوش الامبراطور اعتقت من الاسر بعد الصلح من دون اقلالِ

فقوله من دون اقلال ، لا معنىً له في هذا الموضع ولكن ساقته القافية. وقوله :

ومن عوز القوت الذي سدّ بابه عليهم معادوهم ولا سدّ ادحالِ

الادحال جمع دحل . قال صاحب القاموس : هو نقبٌ ضيّق فمه متّسع اسفله حتى يُمشى فيه . او مدخلٌ تحت الجرف او في عرض خشب البئر في اسفلها او خرقٌ في بيوت العرب يُجعل لتدخله المرأة اذا دخل داخلٌ. والمصنع يجمع الماء . اهـ. وفي ذلك ما يُوصَف بالضيق وليس في الكل ما يوصف بالسدّ فتأمّل . وقوله :

اذا كان فعل المرء شاهد عقله فمن هذه الافعال اشهاد اخبالِ

وافوّض اليك النظر في قوله اشهاد اخبال . لعله يُخرّج على وجـــهٍ سديد . وقوله :

وقـــام بأمر الجمهوريـــة ناهضاً تيار ومعه اهلُ شُورى وانقال

تقطيعه

وَقَامَ . بِأَمْرِلجَمْ . هُوْزِنِيَ . تِنَاهِضَنْ
فَعُوْلُ . مَفَاعِيْلُنْ . مَفْعُوْلُ . مَفَاعِلُنْ
تِيَارُ . وَمَهْوَاهُ . لُشُوْرَا . وَأَنْقَالِي
فَعُوْلُ . مَفَاعِيْلُنْ . فَعُوْلُنْ . مَفَاعِيْلُنْ

فوزن المصراع الاول لم يحكه الخليل ولا روته علماء العَروض . والظاهر انه لاحقٌ بامثاله من مخترعات اخفش هذا العصر .

على ان في سائر القصيدة من الركاكة والتعقيد وعدم الانسجام مع استعمال كثيرٍ من الالفاظ الحوشية النافرة ، الى غير ذلك ما لا يخفى على الشعراء والعلماء فاقتصرتُ هنا على ما ذكرته منها خوف الاطالة . هذا واني في كل ذلك لم اتعرّض لعبارة « الجوائب » على ما فيها من الخلل الفاضح لاحتمال ان يعتذر فيها بالعَجلة ، وان كان هذا العذر لا يليق بمثل الامام . على انه اعتذر به في « سرّ الليال » فما ظنك به في الجوائب . وأمّا هذه القصيدة فلما كانت مما اقتضى سهراً طويلاً وكدّاً عنيفاً وتوسّلاً ملياً . وقد استدرك ما فاته من اصلاحها في العدد ٥٥٩ من الجوائب لم يبق فيها احتمالٌ للاعتذار بشيء من ذلك .

في اعتذار

وهنا لا بدّ ان اقول ان هذه المناقشة كلها لم تكن مني عن رغبةٍ ورضىً ، ولا انا ممن يتهافتون الى التخطئة والانتقاد لغرضٍ ما . وكان بودّي استئصال هذا العِرق من بيننا لو وافقني عليه والمحافظة على عهده مع أبي رحمه الله وكرامته فوق ذلك بالنظر الى سنّه فضلاً عن عدم التعرّض له بما يكرهه . ولكن قُدّر فكان ، والفضل للمتقدم .

في اتفاقات غريبة

وهنا يحسن ذكر ما وقع من الاتفاقات الغريبة في هذا الصدد ، وذلك اني بينما كنت يوماً مع صاحب لي ممن ينتسبون الى المولى وقد اخذنا في الحديث ، جرى بيننا ذكر الصحائف والجرائد فسألني ان اكتب شيئاً في تخطئة عبارة « الجنان » وابعث به الى الجوائب لِيُنشَر فيها . فقلتُ : ليس ذلك من دأبي ولا غرض لي فيه ، والحازم من اشتغل بالنظر في عيوبه عن عيوب غيره فان وثق بعصمته فليفعل ما شاء . فلما يئس مني قال : فعبارة ادبيّة او سياسية او شيئاً آخر يؤثره عني . قلتُ : انا دون ان افعل ، مع اعتدادي ان مثل ذلك انما يكون ضرباً من التطاول على شيخ كبير يعدّونه من العلماء المتبحرين فاني اهاب ان اتحرّش بـه . فاخذ يَصِف لي من مودّته وحبه لأبي رحمه الله وخلوص صداقته ما لم انكره وقتئذٍ ، والحّ عليّ بمطارحته وتجديد ذلك العهد معه حتى هممت ان اكتب اليه رسالة حبيّة واشفعها بلغز[1] من نظمي يكون به الافصاح عن نوايا الودّ والمصافاة . فلم يمضِ على هذا الحديث ثلثة ايامٍ حتى وردت الجوائب وفيها الانتقاد على أبي رحمه الله ، فكانت فاتحة المكاتبة بيننا . بيّض الله وجهه .

في فائدة المباحث والمطارحات

وشهد الله اني ما كنتُ لاكره الخوض في هذه المطارحات والمباحث الدقيقة فانها لا تخلو من فائدة لي او له لو انه حافظ على شأني وشأنه ولم يتجاوز الى امر الهجاء ، فاني شديد الكراهة له . ولقد طال اعتباري عند قوله في رثاء أبي رحمه الله :

ما كان يهجو ولا يُهجَى ولا حجبت ذُكا قريحتـــه احلاكُ حدثانِ

وقوله ايضاً فيه :

فلم يُضع ساعةً من عمره عَبثاً ولم يضع قوله في غير احسانِ

---

(١) كان من عادة الادباء في ذاك العصر ان ينظموا الالغاز في معانٍ مختلفة بغية حلها بالنظم ايضاً ؛ فاحب الشيخ ابرهيم ان يجري جريهم في هذا المضمار .

في الختام

فأمّا الآن وقد عدل الى ما عدل اليه ، وقد بيّنت للواقف على هذه المناقشة مبلغ ما عندهُ من العلم فلا يلزمني بعدها مساجلته ومناظرته والتعرض لسهام قذفه ، لان آدابي ليست كآدابه واطواري ليست كأطواره ، ولا ارى له بعدها حقاً في الدخول الى مجلس المساجلين ، ولا رأي لي في مواطأته على ما ذهب اليه . ومعاذ الله فذلك من قِبَلي باب مُحكم التوصيد .

ليس الوقيعة من شأني فان عرضت   أعرضتُ عنها بوجهٍ بالحياء ندِي
اني أضنّ بعرضي أن يُلِمَّ بـهِ   غيري فهـل اتولى خرقه بيدي

انتهى

ابرهيم اليازجي



[illegible]

كان تمام تحريره ومقابلته بيد أحقر الناس فارس بن يوسف الشدياق
في كانون الثاني في قرية الحدث في ساحل بيروت [illegible] سنة

مثال من خط فارس الشدياق بالسريانية

غضبة الشدياق على البستاني

ان من الاسباب التي حملت الشيخ فارس الشدياق صاحب الجوائب ومحررها ، على ان يغضب غضبته على المعلم بطرس البستاني مؤلف محيط المحيط ، وقطر المحيط ، ومنشئ الجنّة والجنان ، هي : اولاً المشادّة بين مراسل الجنان في لبنان ومراسل الجوائب في مصر بشأن صحة رواية بعض اخبار . وقد جرّت آخراً فارس الجوائب الى خوض الميدان ، فردّ على مكاتب الجنان تحت اسم صديق له يُدعى مخائيل عبد السيد ، بمقالٍ مرصوص كالبنيان وافتتحه بما يلي :

« نحمدك اللهم على ما اعطيتنا من الحكم البالغة والبراهين الدامغة والادلة القاطعة والاقيسة الساطعة وارشدتنا الى محجة الطريق وهديتنا الى لاحب التوفيق ، ومننت علينا بالمنن الوافية والاقوال الشافية ، وافحمت بها كل مكابر حسود ودحضت كل قول مردود ، فاصبح صحيح جمعه مكسوراً ونصف قدّه مشطوراً . . . ومن سلك هذا المسلك الاعوج ، وحذا هذا الحذو فضلّ المنهج ، مكاتب « الجنان » فانه قد موّه كلامه بالذلاقة والدهان خلاف ما قام عليه البرهان وثبت بالعيان . . . الخ » (الجوائب ، عدد ٥٣١ ، ٢٣ تموز ، سنة ١٨٧١) .

وثانياً التنكر له لظنه ان المعلم بطرس البستاني هو الذي حرّش به الشيخ ابرهيم اليازجي وعاونه في وضع ردّه عليه ، وقد نشره له في مجلة الجنان ، لذلك غضب الشدياق على البستاني غضبة استفزّته فانقضّ عليه بمخالب قلمه الحديدي ، فنقد اولاً أعلى عبارة الجنان لمحررها ابنه سليم وارتدّ الى قاموسه « قطر المحيط » ففلّاه وغربله ونخله بمقال عنوانه « تصويب سهام التغليط على قطر المحيط » ، ثم هجا مؤلفه بقصيدة مُرّة وبيتين من الشعر قالها الشدياق في لغة مجلة الجنان وفي كتاب للبستاني يسمّى « سياحة مسيحي » ذيّلها بهذه العبارة : « وهي (اي السياحة) من بيروت الى جميتا مسافة ساعتين وخمس دقائق وثانيتين » ، وابان ايضاً بمقال عن السبب الذي جرّه الى مثل هذا المدوان ، وحداه على تسديد سهام يراعته الى المعلم بطرس البستاني منشيء صحف الجنة والجنينة والجنان وصاحب التآليف العديدة المفيدة ، فرماه بقوارص الكلام وجرّده من كل محمدة واحسان ، وذلك امر لا يجوز ان يطغو على وجدان ، فان لكل امرىء حسنات وسيئات ، وجلّ من لا عيب فيه وعلا . (كتب الاديب سليم نوفل مقالاً مسهباً في نقد عبارة مجلة الجنان ، نشره في الجوائب عدد ٥٣٦ ، ٢٣ آب ١٨٧١ ، وفي الاعداد التي تليه) .

والى القارىء ما يلي من سهام الشدياق . قال تحت هذا العنوان :

جواب صاحب الجنان

عمّا كتبه في عدد ١٨٢ « من الجنة »[١]

قال صاحب الجنان : « احسن شيءٍ نصدّر به جريدتنا ، الشكر الجزيل لاصدقائنا الكثيرين المقيمين في هذه المدينة ، وفي الشام واسكندرية وحلب وطرابلس ولبنان وانكلترا وغيرها ، الذين طلبوا الينا ان ننشر لهم ما حرّروه وبعثوا به الينا ، وما وعدونا بتحريره ردّاً على صاحب الجوائب الخ . »

والجواب : اني لما قلتُ ان المنتصرين للجوائب اكثر من المنتصرين لصاحب الجنان ولابن اليازجي ، كنتُ اعلم حقّ العلم : ان الطيور على آلافها تقع . وانه لا بدّ من ان يكون لصاحب الجنان اصحاب على شاكلته ، فأذكّره الآن بمثل اللبؤة والارنب ، فان شآء ان يُشهر ما كتبوه على طريق المناظرة والأدب فهو في حلّ من ذلك . وان كان على طريقة الهجو ، فللجوائب ايضاً من يحمي ذمارها بهذه الطريقة وبأشدّ منها . ولكن العجب من ان صاحب الجنان لم يذكر اصدقاءه الكثيرين في صيدا ويافا وحيفا وعكا واللاذقية واسكندرونة وغيرها . وأعجب من ذلك قوله بعد هذا : ومشرب قراء جريدتنا الذين افادونا مواجهةً وكتابةً انهم يرون كما نرى نحن الصواب في الاقلاع عن التقريرات المغايرة ردّاً على صاحب الجوائب . فمن هم اولئك الاصدقاء الذين يرومون نشر ما كتبوه ردّاً عليّ ؟ ومن هم هؤلاء القراء الذين يرون الصواب في الاقلاع عن النشر ؟

وحاصل الكلام : ان صاحب الجنان يروم ان يتهددني بكثرة اصحابه واصدقائه ، وانه معتمد على هذه الكثرة . فليستفزز من استطاع منهم بصوته ، وليحشد اليه كل من توسم فيه الشر والسفاهة ، وهم كثيرون . حتى ان انكلترة على بعدها لم تخل منهم . فكلام مثل هؤلاء لا يضرّني شيئاً ، وان هو إلا كسراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاء لم يجده شيئاً . وما كان الله ليجعل للمبطلين على المحقين سبيلا .

---

(١) الجوائب عدد ٥٨٢ ، من سنة ١٨٧٢ .

لا جَرم ان صاحب الجنـــان هو المبطل وهو المشاغب وهو المفتري المعتدي وهو المتهافت على الشر ، لانه هو الذي فتح باب الخصام والنزاع ، بان أغرى بي ابن اليازجي وأعانه على السفاهة والتنديد ، ولو كان ذا رشد لما جعل الجنان آلة لسفاهته ، بل كان يقول له ان مطابع بيروت واوراقها كثيرة . فان رمت السفاهة فانشرها في غير الجنان . ومع ذلك فانه يزعم ان جريدته انما أنشئت لتهذيب القوم وارضاءً للنساء اللطيفات . فيا لها من من فريّة وركاكة ! فان جلّ المراد من الجنان والجنّة انمـــا هو الاغراء والتحريش كما يعلم ذلك من طالعها . أما الجوائب فهي التي يصدق عليها انها انشئت لخدمة الوطن وللحثّ على التمدّن ومكارم الاخلاق . وكفاني شاهداً على ذلك ما كان كتبه الي ذو المقام العالي ، واللفظ المزري باللالي، امير الامراء المفخم حضرة سعادتلو حسين باشا التونسي ، من تقريظ عـلى سرّ الليال . وهو قوله :

« امّا بعد فقد تشرّف ودودك يا احمد الحلال وفارس ميدان الكلام والكمال بمطالعة تأليفك الاغرّ : « سرّ الليال في القلب والابدال » الذي لم تسمح قريحة بمثاله ، ولا نسجَ لغويٌ فيما علمت على منواله . فلم ادر بعـد التأمل بماذا اهنيك وأحليك . ثمّ بأي ثناء جميل اثني عليك . ابنصيحتك وارشادك في صحائف ارسالك وانشادك واستكشافك مما خفي من مصالح الأمة ، كشف الله عنها كل بليّة وغمّة ، مشيراً الى ما ينبغي ان تكون عليه سياسة ملكها وتأسيس انتظام سلكها ومناضلتك عنها دون اضدادها والطاعنين في محاسن لغتها وشريعتها من اضدادها . ام بجمعك ما تفرّق من اشتات العربية وابدائك لما خفي من كنوز اسرارها الادبية . ومن لي بمدح من فاق اقرانه واستعمل في مرضاة الله بيانه ، وحبس ايامه عـلى ايضاح اصول السياسة وتهذيب فروع واجبات الرئاسة ، ولياليه على بيان اسرار اللغات ومبانيها واستذكاء نباريس معانيها الخ . »

وما كتبه هذه المرّة الفاضل البارع سليم افندي نوفل ، حيث قال :

« ومن العجب ان يتغاضى عمّا لصاحب الجوائب من المآثر الجمّة ، وعمّا

اختصت به لغته من الرشاقة والسعة ومحاشاة التكلف ، ومن حسن السبك والانسجام مع السهولة والاتيان ابداً بمعانٍ مفيدة تدور على مثلها براعة ابرع الكتّاب والمتكلمين في اوربا والمشرق خلافاً الذين جعلوا صحائفهم عبارة عن حجةٍ شرعية لتساقط الآداب في بلادهم ، او عن سجل مفتوح لتعليق المدائح الغثّة لكل عابر سبيل من ولاتهم مما يؤول في الحقيقة الى اعابة كلٍّ من المادح والممدوح على حدٍّ سوى . وحسبهُ فخراً ان جوائبه هي الصحيفة الوحيدة التي تحاكي الصحائف الاوربية في كل من مقاصدها واسلوبها . وانها الصحيفة الوحيدة التي فتحت لها ابواب المدارس الكلية في اوربا الخ . »

فهذان شاهدان عدلان وكاتبان بارعان غير محتاجَيْن الى ان يتملقاني ويطرياني . فليأتنا صاحب الجنان بمثلها شاهداً على ان صحيفته أنشئت لافادة الناس ؟ لا جَرم انها لم تُنشأ الا لمعاداتهم وهضم حقوقهم . فقد نشب اولاً في كاتب « النحلة » وما زال يغري به حتى ابطل صحيفته . وفي اثناء هذه العداوة كان الكاتب المذكور يرسل الينا مقالات شتى طعناً فيه . والتمس منا ان ننشرها في الجوائب فأبينا مجانبة للنزاع لا خوفاً منه . كما انّا أبينا نشر الرسائل التي وردت الينا طعناً في صاحب « النجاح » ثمّ نشب في « حديقة الاخبار » ثمّ في « البشير » وآخر ما فعله ارضاءً للنساء اللطيفات فتح باب النزاع معنا ، وما كفاه ذلك حتى أوهم الناس انّا معتدون عليه . فمثَله كمثَل العقرب تلدغ وتصيء .

امّا قوله : « ولكن اين ذلك من تقريرات صاحب الجوائب المومااليه ، فنحن بواد وهو بواد ، فاننا نبذل الجهد في القيام بما فيه رضى دولتنا التي انما سمحت بانشاء الجرائد لتمكين علامات الاتحاد والالفة والمحبة بين تبعتها المحروسة وترقية اسباب التقدّم الادبي الصحيح الذي انما هو اساس التقدّم الماديّ الخ . »

فجوابه : ان جملة السياسة التي يصدّر بها جنانه مشحونة بالقدح الخفيّ في الدولة العليّة . وممن تنبه لذلك اللبيب اللوذعي ميخائيل افندي عبدالسيد

المصري واورده فيما انتقد به عليه من كلامه . ولو انّنا اردنا التعرّض له لفضحناه . فالظاهر ان صاحب الجنان لا يفهم كلام ابنه . او انه يظنّ ان الناس لا يفهمونه . او انه لما كان معتقداً بان العلماء واصحاب الرئاسة والسيادة لا يقرأون كلامه لسخافته وركاكته جعل دأبه الطعن في الدولة بنوع من الالغاز والرموز تشفياً لما في خاطره منها . فان انكر هذا أخرجنا له من تلك الجمل الف شاهد عليه .

ويا ليت شعري كيف تتأتى له ترقية اسباب التقدّم الادبي وهو خالٍ من الادب؟ اذ لو كان عنده مثقال ذرّة منه لما تحرّش بي من دون ان أسيء اليه بشيءٍ . وناهيك انه لما عزم على انشاء الجنان ارسل اليّ اعلاناً بذلك فنشرته في الجوائب وتمنيت له الخير والنجاح .

ولما ان ارسلتُ نسخاً من « سرّ الليال » هديّة الى اصحابنا في بيروت، خصصته بواحدةٍ منها ظناً بانه من جملتهم ، واذا به قد اتخذه ذريعة للعداوة فصار يعيبه ويخطّئه . ولما ان اتمّ كتابه الذي سماه : « قطر المحيط » لم يرني أهلاً لنسخةٍ منه . وهذا يُغتفر بين الاودّاء اذا تأكدت مودتهم ، إلا ان اغراه ابن اليازجي على تخطئتي ليس مما يُغتفر . فان أنكر انه أغراه فلا يمكنه ان ينكر انه كان شريكاً له وظهيراً . وها هو الآن يتهددني بكثرة اصدقائه في الديار الشامية حتى في بلاد الانكليز مأوى اللصوص الفارّين . وما درى قول الشاعر :

واذا أتتك مذمتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي باني كاملُ

فان كان فيهم من يقول : « خلّاك تقدح كي تلقى على اللهب » أو : « يا ابن الذي استسمنوه وهو ذو ورَم » فلينُبض قوسه .

أمّا قوله : « وما لنا من الحقوق السياسية عليه انما هو متروك الآن » . فقدماً تهدّد بهذه الحقوق مكاتب الجوائب . فاقول له الآن كما قال المكاتب المذكور : ايّ حقٍ لك عليّ وانت البادىء بالعداوة ؟ والبادىء أظلم وجزاء السيئة سيئة مثلها . فهل بلغ من حمقك ان تظنّ انك تنشر تخطئتي في اربعة أعداد

من الجنان أو خمسة ، ثمّ اقول لك جزاك اللهُ خيراً ؟ كلا ! والله ليس ذلك من دأبي ! فاني آخذ بقوله تعالى : ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثـل ما اعتدى عليكم ، وبقول الشاعر :

ومن وضع الاحسان في غير أهلهِ　　يكن حمدهُ ذماً عليه ويندمُ

أمّا قولهُ : « وفي كل حال لا نتمنّى له ولامثاله إلا الرجوع الى الصراط » . وانهُ وأمثالهُ على طريق الضلال ، ولو كان ذا هديٍ لنظر في عيوبه اولاً من قبل ان ينظر في عيوب غيره . إلا ان يكون قد ادّعى العصمة كما ادّعاها ابن اليازجي لابيه . واعود فاقول ختاماً للمقول : ان صاحب الجنان هو الذي بادهني بالعداوة . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

نقد أعلى عبارة الجنان

تحت هذا العنوان اثبت الشيخ فارس الشدياق نقده لعبارة مجلة الجنان لمحرّرها سليم ابن المعلم بطرس البستاني، وقد استعار اسم صديقه المذكور مخائيل عبدالسيد، فنسب النقد اليه وصدّره باسمه وهو(١) :

مِن الناس مَن اذا حضر احد المحافل اخذ يتقعّر ويتشدّق ، ويعجب بنفسه ويتحذلق ، ويخبط باقوال فارغة ، زاعماً انه شنّف آذان مَن حضر بالفاظٍ سائغة ، وأدّى المراد بمعانٍ رائقة وباقوالٍ فائقة ، وانه بثّ عليهم دررَ فوائد كافية وغرر فرائد وافية . لولاه لما انكشف عن مخدّراتها ولا انحلّت عقود معضلاتها ، وانه اتى بما لم تأتِ به الاوائل ، بل انه فاق في الفصاحة سحبان وائل . وبالاختصار يزعم انه قد أفرغت عليه جميع الكمالات العلمية وكافة العلوم الادبيّة ، ولم يقتصر على مجرّد الوهم او يستند الى الزعم، بل يأخذ يثني عـــلى نفسه بالجميل ويبالغ في الاطراء الجزيل ، تارةً بطريق التلميح وطوراً بالتصريح ، فيخدع بعض الحاضرين بتمويهه ومغالطته وشقشقته وزخرفته ويصيحون قائلين انـه لخطيبٌ مصقع وشاعرٌ مفلق وعالمٌ نحرير وفيلسوف نقريس وكاتب بارع وما شاكل هذه الاوصاف ، فيستسمن السامعون ذا ورمٍ ، وينفخون في غير ضرمٍ ، ويظنون السراب ماءً ويلتبس عليهم تمييز الغثّ من السمين والخسيس من الثمين . وكذا حاله فيما اذا انتحل بعض المواد ، ثمّ خصّها باسمه ليُعدّ من المؤلفين الذين وفوا بالمراد ، فانه كثيراً ما يمدح نفسه بصريح العبارة ، او بالكناية والاشارة فيقول : ان كتابي هذا لم يُنسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، كيف لا وانا اعظم من الاخفشين مع انه اخفش العينين ، وانا العالم العادل ، مع انه لا يزيد على غمرٍ جاهل . وقد كثر في هذا الزمان من اتصف بهذه الاوصاف الجميلة والدعاوى الرذيلة ، فكم انسان عـلى حقوق العلوم تعدّى وللتأليف

(١) الجوائب ، عدد ٥٥٩ ، ٢٠ ك١ سنة ١٨٧١ ، السنة الحادية عشرة .

تصدّى ، فخبط خبط عشواء ، وضلّ في سُحُب الجهالة السوداء . ولذا قيل: ما كلّ مَن ألّف اجاد ولا كلّ من قال وَفى بالمراد . ومع ذلك يقول : انا وكتابي الخ. هذا ولما كان الكون لا يخلو من اناسٍ خصّهم الله بقرائح وقّادة وبصائر وفكرة نقّادة ، قام وانتصب البعض لردع كلّ من ابتلي بهذه الصفات التي صارت له ذاتيّة وليست باوصافٍ عرضيّة . عسى ان يعرّجوا عن هذا السلوك الذميم والانتفاخ الوخيم .

****

ولما كان صاحب « الجنان » قد تكفّل في هذا الزمان باحياء رمم اللغة وتحسينها على حسب زعمه كما ورد في جنانه وذلك بالتشابيه والاستعارات الجنانية الغير السماعية ولا القياسية كما يُعلم مما سيأتي ، وليس ذلك فقط بل بكثرة الالفاظ التي لا تفيد معنىً تاماً ولا يتحصل منها على شيء ، كفاك بهذا الدليل ان « الجنان » هو مشحون من تراكيب ليست بعربية ولا اعجمية وان كانت الفاظها عربية .

تنبيه = اعلم اني لم اتعرّض للردّ على جميع اجزاء الجنان سوى الجزء ١٦ ، ولم اتعرّض لردّ جميع عبارات هذا الجزء الفاسدة سوى بعض جملٍ من اوائله ، وقد تركتُ هذا الامر في يد احد الاحباء الالبّاء .

فان كنتُ ناقلاً فالصحة ، او مدّعياً فالدليل . وها انا ساقيم الدليل. فأقول: ان هذه الجملة الطويلة الواردة في الجنان جزء ١٦[١] ، هي خالية اولاً من الانسجام ، لان الانسجام هو ان يأتي المؤلف بعبارة خالية من التعقيد منسجمة كانسجام الماء في انحداره حتى يكاد لسهولة تركيبه وعذوبة الفاظه ان يسيل رقةً . وثانيـــاً من الايجاز الذي اعتنت به فصحاء العرب ، فان غالب كلامهم مبنيّ على الايجاز والاختصار واداء المقصود من الكلام باقل عبارة . وثالثاً من حسن النسق ، وهو ان يأتي المتكلم بالكلمات من النثر وغيره ، متتالياً متلاحماً تلاحماً سليماً مستحسناً مستقيماً ، وتكون جملها ومفرداتها

(١) وردت في الجزء السابع عشر لا السادس عشر . الجنان سنة ١٨٧١ .

متسقة متوالية . فهذه الجملة اذا اخذتها ووزنتها على هذا المعيار وجدتها خالية من هذه الصفات وعارية عن هذه الكمالات .

ولا بأس بالتكلم بالتفصيل على الجملة الاولى وهي قوله : « هاكم العصر ينادي بالنائين عنه هبّوا » . فاقول : ان اول ما يتبادر الى ذهن المطالع هو ان هاك اسم فعل امر بمعنى خذ . وهذا هو الشائع المفهوم عند الاطلاق ، ولذا اقتصر اغلب المحققين على هذا المعنى ، فقال « الصبّان » : « هي اسم فعل بمعنى خذ والكاف حرف خطاب تتصرف تصرّف الكاف الاسمية » الخ . وعليه فالمعنى خذوا العصر وهو فاسد . وربما يقول ليس المراد بها إلا التنبيه ، فالجواب انه لو عبّر بقوله ها هو العصر لكان وافياً وذلك لان حسن البيان انما هو عبارة عن الابانة عما في النفس بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس ، لان المراد منه اخراج المعنى الى الصورة الواضحة وايصاله الى فهم المخاطب ، فيجب مراعاتها على كل مؤلف ولاسيما من تصدّى لفائدة الجمهور . واذا كان المراد بلفظة ها ، الزجر كما قال بعضهم ، قلت : لم يثبت بعد للمخاطبين صفة ذميمة حتى يسوغ له ان يزجرهم عنها وذلك لان الهلية البسيطة متقدمة على معرفة العوارض .

وأما قوله ينادي بالنائين عنه هبّوا . فهذه العبارة وحشية ليست جامعة لشرط من شروط الانشاء التي هي اولاً : ان يستعمل المؤلّف ما يُفهم معناه فلا يرتكب الغريب من اللغة ولا الوحشي من الالفاظ ليكون الكلام سلس القياد ظاهراً في تأدية المراد . وثانياً : ان يجتنب ما يخلّ بالالفاظ والمعنى . وثالثاً : ان يهذب كلامه وينقّحه ويحرّر بالنظر والفكر فيه فيُسقط ما يجب اسقاطه ويُصلح ما يتعيّن اصلاحه ، ويحرر الفاظه ويبيّن اغراضه ومعانيه بحيث لا يقال فيه : لو كان غير هذا لكان احسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن . فهذه العبارة غير مشتملة على شيء من هذه الشروط . فانه لو عدّى المناداة بنفسها كما هو الجاري المستعمل ، لسهلت العبارة نوعاً . فان السهولة هي خلوص اللفظ من التكلّف والتعقيد والتعسّف والاتيان بالفاظ واضحة تتميّز عما سواها عند من له ادنى ذوق . وهي معدومة من هذه الجملة . ولا تتوهمنّ اني انكر تعدية نادى بالباء ، ومعنى

النائم عنه الغافل العديم المبالاة ، ولكن ليست سلسة القياد ولا ظاهرة في تأدية المراد . وكذلك اللفظة التي بعدها التي اخجل من التصريح بها لسخافتها وقس على ذلك بقية الجملة . فاني قد تعرَّضت لبعض الفاظٍ اوليَّة أظهر فيها براعته وفصاحته دون البقية . وليس الاعتراض موجهاً بالاَخص على الالفاظ بل على المعاني التي كثيراً ما نبَّه عليها البيانيّون وغيرهم .

ولنختم الكلام الآن بايراد هذه العبارة من « السعد » وهي : انه ينبغي المتكلم شاعراً كان او كاتباً ان يتأنق ، اي يتتبع الاحسن في ثلاثة مواضع حتى تكون اعذب لفظاً بان تكون في غاية البعد من التنافر والثقل واحسن سبكاً بان تكون في غاية البعد من التعقيد والتقديم والتأخير الملبّس ، وان تكون الالفاظ متقاربة" في الجزالة والمتانة والرقة والسلاسة ، وان تكون المعاني متناسبة لالفاظها من غير ان يُكسى اللفظ الشريف المعنى السخيف او العكس . واصح" معنى بان تسلم من التناقض والامتناع والابتذال ومخالفة العرف ونحو ذلك .

أما قوله : « ورفرف نسر النصر » . فهذه عبارة مبهمة ، فانه لا يُعرف اي نصرٍ هو . وكان عليه ان يصرّح ويعرب عما في ضميره حتى تنجلي مثلًا باضافة النصر الى شيء ما .

****

وقوله : « رقصت بنات المعارف في مراسح الطرب » . اقول اولاً : ما مراد هذا الكاتب المتشدّق بلفظة المراسح ، فانّا لم نرَ لها معنى في كتب اللغة يناسب الرقص والطرب . قال صاحب القاموس في باب الحاء : الرسح محرّكة : قلة العجز . والفخذين . وكل ذئب أرسح لخفة وركيه . والرسحاء : القبيحة ج رسح . ومثلها عبارة الصحاح والمصباح . فاذا صغنا من هذه المادة اسم مكان ، كان المعنى ان بنات المعارف ترقص في الاماكن التي فيها العجز والافخاذ قليلة اللحم . وهو من المعاني التي تفرّد بها صاحب «الجنان» في هذا الزمان . فهلّا قال مراتع الطرب . فان قيل ان اهل بيروت يستعملون المراسح بمعنى المراتع ، قلت : ان صاحب الجنان قد انتدب في

جنانه لتعليم جميع ابناء العرب لغتهم ، كما انتدب لتهذيب اخلاقهم . فهو اذا قال شيئاً فانما يريد به اسماع كل العرب من حاضرٍ وبادٍ . وناهيك انه ارسل معتمداً من قبله الى الاسكندرية ليغري ابناء العرب فيها بالذهاب الى بيروت ليتعلموا اللغة العربية في مكتبه [1]

فيا ادباء بيروت ، ويا خطباء الشام ، ويا ألباء حلب ، هلّا تغارون على هذه اللغة الشريفة من امثال هذا الصلِف المتكبر المنتفخ الزاعم بانه قد جاء في هذا العصر باسلوبٍ غريبٍ في الانشاء . أما علماء مصر فما اخالهم يقرأون الجنان حتى يعنوا بنقده ، بل مجرّد اسمه عندهم دليلٌ على الحمق .

واقول ثانياً : ما المناسبة بين البنات والمعارف . وما هو الجامع والعلاقة الرابطة بينهما ؟ فان الاستعارة انما يراعى فيها ان يكون وجه الشبه شاملاً للطرفين ، كما ان التشبيه المقبول هو ان يكون وافياً بالغرض بنفسه او بواسطة عرفٍ او اصطلاحٍ خاص . فهذا التشبيه هنا خالٍ عن هذه الشروط التي يجب مراعاتها على من يدّعي العلم ، وانما هو تخيّل بمن صبا الى البنات والرقص وتوهّم ان ذكر ذلك يشوّق السامعين الى استماع هذيانه . واقبح من ذلك قوله بعد ذلك : « الغنج والاعجاب » . لعمري ان هذه الفاظٌ انثوية ليست بعربية ولا عجمية والمقام لا يقتضيها ، لان القائل هو في معرض حثّ الناس على اتباع الهدى وايقاظ الغافلين وحثّ الكسالى على تحصيل الفضائل والابتعاد عن الرذائل . ولهذا عيب على الشاعر قوله :

والهُ عن آلة لهوٍ أطربت   وعن الأمرد مرتجّ الكفلْ

غير اني رأيت ان كاتب الجنان قد ولع بلفظة الغنج فكررها في خطبه المعسطلة غير مرّة . وقد اضحكني كثيراً قوله في احدى نسخ « الجنة » : انه قد مضى عليه مدة ولم يستعمل الالفاظ اللغوية فقد حان الوقت لاستعمالها . والقصد من ذلك حثّ الناس على شراء كتابه الذي ألّفه في

(١) انشأ المعلم بطرس البستاني مدرسةً في بيروت سماها المدرسة الوطنية ، وهي اول مدرسة تأسست فيها ، وكان من اساتذتها الشيخ ناصيف اليازجي ، ومن تلامذتها الشيخان ابرهيم اليازجي وعبدالله البستاني

اللغة[١] . لكن ينبغي ان يعلم ان هذا الكتاب فاسد الترتيب بالكلية ، لانه يورد فيه الالفاظ بحسب ترتيب الحروف الابجدية ، فيكون ايراد استكتب مقدماً على كتبَ . وهذا الترتيب وان ساغ في اصطلاح الافرنج إلا انه في العربية لا يسوغ اصلاً . فالظاهر ان تأليف هذا الكتاب انما هو للافرنج لا للعرب ، كما ان عبارات « الجنان » الغريبة الحوشيّة انما هي لتهذيب أضرابه من اهل بيروت خاصة ، لان اسلوبها غير عربي فلا يمكن ان تروق احداً من علماء العربية . او لم يحثّ اهل الادب في لغتنا على مراعاة براعة الاستهلال في المنظوم والمنثور ، لانه اول ما يطرق السمع كما حثّوا على مراعاة المقطع لانه آخر ما يعلق به الطبع . وها إنا نرى صاحب الجنان لا يتحاشى من ابتداء الكلام بالالفاظ السخيفة والمعاني المرذولة ، وليست عاقبته بأحسن من أولاه .

فمن الابتداءات المستهجنة قوله في اول الجزء السادس عشر : « لقد اصاب من قال ان الدنيا تدور في هذا العصر على نحيف رأس القلم الاصلع[٢] او لم يبلغ هذا الكاتب الاسكع ما تقوله الشعراء في الرأس الاصلع ؟ وما كفاه هذا حتى نسب هذا اللفظ السخيف الى غيره . فمن ذا الذي قال هذا ؟ ولِمَ استحيَ من ذكر اسمه ولم يستحي من ذكر هذا الرأس .

اما قوله بعد ذلك : « ان من قبض على قبضته قد قبض على سلاحٍ فتاك » . فكان ينبغي ان يقول : فقد قبض . وقبضته هنا لا معنى لها . ومن ذلك قوله في ابتداء الجزء الخامس عشر : « لماذا لا يولد الجنين رجلاً، ولماذ لا تنبت البزرة شجرة ، ولماذا لا تشبّ الشرارة أتوناً ، ولماذا لا يتعلم الولد عند درس الف باء منطقاً ، ولماذا لا يثمر الزيتون اجاصاً » . فانظر الى هذه الاسئلة الغثّة الباردة . فاذا صحّ ان يُسأل بمثل هذه العبارات صحّ لنا ان نسأل ايضاً : ما بال سليم البستاني لم يولد بطرس ،

---

(١) يريد به معجم محيط المحيط

(٢) المقال لسليم البستاني ابن المعلم بطرس البستاني ، عنوانه « الدفاع » . كما وان له ايضاً المقال الذي استهل به الجزء الخامس عشر من الجنان وعنوانه « لماذا »

وما بال بطرس لم يولد سليماً . واعلم انه قد تكون عبارتان مبنيتين على معنى واحد وتفضل احداهما الأخرى في حسن السبك ومتخيّر الالفاظ ولتقديم الكلام وتأخيره . وهذا لا يدركه إلا ذو الذوق السليم ، لا من عرف النحو والصرف ، ولا من تناول طرفاً من اللغة . فمراد هذا الكاتب في هذه الاسئلة ان يقول . ان الله تعالى جعل للكائنات احكاماً لا تتعداها، فمن هذه الاحكام ان الشيء لا يأتي من اول وهلة كاملاً ، وانما يأتي على التدريج كمثل الولد الصغير ، ولا ينشأ إلا على الفطرة التي فطره الباري عليها ونحو ذلك ، فعدل عن القول المأثور واتى بهذا الاستفهام المنكور .

فان كان مثل هذا الهذيان يسمّى كلاماً لم تكن الكتابة صنعة يعتنى بها ، ولم يكن للفصاحة والبلاغة مزية ، وهذا من بلايا هذا الزمان . فاني ارى اكثر الذين تعلموا اللغات الافرنجية من ابناء العرب المسيحيين صاروا يحاولون ان يجعلوا العربية تابعة لتلك اللغات . وليست هذه الخصلة في تلامذة مصر ، فانهم مع كونهم قد تعلموا جميع اللغات الاجنبية لم يزالوا محافظين على العربية محافظة تامة ، فاذا عرّب احدهم شيئاً من تلك اللغات ، سبكه في قالب العربية بحيث لا يُشمّ منه أدنى رائحة للعجمة ، يعلم ذلك كل من طالع « روضة المدارس » حيث يرى فصولاً متعـــددة من هؤلاء التلامذة في غاية البلاغة . مع انه لم يدّعِ احد منهم كما ادّعى صاحب الجنان بان الله قيّضه في هذا العصر لإحياء العربية .

فمن تلبّس بهذه الدعوى وجب عليه ان يجري على سنن العرب فيتحرّى الالفاظ الرائقة المستعملة المأنوسة ويعدل عن التشبيهات البعيدة كقوله فيما تقدم : رقصت بنات الافكار في مراسح الطرب . وعن الاحالة كقوله : « لانه اذا كان الانسان متقدماً في كل الامور خلا امر واحد يكون متأخراً في ذلك الامر » . فهذا مثل قولنا : اذا كان زيدٌ قاعداً فهو قاعد، واذا كان نائماً فهو نائم . فمثل هذا لا يُعدّ كلاماً وانما هو مجموع الفاظ متتابعة . وهناك عبارات غامضة يقصد بهـــا كاتب الجنان مقاصد بعيدة لا يفهمها إلا هو والذين اطلعوا على مقاصده ، وذلك كقوله : « لانها هي الدليل

الذي يمكّننا من الوقوف على حقيقة حالنا نظير افراد ، وعلى حالتنا نظير امّة ودولة » . فقوله هنا نظير ، هو كما يقول الانكليز از والفرنسيس كُوم. وحاصل المعنى بالعربية : على حقيقة حالنا باعتبار إنّا افراد وعلى حالتنا باعتبار انّا أمّة ودولة . فليبين لنا كاتب الجنان معنى الدولة وكيف يصحّ اطلاقها عليه . ولأي سبب لم يقل يمكننا من الوقوف على حقيقة حالنا باعتبار كوننا افراداً وأمّة مجتمعة ، او من حيث كوننا افراداً ومن حيث كوننا أمّة. لكنه عدل عن التعبير العربي الفصيح وأتى بلفظة نظير ، ليعادل بها اللفظة الانكليزية . ومع هذا فانه يدّعي باحياء اللغة العربية . فيا لها من دعوى ! ويا لها من نفخةٍ ملأت بطن هذا الكاتب ودماغه وحواسه فصار يرى ان كل ما يجري به لسانه وقلمه فهو حسنٌ معجب . و مثل ذلك قوله : « لان تغاضي الحكومة الماضية جعله (اي جعل الفلاح) مفتقراً الى عناية الحكومة الحاضرة ، ولا يلزم ان نقول ان الحكومة الآن لا تلتفت اليه الالتفات العادل او تلتفت اليه الالتفات اللازم » . فحاصل هذا الكلام ان التفات الحكومة اليه بين بين ، اي ليس بالمحمود ولا بالمذموم . فعلى والي سورية ومتصرّف الجبل ان يفهما معناه ويشكراه على ما اتاه .

الشدياق يهجو البستاني

اننا نثبت هذه القصيدة التي نظمها صاحب الجوائب في هجو المعلم بطرس البستاني، تسهيلًا لدراسة ادب الشيخ فارس الشدياق من جميع نواحيه ، واعطاء صورة حقيقية عنه . وهذه القصيدة من آخر ما وقفنا عليه من قصائد الهجو . قال(١)

بعد ان تم ترتيب الصفحة الثانية والثالثة من « الجوائب » ورد الجزء الثالث من « الجنان » وتصفحنا ما فيه من البهتان فعجّلنا الى جوابه بهذه الابيات :

ألا قولوا لعاثٍ في الجنانِ ... بعيثُ ، تعستَ ، انك شرّ جانِ
لأنت هو المنـــافق والمرائي ... ومدهونٌ لسانك بالدهانِ
وزدت على النفاق الغبنَ لـمـا ... أبعتَ القطر(٢) ، بئس الخصلتانِ
فكيف يجوز بيعٌ او شراءٌ ... على سفرٍ تضمّن كل ذانِ
وكيف اخذت درهمهُ حراماً ... فيا لك من خبيثٍ مرقعانِ
ولولا الغشّ لم تلبس قميصاً ... ولم تقدر على لطع الخوانِ
ولو كانت لك التقوى شعاراً ... لما بعت الخنى بيع الجمانِ
لقد علم الطهاة بكل قطرٍ ... بانك شرّ من لحس الاواني
وانك ان سكعت غداة يومٍ ... لأكل السحت او بزل الدنانِ
تُرى مرحاً وتركض مقذحراً ... وتكرف عند رؤيتك القناني
كأنك ضفدعٌ نقّت بليلٍ ... وظنّت صوتها نَغَم المثاني
فلما بان(٣) ضوء الصبح ثاخت ... وخلّت نتنها ملء المكانِ

---

(١) الجوائب ، عدد ٥٧٢ ، ١٤ شباط سنة ١٨٧٢ ، السنة الحادية عشرة

(٢) معجمه قطر المحيط

(٣) تنبيه : (وهو للشدياق) مضارع بان بمعنى ظهر ، يبينُ ، لا يبانُ كما قال صاحب الجنان قال عمرو بن كلثوم :

ورثنا المجد قد علمت معدٌّ ... نطاعن دونهُ حتى يبينا

***

وهرٌّ صائحٌ في حال صحوٍ «بنوٌّ»(١) دائمٍ في كل آن
عهدتك قبلُ نهّاقاً ولكن اراك اليوم نبّاحَ الزمان
نبحتَ عليَّ من بُعد وترجو نجاتك من يديَّ على امان
أتطمع ان تبادهني بشرٍّ وتسلم من يراعي او لساني
فــلا والله اني راشقٌ في حشاك بسهم هجوٍ ذي سنان
فيخرج من فؤادك كلّ غشّ ومكرٍ وافتراءٍ للعيان
واني جالبٌ خيــلًا ورجْلًا عليك من الاباعد والأداني
ستسقى كأس ذلّ واحتقار وتلبس صاغراً ثوب الهوان
وتدري ما اكتسبت من المخازي وتعلم ان شانك غير شاني

وباقي الجواب يُهدى اليه في مقامةٍ ، ان شاءَ الله تعالى

وقال الشدياق في لغة الجنان وفي كتاب يسمّى (سياحة مسيحي) للبستاني:

كابدتُ من زمني كوارث جمّةً وأمرّها في مرّهــا ثنتانِ
لغة الجنان اذا هذت في مدح قا رىء لغوها وسياحة « البستاني »

---

(١) فصيحها موءٌ . من ماءَ يموء وهو صوت الهرّ

تصويب سهام التغليط على قطر المحيط

لصاحب الجوائب

ان نقد الشدياق لقطر المحيط ، يريك مقدرة فارس ميدان البلاغة وتضلّعه من لغة الضاد وتعمّقه في دراستها واحاطته باصولها وفروعها واوضاعها واحكامها ، وتدرك بداهة ان صدره وسع كل معاجمها فدرسها وحذقها حذقاً قلّ من ضارعه به وجاراه حتى اصبح جديراً بان يقول كلمة الفصل في كل بحث يتعلّق بها . وهو اوّل من سطر كلمةً في نقد هذه المعاجم نقداً علمياً لغوياً في صحيفته «الجوائب» وفي كتابه « الجاسوس على القاموس » . وان نقده لمحيط المحيط نبّه الشيخ ابرهيم اليازجي الى هذا المعجم فصحح عدّة اخطاء وردت فيه وعلّق تصحيحها على هامشه اثناء مطالعته له ، فتألّف من هذه الاستدراكات او التصحيحات كتاب جمعه الدكتور سليم شمعون وجبران النحاس وسمّياه « تنبيهات اليازجي على محيط البستاني » وطبعاه في الاسكندرية سنة ١٩٣٣ ويقع في مئة صفحة كبيرة ، وهو لا يتعدى مادة الهمزة التي بدأ بنقدها الشدياق ، وان مواضع الاخطاء فيها التي خصّها الشدياق بالذكر ، هي عينها التي اشار اليها اليازجي في تنبيهاته المذكورة .

وقد اشار الشدياق الى نقده لهذا المعجم في عدد ٥٦٦ من الجوائب ، ٢٠ ك١ ، سنة ١٨٧١ ، بما نصه :

« قد ذكرنا في الجوائب السابقة اننا لا نجيب الخواجه ابرهيم اليازجي إلا بعد ان يفرغ من كلامه . لكن تبين لنا ولاصدقائنا من علماء الاستانة ان امتلاء قلبه بالحقد علينا لا يحمله على الفراغ . فلهذا بادروا الى الرد عليه اولاً الى ان تمكننا الفرصة من المدافعة عن نفسنا ، لان كثرة اشغالنا الآن تمنعنا من ذلك . فعن قريب نشرع في ادراج ما قالوهُ في هذا المعنى ، ثم نشرع في نشر ما ورد الينا من ادباء مصر وغيرها وما سيرد ، فان المناضلين عنا ولله الحمد كثيرون .

وقبل كل شيء نشرع في تخطئة كتاب اللغة الذي ألّفه صاحب « الجنان » وخبط فيه خبط عشواء ، ثم في تخطئة ديوان الشيخ ناصيف اليازجي ومقاماته ، ولا عبرة بما افتراه ابنه من ان اباه كان تنبه لغلطه فاصلحه ، فانه تمويه اراد به تثبيط الناس عن تخطئة ابيه . ونبشّر الآن صاحب الجنان ان اصدقاءنا المشار اليهم وجدوا له في مادة : ا ح د وحدها ، عشر غلطات لا يرتكبها إلا من احبنطى بالترهات . فعليه ان يبصر الجذع الذي في عينه قبل ان يحملق في القذى الذي في عين غيره . وان على الباغي تدور الدوائر . وفي الجوائب الآتية يرى ما لم يكن يخطر له ببال » .

وقد باشر الشدياق بنشر نقده هذا تحت العنوان المذكور ، في سلسلة اعداد من الجوائب ، افتتحه في العدد ٥٦٦ ك٢ افتتاح سنة ١٨٧٢ ، بعد ان وطّأ له بكلمة ، واننا نثبت هنا مثالاً منه قال :

باسمك اللهم يا قاهر البغاة ومدمّر الطغاة

اما بعد فاني صبرت في شهر رمضان على سفاهة ابراهيم اليازجي لانه شهر الصبر والتطهير والتقديس فلم يكن من اللائق التعرّض للنجاسة. ولقد تبين لي وللناس جميعاً ان تلك السفاهة لم تكن للقيام بحقوق ابيه كما ادّعى فاني لم التّ من حقه شيئاً وانما نسبتُ اليه في لفظة او لفظتين غلط السهو الذي لا يسلم منه احد مع اني رثيته بما لم يرثه به ظهير ابراهيم على الوقاحة اعني صاحب الجنان، وهو دليل على ما لي من حسن القصد وصفاء النية . فما كان من ابراهيم المذكور إلا ان تبعّق عليّ بالسفاهة والتنديد والبذاءة والتفنيد وتمادى في تخطئة الفارياق وسرّ الليال حتى تجاوز حد الادب وترجم عن نفسه ونفس ظهيره انهما كانا يترقبان الفرصة لمعاداتي ، فافّ لكل حسودٍ كنود . لا جرم ان ايراد لفظة الفحطل لم يكن سبباً لهذه المعاداة ، وانما السبب الحقيقي هو الحسد واللؤم وعن ذلك تشفّ عبارة ابن اليازجي من اولها الى آخرها . فقاتل الله كل حسود ولئيم وكل باغٍ ذميم . ولو كان لي نيّة على تخطئة الشيخ ناصيف لما عجزت عن ان اجد في ديوانه ومقاماته كثيراً من الالفاظ الواردة على خلاف الاصول العربية لان الشيخ المذكور لم يكن يتقيّد بالالفاظ ولا بالمعاني بل كان يقذف بالكلام قذفاً كأنما يرمي به من مقلاع وذلك كقوله في رثاء موسى بسترس :

هذا الذي تعد الأم البنين به	منذ الولادة قبل الرهز في السرر

فانظر ما مراده بالرهز هنا . وكقوله ايضاً في رثاء المذكور :

يا صاحبي زر ثرى موسى الكريم وقل	يا اكرم الترب هذا اكرم البشر

وكقوله في مدح ملكة الانكليز :

قد هاج إلا عليها الخلف غارقة	فيه الملوك ولم يلحق بها بلل

فانظر ان كان هاج وعليها وبها بلل ، يُذكر لامرأة من عامّة النساء فضلاً عن ملكة . وما كفاه هذا حتى ضبط الخلف بالكسر وهو بالضم .

وكقوله في مدح المرحوم عزّت باشا :

يا زائراً بيتي اراك فتنته   فعليك بيتٌ غيره من مثله

فنسب الفتنة الى كل من الممدوح وبيته

وكقوله في مدح الامير بشير شهاب :

اوقدت يا كليب بعدك نارٌ   سال منها في الحيّ قلب الجماد

وكقوله :

اقول لمقلتي لما رأته   أهذا من رجونا ان تريه

وهو محض ذمّ . فلو قال هنئتِ بدل أهذا لسلمَ من العيب

وكقوله :

وشَدَت فأطربت الجماد وهيّجت   حتى علمنا كيف يُحيي البوق

فنسب الاحياء الى البوق ، وهي لفظة مستهجنة وقس على ذلك سائر كلامه .

أمّا اغلاطه في النحو والصرف واللغة فاكثر من ان تُحصر وكل ذلك نذكره بالتفصيل في محله ان شاء الله تعالى . امّا ما ذكره ابن اليازجي في احدى نسخ الجنة من ان اباه كان تنبّه لهذا الغلط فقيّده في بعض نسخ كتبه ، فهي دعوى داحضة ، اذ لو كان الامر كما قال لكان من الواجب على ابيه ان يشهر هذا الغلط في احدى الصحف المطبوعة ، وانما هي مغالطة يريد بها صرف الناس عن التخطئة . فاني كنت قلت ان هذه المناقشة لا تلبث ان تغري بعض الادباء بتخطئة المقامات من اولها الى آخرها . فعلى من يموّه هذا السفيه مينه وافتراءه . وما عدا ذلك فلم يكن من المحتمل ان الشيخ ناصيف كان يتنبه لغلطه مع ما كان عليه من الدعاوى الطويلة العريضة ولاسيما ان نصارى بيروت كانوا يعتقدون انه اشعر اهل زمانه . فكيف يحتمل انه كان يحملهم على غير هذا الاعتقاد ، ولأن هذه الاغلاط كثيرة منها ما يوجب تغيير الوزن ، ومنهـــا ما يوجب تغيير القافية فمن الاول قوله :

مضى بجمع الافضال وهي عبيده

فالافضال مذكر لانه مصدر افضل كالاحسان مصدر احسن . وانما اخذه من كلام العامّة فانهم يقولون : أفضالك العميمة .

ومن الثاني قوله :

شاعرٌ ينظم القوافي عقوداً دونها في الرؤوس عقد الأكله

وصوابه الاكاليل

وقوله :

اليك اشكو اشتياقي فارعني سمعك بمن على كرم الاخلاق قد طبعك

فالسمع ساكن ولا يجوز تحريكه لانه ليس من باب الشعر والنهر مما اوسطه حرف حلق ، فاذا جاز تحريك الميم من السمع جاز ايضاً تسكين الصاد من البصر فتفسد اللغة .

* * *

ثم قبل الشروع في تخطئة كلام الشيخ ناصيف وفي الردّ على ابنه ينبغي ان نعرّج على تخطئة صاحب الجنان في كتابه الذي الّفه في اللغة العربية وسمّاه : « محيط المحيط » اشارة الى انه اربى فيه على القاموس المحيط . كما ان الشيخ ناصيف ادّعى الفضل على الحريري فجعل مقاماته ستّين ، وانما عمدنا الى تخطئة صاحب الجنان اولاً لأنا رأيناه محبنطئاً بالكبر والعنجهية والغطرسة والعيدهيّة والتطول والتمدّح والتبجّح والمفاخرة والمباهاة حتى كاد يفسد اللغة ، ولانه هو كان محضّاً للتحريش وسبباً في سفاهة ابن اليازجي إلا إنا لم نظفر الآن بمحيط المحيط وانما ظفرنا بمختصره الذي سمّاه : « قطر المحيط » وهو كاف في اظهار جهله وفضح كبريائه ، فلعله يرتدع بعد ذلك عن ان يقول : « كتبنا ومصالحنا ودوائر اشغالنا » . وهذا اوان الشروع والله يخزي المتكبرين .

قال : الاب ، الكلاء او المرعى او ما انبتت الارض ج أوب (بفتح الهمزة الاولى وضم الثانية وتشديد الباء) فقبل الكلام على هذا الجمع ينبغي ان نضع هنا قاعدة يُرجع اليها في كل ما كان من هذا القبيل وهي : انه اذا تفرّد احد بنقل حرف ما من اللغة وكان غير امين في النقل ولا صادق في الرواية ولاسيما اذا عُرف بالتحريف والتصحيف وجب عليه ان يذكر اسم

من نقل عنه والا فيردّ عليه نقله . فهذا المحيط ذكر جمع الأب على هذه الصيغة ولم نرَ له جمعاً في الصحاح ولا في الكليات ولا في المصباح ولا في القاموس ولا في حاشيته ولا في شرحه تاج العروس الذي جمع فأوعى . فان كان له جمع فقياسه على ابوب كحب وحبوب . وما احسن ما قاله هنا في سر الليال من ان الاب من معنى القصد .

ثم قال مؤلف القطر : أب يئب ويؤب أبّاً وأبيباً وأباباً وأبابة هزم بحملة . والشيء حرّكه ، وللسير تهيأ . والى وطنه أبّاً وابابةً (بالكسر والفتح) اشتاق ويده الى سيفه ردّها ليسلّه . الى ان قال : وأبت أبابته : استقامت طريقته . وعبارة القاموس أب للسير يئب ويؤب أبّاً وأبيباً وأباباً وأبابةً تهيأ ، والى وطنه أبّاً وأبابةً وابابة بالفتح والكسر اشتاق ويدهُ الى سيفه ، ردّها ليسلّهُ . الى ان قال : اب ابه قصد قصده ، وابت ابابته ويُكسر استقامت طريقته . . . واب هزم بحملة لا مكذوبة فيها ، والشيء حرّكه . فالمفهوم من اصطلاح القاموس بعد ذكره لاب أبه اي قصد قصده ، ان مصدر أب بمعنى هزم بحملة واحدة هو الاب وان المضارع مضموم خلافاً لترتيب صاحب الجنان ، على انه لم يروَ في أبت ، ابابته غير الفتح .

***

ومن ذلك قوله : ابثه يأبثه ابثاً سبعهُ عند السلطان وعبارة القاموس : ابثه يأبثه وابث عليه سبعه عند السلطان . فكان ينبغي له ان يذكر تعديته بعلى ، لان من يذكر الابرشية والاخور وامثالها من الفاظ العجم لا يعذر على الاختصار .

ومن ذلك قوله : في ا ب د الآبِدة الداهية يبقى ذكرهـا ابدأج ابد (بضم الهمزة وتشديد الباء وفتحها) واوابد والاوابد ايضاً الوحوش والقوافي الشرد . وعبارة القاموس والاوابد الوحوش لانها لم تمت حتف انفها كالابد (بضم الهمزة وتشديد الباء) والدواهي والقوافي الشرّد . فقولهُ كالابد يرجع الى الوحوش لا الى الدواهي ، هكذا اصطلاحه .

ومن ذلك قوله في ا ب ر . الآبار الرصاص المحرق ولم يذكرهـا صاحب القاموس ، فكان عليه ان يبيّن مأخذها . وقوله : المئبر والمئبار : بيت الابرة والنميمة ج مآبر ، والمئبرة كالمئبر . وعبارة القاموس : والمئبر كمنبر موضع الابرة والنميمة وافساد ذات البين كالمئبرة وما يلقح به النخل وما رقّ من الرمل . فقوله كالمئبرة يرجع الى افساد ذات البين خاصة لا الى موضع الابرة . هكذا اصطلاحه .

ومن ذلك قوله الابريز والابريزي من الذهب الخالص الصافي . فارسي معرّب . وليس في عبارة القاموس ما يدلّ على انه معرّب . والأولى ان يكون من معنى البروز ومثله في المآخذ الجوهر .

ومن ذلك قوله : الابريسم والابريسم الحرير معرّب ابريشم بالفارسية، ضبط الاولى بكسر الراء وفتح السين ، والثانية بفتح الراء والسين ، والثالثة بكسر الراء وضم السين . وعبارة القاموس في باب الميم : الابريسم بفتح السين وضمها الحرير او معرّب . فقوله او يدلّ على الخلاف فيها

خلافاً لجزم مؤلف القطر بكونها معرّبة مع ان صاحب القاموس كثيراً ما يقول في اللفظ العربي الاصيل انه معرّب كما في الجاموس .

ومن ذلك قوله في الابريق انه يجمع على اباريق وابارقة ولم يرو القاموس والصحاح والمصباح غير الجمع الاول وهو القياس . وفاته هنا الابريق للمرأة الحسناء وهي اولى من الابرشية .

ومن ذلك قوله : الابزيم والابزام الذي في رأس المنطقة ج ابازيم، فارسي معرّب . وليس في القاموس والصحاح ما يدل على كونه معرّباً ، والاظهر انه من معنى البزم بمعنى العض ومن هذا المأخذ البزيم للخوصة يشدّ بها البقل . فقد رأيت من هذا القدر القليل ان هذا المحبنطي عامل على افساد اللغة العربية وانتحال محاسنها للغات الاعجمية .

ومن ذلك قوله في ا ب ض والماشية خلّاها والشيء سكن وتحرك ضد . والابض (بالضم) الدهر او الابد وباطن الركبة ومن البعير باطن المرفق ج آباض . وعبارة القاموس والابض التخلية ضد الشدّ والسكون والحركة وبالضم الدهر ج آباض ، وقال اولاً والمأبض كمجلس باطن الركبة ومن البعير باطن المرفق كالابض بالضم . فقوله كالابض بالضم يرجع الى باطن المرفق خاصة لا الى باطن الركبة خلافاً لعبارة قطر المحيط . ثم ان قول صاحب القاموس والابض التخلية ضدّ الشدّ مطلق، وصاحب القطر قيّدها بالماشية فلا ندري كيف يتصرّف في عبارة الاصل من غير تحرج . قيّده الله بسيئاته .

ومن ذلك قوله في ا ب ل : الآبل الشديد التأنق في رعي الابل والشاه . ضبط الباء من الابل بالفتح والصواب الكسر . قال في القاموس . ابل كنصر وفرح أبالة وابلاً فهو آبل ، وابل حذق مصلحة الابل والشاه . وانه من آبل الناس من اشدّهم تأنقاً في رعيتها . فقوله : فهو آبل ، وابل الاول اسم فاعل يعود الى وزن نصر ، والثاني على وزن كتف يعود الى فرح فهو من اللف والنشر المرتّب . فكأن هذا المحبنطي ظنّ من قول القاموس : وانه من آبل الناس ان اسم الفاعل بفتح الباء . وعبارة الصحاح وابل الرجل بالكسر يأبل ابالةً مثل شكس شكاسةً وتَهِه تَهاهةً فهو أبل (ككتف) وآبل اي حاذق بمصلحة الابل، وهو من آبل الناس اي من اشدّهم تأنقاً في رعية الابل واعلمهم بها .

ومن ذلك قوله : الابالة والابّالة (يعني بتشديد الباء وتخفيفها مع كسر الهمزة) السياسة وشيء تصدر به البئر ، والحزمة الكبيرة من الحطب . وعبارة القاموس : والابالة ككتابة السياسة . الى ان قال في آخر المادة : وككتابة شيء تصدر به البئر وقد ابلتها فهي مأبولة ، والحزمة الكبيرة من الحطب ويضمّ . فظهر ان الابالة بمعنى السياسة وشيء تصدر به البئر بالتخفيف لا غير . اما الابالة التي يجوز فيها التخفيف والتشديد فبمعنى القطعة من الطير والخيل والابل . وعليها ورد قولهم في المثل : ضغثٌ على ابالة . وقوله : والابالة الحزمة الكبيرة من الحطب قد تقدّم في عبارة القاموس ان الضمّ لغة في الكسر وعلى الثاني اقتصر الجوهري

وقولهُ ايضاً : الابلة الطلبة والحاجة والثقل والوخامة . ضبط الابلة بفتح الهمزة وسكون الباء وعبارة القاموس : والابلة كفرحة ، الطلبة والحاجة والمباركة من الولد . الى ان قال : والابلة بالكسر العداوة وبالضمّ العاهة وبالفتح او بالتحريك الثقل والوخامة كالابل محركة والاثم . فظهر ان الابلة بمعنى الطلبة والحاجة بكسر الباء لا غير . وان الابلة بمعنى الثقل والوخامة ويجوز فيها التحريك، بل هو الذي اقتصر عليه الجوهري حيث قال : والابلة بالتحريك الوخامة والثقل من الطعام . وفي الحديث كل مالٍ أديت زكاته ، فقد ذهبت ابلته واصله وبلتهُ من الوبال فابدل بالواو الالف كقولهم : احد اصله وحد .

ومن ذلك قوله : الابلة (بكسر الهمزة والباء وتشديد اللام) والابلة (بضم الهمزة والباء وتشديد اللام) والابلاة (بكسر الهمزة وسكون الباء) الطلبة . وعبارة القاموس وكعتلة تمر يرضّ بين حجرين ويحلب عليه لبن ، والقدرة من التمر . الى ان قال : وهو من ابلة سوء مشددة بكسرتين وبضمتين طلبة ، وابلاته وابالته بكسرهما . وشتّان ما بين العبارتين . وقوله بعد ذلك : الابول (بفتح الهمزة وضم الباء) والابول (بكسر الهمزة وتشديد الباء وفتحها وسكون الواو) القطعة من الطير والخيل والابل ج اباويل واباييل . وعبارة القاموس والابالة كاجانة ويخفف وكسكيت وعجول (بكسر العين وتشديد الجيم مع السكون) ودينار القطعة من الطير والخيل والابل ، والمتتابعة منها فليس فيه وزن فول كصبور مع انه اسقط قول الاصل او المتتابعة منها وافتأت جمع اباويل من دون ان يذكر وزن دينار . وفي الصحاح قال الاخفش : يقال جاءت ابلك ابابيل اي فِرَقاً وطير ابابيل ، قال : وهذا يجيء في معنى التكثير وهو من الجمع الذي لا واحد له . وقال بعضهم : واحده ابول مثل عجول . وقال بعضهم : ابيل ، قال : ولم اجد العرب تعرف له واحداً . فاذا كان هذا المحبنطي قد خلط في هذه المادة هذا التخليط فما عسى ان يبلغ تخليطه في جميع الكتاب . فما لهُ الا ان يقول كما قال ابن اليازجي في المطنة : ان تغيير الحركة لا يغيّر المعنى . فقاتل الله الزيغ واهل الضلال وأحبط اعمالهم . . . الخ



سلوان الشجي

في

الردّ على ابراهيم اليازجي

تأليف

فارس الشدياق محرر الجوائب

اعاد الشيخ فارس الشدياق الكرّة على الشيخ ابراهيم اليازجي فتعقّب اعتراضاته في ردوده في «الجنان» واحداً فواحداً واجاب عليها بالدلائل والبينات واذاع ردّه المستطيل عليها تباعاً في الجوائب . منسوباً الى ميخائيل عبد السيد المعهود ، الذي ارتاب قراء الجوائب اولاً بوجود رجل يسمى بهذا الاسم ، واستكبروا عليه مثل هذه الردود اللغوية العالية . وهو في

الواقع موجود ، وكان مدرساً اللغة الانكليزية بمدرسة الاميركيين في القاهرة . ولما سئل صاحب الجوائب عن حقيقة الامر اجاب · « من كان في شكٍّ من ردّ ميخائيل افندي عبد السيد فليأت الى مطبعة الجوائب ليبصره بعينيه » (الجوائب عدد ٥٧٥ ، ٦ اذار سنة ١٨٧٢) ولم يرتب قرّاء الجوائب قط بان الرد المنطوي تحت عنوان : سلوان الشجي ، هو من نفثات قلم الشدياق الذي اختبأ وراء ستار ميخائيل عبد السيد ورمى اليازجي بقذائفه ، ولم يخفَ على احد لان الريح كان من مهبّه والصوت صوته وان كان اللمس غير لمسه . وهل يخفى القمر ؟ وبعد ان اتم الشدياق ردّه هذا ، جمعه في كتابٍ على حدة وطبع منه خمسة آلاف نسخة .

ومن العجب العجاب ان يردّ الشدياق على اليازجي ويخطّئ قطر المحيط ويحرر الجوائب بما فيها من المقالات الادبية والسياسية والاخبار العالمية والنقل من اللغات الاجنبية الى العربية ، ويهتم بطبع كتبٍ في مطبعته ، وكل ذلك في آن واحد وينشرها جميعها في الجوائب متلاحقة متتابعة في انهر عدد واحد منها ، مع ما يُقتضى لهذه الردود اللغوية العميقة من التنقيب والتحقيق والتمحيص ، فبرهن للملأ عن مقدرة في اللغة مدهشة وسعة اطلاع غريبة كأنه ينبوعٌ متدفق لا ينقطع مسيله ، وهيهات ان يرى الزمان مثيله .

ولا نرى ان الشدياق كان يضمر للشيخ ناصيف اليازجي حقداً او سوءاً عندما انتقد بعض كلمات وردت في مقامات « مجمع البحرين » ، ولو صحّ هذا لما كتب الشدياق هذه الكلمة الطيّبة عنه عند وفاته وهي :

« قد فُجعت العربية بفقد الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني ، فقد كان من رافعي اعلامها وحافظي ذمامها . وقد طالما ألف في فنونها وابرز من مكنونها ، وكان مع قدرته على النظم لا يتعرّض لأحد بالهجو والذمّ ، فعاش محبوباً ومكرّماً عند جميع الناس ومات وذكرهُ مخلدٌ في القرطاس» (الجوائب عد ٥٠١ ، ٢٦ شباط سنة ١٨٧١)

وطالما اسف بعض ادباء ذاك العصر على تصدّي اليازجي للشدياق لانه

انتقد اباه بما ليس من داعٍ ليقيم هذا الانتقاد على غلط السهو ، الشيخ ابرهيم ويقعده على صاحب الجوائب حتى انبثقت هذه المناقشة بمثل هـــذا العنف والاعنات وجرّت بعض الادباء الى انتقاد كُتب الشيخ ناصيف والتحامل عليه وهو في قبره ، على ما صرّح به الاديب سليم نوفل في مقالٍ له جاء فيه:

« ولا بدَّ لي من الالتفات الى رسالة ابرهيم افندي اليازجي المندرجة في الجنان ... وذلك ان مؤلفها قد تجاوز فيهـا حدوداً لا ينبغي للكاتب تخطّيها في حالٍ من الاحوال قطعاً ، بل كثيراً ما تلهّى عن مبحثه بالطعن في جهاتٍ محترمة من الخصم ... بل لاحت له بعض منافذ غرّته ببادىء سهولتها فاقتحمها على سوء مصيرها ولم ينتبه الى انه يفتح بهذه المناقشة خروقاً ينفذ بها الى وصيد قبرٍ قد كان من الحكمة تركه بمعزلٍ عنها ... ولو ترك التأويل والتمحّل وارتضى على بسيط الحال بمديح ابيه ولم يطمع بتقرير عصمته حتى من وصمة ابدال حرفٍ بآخر ، لكان حتى الساعة في موقف الشكر لصاحب الجوائب . ولو اكتفى بهـــذا المديح الواسع ولم يشمّر للذبّ عن غلطٍ بيّنٍ في استعمال كلمة المرابض ، لما تكدّرت نفوسنا بمنظر شاب من المترعرعين في الادب يطـــاول شيخاً من قهارمة العربية ومن اخص القائمين بخدمتها ... الخ » (الجوائب عدد ٦٢٤ ، ٧ شباط سنة ١٨٧٣)

والى القارىء ردّ الشيخ فارس الشدياق تحت عنوان : سلوان الشجي في الردّ على ابرهيم اليازجي :

مقدمة

بسم الله المبدي المعيد

الحمد لله الذي انطقنا بلسان العرب ، وشرّف منزلة اهل الادب ، وجعل بينهم لحمة كلحمة النسب ، وحمى حقيقتهم من كل معتدٍ عليهم في ما قال او كتب ، وردّ كيد اضدادهم في نحورهم فما استقام لهم عمل ولا استتب ، ولم يتسنّ لهم في ما ارادوه من أرب ، فبآءوا في وبالٍ وحرب ، ورجعوا بصفقة المغبون في شر منقلب ، والصلوة والسلام على انبيائه واوليائه الكرام ذوي المعالي والرتب ، الذين بلـّغوا امره بالمعروف ونهيهُ عن المنكر في جميع الحقب ، اللهم يا من افحم كلّ مكابر حسود ، وكل من هو لآلائك جحود ، بساطع الادلة ، البازغة في سماء اليقين كالاهلة ، وحسم بقد وقط اوصال الجهال ، الذين عرّجوا الى الضلال ، وعدلوا عن الهدى ، وجنحوا الى الردى ، وادحض دعاويهم المخلة المخفوضة ، ونسخ اقوالهم المملة المنقوضة ، ورمى بالكساد ، حرفة اصحاب الفساد . إنا نشكرك شكراً يعجز الانسان عن تعبيره ، واللسان عن ذكره والقلم عن تسطيره ، ونسألك اللهم ان تشرح صدورنا بانوار هدايتك فهي اعظم مطلوب ، وتشدّ اسرنا باقوال الحق الوثيقة فهي انفس مرغوب ، وان تحلّ عرى البهتان ، بباتر الحجّة والبرهان وتنير بشموس الحقائق ، وبدور الدقائق ، عقل من سلك في غياهب الشكوك المدلهمة ، التي ذهبت بما له من البصيرة والتصوّر والهمة ، وان تبعدنا عن مساوىء الافعال ، التي تتهافت عليها الارذال ، وتحفظنا من الغواية ، التي ارتكبها عديمو الدراية .

في الحسد

أما بعدُ فلا يخفى ان الحسود لنفسه ظالم ، وحسده له كمدٌ دائم ، وحزن ملازم ، فجسمه منه ناحل وعقله هائم ، وبلباله لا تخمد ناره ، ولا يتوارى

اواره، ولا يُطفأ سعاره، ولا يزال كئيباً مغموماً، وحيثما سار مذموماً، ومن آلاء المولى سبحانه وتعالى محروماً. كيف لا والحسد هو اكبر العيوب. ودعامة الذنوب، وداء الكروب، ومفسدةٌ للافكار والقلوب، وهو لعمري صفة صاحب «الجنان» وحبيبه وخليله ابراهيم اليازجي الميّان، هما اللذان حَسَدا صاحب «الجوائب» على ما ناله من شهرة الفضل والبراعة في هذا الزمان، فتغاويا عليه ونشرا ذمّه في الجنان، وعماديا في تخطئته بالزور والبهتان. اما ترجمة صاحب الجنان فهو أبو الحسد، الذي قاده الغرور بحبلٍ من مسَد، وتنآءى به الافتراء الى ابعد أمد.

اذا لم تصن عرضاً ولم تخشَ خالقاً   وتستحيي مخلوقاً فما شئتَ فاصنعِ

ولما ان سرى هذا الداء والعياذ بالله، في دمه ولحمه، وخالط جميع آرابه وعظمه، لم يقف على حدٍ في القذف والطعن، ولم يخفِ شيئاً مما أكنّ قلبه من الضغن،

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه   فالقوم اعداءٌ له وخصومُ

ولله درّ الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله،

ألا قلْ لمن بات لي حاسداً   أتدري على من أسأت الأدب
اسأت على الله في حكمه   لانك لم ترضَ لي ما وهب

وصاحب الجوائب اذ ذاك نابذه في زوايا النسيان، ورواميه في مرامي الامتهان، لانه ليس بذي رشدٍ حتى يعتب عليه، او بذي عقل حتى ينظر اليه، أخذاً بقول من قال،

دع الحسود وما يلقاه من كمدٍ   يكفيك منه لهيب النار في كبده
ان لمتَ ذا حسدٍ نفّثت كربته   وان سكتّ فقد عذّبته بيده

وقال آخر:

وما انا من كيد الحسود بخائفٍ   ولا جاهل يزري ولا يتدبّرُ

وقال آخر:

ما ضرّني حسدُ اللئام ولم يزل   ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وقال ابو تمّام :

واذا اراد الله نشر فضيلةٍ طويت اتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عرف العودِ

في محيط المحيط

وقد عرف كل واحدٍ ان صاحب « الجنان » هو من فاسدي الذهن والتصورات ، وقليلي المعلومات ، تدلّ عليه اقواله وكتابته وعبارته فانك تجدها في غاية الركاكة والتعقيد الذي ينفر منه كل ذي ذوقٍ سليم ، وطبع مستقيم حتى انه شاع وذاع وملأ الاسماع ، ولاسيما عند ادباء مصر، اهل النقد في النظم والنثر ، ان جنانه هو مخزن الاستعارات الباردة ، والالفاظ الشاردة ، والثرثرة المعلة ، والمماحكة المملة ، حتى صارت هذه الصحيفة ، مثلاً يُكنى به عن الاقوال السخيفة ، والالفاظ السقيمة ، والتشابيه المذمومة ، فحيثما وجدت عبارة غير مسبوكة في قالب العربية ، قيل انها عبارة « جنانية » ، وركاكة بستانية ، ولذا قال بعض الادباء : اذا لم تبطل هـذه الالفاظ الجنانيّة الانثويّة ، تفسد اللغة العربية . وقد اشار الى ذلك الاريب البارع سليم افندي نوفل في نقده كلام « الجنان » غير مرّة فأصاب ، وجرّد الحق عن الشك والارتياب . ويا ليت صاحب الجنان اقتصر على السفاهة مرّة واحدةً او مرتين ، بل شحن بها اربعة اجزاء من الجنان وكلها مبنية على التمويه والمين ، والشواهد الباطلة ، والاستنادات العاطلة ، والسفسطة التي لا يسلم بها عقلٌ ولا طبع ، ولا عرفٌ ولا شرع ، والاغاليط التي ابتكرها من دماغه ، والاعتراضات التي تدل على تجرّد مخّه من المعلومات وفراغه ، والسقطات الفظيعة ، والدعاوى الكاذبة الشنيعة ، كما يُعلم مما سيأتي .

هذا من جهة العلم . فاما من جهة العمل فانه في اثناء رقمه لكتاب اللغة الذي سماه « محيط المحيط » ترجّى بعضاً من اهل الخير ان يرفدوه

ويعينوه بان يأخذوا منه خمسمئة نسخة ، وشرط عل نفسه بانه في مقابلة ذلك يقدّم لهم الكتاب بنصف الثمن الذي يبيعه به في الخارج ، بعد ان موّه لهم بكثرة اقواله الكاذبة ، انه كتابٌ لم ينسج احدٌ على منواله وهذر لهم هذراً كثيراً وفشر فشراً كبيراً حتى اغترّوا بكلامه وظنوا السراب ماء فأولوه ما طلب . فلما فرغ من الكتاب وُجـد انه مشحونٌ بالغلط والتحريف ، الذي لم ينسج احد على منواله فلم يوسله اليهم بعد انتهاء الطبع ، بل تركه عنده ليصرّف منه ما يمكن تصريفه ، فكانوا يوسلون اليه يستعجلونه فيقول لهم : ان الكتاب لم يُجلّد بعد . فطلبوا اعادة دراهمهم ، فعنـد ذلك أرسل اليهم نسخهم واذا بها من سقط المتاع ، غير جديرة بان تشرى او تباع ، لكثرة ما فيها من الغلط والتحريف ، والخلل والتصحيف ، فجازاهم عن الاحسان بالاساءة ، ولم يبال بما في ذلك من اللؤم والدناءة ، فما كان أغناه عن بيع الخطأ والتحريف بالمال ، والتهوّر في الاغواء والاضلال . لا جرم ان من ادخل في اللغة العربية ما ليس منها وعلّم الناس ان ينطقوا بما لم تنطق به العرب فهو مضل لا محالة . ومع ذلك فان هذا المغرور لم يزل مصراً على غوايته في اعتقاد كون كتابه مغنياً عن جميع كتب اللغة وفي تقاضي الناس ان يمدحوه عليه ، حتى انه لم يخجل من ان ينقل في الجنان تعريب كتاب ورد اليه من بعض العجم على وجه التقريظ ، فاستغنى بتقريظ العجم عن تقريظ العرب . فاين هذا المغرور المنتفخ بالكبر والدعوى من صاحب الجوائب الذي قرّظ تأليفه « سر الليال » علماء مصر والشام والعراق والغرب ولم يدرج إلا بعضهـا . وصاحب الجوائب هو الاديب البليغ احمد افندي فارس من له اليد الطولى في الانشاء ، فيوشي الدرّ من معادنه احسن ايشاء ، ويدني البعيد كيف شاء ، ويتصرف في العبارة احسن تصرّف ويأتي بجوامع الكلِم . ويجيد النظم والنثر على حدّ سوى ونسق منتظم ، امتدحه الشعراء والنجباء ، والعلماء والادباء ، وهو محترمٌ عندهم وله منزلة كريمة لديهم .

هيهات ان يأتي الزمان بمثله　　ان الزمان بمثله لبخيلُ

في ترجمة ابرهيم اليازجي

أما ترجمة ابراهيم اليازجي فهو صاحب السفاهة الكبرى ، والقذف والافتراء ، لم تكد عبارة له تخلو من التعقيد ، والتطاول والتنديد . وقد بلغني ممن يوثق بكلامه انه من اهل الاسواق ، واولاد الزقاق ، وانه حاول ان يدخل احد المكاتب ليتعلم فيها بعض العلوم الابتدائية وحيث كان خامل القدر ، منسي الذكر ، اراد ان يحصل على شهرة بتخطئة صاحب الجوائب فحصّل ما اراد ، وان كان على طريق الفساد ، لأنّا قبل وقاحته هذه لم يكن لنا علمٌ بوجوده بين الاحياء ، ولم يذكرهُ ذاكرٌ في الأحياء ، ولكن شتان من اشتهر بالفضائح ، واول ما عُرف منه انه انغمس في القبائح ، ومن له جوائب تجوب الارض شرقاً وغرباً ، وتهدي الى الناس من كل فن وحكمة ضرباً ، ومع ذلك فان هذا المفتري يقول : « فكأنما اوغر ذلك صدرهُ وكبر عليه امر تخطئتي » فاقول له : كيف لا يكبر عليه ذلك واعتراضاتك كلها مبنية على السفسطة البستانية ، والشقشقة البهتانية ؟ ومن انت بين الناس ، حتى تأتي هذه التخطئة وتنشرها في قرطاس ، ولكن لا عجب فقد قيل :

ومن جهلت نفسه قدرهُ رأى غيرهُ منهُ ما لا يرى

على انه خطّأه في اشياء كثيرة استعملها ابوه الذي ادّعى له العصمة ، بل هو واردٌ ايضاً في كلام الائمة ، فكان عليه اولاً ان يصلح عبارة ابيه ثم يتصدّى لتخطئة من سواهُ ، ولعله معذور في ذلك لان سحاب الجهل قد غطّى على بصره ، وديجور الضلالة غشّى على عقله ونظره ، فصار لا يفرق بين الحق والباطل ، ولا يميز الحالي من العاطل .

أما قوله : « واذا به قد عدل الى المسافهة والمهاترة » فجوابه ان صاحب الجوائب لم يصفه إلا بما فيه من الاوصاف القائمة به . فما باله يتبرأ من

اوصافه . افلا يدري ان صاحب الجوائب متعين عليه حتماً ان يخبر بالواقع ؟ فلله درّ ابي الطّيب حيث قال :

اذا انت اكرمت الكريم ملكته   وان انت أكرمت اللئيم تمرّدا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

فهل ينكر على محرر الجوائب ان يذكر صفات ذلـــك اللئيم وهو الاديب الواضع كل امر في موضعه والآتي لكل مقام بما يناسبه . فهـــل هذا مسافهة او اخبار بالواقع ؟

وأما قوله : « فعجبت من ارتكابه هذه الخطة المنكرة . » اقول : لا تتعجّب فانه لكل مقامٍ مقال ، ولكل دولة رجال ، وانما العجب العجاب من زهوك وخرقك وعجرفتك وتطاولك على اهل العلم والادب ، وليس لك الى علم الخطة المنكرة من سبب .

بالارض استاههم عجزاً وأنفهمُ   عند الكواكب بغياً يا لذا عجبا

اما قوله : « لانا كنا في اول الامر قد دخلنا من باب المناظرة الادبية ولم نكن في شيء من قصد المهاجاة والمشاتمة . » فاقول له : من انت حتى تدخل في هذا الباب ! والحال انك تحاول الدخول في احـــد المكاتب لتتعلم بعض العلوم الابتدائية . فهل تحسب نفسك يا غويّ من رجـــال المناظرة الادبية ؟

كل من يدّعي بما ليس فيه   كذّبته شواهد الامتحانِ

وما أحراك بقول الآخر :

جهلت ولم تعلم بانك جاهل   ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

وقال آخر :

أخالك لم تعلم ولستَ بعالم   بانك لا تدري وذا غاية الجهلِ

فنصحي لك ان تعرف اولاً نفسك حتى تهذبها ثم تعرف قدر منزلتك ومبلغ فهمك ثم تعمل بحسب ذلك .

واما قوله : « ولا كان عندي انه اذا دعت الحال الى مثل هـذا يتنازل الى المواطأة عليه ويرضى به لنفسه . » فجوابه كما ذُكر سابقاً ، وهو ان صاحب الجوائب لم يوّقع امراً في غير محله بل وضع كل شيءٍ موضعه فما احتاج الى دليل استدلّ عليه ، وما لم يحتج الى اسهابٍ من الكلام اكتفى بمجرد الاشارة اليه ، فلم يخرج عن حد المناظرة ، ولم يكن قصده في كل ما اورده سوى اظهار الحق مجاهرة ، فما هـذا المين الذي اضافه ابن اليازجي الى سفاهته ؟ ولكن

لا يكذب المرءُ الا من مهانته او عادة السوء او من قلة الوَرَعِ

ومن استحلى الكذب عسر عليه بعد ذلك فطام نفسه عنه

اما قوله : « ولقد كنت احسب ان تمادي الايام قد حان له ان يهذب من اخلاقه ويمكّن عنده اسباب الحلم والدماثة والصبر على المكروه اكثر مما ارى من نفسه هذه المرة فاذا دمه لم يزل على حرارته المعهودة ايام كانت تلك النار تُقرى بفحم الشباب . » اقول : هذه سفاهة بستانية سوقيّة ومهاترة جنانية زقاقيّة ، فان صاحب الجوائب مشهورٌ بدماثة الاخلاق ولم يروَ عنه قط انه خاصم احداً او تعدّى على احدٍ ، وانما يخاصمه السفهاء من الناس أمثال ابراهيم اليازجي . فاذا اعتدى عليه معتدٍ فمن الضرورة ان يدفع اعتداءه . وحسبك ان الناس قد عرفوا هذا الرجل الكامل منذ سنين كثيرة وما احد نسب اليه شيئاً من المنكر كما ادّعى هذا اللئيم . اما حاسده هـذا فاول ما عرف الناس منه شيئاً ، القذف والبهتان والاعتداء على اهل الفضل والعرفان ، فاقول له :

ياليت لي من جلد وجهك رقعةً فأقدَّ منها حافراً للاشهبِ

واقول لاخلاق صاحب الجوائب :

سلامٌ على تلك الخلائق انها مسلمة من كل عارٍ ومأثم

وقال اخر :

خلائق كالحدائق طاب منها م النسيم وأينعت منها الثمارُ

ولست انا المنفرد بهذا القول وحدي بل جميع العلماء والادباء تقوله ، واعظم شاهدٍ عليه مدحهم له في قصائدهم وتقاريظهم .

والناس أكيس من ان يمدحوا احداً ما لم يروا عنده آثار احسانِ

فليقل لنا هذا المفتري اي الادباء والعلماء امتدحه وشهد له بدماثة الاخلاق او الصبر على المكروه ؟ لا جَرَم انه هو نفسه المكروه ، وان صاحب الجوائب هو المكسر جموع ذوي البهتان ببسالته والمدحض اقوال المفترين ببراعته . ولذا قال عنه اللئيم : ان دمه لم يزل على حرارته المعهودة ، اي انهُ الغشمشم الذي يحطّم جماعات المتأنثين الذين خلعوا لباس الحياء والادب واتخذوا المماحكة لهم ارباً وبئس الارب .

اما قوله : « فكأنما كان ثلج المشيب أدعى الى المبالغة في ايقادها . » فاقول : ان هذا المعنى قد كرّره صاحبه البستاني في الجزء الثالث من الجنان . فالظاهر انهما قد تواطأا عليه ، وحاصله انكار معرفة الانسان حقه عند المشيب وتركه اراذل الشبان يعتدون عليه ، مع ان الاولى احترام الشبان للشيوخ فان الشيب كرامةٌ للشيخ ونعمةٌ من المولى عليه . فهل يسوغ ان شاباً رذلاً يحتقر هذه النعمة ؟ . على ان البستاني ليس بالاهيف الغيساني فما باله يعيب شأنه وصفته ؟ وفي الجملة فانه كلام لا يتفوّه به إلا اجلاف الناس والسفلة الأرجاس ، فهذه ثمار معرفته الزقاقية ، وهي فيه غريزيّة ومن الصعب الاقلاع عن الامر الغريزي فلا تتعجب اذاً من تكرير هذه السفاهة

يُعاب الفتى فيما أتى باختياره ولا عيب فيما كان خلقاً مُركبا

في تخطئة مقامات ناصيف أبي ابراهيم

أما قوله : « انه ألمّ بأبي المرحوم وخطّأه عبثاً . » فاقول : اولاً ان الالمام هنا ليس له معنى فان الناس يلمّون بالاحياء لا الاموات . وثانياً

ان صاحب الجوائب لم يتعمّد تخطئة أبيه عند ايراده لفظة الفحطل ، ولو كان قصدهُ هذا لأورد لفظة الركب في قول أبيه صفحة ٢٧٥ : « حتى امتلأ دلوه الى عقد الرِكَب » ضبطها بكسر الراء وفتح الكاف . وصوابها الكرب محرّكة ، وهو مأخوذ من قول الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب .

من يساجلني يساجل ماجداً   يملأ الدلو الى عقد الكرب

وهو مثلٌ . والكرب الحبل الذي يُشد في وسط العراقي ثم يثنّى ويُثلث ليكون هو الذي يلي الماء فلا يعفن الحبل الكبير .

ومثل ذلك قوله في صفحة ١٥٥ : « واعتذروا من الاحجاف بالخليق » وصوابه الاجحاف بتقديم الجيم . ومـا كفاه هذا التصحيف في المتن حتى كرّره في الشرح بقوله : « يُقال احجف به اي انتقص منه » وهي مثل لفظة الفحطل في كونها وقعت غلطاً في المتن والشرح ، مع ان المصنف ذكر في آخر الكتاب : ان المتن يدل على صواب الشرح .

وقوله في صفحة ٥٨ : « ونهض معها راكباً جنح النعامة » والصواب جناح . ومثله قوله في ص ١٠٢ : « حتى اذا جنح الظلام رفرف . » أما لحنه في الحركات فمما لا يعد ولا يُحصى . فمن ذلك قوله في صفحة ٥ : « ويشفى من السُقام . » ضبط السقام بالضم وهو بالفتح . وقد اعاد هذه اللفظة مرّتين على الخطأ في صفحة ١٠٧ . وقوله ايضاً فيها : « جمع تُرقوة » بضم التاء ، والصواب بفتحها . وقوله في صفحة ٨ : « يحتمل ان يكون من النِقل الذي يُستعمل كالفاكهة ونحوها . » ضبط النون بالكسر ، والصواب الفتح . قال في القاموس : والنقل ما يُتنقل به على الشراب وقد يضمّ او ضمّه خطأ . وعادة القاموس انه اذا أطلق يتعيّن الفتح . وقوله : كالفاكهة ونحوها لا معنى له .

ومن ذلك قوله في صفحة ١٣ : « ثم قمنا نتذاكر السُمر » بضم السين والصواب الفتح . قال في القاموس : والسمر محرّكة ، الليل وحديثه .

وقوله في صفحة ١٩ : « سُورة المدام » بضم السين . والصواب الفتح . وقوله في صفحة ٢٢ : « طُر ُق » تعنّى لضبطها بسكون الراء . والوجه ضمّها . وقوله في صفحة ٢٣ : « البِس لكل حالة « لبوسها » بكسر الباء من البس والصواب فتحها ، لانه من باب سمع . وصواب اللبوس الفتح . وهو ما يلبس . قال في الصحاح : واللبوس ما يُلبس . وانشد ابن السكيت .

البس لكل حالةٍ لبوسها إمّا نعيمها وإمّا بوسها

ومن ذلك قوله في صفحة ٣١ : « فخذها بهذه السّفتجة » . ضبط السين بالفتح وفسّرها بكتاب الحوالة . والصواب الضمّ . قال في القاموس : السفتجة كقرطقة ، ان تعطي مالاً لآخر . الى ان قال وفعله السفتجة . وقوله في صفحة ٣٤ : « قال لبّيك وسعديك » . ضبط اللام بالضم . والصواب الفتح . وقد اعاد هذه اللفظة على هذا الغلط في موضع آخر . وفي صفحة ٣٦ : « الصن والصنبر ثم الوبَر » . ضبط الباء من الوبر بالفتح . والصواب السكون كما في القاموس . وقوله في الصفحة المذكورة : « والعاطف الحـّظي والمؤمل كذلك اللطيم والسكّيت والصواب حظي . بتقديم الحاء على الظاء . والسكيت على وزن كميت لا على وزن سكّير وفسيق . وفي صفحة ٣٩ : « فقالوا لله درّك ما اقواك في الحجّة » . تعنّى لضبطها بالكسر وفسرّها بالبرهان . والصواب بالفتح . امّا التي بالكسر فمعناها السنة وعليه قول لبيد :

دمنٌ تجرّم بعد عهد أَنيسها حججٌ خلون حلالها وحرامها

ومن العجب ان يغلط الشيخ في هذه اللفظة على شهرتها وان يعيدها ايضاً على هذا الغلط في ص ٣١١ ! إلا ان يُقال ان تغيير الحركات لا يخلّ بالمعنى كما هو مذهب ابنه ومذهب البستاني .

وفي صفحة ٤١ وقال : « اراك قد ارتكبت الِخلّة » . بكسر الخاء وفسرها بالطريقة . وكل من الشكل والتفسير غلط . قال في القاموس : لخلّة ، الحاجة والفقر والخصاصة والخصلة . والِخلّة بالكسر المصادقة وجفن

السيف ، المغشى بالام او بطانة يغشّى بها جفن السيف والسير يكون في ظهر سيّة القوس وكل جلدةٍ منقوشة .

وفي صفحة ٤٤ : « على ان تحبَط عملك » . بفتح البـاء . والصواب الكسر . لانه من احبط . وفي صفحة ٤٧ : « فلما رأوا منها دُهاء لقمان » . بضمّ الدال . والصواب الفتح . وفي صفحة ٥١ : « ابِيت اللعن » . بكسر الباء والصواب فتحها . وفي صفحة ٥٩ : « وقف بعرَصة الدار » بفتح الراء . والصواب السكون . وفي صفحة ٦٠ : « فليس لك عندي من خِلاقٍ » . بكسر الخاء . والصواب فتحها . وقوله في صفحة ٦٥ : « والناس ان كانت طِغاماً جاهلة » . بكسر الطاء والصواب فتحها . وقوله في صفحة ٩٨ : « فصِحفة مشكلة من بعد » . بكسر الصاد والصواب فتحها . وفي صفحة ٩٩ غُرم ثمن الجزور » . بضم الغين والصواب فتحها . وفي صفحة ١٠٠ قال : « اذا اصابت الظباء الماء فلا عِباب واذا لم تصبه فلا إياب » . بكسر العين من عباب والهمزة من اياب . والصواب الفتح فيهما كما في القاموس . وفي صفحة ١٠١ : « صِناع اليدين » . بكسر الصاد » . والصواب بالفتح . وفي صفحة ١٠٦ : « الرفأ الاتفاق والالفة » . بفتح الراء من الرفأ وكسر الهمزة من الالفة . والصواب الرفاء بالكسر والمدّ والالفة بالضمّ . وفي صفحة ١٠٨ : « ان الخُلّة تدعو الى السّلة » . بضم الخاء والسين . والصواب الفتح فيهما . وهكذا الى آخر الكتاب . ولو انه ترك الشكل من اصله لكان أولى .

ومن اغلاطه ايضاً في مباني الالفاظ قوله في صفحة ١٤ : « خوفاً من اصطكاك الهواجر » . فسّر الاصطكاك باشتداد الحرّ . وصوابه صكّة . قال في القاموس : والصكة شدة الهاجرة . وقال في الصحاح : والصكّة اشدّ الهاجرة حرّا . يقال لقيته صكّة عمي . وهو اسم رجل . ويقال هو تصغير اعمى مرتّماً . وقوله ايضاً : « وركب الاهوال واحتشد الاموال » . والذي في كتب اللغة ، ان احتشد لازم غير متعدٍ . وقوله في صفحة ١٦ : « فانضاها » . فسّرها بأهزلها . والصواب هزلها . ومثل هذه الزيادة قوله في صفحة ١٧ : « واكمنت له كالضاغب . والصواب كمنتُ لهُ . وبعكس ذلك

تفسيره للفظة « أماطَ » بزاحَ . والصواب أزاح . وقوله في صفحة ٢٩ : « مرتاحة من كل ذي ازعاج » صوابه مراحة . وقوله : « وقترة الكباش والنعاج » . فسّر القترة برائحة الشواء وهو القُتار بالضم . اما القترة فمعناها ناموس الصيّاد . وقوله في الشرح . نوعٌ من الحلوى . حقهُ الحلواء . وقوله في صفحة ٣٧ : « كما أَعجل الشيخ » . والصواب عجلَ . وقوله في صفحة ٤٠ « وأحرجت اليمينا » . والمعروف حرّج ، بالتشديد ، اي ضيّق . وتفسيره : لاحرجت بعظمت ، مخالفٌ لما في كتب اللغة . قال في القاموس : احرجت الصلوة ، حرمتها . وفلاناً ، آثمه . واليه الجأته . واحرجت فلاناً . صيرته الى الحرَج . وهو الضيق .

وقوله في الصفحة التي بعدها : « يقال تنافـــد الخصمان الى القاضي . بالدال المهملة ، اي ذهبا اليه . فاذا اوضحا حجتهما يقال تنافذا بالمعجمة » . وهو عكس عبارة القاموس . ونصها : وتنافذوا الى القاضي . خلصوا اليه . فاذا أدلى كل منهم بحجته فيقال : تنافدوا . بالدال المهملة . وقوله في صفحة ٤٢ : « لذمامة » . والصواب دمامة . بالمهملة . ومثله قوله في صفحة ٦٤ : « وكان بخيلًا ذميماً » . والصواب دميماً . وقوله في صفحة ٤٢ : « فرخصت له في النسيئة » . فسرها بتأخير الاجرة وهي تعمّ الدين وغيره .

وقس على ذلك سائر المقامات فانها مشحونة باللحن والتحريف . وليس من وظيفتي الآن استيعاب ما فيها من الخطأ ، وانما اوردتُ هـذا القدَر شاهداً على ان محرّر الجوائب عند ايراده لفظة الفحطل لم يكن متعمداً تخطئة أبي ابراهيم . اذ لا يمكن لعاقل ان يتصوّر هذا التعمد حالة كون الكتاب كله مشحوناً بالغلط . وانما التعمد وقع من قِبَل ابراهيم وصاحب « الجنان » في تخطئة صاحب « الجوائب » . وهنا اسأل كل عاقل منصف لِمَ لم يتعمد هذان المعتديان تصحيح هذا الكتاب وكتاب « محيط المحيط » من قبل ان يخطّئا كلام صاحب الجوائب ؟ وكيف قضى الشيخ ناصيف عدّة سنين من حياته في تأليف هذه المقامات ، ثم جاء بها مشحونة بالتحريف والتصحيف ؟ وكيف يصح لقارئيها ان يعتمدوا على النقل منها ؟ وكيف

غرب عن فهم ابراهيم ان ايراد لفظة الفحطل ليس بسبب لأن يكند فضل صاحب الجوائب في رثائه أباه بما لم يرثه به احد غيره ؟ افليس هذا الرثاء بدليل قاطع على اخلاص قصد الراثي وعلى حسن طويّته ؟ أفلم يكن ممكناً له ان يورد اغلاط المقامات وينسبها الى غيره اذا شاء اقناع الناس بانه لم يزل مراعياً لحرمة مؤلفها ؟

وأغربُ من ذلك كله قول ابراهيم : « وأبى الله ان أجري إلا على ما أدّبتُ عليه » . والحال انه خالٍ من الأدب اصلاً ، فانه قد ارتكب في اعتراضاته علـــى صاحب الجوائب من فحش الكلام والمقاذعة والمشاتمة والاهجار ما لم يرتكبه احدٌ من أمثاله من ابناء الأزقة والشوارع . فيا ليته كان سكت ! فان السكوت أولى للجاهل وأستر لعيوبه كما قال الشاعر :

من لزِمَ الصمتَ اكتسى هيبةً   تخفي عن الناس مساويهِ
لسانُ من يعقل في قلبهِ   وقلب من يجهل في فيهِ

وقال آخر :

متْ بداء الصمتِ خيرٌ لك من داء الكلام

والمراد بالكلام هنا كلامُ هذا المفتري المبني على السفسطة والمغالطة . ولكن اقول كما قال الآخر :

ولكن فطامُ النفس أثقل محملاً   من الصخرة الصمّاء حين ترومها

وقال آخر :

ظلمت امرءاً كلّفته غيرَ خلقهِ   وهل كانت الاخلاق إلا غرائزا ؟

ومع ذلك فانه نسب المهاترة الى صاحب الجوائب وزعم انه ألمّ بأبيه لقد كبر ذلك افتراء عـّير بجير بجره ، نسي بجير خبره .

فيا ايها الغويّ العميّ ! المستهتر في الفحش والخنى ! اتنظر القذى الذي في عين اخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك ! فانظر ايّها المرائي الخشبة

التي في عينك اولاً لتقدر على ان تنظر القذى الذي في عين أخيك . اما سكوت صاحب الجوائب عن المهاترة فمبنيٌّ على قول الشاعر :

شتمني عبدُ بني مسمعٍ فصنتُ عنه النفس والعرضا
ولم أُجبْه لاحتقاري له من ذا يعضّ الكلبَ ان عضّا

وحيث رأيت السكوت من طرف صاحب الجوائب حرّكتني يدُ الغيرة على مقامه الكريم ، وعلى الانتصار للحق الى ان اتصدّى للردّ على ابراهيم المذكور وأبيّن ما في كلامه من الخلل والفساد ، وان كانت كثرة اشغالي لا تسمح لي بذلك ، مع علمي بان هذا الماحك أمهرُ النـــاس في السبّ واقدرهم على المقاذعة ، فانه اتخذ له دأباً وافتخر به بين اقرانه من السفهاء . فان لم يقنع بما اوردته فبيني وبينه العلماء يحكمون بيننا ، والله خير الحاكمين

وقد وُسمتُ رسالتي هذه « **بلوابل الشجى في الرد على ابراهيم اليازجي** » غير قاصدٍ في ذلك سوى رضى الرحمن ، الذي أمر بقول الحق لصدع اهل الزيغ والبهتان ، وهذا وقت الشروع في المقول ، وهو تعالى خير مسؤول .

في لفظة الفحطل

قد رأيت من أدلّة عديدة ان الخواجه ابراهيم اليازجي يتعمّد المواربة والمغالطة في كلامه ، فانه قال اولاً : ان القصيدة التي كان ارسلها ابوهُ الى صاحب الجوائب كانت متضمنة مواعظ وحِكَماً ، فلم تكن تقتضي ذكر اسم الممدوح . وكان كلامه هذا جواباً عما قاله صاحب الجوائب من ان الشيخ ناصيف لم يصرّح باسمه في عنوان القصائد الثلاث التي ارسلها اليه كما صرّح باسم غيره . فانه لما مدح المرحوم المعلّم بطرس كرامه كتب في عنوان قصيدته : « قال يمدح المعلم بطرس كرامه الشاعر المشهور » . فاتخذ الخواجه ابراهيم كلام صاحب الجوائب ذريعةً للرد والتخطئة مع التهكّم

الذي هو دأبه . وليس بعد قول صاحب الجوائب وضوحٌ وبيان ، فمناقضته في ذلك من الفضول . وسأعود الى هذا الموضوع .

اما قوله ان صاحب الجوائب لا يجوز مقابلة الفحطل بالمطل او نحو ذلك، فلا وجه له . وانما قال : ان مما يثبت كونها غلطاً وجودها في المتن والشرح على الخطأ . وانا اقول ان الشيخ ناصيف كثيراً ما كان يلتزم نوع لزوم ما لا يلزم ، ويسمّى ايضاً الاعنات ، لان فيه عنتاً اي مشقّة ، ولا يُقدم عليه إلا الراسخون في اللغة والمتضلعون منها . ومما يُثبت كونه أراد الفِحَطل ليقابل بها المطل ، تسجيعه أغلب هذه المقامة على هذا النسق كقوله : النوادر والبوادر ، والميمون والامون ، واقباله واستقباله ، وعلندي وجلندي ، ووقير ونقير ، والبيت والميت ، والفِحَطل والمطل . فورودها بعد هذه الفِقَر يدلّ على انه اراد بها من الاعنات ما اراده بغيرها ، ولاسيما انه أثبتها في الشرح كذلك . ومن ذلك قوله : الصباء والهباء ، والمال والجمال ، والمتاح والملتاح ، والجنون والعثنون، والعنوق والنوق ، والديباج والسكباج ، والموائد والثرائد ، والغدير والسدير ، والخورنق والخدرنق ، وكبده ولبده ، والكور والحور ، والغيض والفيض ، وشرار وغرار ، والغيث وحيث ، والحَرَج والفَرَج ، والجندل والسمندل ، وامرهما وعذرهما . وقس على ذلك سائر فِقَر هذه المقامة . وهذا دليلٌ كافٍ على وقوعها غلط طبع ! وبالاختصار اقول : ان الانسان محلّ للنسيان ، وان أوّل ناسٍ ، اول الناس . فاذا كان الخواجه ابراهيم يدّعي لابيه العصمة ويجرّده عن كل وصمة ، فلا يجوّز له ذلك ، العقل ولا النقل . ومما يفيد التنبيه عليه هنا ، ان لزوم ما لا يلزم قد يكون باكثر من حرفٍ كقول المعرّي : يعذبون ومقابلته لها بيكذبون .

أما مغالطته التي توصّل بها الى تخطئة صاحب الجوائب في قوله : «صوابه في المقامات لا في الواقع ، فان الواقع هو تقديم الطاء على الحاء» . فغاية ما اقول : ان صاحب الجوائب قد اوقع الامر في نصابه وأصاب غاية الاصابة . وانه كان يجب على الخواجه ابراهيم ان يقول في المقامات ، وان يعدل عن هذا التلبس وعن هذه العبارات المبهمة التي هي من التعقيد مفعمة .

ثمّ قال بعد ذلك متهكماً على عادته : «وحسبك بهذا دليلاً على امعانه

في اللغة . لله درّهُ » . اقول : لا حَرَج على من تجاسر على ارتكاب هذه الوقاحة واشتهر بهذه القباحة مع قلة بضاعته وعدم صناعته ! فان هذه اللفظة هي من قبيل السماء فوقنا والواحد نصف الاثنين ، اعني من البديهيات التي تُفهم من اول وهلة . فاذا كان الخواجه المذكور لا يدري البديهيّات ، فما باله يتهكم على من لا يساوي طعنةً في نعالهم !

في الاسم الرباعي المفتوح الفاء

أما تعنّته على صاحب الجوائب في ضبط الفحطل وقول صاحب الجوائب: ان الرباعي المفتوح الفاء ليس له الا هذا الوزن . فالذي في كتب العربية يؤيد هذا القول . ولنورد بعض ما جاء فيها فنقول :

قال الاشموني على قول ابن مالك : لاسم مجرّد رباع فعلل وفعلل وفعلل وفعلل ومع فعـــل فعلل . اي للرباعي المجرّد ستّة ابنيـــة فعلل بفتح الاول والثالث نحو جعفر . الثاني فعلل بكسر الاول والثالث نحو زبرج . الثالث فعلل بكسر الاول وفتح الثالث نحو درهم . الرابع فعلل بضم الاول والثالث نحو برثن . الخامس فعـــل بكسر الاول وفتح الثاني نحو قمطر وفطحل . السادس فعلل بضمّ الاول وفتح الثالث نحو جُخدب . الى ان قال : وزاد قومٌ من النحويين في ابنية الرباعي ثلاثة اوزان وهي : فعلل بكسر الاوّل وضم الثالث نحو خرفع . وفعلل بضمّ الاول وفتح الثاني نحو خعبث ودلمز . وفعلل بفتح الاول وكسر الثالث نحو طحرب . ولم يثبت الجمهور هذه الاوزان . وما صحّ نقله منها فهو عندهم من الشذوذ . انتهى ملخّصاً .

ولنورد ما قاله السيوطي في هذا الصدد لزيادة التقرير . فانه قد زاد بعض اوزانٍ على اوزان الصبّان فنقول : قال السيوطي في المزهر جزء ٢ صفحة ١٦ سطر ٩ : الرباعي مجرّد ومزيد . المجرّد على فعلل اسما جعفر وصفة سجعم وسلهب . هكذا مثّلوا . وقيل : الميمُ في سجعم والهاء في سلهب زائدتان .

وجاء بالهاء : شهربة وفعلل اسما زبرج وصفة خرمل . وفعلل اسما برثن وصفة جرشع . وفعلل اسما درهم وصفة هجرع . وقيل : الهاء زائدة . وفعل اسما صقعل وصفة سبطر . وفعل خبعث ودلمز ، خلافاً لمن نفاه . وفعلل وفاقاً للأخفش والكوفيين ، اسما جحدب وصفة جرشع لوجود سودد وعوطط وعندد وفعلل زعبر وخرفع . وفعلل طحربة ، خلافاً لمن نفاهما . ولا يثبت فعلل بجرمز وفعلل بعرتن وفعلل بعرتن ودهنج وفعلل بعرتن وفعلل بعرتن ودهنج وفعلل بعجلط ، وفعلل بجندل ، خلافاً لزاعمي ذلك . وفرّع البصريّون فعللا على فعالل . والفرّاء والفارسي على فعليل . انتهى بحروفه .

فان اعترض معترض وقال : ان مفتوح الفاء يأتي على غير جعفر ككرفس وكرنب. فالجواب ان لفظة كرفس هي كما ورد في الصحاح على وزن جعفر .

وقال في المصباح : الكرفس بقلةٌ معروفة ، وهو مكتوبٌ في نسخٍ من الصحاح وزان جعفر . ومكتوب في البارع والتهذيب : بفتح الراء وسكون الفاء . قال الازهري واحسبه دخيلًا . اه

وقال الليث ايضاً : انها دخيلة اي دخلت في اللغة العربية وهي ليست منها ولم توافق ابنيتها بل هي شاذّة . فانه اذا شذّ بعض العربيّ القحّ فما بالك بالدخيل ، افاده بعضهم . وذلك ان اقسام الدخيل اربعة : منه ما لم يُغير ولم يلحق بأبنيتهم . ومنه ما غيّر وأُلحق . ومنه ما غيّر ولم يُلحق كما في شفاء الغليل . والدليل على ان الكرفس من الدخيل هي انها بلغة اهل غزنة كرفج ، كما افاده بعض المحققين .

واما كرنب فالافصح فيه ان يكون على وزن قنفذ كما يُفهم من ضبطه في القاموس . وقد قيّده الصاغاني كذلك . وقال ابن الاعرابيّ : هو كسمند . على ان اصحاب العلم بالنبات قالوا انه نبطي ، عرّبوه . وقال أبو حيّان وغيره من ائمة العربية : ان نون كرنب زائدة ، وذكروه كالمتفق عليه . وظاهر كلام صاحب القاموس والتهذيب واللسان وغيرها اصالتها . وقد اهملها الجوهري لانها لم تصحّ عنده .

فاذا كان الامر كذلك ، اي ان كرفس على وزن جعفر وانها لم توافق

الابنية العربية فهي دخيلة ، والدخيل لا يُحتجّ به . وان الافصح في كرنب ان تكون على وزن قنفذ ، وان نونها زائدة وانها من الدخيل ايضاً . فكيف يسوغ الاعتراض بالضعيف الدخيل على هذه القاعدة الكليّة ؟ على اننا لو اطلقنا العنان وسلمنا بانها ليسا دخيلين ولا ضعيفين فهما شاذان . فاذاً لا وجه لهذا الاعتراض السخيف ! فنتج من ذلك كله ، انه متى أُطلق الرباعي المفتوح العين فلا ينصرف إلا الى وزان جعفر . وانه يجب تقييد ما خرج عن هذه القاعدة الكليّة لغرابته كلفظة الكرفس مثلاً فانه اذا كان احد في سياق الكلام على مثل هذه اللفظة لزمهُ تقييدها ، على أنّا قدّمنا ان الافصح فيها ان تكون على وزن جعفر . فلله درّ هذا المعترض المتهافت على الثرثرة ! لعمري ان السكوت سترٌ للغبي والكلام فضيحة له واي فضيحة !

ولنزده بياناً على كون المفتوح الفاء لا ينصرف إلا الى وزن جعفر فنقول : ان ائمّة اللغة كثيراً ما يوردون الفعل الرباعي ولا يضبطونه على وزنٍ لعلمهم انه ينصرف الى وزن جعفر لانه الاكثر الاشهر وذلك كقول صاحب القاموس : الجرعب ، الجافي . الجسرب الطويل. الجعشب الطويل الغليظ. الحترب القصير . الحردب ، حبّ العشرق . الحرعب الغصن الغضّ . الزغرب الماء الكثير . السلهب الطويل . الشرعب الطويل . الصقعب الطويل . الصلهب الرجل الطويل . العبرب السمّاق . العشزب الشديد من الاسود . العلهب التيس الطويل . القرهب الثور المسنّ . القعضب الضخم الجرىء . القلهب الرجل القدم الضخم . الكعنب القصير والاسد . وقس على ذلك . فكون التقييد بالفتح يقصره على وزن جعفر من بابٍ أولىّ . فقد تبيّن للقارىء المنصف ان رأس مال الخواجه ابراهيم هو المماحكة والتدليس والتشبّث باعتراضات سخيفة ترويجاً لبضاعته المزجاة في بيروت . ومن كان هذا دأبه فمحاورته ضربٌ من العبث ، لان من كان قصدهُ المماحكة والمعاكسة لن يحيك فيه الكلام ولا يردّه الى الحق دليل ولا برهان . وهو دأب المعاندين المتصلفين ، بل هو عين الدليل على الجهل والغرور . فبئس الخصلتان ! وبئس من تلبّس بهما !

في صحة قول صاحب الجوائب

الوجه القبيح المبرقع

ومن هذه المماحكة قوله : ثم خطأني (اي صاحب الجوائب) في اعتراضي على قوله الوجه القبيح المبرقع . قال : « فان القبيح قد يكون مبرقعاً كما ان المبرقع قد يكون قبيحاً ، فلا تضاد بين هاتين الحالتين فمن اين جاء الالتواء ، وقد قال ابو الطيّب :

قبحاً لوجهك يا زمان فانهُ وجهٌ لهُ من كل قبح برقعُ

فما الفرق بين الكلامين . قلتُ (اي الخواجا ابراهيم) اما قوله ان القبيح قد يكون مبرقعاً والمبرقع قد يكون قبيحاً ، فلا تضاد بين هاتين الحالتين» فهو تمويه باطل الخ » . اقول : من اين جاء التمويه وهو قد افحمك غاية الافحام وردّ قولك هباءً كما لا يخفى على ذوي الاحلام ؟ لكنك ابيتَ إلا التمادي في العناد والزيغ عن سبيل الرشاد ، بل انت الذي ارتكبت التمويه وبه تلبّستَ وقد حصحص الدليل القويم وبه كذبت ، وفي الجواب عنه مخرقت ودلست ، وما جزاء من يفعل ذلك إلا خزيٌ في الحياة الدنيا ! ولنقرّر كلامك لانه ربما صار لديك نسياً منسياً ، او ربما التبست عليك عباراته المبهمة فرحتَ به غوياً فنقول :

ان اصل اعتراضك هو ان صاحب الجوائب قصد المبالغة بقوله : مثل الثوب المرقّع والوجه القبيح المبرقع . فالتوى عليه المعنى وجاء عكس المقصود . هذا هو اعتراضك . ويؤخذ منه انه لا يجوز ان يقال الوجه القبيح المبرقع لكي يستوفي ذم اللغات الاجنبية والتشنيع عليها . وان من قال هذا التوى عليه المعنى وجاء عكس المقصود . اي عوضاً عن ان يكون ذماً يصير مدحاً ، لانه لا يجوز ان يكون القبيح مبرقعاً . هذا هو المعنى الذي لما التبس على قائله تبرّأ منه وذهب انه لم يدخل في الامكان واخذ يموّه بكثرة الاقوال الفارغة .

واقول ثانياً زيادة تأكيد وتأييد انه يُفهم من نفس اعتراضه ان صاحب الجوائب جمع بين الضدّين لانه قال : التوى عليه المعنى وجاء عكس المراد ، اي بدلاً من الذمّ أتى بالمدح الذي هو ضد المراد وهو الذمّ . فاجابه فارس الجوائب بجواب يشفي العلة ويروي الغلة حيث قال : ان القبيح قد يكون مبرقعاً كما ان المبرقع قد يكون قبيحاً فلا تضاد بين هاتين الحالتين . فمن اين جاء الالتواء ؟ وقد قال أبو الطيب : قبحاً لوجهك (البيت) ومعنى قول ابي الطيب هو قبّح الله وجهك قبحاً يا زمان ! فانه وجهٌ له برقعٌ ساترٌ من كل قبح ، فان الظرف هنا لغوٌ متعلقه خاص، لان اللغو هو ما كان متعلقه خاصاً ذُكر أو حُذف لدليلٍ . وهنا متعلقه محذوف لدليل ان البرقع يستر من القبح وغيره . وليس البرقع هو ذات القبح كما زعم هذا المعترض مكابرةً . وهذا هو الأليق بالبيت ، وإلا فما معنى كون البرقع هو كلّ قبحٍ ؟ فلا ريب انه يضيع الذمّ والتشنيع على وجه الزمان ، فانه يكون القبح كله مجموعاً في البرقع دون الوجه . والمراد هنا ذمّ الوجه خاصة .

ولعلّ المعترض يعود الى الاعتراض ثانياً فيقول : اذاً يكون البرقع ساتراً من القبح فلا يتمّ المراد . والجواب انه وان كان البرقع ساتراً من القبح فلا ينافي ذلك كون الوجه قبيحاً ، بل يقوى ويزيد في ذمّه وتشنيعه وينبه الغافل عن ذلك لينظر ويبحث بعين الفكر الصحيح والتأمل المصيب فيعدل عن الشبهات الذميمة ويميل الى الخصال الكريمة .

ولك ان تقول ايضاً : ان معنى قول صاحب الجوائب الوجه القبيح المبرقع ، اي الوجه القبيح المبرقع بضروب القبح كما قال العكبري على شرح كلام المتنبي ونصّه يقول هذا منبّهاً على جور الزمان . اي قبّح الله وجهك واهانه ولا اكرمه لانه وجهٌ مبرقع بضروب القبح !

في احكام الفاصلة

أما قول الخواجه ابراهيم : « ثم ما لبث ان انكر عليّ اعتراضي على خلله في احكام الفاصلة الخ » . فجوابه ، ان احكام فواصل السجع ليست كاحكام فواصل النظم ، وانه يغتفر في السجع ما لا يُغتفر في النظم . ومما يدل على ذلك قول الشيخ الامير في حاشيته على ابن تركي صفحة ٣ ، عند قول المصنّف : الحمد لله على نعمه المتواترة ، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، شهادة أعدّها للنجاة من اهوال الآخرة . واشهد ان سيّدنا محمداً عبده ورسوله ذو المعجزات الباهرة . صلى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه ومن عاونه وناصره .

ونصّه قوله المتواترة احتراسٌ يدفع توهّم ان الحمد وفي بالنعم . فكيف وهي لا تنحصر ولا تقف عند حد ، بل الاقدار على الحمد نعمة ، وفيه من المحسنات لزوم ما لا يلزم حيث التزم راء قبل حرف السجع في جميع الفِقَر كما التزمت الهاء في قوله تعالى : فأما اليتيم فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر . فان قلتَ ان الهاء لا تكون روياً في الشعر ، فلا تكون فاصلاً في السجع فانما يتمّ السجع بالراء ، قلتُ : يُشدّد في الشعر ما لا يُشدّد في السجع . ألا ترى ضبطه بالموازين والعروض والقوافي . اه

فانت ترى ان المصنف التزم ما لا يلزم في خطبته فخرج عن احكام القوافي ، واجاب عنه الشيخ الامير بما اجاب . وربما يعترض معترض فيقول : انه ورد في « التلخيص » ما يدل على انه لا بد من ان يُراعى في فواصل السجع ما يُراعى في قوافي الشعر . فان صاحب التلخيص قال : ومنه اي من البديع اللفظي السجع وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرفٍ واحد في الآخر . وهو معنى قول السكاكي ، هو اي السجع في النثر كالقافية في الشعر ، فقال « السعد » على هذه العبارة ، يعني ان هذا مقصود كلام السكاكي ومحصوله ، وإلا فالسجع على التفسير المذكور بمعنى المصدر ، اعني

توافق الفاصلتين في الحرف الآخر . فالجواب انه لا يُفهم من هذه الاقوال انه يجب ان يُشدد في احكام قوافي السجع كما في الشعر ، بل المفهوم منها انه يلزم في السجع تواطؤ الفاصلتين من حرفٍ واحدٍ في الآخر . فما بال الخواجه ابراهيم حذف هذه العبارات وأتى بأذيالها واستنتج من هذه الاذيال استنتاجات عقيمة ، فزعم انه يجب ان يُشدد في السجع ما يشدّد في الشعر خلافاً لقول الشيخ الأمير ؟ . فاذا كان لا يعي معنى ما ينقله أو يقوله فليصمت فالصمت خيرٌ له .

ومما يؤيد هذا الحكم ، اي انه لا يشدد في السجع ما يُشدّد في الشعر ، ما سنورده من الشواهد البينة التي نقلناها عن بعض الائمة فنقول : قد ورد في خطبة صاحب القاموس : فاتحفت مجلسه العالي الذي سما الى السماء لما تسامى . وفيه سناد التأسيس . وقال الحريريّ في المقامة الثانية : فأويت لمفاقره ، ولويت الى استنباط فقره . وقال في المقامة السادسة والعشرين : ورغّبته في ان ينظر لي بمياسره ، او ينظرني الى ميسره . وفيها ايضاً : حتى اذا غمرتني مواهبه ، واطال ذيلي ذهبه . وفي المقامة السابعة والعشرين : فلم اطب نفساً بالغاء طلبها ، والقاء حبْلها على غاربها . فقد وقع هنا في هذه الفِقَر سناد التأسيس ، الذي انكره الخواجه ابراهيم على صاحب الجوائب من شدّة ما به من الكمد والتلبيس

وورد في ريحانة الالباء قوله : احاديث يستشفي بها الغليل ، ويصحّ مزاج النسيم العليل ، تتفتح منها في رياض المسامرة ، من اجفان الكمائم عيون انوارها الزاهرة . وفيه سناد الاشباع الذي زعمه الخصم من اقبح عيوب القوافي ، حتى توهم انه منكرٌ بالاجماع .

وقال محمد بن الجبار المدعو بأبي نصر العتبي في صحيفة ١٨ و ١٩ من خطبته : والقلوب ان تمرض ، والشكوك ان تُعترض . وقال ايضاً : الدين اسّ ، والملك حارس صفحة ٢١ . وقال في الصفحة التي بعدها : وشمل الهرج والمرج ، وعم الاضطراب والهيج . قال الشارح : الهيج ساكن والظاهر ان المصنّف استعمله هنا محرّكاً لازدواجه مع المرج الذي الاصل فيه التحريك .

وقال ايضاً في الصفحة المذكورة : حتى يشغلهم بذلك عما يشغلهم معاشاً ومعاداً ، ويقيم أودهم يوماً وغداً . وفيها ايضاً : مدبّر ومسخّر بغيره ، ومؤدب ومهذب بنور ربّه . وقال في صفحة ٧٧ : ويقرّب تلك المعارك مما يلي الكفار عقبة تُعرف بعقبة غوزك . وقال في صفحة ٨٨ : وأمّا في الارواح والنفوس في نصرته ، والقيام بفرض طاعته ، وفي صفحة ٩٠ : جلالة قدره ، ونباهة ذكره ومناعة جانبه وخشونة حدّه . وفي صفحة ١٠٤ : بالنزول للحسين بن طاهر عن متحصنه والانتقال الى غيره من معاقله . وهذا يصلح ايضاً لان يكون شاهداً على ان الساجع لا يلزمه السجع دائماً كما سيأتي وكذا ما قبله .

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي شارح ديوان ابن الفارض في افتتاح خطبته : الحمد لله الذي رفع الادب واهله وسوّاهم بدوراً كاملة وسوّاهم اهلّه (بتشديد اللام) وقد وقع مثل ذلك لكثير من العلماء والادباء مما لو استوفيناه لملأ مجلدات عديدة . وكذلك وقع للشيخ ناصيف الذي ينزهه ابنه عن كل ما يعيب به غيره ، فلا تكاد تخلو منه مقامة من مقاماته . ولنورد بعضها لعلّ ابنه يقتنع بذلك ويرتدع عن غيه وعناده فنقول :

قد ورد في المقامة الأولى في الصفحة السابعة منها قوله : « ثمّ عمدتُ الى عقال نافتي المُجفِلة ، (بضمّ الميم وكسر الفاء) واذا طرسٌ قد عُقل به مكتوباً فيه بعد البسمله » . وفيه عيب السناد ، لان البسملة مصدر لبسمل كدحرج دحرجةً فهو مفتوح ما قبل الآخر .

وقال في المقامة الثانية صفحة ٨ : « سمعنا زفرة متنهّد ، يليها صوت كئيب يُنشد »

وقال في المقامة الثالثة صفحة ١٤ : « فانظر اين ما جمع ، وهل اتى بشيءٍ منه الى هذا المضجع »

وقال في المقامة الثامنة صفحة ٥٠ : « واذا لقيت الاستاذ فقل له المعذُره (ضَبَطها بضمّ الذال) ، وان غداً لناظره قريب فمن يعش يره » . على ان الكسر في المعذره أفصح من الضمّ ، وعليها اقتصر صاحب الصحاح .

وقال في المقامة العاشرة صفحة ٦٣ : « اين يراعى ما يقدّر ، ولا يبالى بما يُذكر » .

وقال في المقامة الثانية عشرة : والشيخ يعجب منها ويعجب (بتشديد الجيم وكسرها) ويعظم امرها ويطنب » .

وفيها : « وما الفرق بين ما تمّ من الابيات وما وفى ، وبين المصرّع منها والمقفى » . وفيها ايضاً : « فلما صرنا بمعزلٍ قال قد حملتُ وقعة المسئلة ، واستفدت حلّ المعضلة »

وفي المقامة الثالثة عشرة صفحة ٩٨ : « وهل تعرف ما لهذه الاطعمة ، من الآنية المفعمة (بفتح العين) . الى ما لا نهاية له .

فلو كان ابنه مطلعاً على الكتب حقّ الاطلاع لمَا اعترض بمثل تداعبه ومركبه . فانها وقعت في كلام الحريري وغيرهِ . ولما كان اعترض بغيرها ايضاً على صاحب الجوائب بما وقع لغيره من الائمة الذين يهتدى بآثارهم المتأخرون ، ويقتدي بهم العلماء الراسخون ، ولا ينكر فضلهم إلا كل جاهل قد اعمى الله بصرهُ وبصيرتهُ ، وأفسد الصّلفُ سيرته وسريرته ، فصار دأبه التطلع الى ما يظنه عوره ، ويبني عليه سفاهته وهتره . فرحم الله أبا الطيّب حيث قال :

ومن يكُ ذا فمٍ مرّ مريضٍ   يجدْ مرّاً بــه الماءَ الزلالا

لا جَرَم ان ما اعترض به على صاحب الجوائب ، انما هو اعتراضٌ على صاحب القاموس والحريري والعتبي والخفاجي وغيرهم من العلماء الاعلام . بل هو اعتراضٌ على نفس مقامات أبيه ، فان فيها من الخلاف في السجع ما يطول عدّه ! وما قذف به في حق صاحب الجوائب بقوله : « انه جمدت بادرته فيأتي باللفظ متكلفاً بارداً » ، ان هو الا قذفٌ في العلماء وفي ابيه ايضاً . فانه وقع في كلامهم ما وقع في كلام صاحب الجوائب ! وحسبك بما اوردناه هنا دليلاً كافياً وبرهاناً شافياً وقياساً وافياً على سفاهة هـــذا المعترض وقلة حيائه وجهله المركّب .

في سناد الاشباع

أمّا قوله : « ان سناد الاشباع منكرٌ بالاجماع » . فيكذّبه ما قرّرهُ الشيخ الدمنهوري في « المختصر الشافي على متن الكافي ، في علم العروض والقوافي » . قال : اعلم ان الاكفاء والاقواء والاجازة والاسراف لا يجوز للمولدين استعمالها ، وان الايطاء والتضمين والسناد باقسامه يجوّز للمولدين استعمالها كما يؤخذ ذلك من شرح شيخ الاسلام على « الخزرجية » . ولا يخفى ان هـذا الكلام هو في قوافي الشعر . فاذا كان ذلك جائزاً في الشعر فجوازهُ في النثر أولى ، فانه لا يشدّد فيه كما يشدّد في الشعر كما قال الشيخ الامير . ولو استوفينا الكلام على كلّ ما هذى به ابراهيم في هذا الموضوع لضاق بنا الوقت ! فغاية ما نقول ان عباراته كلها ركيكة معقدة مبنية على التمويه والتلبيس والافتراء والوقاحة . ولنزد ذلك كشفاً وظهوراً عند انتهاز فرصةٍ أُخرى .

في عدم التقيد بالسجع

وأمّا قوله (اي قول صاحب الجوائب) : فمن اين علم اني مقيّدٌ بالسجع في جميع الفِقَر . فما ادري أمراده بهذا الانكار انه لم يقصد السجع في شيءٍ منها اصلاً ، أم سجّع بعضها دون بعضٍ فوقع اعتراضي على غير المسجّع منها . الى ان قال : لا بدّ من ان أُثقل على القارىء بايراد جانب كبير من الصفحة التي اخذت منها تلك الفقرات ، يكفي للدلالة على وجود السجع هنا . ثمّ اورد الفِقَر المذكورة . الى ان قال : ان من الادلة القاطعة على انه قصَدَهُ ، اي السجع للفصل بين كلّ فقرةٍ واخرى ، بان ترك هناك فسحةً تُشعر بالوقف . اهـ .

قلتُ : ان هذا دليلٌ سخيف وبرهان ضعيف ومقالٌ كثيف يكذّبه ما في سجع الاوائل والاواخر .

ولنورد اولاً نبذةً من كلام الصابىء الذي كان عَلماً في الانشاء لا يُبارى، وإماماً في السجع لا يُجارى . وذلك من تقليد كتبه عن امر امير المؤمنين الى محمّد بن الحسين بن موسى العلوي الموسوي على ما في « المثل السائر » . قال : وأمره بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين ، وسناء الصالحين ، وعصمة عباد الله اجمعين ، وان يعتقدها سرّاً وجهراً ، ويعتمدها قولاً وفعلاً ، ويأخذ بها ويعطي ، ويسرّ بها وينوي ، وأمره بتلاوة كتاب الله مواظباً ، وتصفحه مداوماً ملازماً » .

وبين هذه الفِقَر فسحة تشبه شدْقي ابن اليازجي اذا تشدّق وتلمّظ ، وتمطّق وتقعّر ، وتلهوق وتنطّع ، وتعمّق وتمدّح ، وتفيهق وبالباطل تعلّق ، والى الاراذل تملّق . كذا هي في النسخة المطبوعة بمصر ، وفي نسخ الخط ايضاً .

الى ان قال : ويجعل عقله سلطاناً عليها ، وتمييزه آمراً ناهياً لها ، ولا يجعل لها عذراً الى صبوة ولا هفوة ، ولا يُطلق منها عناناً عند ثورة ولا فورة ، فانها إمّارة بالسوء منصبّةٌ الى الغيّ فمن رفضها نجا ، ومن اتبعها هوى ، فالحازم متّهم عند تحرّك وطرهِ وأربهِ واهتياج غيظه .

وهنا ايضاً فسحةٌ بين الفِقَر لو رآها ابن اليازجي لتمنّى ان يكون له ندحةٌ في الارض مثلها !

الى ان قال : كيما يعزّ بتذليلها وتأديبها ، ويُجلّ برياضها وتأمينها ، فذلك الذي تتضاعف به المآثر ان آثرها ، والمثالب ان أسفّ اليها .

الى ان قال : وأمرهُ ان يتصفّح احوال من وُليَ عليهم من استقراء مذاهبهم ، والبحث عن بواطنهم ودخائلهم .

الى ان قال : ويجرين الى ما يزري بانسابهم ، ويغضّ من أحسابهم ، عذَلهم وأنّبهم ، ونَهاهم ووَعظهم .

وبين هذه الفِقَر فسحةٌ تكاد تكون وساداً لقفا ابن اليازجي .

الى ان قال : وما كان من طريقة الغشم والظلم والتغلّب والغصب ، قبض عليه عند اليد المبطلة ، وثبّت فيهِ اليد المستحقة .

الى ان قال : ويحميهم في بدأتهم ودعوتهم ، ويربّبهم في مسيرهم ومسلكهم ، ويرعاهم في ليلهم ونهارهم ، حتى لا تنالهم شدّة ، ولا تصل اليهم مضرّة ، مجتهداً في الصيانة لهم ، ومعذراً في الذبّ عنهم ، ومتلوّماً على متأخرهم ومتخلّفهم ، ومنهضاً لضعيفهم ومهيضهم .

وهنا ايضاً فسحة بين الفِقَر أوسع من عين ابن اليازجي حين يفتحها للنظر في عيوب الناس . وقس على ذلك سائر التقليد مع كونه مبنياً على السجع .

ومن جملة سجعه فيه ، وهو مما يعجب العلماء ولا يعجب السفيهين العيّابين ابن اليازجي وصاحبه ، صاحب « الجنان » جمع جنّة بالكسر لكونهما وجدا مثله في كلام صاحب الجوائب ، قوله : وان اصرّوا وتتابعوا أنالهم من العقوبة بقدر ما يكفّ ويردع فان نفع ، وإلا تجاوزه الى ما يلذع ويوجع .

وقوله : فان عادة الحكام وصاحب المظالم واحدة وهي اقامة الحق ونصرته ، وابانته واثارته ، والجانب الاعز ، والملجأ الاحرز ، معتقدين خشية الله وخيفته ، مدّرعين تقواه ومراقبته ، الى غير ذلك .

وفي كتاب « الصناعتين » للعسكري ، قال المأمون ليحيى بن اكثم : صِف لي حالي عند الناس . فقال : يا امير المؤمنين ! قد انقادت اليك الدنيا بأزمّتها ، وملّكت الامّة فضل اعنتها ، بالرغبة اليك ، والمحبة لك ، والرفق منك والعياذ بك ، لعدلك فيهم ، ومنّك عليهم ، حتى لقد انسيتهم سلفك ، وآيستهم خلفك ، فالحمد لله الذي جمعنا بك بعد التقاطع ، ورفعنا في دولتك بعد التواضع .

وفيه قال بعض الكتّاب : اذا كنت لا تؤتي من نقص كرَم ، وكنتُ لا أوتي من ضعف سبب ، فكيف اخاف منك خيبة أمل ، او عدولاً عن اغتفار زلل ، او فتوراً عن لمّ شعث او قصوراً عن اصلاح خلل . قال العسكري : فلو بُدل ضعف سبب بكلمة آخرها ميم ليكون مضاهياً لقوله: نقص كرَم ، لكان أجود . فقوله أجوَد يدلّ على ان ترك السجع جيّد .

وقال ايضاً : دعا اعرابيّ فقال ، أعوذ بك من الفقر إلا اليك ، ومن

الذلّ إلا لك . وقال آخر وقد ذهب السيل بابنه : اللهمّ ان كنتَ ابليتَ فانك طالما عافيت . فقال الرسول : (كذا في الاصل) ما يدريك انه شهيد . لعله كان يتكلم بما يعنيه او يبخل بما لا ينفعه . قال . ولو قال بما لا يعنيه لكان سجعاً .

ولتزد هذا الغويّ امثلة أخرى رادعةً له عن غيّه الذميم وضلاله القديم ، فمن ذلك المقامة الرابعة والثلاثون من مقامات بديع الزمان . قال :

لمّا قفلتُ من الحج في من قَفَل ، ونزلت حلوان مع مَن نزل ، قلتُ لغلامي : اجد شعري طويلاً ، وقد اتسخ بدني قليلاً ، فاختر لنا حمّاماً ندخله ، وحجاماً نستعمله ، وليكن الحمّام واسع الرقعة ، نظيف البقعة ، طيّب الهواء معتدل الماء ، وليكن الحجام خفيف اليـد حديد الموسى ، نظيف الثياب قليل الفضول . فخرج ملياً وعـاد بطيأ ، وقال قد اخترته كما رسمت. فاخذنا السمت الى الحمّام واتيناه فلم أرَ قوامه لكني دخلته ودخل عـلى اثري رجلٌ عمد الى قطعة طين فلطخ بها جبيني ووضعها على رأسي ثمّ خرج. ودخل آخر فجعل يدلكني دلكاً يكدّ العظام ويغمزني غمزاً يهدّ الاوصال ويصفر صفيراً يرشّ البزاق . وما لبث ان دخل الاول فحيّا خـد الثاني بمضمومه وقال : يا لكع ! مالك ولهذا الرأس وهو لي . ثمّ عطف الثاني على الاول بمجموعه فقعقعت أنيابه وقال : بل هذا الرأس حقي وملكي وفي يدي . ثمّ تلاكما حتى عيّيا ، وتحاكما لما بغيا ، فاتيا صاحب الحمّام . فقال الاول : انا صاحب هذا الرأس لاني لطخت جبينه ، ووضعتُ عليه طينهُ . وقال الثاني : بل انا مالكه لاني دلكتُ كاهله وغمزتُ مفاصله . فقال صاحب الحمّام : ائتوني بصاحب هذا الرأس اسأله : ألك هذا الرأس أم له؟ فأتياني وقالا لنا : عندك شهادة فتجشم اداءها فقمتُ فأتيت شئت أم ابيت. فقال الحمّامي : يا رجل ، لا تقل غير الحق ، ولا تشهد بغير الصدق . قل لي : لايهما هذا الرأس ؟ فقلت يا عافاك الله قد صحبني في الطريق وطاف معي بالبيت العتيق ، وما شككت انه لي . قال لي : اسكت يا فضولي ! ثمّ مال الى احد الخصمين فقال : يا هذا كم هذه المنافسة مع الناس بهـذا الرأس ، سلْ عن قلبك خطره ، الى لعنة الله وحرّ سقره . وهبْ ان

هذا الرأس ، ايس ، ولا تفكر في هذا التيس .

قال عيسى بن هشام : فقمت من هذا المقام خجلاً ، ولبثت ثيابي وجلاً ، وانسللت من الحمّام عجلاً ، وسببت الغلام بالعضّ والمصّ ، ودققته دقّ الجصّ وقلت لآخر : اذهب فائتني بحجّام يذهب عني الثقل . فجاءني برجل لطيف البنية ، مليح الحلية ، في صورة الدمية فارتحت اليه . ودخل وقال : السلام عليك ومن ايّ بلد انت ؟ فقلت : من قم . فقال : حياك الله ، من بلد النعمة والرفاهه ، واهل السنّة والجماعه . ولقد حضرت في شهر رمضان جامعها ، وقد اشتعلت المصابيح ، واقتربت التراويح ، فما شعرنا الا بمد النيل ، ولقد أتى على تلك القناديل ، لكن صنع الله لي بخفّ قد كنت لبسته رطباً فلم يحصل طرازه على كمّه ، وعاد الصبيّ الى أُمّه ، بعد ان صليت العتمة واعتدل الظلّ . ولكن كيف كان حجك هل قضيت مناسكه كما وجب ؟ والى متى هذا الضجر واليوم والغد والسبت والاحد ولم اظنك ، وما هذا القال والقيل ؟ لكن احببت ان تعلم ان المبرّد في النحو حديد الموسى فلا تشتغل بقول العامّة ، فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت حلقت رأسك . فهل ترى ان تبتدىء ؟

قال عيسى بنُ هشام : فبقيت متحيراً من بيانه وهذيانه ، وخشيت ان يطول مجلسه فقلت : الى غد ان شاء الله . ثم سألت عنه مَن حضر فقالوا : هذا رجلٌ من بلاد الاسكندرية لم يوافقه هذا الماء ، فغلبت عليه السوداء ، فهو طول النهار يهذي كما ترى ووراءه فضلٌ كبير . فقلت : سمعت به وعزّ عليّ حياته وأنشأت اقول :

انا معطي الله عهدا   محكماً في النذر عقدا
لا حلقتُ الرأس ما عشتُ ولو لاقيت جهـــدا

وقال في المقامة الثانية :

حدّثني عيسى بن هشامٍ قال : كنتُ في بغداذ ، وقت الازاذ فخرجت اعتام من انواعه ، لابتياعه ، فسرت غير بعيدٍ الى رجل قد اخذ اصناف

الفواكه وصفّها ، وجمع انواع الرطب وضفّها . فقبضت من كل شيء احسنه ، وفرضت من كل نوع اجوده . فحين جمعت حواشي الازار ، على تلك الازرار ، اخذت عيناي رجلاً قد لفّ رأسه ببرقع حياءٍ ، ونصَب جسده وبسط يده واحتضن عياله ، وتأبّط اطفاله ، وهو يقول بصوت يدفع الضعف في صدره والحرص في ظهره :

ويلي على كفّين من سويقِ   او شحمةٍ تُضرب بالدقيقِ
او قصعةٍ تملأ من حرديقِ   تفثـــأ عني سطوات الريق
تقيمنـــا عن منهج الطريق   يا رازق الثروة بعد الضيق
سهلٌ على كفّ فتىً لبيقِ   ذي نسبٍ في مجده عريقِ
يهدي الينـــا قدَمَ التوفيق   ينقذ عيشي من يد الترنيقِ

قال عيسى بن هشامٍ : فاخذت من فاضل الكيس اخذةً وانلتُه اياها فقال :

يـــا من حبانا بجميل برّه   افضى الى الله بحسن سرّه
واستحفظ الله جميـــل ستره   ان كان لا طاقة لي بشكره
فالله كافٍ عبدُه بأجره

قال عيسى بن هشام : فقلت ان في الكيس فضلاً ، فأبرز لي عن باطنك ، اخرج اليـــك عن آخره . فاماط لثامه ، فاذا هو والله شيخنا ابو الفتح الاسكندري . فقلت : ويحك ايّ داهية انت . فقال :

نقضّي العمر تشبيها   على الناس وتمويـها
ارى الايام لا تبقى   على حالٍ فاحكيها
فيومٌ شرّهـا فيّ   ويومٌ شرّتي فيهـا

وهكذا سائر مقاماته . حتى انه لم يتقيّد بالسجع في المقامة الاولى مع انها من براعة الاستهلال .

وقال الحريريّ في خطبة مقاماته : كما نستغفرك من نقل الخطوات الى خطط الخطيئات ، ونستوهب منك توفيقاً قائداً الى الرشد ، وقلباً متقلباً مع

الحق ، ولساناً متحلياً بالصدق ، ونطقاً مؤيّداً بالحجة ، وإصابةً زائدةً عن الزيغ ، وعزيةً قاهرةً هوى النفس ، وبصيرةً تدرك بها عرفان القدر .

وقد وقع له في مقاماته كثيرٌ من هذا القبيل ، مع انه كان ملتزماً للسجع ، وبين هذه الفِقَر فواصل ، قدَر ما رأى ابن اليازجيّ من فواصل «سرّ الليال» مما اتخذه برهاناً لتأييد دعواه . فان يكن قد عميَ فليُنب مَن يراها لهُ .

وورد في خطبة العتبي والسلطان ظلّ الله في ارضه وخليفته في خلقهِ وامينه على رعاية حقّه : به تتم السياسة ، وعليه تستقيم الخاصة والعامة .

وقال ايضاً : حتى اعملت التفكّر وانعمت التدبر ، فوجدت الكتاب قانون الشريعة ، ودستور الاحكام الدينية ، يبيّن سبل المراشد ، ويفصّل جمل الفرائض ، ويرتهن مصالح الابدان والنفوس ، ويتضمن جوامع الاحكام والحدود . وقد حظّر فيه التعادي والتظالم ، ورفض التباغي والتخاصم . الى غير ذلك مما لا ينحصر حتى لو جمعنا من كتابه الموسوم «باليميني» مثل هذه الشواهد لكان ذلك داعياً الى املال المطالع مع غزارة فضله حتى انه لجلالة قدره ذكره نورالدين علي بن موسى في عنوان المرقصات والمطربات فقال فيه ما نصّهُ : ابو نصر العتبي توفي سنة ٤٣١ ، كاتب السلطان محمود ، هو عندي ارفع الجميع طبقةً . الى ان قال : وانا اقسمُ على ذلك بأجلّ ما يُقسم به وبرآءتي من يميني وقوف المطالب بالتحقيق على كتابه الموسوم باليميني (هو الذي اتينا بالشواهد منه) فقد ضمّنه من ذلك العجائب ، وحطّ بمراقبه مراتب الكواكب . اه.

ومن هذا القبيل ، الرسالة التي كتبها ابو الفضل الذي كان في المئة الثالثة ، الى بلكا ، عن ركن الدولة ، اعني ان بعضها مسجّع وبعضها غير مسجّع . والاكثر الاول . فارجع اليها ان شئت . وقد اضربنا عنها هنا لضيق المقام . وامثال هؤلاء كثير من مشاهير العلماء الاعلام . فلو كان ابن اليازجي قد طالع بعض كتب الادب ، او كان ذا وقوف على كلام العرب ، لما اعترض على محرّر «الجوائب» محي مآثر اللغة العربية ، كما

قال فيه العَلَم الشهير صاحب التآليف العديدة والتحرير . رفاعه بك . فان هذا الاعتراض لا وجه له اصلاً . فانه كما يجوز للكاتب ان يسجّع من خطبته فقراً ، يجوز له ايضاً ان يعدل عن السجع ، لان الواجب مراعاة المعاني ، والتسجيع تابع المعاني والمتبوع له التقدّم وله المراعاة ايضاً .

في مراعاة المعاني

وبما يؤيّد ذلك ما قاله السعد التفتازاني على التلخيص : وأصل الحسن في ذلك كله ان تكون الالفاظ تابعةً للمعاني دون العكس . اي لا تكون المعاني توابع للالفاظ ، كما توهمه ابراهيم اليازجي الشيخ الجديد الذي شيّخه بطرس البستاني ، على حدّ محاكّة الحمير بعضها لبعض ، فيؤتى بالالفاظ متكلفة مصنوعةً ليتبعها المعنى كيفما كانت كما يفعله بعض المتأخرين الذين لهم شغفٌ بايراد المحسّنات اللفظية فيجعلون الكلام كأنه غير مسوق لافادة المعنى ، ولا يبالون بخفاء الدلالات وركاكة المعاني ، فيصير كسيف من خشب في غمدٍ من ذهب ، بل الوجه ان تنزّل المعاني على سجيتها فتطلب لانفسها معاني تليق بها وعندها تظهر البلاغة والبراعة ويتميّز الكامل من القاصر . انتهى مع تصرف .

الى ان قال : وما احسن ما قيل في الترجيح بين الصاحب بن عبّاد والصابي! ان الصاحب كان يكتب كما يريد ، والصابي كان يكتب كما يؤمر . وبين الحالين بونٌ بعيد ، اي ان الحالة الثانية ابلغ من الاولى . الا ترى ان الصاحب لما طلب ان يجانس بين ُقمْ الذي هو فعل امر ، وبين قم الذي هو اسم مدينة من دون ان يتيسر له معنىً مطابق لمقتضى الحال واقع في نفس الامر ، كتب الى قاضي تلك البلدة . ايها القاضي بقم قد عزلناك َفقُمْ . ففطن القاضي الى ان الصاحب لم يكن له غرضٌ في المعنى ، وانه لا يناسب حاله وحال الملك فصار الكلام فيه كالهزل فقال : والله ما عزلني إلا هذه السجعة .

ومن هذا ُيفهم انه يجب على الكاتب اولاً تشخيص المعاني وتحريرها ، سواء ابرزها في قالب السجع او لا ، اذ المقصود انما هو المعنى لا غير كما

يستفاد من كلام اهل الادب . فان كان الشيخ الجديد والبستاني الذي شيّخه في ريب من ذلك ، أتينا لهم بشواهد جمّة غير ما اوردناه . فيا لهما من احمقينِ معاندينِ ومتطفلينِ متعاقدينِ ! فتلخّص اذاً مما قدمناهُ على وجه الاختصار ستة امور :

الاول : ان الشيخ ناصيف مدح صاحب الجوائب واعترف له بالفضل ولاسيما في قوله :

انا الوادي اذا ناديت لبّى صداه فكان منك لك النداءُ
خلعت علــيّ فضلاً أدّعيهِ وحسبي ان مثلك لي جلاءُ

فكأنه يقول : خلعتَ عليّ يا ايها النبيه فضلاً يحقّ لي ان ادّعيه وكفاني ذلك ، فانك كبدر اينا حلّ بدّد شمل الظلام . فكان من الواجب اذاً ان يذكر اسم الممدوح في عنوان القصيدة ، لان المدح من افعال العاقل الاختيارية ، وعدم التصريح باسم الممدوح في القصيدة او في عنوانها ، من العبث المحض ، وافعال العاقل الاختياريّة تصان وجوباً عن العبث ، اذ لا يتصوّر عقلاً مَدْحَ مجهول ، او مَدْح بدون ممدوح . ومع ان هذا المعنى ظاهرٌ كالشمس فقد خفي على الشيخ الجديد فأطال لسانه فيه وهَذَى وهَذَرَ وفتح فاه بالسفاهة ، وشخَرَ ونَخَرَ ، وشخر وزحَر وزَفر ، كأنما هو في حرّ سَقَر ، فما لنا الا ان نقول : نعم السلَف وبئس الخلَف !

الثاني : ان الفحطل في مقامات الشيخ ناصيف ، غلطٌ صريح ناشئٌ من عدم تحقيق اللفظة . ويؤيّد ذلك تكرارها في المتن والشرح . والانسان محلّ النسيان .

الثالث : ان قول صاحب الجوائب في الواقع هو الصواب ، وهو من البديهيات التي لا تحتاج الى زيادة ايضاح .

الرابع : ان الرباعيّ المفتوح الفاء ليس له الا وزن جعفر ، وان كرنب من الثلاثيّ ، لان نونها زائدة ، وان الاجود فيها ان تكون على وزن قنفذ . فأمّا كرفس فدخيلٌ ولا يعتدّ به مطلقاً .

الخامس : انه يجوز ان يُقال : الوجه القبيح المبرقع . ولا ينكر ذلك إلا مَن تبرقع بقباحة الجهل ، او من كان على بصره غشاوة ولم يميّز صحيح الكلام من سقيمه .

السادس انه لا يشدّد في قوافي السجع ما يُشدَّد في قوافي الشعر ، وانه يجوز ترك التسجيع والاستغناء عنه بالنثر لان المدار انما هو على المعاني لا على الالفاظ .

أمّا قوله : « ثم اخذ فعارضني في قولي ان اهل بيروت لا يستعملون مفرد الفطاحل » واستشهد بما اورده له سليم افندي نوفل الخ . فالجواب ، ان صاحب الجوائب قد انفذ بهذا الاستشهاد سهماً واصاب به مرمىً . فان المعترض لما ادّعى الانكار ذاهباً الى ان هذه اللفظة غير مستعملة عند اهل بيروت ، استشهد من نفس كلامهم واستعمالهم كما شهد بذلك سليم افندي الموما اليه . وهذه القضية هي ثابتة ، فان كل قضية انما تثبت على يد شاهدين او ثلاثة .

وأمّا قوله : « فحكاية الافندي المشار اليه أولى ان تكون تخطئة لهُ من ان تؤيد كلامه » . فاقول له : من اين اتى وجه الاولويّة ، لا بل هي أولى ان تكون دليلًا قاطعاً وبرهاناً ساطعاً دالا على وقوع لفظة الفحطل خطأ في المقامات لا محالة . فان أبا المعترض اخذها عن عامّة بيروت برمّتها على ما هي عليه من الخطأ ولم يتأمل فيها لشيوعها ، وهي اقوى ايضاً في تزييف كلام ابراهيم الذي انكر استعمالها مفردةً بين اهل بيروت .

أمّا قوله : « ويكون مراد صاحبنا بايرادها مجرّد الاستشهاد بكلام عامّة بيروت تأييداً لما استشهد به من كلام الائمة ، وتلك عادته غالباً » . اقول : انه لما كان لكل مقامٍ مقال ، ولكل احتجاج مجال ، وانه يجب وضع كلّ شيءٍ في محله وردّ الفرع الى اصله ، استشهد صاحب الجوائب بما يناسب الحال ، لعلّ ابراهيم يرتدع ويعدل عما سقط فيه من الخطأ والضلال . فأوردَ الدليل على ان مفرد هذه اللفظة متواتر عند اهل بيروت فيكون

استشهاداً بالمتواتر الذي لا ينكرهُ إلا كلّ مكابر لانه علمٌ ضروري ، اي ليس بينه وبين مدلوله ارتباطٌ معقول .

واما قوله : « اني رأيت له في « سرّ الليال » من كلام العامّة في مقام الاستشهاد شيئاً كثيراً حتى انه قلّما يخلو منه مادّة » . اقول : انه لا يتفوّه بهذا المقال إلا غرّ مكابر وجاهل مماحك . اذ كيف ينكر على محرّر الجوائب التنبيه على الفاظ العامّة واكثر اهل اللغة نبّهوا على ذلك ؟ وهذا البستاني استاذ هذا المعترض قد اورد في كتابه « محيط المحيط » كثيراً من غير كلام العرب بل ربما اورد من الالفاظ العجمية ما يوهم انهُ من كلام العرب الفصيح كقوله في بنك « البنك » المصطبة ، ورأس مال يوضع في محلّ مخصوص لاجل اعمال مخصوصة وتحت ادارة وشرائع معينة . فانظر كيف جاء بالمصطبة هنا مجازفةً من دون تحرّج ولا محاشاة ! على ان تفسيره البنك برأس المال ، وقوله بعد ذلك : في محلّ مخصوص ، فاسد . فان البنك هو المحل المخصوص لا رأس المال . وامثال ذلك كثيرة . فكيف ارتضى ابراهيم لاستاذه هذه الخطة وأنكرها على محرّر الجوائب ؟ واشهد لو ان البستاني عرف ان بعض علماء اللغة قال ، ان البنك بمعنى الاصل فارسيّ معرّب لتشبث به كما هي عادته .

على ان صاحب الجوائب لم يذكر في كتابه لفظةً عاميّة او اعجميّة إلا لنكتة ، مثال الاول قوله بعد مادة لبسَ : ثم ان اهل الشام يقولون لبّش (بالتّشديد) بمعنى حَزَم وتهيّأ ، ولبصَ بمعنى لصقَ . قال : ولا وجود لهاتين المادتين في كتب اللغة ، وذلك انه وجد بعد لبّ لبأ ولبتَ ولبثَ ولبَجَ ولبَحَ ولبَخَ ولبَدَ ولبزَ ولبسَ ولبَط ولبَكَ ولبمَ ولبنَ ولبى . ولم يجد لبّش فنبّه عليها لنكتةٍ لا تخفى .

ومن الثاني قوله في صتّ . وقد قدّمت في المقدّمة ، ان نفس الصوت من حكاية الصوت وهو بالانكليزية صوند . وجاء فيها ايضاً : شوّطَ بمعنى الصراخ . وقس على ذلك سائر ما يذكره خلافاً لما يورده البستاني ، فانه انما يقذف به قذفاً من دون نكتة ولا علاقة . ولنورد هنا نبذةً من اقوال العلماء في هذا الباب ، لعلّ المعترض يعدل عن الثرثرة والمراء والتهكم والازدراء ، فنقول :

في ايراد كلام العامة في كتب اللغة

قال البطليوسي في شرح الفصيح المشهور في كلام العرب : ماء ملح ، ولكن قول العامة مالح ، لا يعدّ خطأ وانما هو لغة قليلة . وقال ابن درستويه : قول العامة حرصتُ بالكسر احرص ، لغة معروفة صحيحة ، إلا انها في كلام العرب الفصحاء قليلة . والفصحاء يقولون بالفتح في الماضي والكسر في المستقبل . وقال ايضاً : العامة تقول اعن بحاجتي ، على لغة من يقول عنيتُ بالحاجة ، وهي لغةٌ ضعيفة . وفي الجمهرة : العين في بعض اللغات تُسمّى البصاصة . وقال الموفق البغدادي في ذيل الفصيح : قول العامة هم فعلتْ ، مكان ايضاً . وبَس مكان حسبُ ، وكربج مكان حطّ كلّه مولد ليس من كلام العرب .

وقال محمد بن المعلي الازدي : العامّة تقول لحديث يستطال : بَس . والبسّ الخلط . وعن ابن مالك : البس القطع ولو قالوا لمحدّثه بَسّاً ، كان جيّداً بالغاً بمعنى المصدر ، اي بَس كلامك بساً ، اي اقطعه قطعاً وانشد:

يحدّثنا عُبَيْدٌ مـــا لقينا فبسّك يا عُبيدُ من الكلام

وقال ابن دريد في الجمهرة : شنطف كلمة عامية ليست بعربية محضة . وقال صاحب القاموس : الفشار الذي تستعمله العامة بمعنى الهذيان ، ليس من كلام العرب . وقد ورد في القاموس كثيرٌ مما يشاكل هذا ، وذلك لانهُ يجب على المؤلف البارع ان ينبه على كلام العامة كما ينبه على ما يرتكبونه من الغلط . وكذا فعل ابن قتيبة اذ قال : ان من الافعال التي تهمز والعامة تدع همزها ، طأطأت رأسي وابطأت واستبطأت وتوضأت وهيأت وتقرأت وترأست وطرأت وتجشأت وفقأت الخ مما لا يُحصى .

وقال ايضاً : ومما يهمز من الاسماء والافعال والعامة تبدل الهمز فيه او تُسقطه : آكلت فلاناً ، اذا اكلت معه . ولا تقل واكلته وكذا

آزيته اي حاذيته ، وآخذته بذنبه وآمرته في امري وآخيته وآسيته وآزرته اي أعنته وآتيته على ما يريد . قال : والعامة تجعل الهمز في هذا كله واواً الى آخره . وقال ايضاً : ومما لا يُهمز والعامة تهمزه ، رجل عزب والكرة وخير الناس وشرّ الناس وعسر ويسر ورعبت الرجل وودت الوتد وشغلته عنك ، وما نجع فيه القول الى آخره . وقال ايضاً : ومما يُشدّد والعامّة تخفّفه : الغلو والاترج والاجاص والاجانة والقبرة والنعي والعارية والقوصرة وفي خلقه دعارة وفوهة النهر والبازي ومراق البطن . وقال ايضاً : ومما يُخفّف والعامة تشدّده الرباعية للسنّ والكراهية والرفاهية والطواعية ورجلٌ يمان وامرأة يمانية وشام وشامية والطماعيـة الى آخره . وقال ايضاً : ومما جاء ساكناً والعامة تحركه : في اسنانهِ حفر وفي بطنهِ مغس ومغص الخ . وقال ايضاً : ومما جاء متحركاً والعـامة تسكّنه ، تحفة وتخمة ولقطة ونخبة وزهرة للنجم . وقال ايضاً : ومما تبدّل فيه العامة حرفاً بحرف ، الزمرّد وهو بالذال المعجمة الخ .

فانت ترى ان اغلب الائمة قـد نبّه على الفاظ العامة ، وكثيراً ما فعل ذلك صاحب القاموس بما لا يخفى علـى من نزع عن نفسه التعامي . فما بال صاحب « الجنان » قد عميت بصيرته فأصبح لا يميّز النور من الظلمة ولا يفرق بين الهدى والضلال ؟ ولماذا يستشرف عيب غيره مع ان عيوب نفسه اكثر من ان تحصى ولو رآها لاغمي عليه ؟ منها : اتأمرون الناس بالبرّ وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افـلا تعقلون . الم يدرِ صاحب « الجنان » بان غلطاته لو تجسمت لأخافت الغيلان وسدّت الطرق وجفّفت الغدران . فكيف ساغ له ولتلميذه الطعن في الافاضل والتهافت على الباطل ؟ وفيما تقدّم ردٌ ايضاً لقول ابراهيم ، ويجري هـذا المجرى استشهاده بكلام الاعاجم . فقد رأيت الفاظاً كثيرة من اللغة الفرنسية والانكليزية اثابه الله . اه.
فانّ من شروط المؤلف البارع في اللغة ان ينبّه على اصولها وفروعها ويتروّى في ذلك وينعم النظر في اصل مأخذها واشتقاقها وفي ذكر ما يجانسها من اللغات ، كما فعل ذلك مؤلفو الافرنج قاطبةً ، فانهم في كل لفظة نبهوا عليها في كتبهم اللغوية وبينوا اصل اشتقاقها الخ .

ولا عيب مطلقاً على من حذا هذا الحذو لما فيه من الفوائد الجمة ولا ينكر ذلك إلا الغافلون الجاهلون ، وحسبك ما اورده الإمام الخفاجي في « شفاء الغليل » بقوله : اعلم اني اذكر في كتابي هذا تتميماً للفائدة ما قد يذكره بعض اهل اللغة اما لتركهم التنبيه على انه مولّد . وصاحب القاموس يفعله كثيراً حتى تراه يعتمد في بعض اللغات على كتب الطبّ وهو من سقطاته الفاضحة ، وامّا لانهم لم يحققوا معناه ، وامّـــا لكونه غريباً نادر الاستعمال . اه

ومن هنا يُعلم انه كان الواجب على صاحب القاموس ان ينبه على اصل اشتقاق الالفاظ كما فعل صاحب « الجوائب » وكيف لا يفعل ذلك صاحب الجوائب وهو بارعٌ في اللغات الافرنجية كما نوّه بذكره بعض من الجرائد الانكليزية . ولنضرب مثلاً واحداً يؤيّد صحة ما قرّرناه من ان صاحب الجوائب قد اصاب في هذا العمل غاية الاصابة فنقول : قد ورد في « شفاء الغليل » الذي اعترض فيه الخفاجي على صاحب القاموس غير مرة لتركه التنبيه على اصل اشتقاق الالفاظ ما نصه : اذريون ، نورٌ اصفر معرّب آذركون اي لون النار . والفرس كانت تجعله خلف آذانها تيمناً ، واصله ان ازدشير بن بابك كان يوماً بقصره فرآه فأعجبه ونزل لاخذه فسقط قصره فتيمّن به وهو نور خريفي يمد ويقصر . قال يحيى بن علي النديم :

اذا ما امتطى الاذان من بعد شربنا جنى آذريون تروى من القطرِ
حسبتُ سواداً وسطه في اصفرارهِ بقايا غوالٍ في مداهنَ من تبرِ

وقال ابن المعتز :

واردف آذريونةً فوق اذنـــهِ ككأس عقيقٍ في قرارتها تبر

وقال ابن الرومي :

كأنَّ آذريونهـــا والشمس فيه كاليه
مـــداهن من ذهبٍ فيها بقايا غاليـــه

واذا اراد ان نزيدهُ فنحن بحوله تعالى مستعدون لما يشاء .

وأمّا قوله : « ولولا خوفي ان يسقط شأن هذا المؤلف ويضيع افتخار صاحبه ، زاده الله فخراً ، لصرّحتُ لك بانه احياناً يورد الفاظاً من لغة اهل مالطة . فهل كل ذلك الا دليل فضل واسعٍ وعلمٍ » . فجوابه بما تقدّم وهو ان مؤلف « سرّ الليال » لم يذكر شيئاً من هـذه الالفاظ إلا لنكتةٍ . ومعلوم ان لغة اهل مالطة هي في الاصل عربيّة كما يعلم من كتاب « كشف المخبأ » فكما يصحّ ايراد الفاظ من كلام اهل مصر والشام والعراق والغرب ، كذلك يصحّ ايراد الفاظ من كلام اهل مالطة على ما يقتضيه المقام تتميماً للفائدة كما اشار اليه العلامة الخفاجيّ . فهلا يميّز ابراهيم واستاذه صاحب « الجنان » الغثَّ من السمين وكيف انقلب في اعينهما النور ظلاماً ؟ ومن العجب العجاب ان من لفق قاموساً وسماه بمحيط المحيط ، مع انـه انتن من بحيرة لوط كما افاده بعض الادباء ، تلتبس عليه هذه المسئلة . لا جَرَم ان في ذكر هذه الالفاظ التي اوردها مؤلف سرّ الليال ، لفائدةً عظيمة يعرفها المشتغلون بعلم اللغات لا المولعون بالمماحكات . وانما لم تقع لدى ابراهيم واستاذه موقعاً حسناً لانهما تلبّسا بالحسد والتعنّت . قال الشاعر :

وعين الرضى عن كل عيبٍ كليلةٌ ❊ كما ان عين السخط تبدي المساويا

وهنا اسأل كلَّ مؤلفٍ فاضل واديب عاقل ، ومنصفٍ عادل ، كيف صحّ ان علماء مصر والشام والحجاز والعراق والغرب قرّظوا سرّ الليال نثراً ونظماً لغرابة اسلوبه وكثرة فوائده وتكفله بتفسير جميع الالفاظ ، وابراهيم اليازجي واستاذهُ بطرس البستاني يعيبانه ويزيّفانه . لعمري ان من استقبح ما استحسنته العلماء والفضلاء ، لجديرٌ بالصفع على قذالهِ وبسدّ فمه عن التمادي في محاله . فرحم الله أبا العلاء المعرّي حيث قال :

اذا وصف الطائيَّ بالبخل مادرٌ ❊ وعيّر قساً بالفهاهة باقلُ
وقال السهى للشمس انتِ ضئيلةٌ ❊ وقال الدجى للصبح لونكَ حائلُ
وطاولت الارضُ السماء سفاهةً ❊ وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادلُ
فيا موتُ زُرْ ان الحياةَ ذميمةٌ ❊ ويا نفسُ جدّي ان دهركِ هازلُ

وقوله : وأمّا احتجاجه بان ذلك القسَّ البيروتي اوردها بلفظ المفرد

خلافاً لما رويته فلا تمسك له به . اقول : هذا الجواب هو عين المكابرة والتعنت والتعسف ، فاذا كان هذا الماحك لا يقنع بهذه الشهادة المحسوسة الظاهرة كظهور الشمس في رابعة النهار ، فلا يقنع ولا يذعن للحق ولو نزل اليه ملكٌ من السماء وبلغه ذلك . كيف لا وان سليم افندي نوفل صدّق على ورودها مفردةً عند اهل بيروت . فمثل ابراهيم في ذلك مثل الذي استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون ، صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون . وأمّا استناده الى انه يحتمل ان يكون قد تصرّف بها فردّها الى المفرد ، فهو مبنيٌ على التعنت المحض ، اذ من اين اتى له هذا الاحتمال مع ان سليم افندي نوفل قد نفاه . وقوله : « ان تورد هذه الحجة في ما اذا قيل ان بناء مفردها غير ممكن الى آخره » .

اقول : لا يجوز ان يكون هذا حجّةً فيما اذا انكر مفردها ، انما اذا وقع ذلك فيتعين والحالة هذه ان يقيم الحجة من القواعد الصرفية ومن كلام العرب . وأغرب من هذا تجويزه هنا الاستشهاد بكلام العامة مع انه قد انكره سابقاً على محرر « الجوائب » حيث اخذ يعترض على « سر الليال » في ايراده بعضاً من الفاظ العامة . وهنا جوّز ايرادها حجة وهو ترجيح من غير مرجح . فيا لها من غفلةٍ حجبت أنوار بصيرته وبصيرة استاذه صاحب « الجنان » ! ولكن ربما يعتذر عنه بانه قد نسي كلامه وما اعترض به سابقاً ففرط منه هنا ما فرط ، فلا لوم اذاً ولا عتاب فقد اغلقنا الباب .

في مسئلة المرابض

أمّا مسئلة المرابض التي لم يزل مصرّاً على رأيه فيها ، فغاية في الغرابة فان محرر «الجوائب» بعد ان أورد كلام ائمة اللغة في هذا قال : « فان أصرّ على المكابرة والعناد بعد هذا النص الصريح ، فان ائمة اللغة في هذا العصر يحكمون بيننا » . (انظر الجوائب عدد ٥٣٨) ، فكان من الواجب اذاً ترك الكلام في هذه المسئلة للعلماء لا التمادي في المماحكة . ويقول صاحب « الجوائب »

اقول وبما اقامه من الدليل اتمسك . واقول ايضاً بقول عبداللطيف البغدادي في شرح « الخطب النباتية » : ان اللغويّ شأنه ان ينقل ما نطقت بـه العرب ولا يتعدّاه . وقال إمـام الحرمين في « البرهان » : ذهب بعض اصحابنا في طوائف من الفرق الى ان اللغات لا يمتنع اثباتها قياساً وانما قالوا ذلك في الاسماء المشتقة كالخمر فانها من التخمير والمخامرة ، فقال هؤلاء ان خصصت العرب في الوضع اسم الخمر بالخمر النيئة العتيقة يجوز تسمية النبيذ المشتد خمراً لمشاركة الخمر النيئة فيما منه اشتقاق الاسم والذي نرتضيه ان ذلك باطلٌ لعلمنا ان العرب لا تلتزم طرد الاشتقاق . (وهذا حجة على قول المعترض ان المرابض يجوز ان تكون لغير الغنم كالثور مثلاً لان الثور يربض . فتأمّله) . قال : واقرب مثالٍ اليه ان الخمر ليس في معناها الاطراب ، وانما هي من المخامرة او التخمير . فلو ساغ الاستمساك بالاشتقاق لكان كل ما يخمر العقل او يخامره ولا يُطرب ، خمراً . وليس الامر كذلك . والقول الضابط فيه ان الذي يدّعي ذلك ان كان يزعم ان العرب ارادته ولم تبح به فهو متحكم من غير تثبتٍ وتوقيف ، فان اللغات على خلاف ذلك ولم يصحّ فيها ادعاء نقل . وان كان يزعم ان العرب لم تعن ذلك فيلحق ، فالحاق شيء بلسانها وهي لم ترده ، محالٌ . والقياس في حكم من يبتدىء وضع صيغة . وقد اطبقوا على ان البنج لا يسمى خمراً وان كان يخامر العقل ، والدار لا تُسمى قارورة وان كانت الاشياء تستقر فيهـا ، والغراب لا يُسمى ابلق وان اجتمع فيه السواد والبياض اه. وقس عليه المرابض فانها خاصةٌ بالغنم وان كان غيرها من الحيوانات يربض . وهـذا ليس بغريبٍ إلا على من لم يطّلع على اقوال العلماء .

قوله : « ولعمري لم نرَ احداً من علماء الصرف واللغة نبّه على ان اسم المكان يُبنى من الفعل في احد معانيه دون سائرها » . اقول : قد قصر فهمه عن ادراك ما قاله محرر « الجوائب » فلنورده هنا بحروفه لكي ينجلي الغطاء وهذا نصه : « ان العرب كثيراً ما تفرد اسم المكان بمعنًى مخصوص من معاني الفعل المتعددة وذلك لكثرة استعمالها له ، فمن ذلك لفظة المحافل فانها لا تُستعمل عنـد الاطلاق إلا بمعنى المجالس التي يحفـل فيها القوم اي

يجتمعون ، مع انه يقال حفل الماء واللبن كما يقال حفل القوم . فان اراد الشاعر الرجوع الى اصل الفعل كان لا بدّ له من التقييد كأن يقول مثلاً : محافل الماء . فأما عند الاطلاق فينصرف المعنى الى المجالس اه.

فمن هنا يُعلم ان محرر « الجوائب » لم يقل ان اسم المكان يُبنى من الفعل في احد معانيه دون سائرها ، بل قال : ان اسم المكان كثيراً ما تفرده العرب بمعنى مخصوص من معاني الفعل المتعددة ، وذلك لكثرة استعمالها له . واستشهد لذلك بقوله اولاً : محافل الناس ، ثمّ قوله بعد ، محافل الماء. فلو قال في احد معانيه لا غير لم يسغ ان يقول محافل الناس ومحافل الماء ، بل يقتصر على احد المعاني ، ويؤيدهُ ما قاله ابن فارس من ان المعنى يتحول بالتصريف . قال : لانا نقول وجد ، وهي كلمةٌ مبهمة فاذا صُرفت أفصحت فقلت في المال وجداً وفي الضالة وجداناً وفي الغضب موجدة وفي الحزن وجداً . ويقال القاسط للجائر والمقسط للعادل فتحوّل المعنى بالتصريف من الجور الى العدل . الى ان قال : ويقولون للعاشق عميد وللبعير المتأكل السنام ، عمد الى غير ذلك من الكلام الذي لا يحصى وهو على حدّ كلمة المرابض التي نحن فيها .

وكثيراً ما نبهت العلماء على انه توجد الفاظٌ اصلها عامٌ ثمّ خُصّت اي انها وُضعت في الاصل عمومية ثم خُصت في الاستعمال ببعض افرادها وهو كقول صاحب « الجوائب » المتقدّم . غير ان هذه العبارة اعمّ من اسم المكان مثاله : الحج ، فقد ذكر ابن دريد : ان الحج اصله قصدك الشيء وتجريدك له ثمّ خصّ بقصد البيت . فان كان هذا التخصيص من اللغة ، صلح لان يكون مثالاً فيه . وان كان من الشرع لم يصلح ، لان الكلام فيما خصته اللغة لا الشرع . فالاحسن التمثيل بلفظ السبت فانه في اللغة الدهر ثمّ خصّ في الاستعمال لغةً بآخر ايام الاسبوع وهو جزءٌ من اجزاء الدهر . ورثّ كل شيءٍ خسيسه ، واكثر ما يُستعمل فيما يُلبس ويُفترش وهذا مثالٌ صحيح . ويقال : بارض بني فلان طمة من الكلا ، واكثر ما يوصف بذلك اليبس . والرضراض الحصى ، واكثر ما يُستعمل في الحصى الذي يجري عليه الماء . وقال ابو عمرو : السبت كل جلد مدبوغ . وقال الاصمعي : هو

المدبوغ بالقرظ خاصة . وهذه العبارة التي نقلناها من اقوال بعض الائمة مع تصرّفٍ هي كعبارة الجوائب .

أمّا قول المعترض : « وما ادري مَن الذي قال له ذلك ، واي الائمة نصّ عليه . وما اكتفى بما زعمه حتى حاول ان يثبته من كلام العرب فكان غلطاً مركباً » . اقول : ان مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن مماحك يتعمد ستر الحق بكثرة الكلام . ألم يتنبه لقول العلماء انه توجد الفاظٌ وُضعت في الاصل عمومية ثمّ خُصّت في الاستعمال ببعض افرادها كما مرّ من الامثلة التي أوردناها ؟

أمّا قوله : « ان المرابض يُفهم بها عند الاطلاق مواضع ربوض الدابة دون الانسان لان الربوض في الدابّة اشهر » . اقول : ايّ العلماء قال له ان الربوض في الدابّة أشهر ، ومَن نصّ على ذلك من الائمة ؟ وانما يقال : ان الربوض في الدابّة اصل واطلاقه على الرجل مجاز . قال في « اللسان » : الربضة من الناس الجماعة والاصل للغَنَم . وأمّا قوله صلّى الله عليه وسلّم ، للضحّاك : اذا أتيتهم فأربض في دارهم ظبياً ، فهو مجازٌ ايضاً . والمعنى أقم في ديارهم آمناً كالظبي الآمن في كناسه . ورجلٌ ربض عن الحاجات ، لا ينهض فيها وهو ايضاً من المجاز . وقولهم رجلٌ رابض ، مثله . وقال الليث : فانبعث له واحدٌ من الرابضة ، هو من المجاز .

وأمّا قوله : « والعجب هنا انه اجاز في كلامه محفل الماء ولم يجز مربض الرجل وما ادري ما الفرق بينهما » . اقول : يا لها من غباوةٍ نفخت هذا المعترض واستاذه صاحب « الجنان » كيف يساوي مربض الغَنَم بمربض الرجل مع انه مجازٌ في الثاني وحقيقةٌ في الاول ، اي كلمة مستعملة فيما وُضعت له واستعمالها في الانسان مجاز ، اي كلمة مستعملة في غير ما وُضعت لهُ . أمّا محفل النــاس والماء فهو بعكس ما ذكر فهذا هو الفرق بينهما . ويا ليت هذا المماحك يعترض مجرّد اعتراضٍ ويقتصر على ذلك ، بل يعترض ويتهكّم ويشنّع على اقوال العلماء . ومثله غرابة تصديق صاحب « الجنان » المنفوخ على خطائه وعناده . فيا لها من شناعةٍ وفظاعةٍ عبقت ذفرتهــا

الكريهة في العالم ! ومن هنا تعلم ان المعترض الذي شيّخهُ استاذه لا يعرف الفرق بين الحقيقة والمجاز .

وقولهُ : « وأمّا النصوص التي أوردها دلائل على صحة دعواه فلا تغني عنه شيئاً بل انما تؤذن بصحة كلامي » . اقول : النصوص التي اوردها صاحب « الجوائب » هي ما اورده من كتب اللغة منها قول صاحب « العباب » : المرابض للغَنَم كالمعاطن للابل . وفي حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم : صلوا في مرابض الغَنَم ولا تصلوا في اعطان الابل . وقال في « لسان العرب » : والمرابض للغنم كالمعاطن للابل . واحدها مربض مثل مجلس . وقال صاحب « الصحاح » : والمرابض للغنم كالمعاطن للابل . وقال صاحب « المصباح » في اول المادة : والمربض وزان مجلس للغنم مأواها ليلاً . فقول هؤلاء الائمة هنا هو كقول صاحب « فقه اللغة » : الاقيال لحمير كالبطاريق للروم . و كقوله ايضاً : العجير من الخيل كالسريس من الابل والعنين من الرجال . وربوض الغَنَم مثل بروك الابل ، والشادن من الظباء كالناهض من الفراخ . وكقول صاحب « القاموس » : الثندأة لك كالثدي لها ، والمشفر للبعير كالشفة لك . وقول صاحب « الصحاح » والمشفر من البعير كالجحفلة من الفرس . فقد تبيّن اذاً لذي النظر الصحيح ان هذه النصوص دالةٌ على صحة ما قاله صاحب الجوائب . فان اللام في قولهم والمرابض للغَنَم ، للتخصيص ، وهو على حد قولهم : الثغاء للضان . الزئير للاسد . النهيق للحمار . النباح للكلب . الضباح للثعلب . التشدّق لابراهيم . الاحبنطاء لاستاذه[1] . ومن تأمّل في حقيقة معنى الربوض وهو اللصوق بالارض ، استشعر ان اطلاقه على الفرس مجازٌ فان الفرس لا تربض في الارض كالغَنَم . ولعلّ ملاحظة هذا المعنى خطرت ببال صاحب القاموس ولذلك خصّ الربوض بالغَنَم ، وعبارته : وربضت الشاة

---

(١) قد تكررت لفظة الاحبنطاء «والمحبنطي» في تضاعيف ردود الشدياق ، وهو لقبٌ اطلقه على المعلم بطرس البستاني ، كما اطلق من قبله على الامير حيدر شهاب صاحب تاريخ لبنان المعروف ، لقب مُستهَم وجَمظر واحزقّة ، انه يرمي بمثل هذه الالقاب او النعوت الأليمة كل رجل يعنيه من مناوئيه بدون ادنى تهيّبٍ او تورّع جرياً على عادته . راجع كتابه « الساق على الساق » صفحة ٣٧ .

تربض ربضاً وربضاً وربوضاً وربضةً حسنةً بالكسر ، كبركت في الابل ومواضعها مرابض . فتأمله .

ومثل ذلــك قول الثعالبيّ في « فقه اللغة » في تقسيم الجلوس . جلس الانسان . برك البعير . ربضت الشاة . والمراد بالشاة هنـا ، الواحدة من الغنم . قال الازهريّ . الغَنَم الشاء . الواحدة شاة . وتقول العرب : راح على فلان غنمان ، اي قطيعان من الغَنَم كل قطيع منفرد بمرعىً وراع . وقال صاحب فقه اللغة : فصلٌ في اوصاف الغنَم . اذا كانت الشاة سمينةً ولها سحفةٌ وهي الشحمة التي على ظهرها ، فهي سحوف . الى ان قال : فاذا تُركت سنةً لا يُجزّ صوفها فهي معبرة . وقال ايضاً قبله : فصلٌ في تقسيم الشعر . الشعر للانسان وغيره . المرعزى والمرعزاء للمعز . الوبر للابل والسباع . الصوف للغَنَم . وقال ايضاً : فصل في الوان الضان والمعز وشياتها . اذا كان في الشاة او العنز سواد وبياض فهي رقطاء . ومنه تعلم ان معنى الشاة والغَنَم في كتب اللغة هو ما جرى عليه عرفنا . وعلى فرض التوسع في هذه اللفظة عند قيام القرينة ، فقد اطبقت علماءُ اللغة على ان المرابض للغنم فلا يصحّ ان نتكلف ونحمل عبارة « القاموس » على معنىً ينافي كلامهم .

أمّا قوله : « وان كان كلّ هذا لا يقنعهُ اوردتُ لهُ شيئاً من « سرّ الليال » . فعبارة سرّ الليال هي عبارة القاموس بعينها ولا يفهم من عبارة القاموس غير ما افادته عبارة « العباب » وغيرهِ . فليس لقول ابراهيم : انه كان ينبغي لصاحب الجوائب ان يستدرك عليه معنى . واقول ايضاً زيادةً على مـا قلته في المرابض . ان الربض مأوى الغنم نقله الجوهريّ وانشد للعجاج يصف الثور الوحشيّ .

واعتاد ارباضاً لهـــا ارى   من معدن الصيران عذملي

قال بعضهم : العذملي ، القديم . واراد بالارباض جمع ربض ، شبه كناس الثور بمأوى الغنم . وفي الحديث : مثـل المنافق كالشاة بين الربضين . اذا اتت هذه نطحتها واذا اتت هذه نطحتها . قال بعضهم : ويروى بين الربضتين . والربيض الغَنَم نفسها . فالمعنى على هذا انه مذبذب كالشاة الواحدة بـين

قطيعين من الغنم . وانما سُمّي مأوى الغنم ربضاً لانها تربض فيه . وقال صاحب « اللسان » : واصل الربض والربضة للغنم . وقال الازهريّ : الرويبضة هو الذي يرعى الغنم . وفي « القاموس » : والربيض كأمير الغنم برعاتها المجتمعة في مرابضها . قال امرؤ القيس :

ذعرتُ بـهِ سرباً نقياً جلودهُ   كما ذُعر السرحانُ جنب الربيض

وقال ابن عباد والزمخشريّ : يقال للغنم اذا افضت وحملت قد ربض عنها الخ . وهذا ليس في المرابض فقط بل من ابنية الكلمة ايضاً . وذكر هذه الاستشهادات هنا تأييدٌ لكون المرابض هي للغنم . فمن هنا تعلم ان ما استشهد به محرّر الجوائب يُؤذن بصحة كلامه بل يؤيّدهُ كما لا يخفى .

وأمّا قول ابراهيم ان الاعطان لا تختص بالابل كما صرّحت كتب اللغة واستشهادهُ بالقاموس والمصباح ، وهذان الكتابان هما المرادان بقوله كتب اللغة ، فجوابه ان صاحب القاموس كثيراً مـا يطلق بعض الفاظ خصّصها غيرهُ ، مثال ذلك . قال الثعالبيّ ، فصلٌ في تقسيم الاشارات . اشار بيده . اومأ برأسهِ . غمز بحاجبه . رمز بشفتيه . لمع بثوبه . وصاحب القاموس لم يقيّد هذه الافعال كما قيّدها الثعالبيّ هنا ، فانه قال . وما اليه كوضع اشار كأوماً ووبأ وتقدّم في و ب ا . وقال : وغمزهُ بيدهِ يغمزهُ شبه نخسه ، وبالعين والجفن والحاجب اشار . وقـال : الرمز الاشارة او الايماء بالشفتين او العينين او الحاجبين او الفم او اليد او اللسان . وقال : لمع بيدهِ اشار ، والطائر بجناحهِ خفق . فنرى من هذا ان صاحب القاموس لم يخصّص كما فعل غيرهُ ، وهذا لا ينفي كون هذه الالفاظ كانت عامّة اولاً ثمّ خُصّت بموجب القاعدة .

أمّا قولهُ : « وكذلك ما في العباب ولسان العرب والصحاح من قولهم المرابض للغنم كالمعاطن للابل فانه جارٍ مجرى عبارة الحديث فلا ينتج منه ما ارادهُ » . اقول : قد تقدّم الكلام عـلى المرابض بما يغني عن مزيد المماحكة ، وانا تاركٌ فيها الكلام للعلماء كما تركهُ محرّر الجوائب ، ولكن كان من الواجب على المعترض ان يبيّن لنا عدم الانتاج .

أمّا قوله : « وأمّا اتفاق النصوص على صورةٍ واحدة حيث قيل في الكل مرابض الغنم وكثيراً ما وقع لهم ذلك وتابع بعضهم بعضاً » ، فهو طعنٌ صريحٌ في السلَف وخروجٌ عن حدّ الادب الى غاية الصلَف ، اذ مقتضاهُ ان هذه المتابعة وقعت من هؤلاء الائمة من دون تروٍّ بل مجازفةً . واذا صحّ هذا من ائمة اللغة التي هي مدار جميع العلوم ، صحّ ايضاً من علماء النحو والحديث والتفسير ، فيفضي الامر الى القول بانه لا يجب الاخذ بكلام العلماء لانهم لا يتحرّون ما يقولونهُ بل يتابع بعضهم بعضاً من دون رويّةٍ فيجب التوقف في كل ما قالوهُ ورووهُ حتى يقيّض الله عزّ وجلّ متبلتعاً مثل ابراهيم اليازجي واستاذهِ صاحب « الجنان » فيوضحا للناس ما التبس من اقوال المتقدّمين. فانظروا ايها العلماءُ والادباءُ والمعلّمون والمتعلّمون! ويا ايها الافنديّة والخواجات واستفتوا من ابراهيم واستاذه عمّا يخفى عليكم علمهُ من علوم العربية . واياكم من ان تعتمدوا على فهمكم في عبارة العلماء ، فان كل مـــا قالوهُ له تأويلٌ عند هذين الشيخين الفحطلين . فيا لها من سفاهةٍ تُخبث النفوس وتحمل الوباء الى جميع البلدان في الطروس ! والعجب ان لا يُقام حدّ على هذا القذف الشنيع والافتراء الفظيع .

أمّا قوله : « جارٍ مجرى الحديث » . فاقول : بالايجاب انه يجب الاخذ بالحديث لانه عربيٌّ فصيح فيُعمل به ويُرفض ما ينافيه . على انه لا يوجد ما ينافيهِ في نصوص الائمة كما هو واضحٌ للعيان . فانظر بعينك ايها المكابر المعاند واقلع عن هذه المحاولة والاعتساف .

وقولهُ : « ان من اصطلاحاتهم في كتب اللغة ان يقصدوا الهرب من التطويل غالباً بذكر التعريف بتمامه » . فاقول : اذا كان ذلك صحيحاً فما بال صاحب القاموس لم يتابعهم حتى يفرّ من التطويل والايجاز غاية مرامه ، بل هو غير تطويل وانما هو تقصيرٌ فانه يوهم خلاف المراد . وزاد على ان قال تأكيداً لدعواهُ : « انهم اقتصروا على ذكر واحدٍ من الامثال كقولهم المرابض للغنم وهي تتناول غيرها » اه . اقول : ان هذا التعريف حسب كلامهِ يكون فاسداً ومخلاً وغير جامعٍ فانه نقل : ان من شروط الحدود وما يجري مجراها ان تستوفي جميع جهاتها ولو كانت معلومةً بحيث ينبغي ان تكون

مستقلةٌ بمفهومها مع صرف النظر عن كل جهةٍ خارجيةٍ إلاّ ما جرى عليهِ الاصطلاح ، فلا مشاحة فكيف نسي هذا المعترض ما قاله سابقاً ويمكن ان يتمحّل له بانه انما نسيهُ لانه نقلهُ وانتحله بدون تروّ ولا فهمٍ فسقط في ما سقط فيه .

وأمّا تمثيله بكرنب من انها كسمند فهي ليست من هذا القبيل ، وعلى فرض انها منه فهي كاملة فاذا كانت ناقصةً كما زعم فليكمّلها ويبقى له الفضل على صاحب القاموس . وقد قدّمنا سابقاً ان هذه اللفظة ثلاثية فليراجع .

في غَلَتْ القدر

أمّا استشهاده بغلت القِدْر ، فهو استشهادٌ بعيد ، فان قول «القاموس» جاش البحر هو من قبيل المجاز وكذلك الغليان كما نبّه على ذلك الامام اللغوي مجد الدين ابو الفيض السيّد محمد المرتضي الحسيني الواسطي الزبيدي شارح القاموس اذ قال : جاشت القِدر تجيش جيشاً ، غَلَت حقيقةٌ . وامّا قول بعضهم جاش البحر بالامواج فلم يُستطع ركوبهُ فهو مجازٌ . ولا ينكر المجاز في اللغة إلا الجاحد للضرورة والمبطل محاسن لغة العرب . قال امرؤ القيس :

فقلت لهُ لما تمطّى بصلبهِ   وأردف اعجازاً وناءَ بكلكلِ

وليس لليل صلبٌ ولا ارداف وكذلك سمّوا الرجل الشجاع أسداً والكريم والعالم بحراً والبليد حماراً ، للمقابلة ما بينه وبين الحمار في معنى البلادة ، والحمار حقيقة في البهيمة المعلومة ، وكذلك الاسد حقيقة في البهيمة ، ولكنه نُقل الى الرجل تجوّزاً . وكذلك قولنا جاش البحر وغَلى . قال في « الصحاح » : جاشت القدر تجيش اي غَلَت . وجاشت نفسي اي غثت ، ويقال دارت للغثيان . فان اردت انها ارتفعت من حزنٍ او فزعٍ قلت جشأت وجاش

الوادي زخر وامتدّ جداً فذكر الحقيقة اولاً وذكر غير الجوهري ان الصحيح جاشت القدر اذا بدأت ان تغلي ولم تغلِ بعدُ . أمّا « المصباح » فانه اقتصر على الحقيقة فانهُ قال : جاشت القدر تجيش جيشاً ، اذا غَلَتْ .

أمّا قوله : « وبقي هنا ما استشهد به بعبارة القاموس وهي تصرّح ببطلان دعواه » . اقول : قال الثعالبي فصلٌ في تقسيم النسج . نسج الثوب . رمل الحصير . وعبارة القاموس رمل الطعام ، جعل فيه الرمل ، والثوب لطخهُ بالدم ، والنسيج رقّقه كارملهُ ورملهُ ، والسرير والحصير زيّنهُ بالجوهر ونحوهِ . وقال ايضاً : فصلٌ في تقسيم الرعدة . الرعدة للخائف والمحموم . الرعشة للشيخ الكبير والمدمن للخمر . القرقفة لمن يجد البرد الشديد . وعبارة القاموس : ارعده فارتعد ، اي اضطرب . والاسم الرعدة بالكسر ، ويُفتح . وهي النافض يكون من الفزع . وقال ايضاً : رعش كفرح ومنع رعشاً ، اخذته الرعدة . وارتعش الرجل ارتعد . وقال ايضاً : القرقف الخمر ، يرعد عنها صاحبها . وقرقف ارعد الى آخره . فهل للمعترض ان يقول ان الثعالبي اخطأ في تقييدهِ بعضاً من الالفاظ لان صاحب القاموس ذكرها بدون تقييد ؟ على ان ما قاله الثعالبي لا يوجد له ادلّةٌ قويّة وبراهين جليّة كالادلة التي اقامها صاحب الجوائب على المرابض ، فانه استشهد من الحديث ومن كتب الائمة .

أمّا قوله : « انكر على صاحب « المصباح » الاطلاق في الاول والتقييد في الثاني » يعني اطلاق الفعل وتقييد الظرف . فالمنكر انما هو الذي جاء بهذه الدعوى ، لا صاحب الجوائب لان صاحب الجوائب قال : اذا سلّمنا باشتراك الفعل لم ينتج منه اشتراك اسم المكان ، فان العرب كثيراً ما تفرد اسم المكان بمعنى مخصوص وغير اسم المكان ايضاً . ولعمري انها عين عبارة المصباح ، فان اطلاق المصباح في الاول هو معنى قول الجوائب اذا سلّمنا باشتراك الفعل وتقييدهِ في الثاني هو عين قول صاحب الجوائب لم ينتج منه اشتراك اسم المكان . فكيف ينكرهُ وهو عينُ قولهِ ؟ ومن هنا تعلم ان تقرير صاحب الجوائب في محله وانه تبع الائمة في اقوالهم .

أما قول المعترض : « ان صاحب فقه اللغة لم يذكر المربض في تقسيم الاماكن فمن قال له انها خاصّة بالغَنَم » . اقول : اولاً ان صاحب فقه اللغة قد خصص الربوض بالغنم كما تقدّم . وثانياً ان ما استشهد به بقول الحديث وهو : صلّوا في مرابض الغنم ، وبقول ائمة اللغة مغنٍ عن الاستشهاد بغيرهِ . والتخصيص مفهوم من عباراتهم ، فان قولهم المرابض للغنم كالمعاطن للابل ، هو كقول صاحب فقه اللغة : الاقيال لحِمْيَرَ كالبطاريق للروم كما مرّ . فليس بين التعبيرين فرقٌ .

أمّا استشهاده بقول النابغة الذبيانيّ :

« اذا استنزلوا للطعن عنهنّ أرقلوا الى الموت ارقالَ الجمال المصاحبِ

وقولهُ : اطلق الارقال على الرجال وفي فقه اللغة انه للجمال » . اقول : قف قليلاً وابعد عن هذا الزيغ والعناد . واعلم ان الارقال في الاصل هي للجمال ، انما أطلقها الشاعر هنا على الرجال ذوي النبالة والشجاعة تجوّزاً . فان الشاعر وصفهم بانهم لعدم مبالاتهم بالموت ولفرط شهامتهم ولنبالتهم ، يرقلون كارقال الجمال . فهي لا تنافي اختصاص الارقال بالجمال . فلماذا يحرّف المعترض الكلم عن مواضعهِ ويتشبّث بأدنى قولٍ لتأييد دعواهُ مكابرةً وعناداً ؟ والاظهر انه لا يعرف الفرق بين الحقيقة والمجاز كما تقدّم فلا تغفل . ويؤيد ذلك استشهاده بما في فقه اللغة . فيا للعجب !

في لفظة الراكب

وأمّا قولهُ : « ان هذه المسئلة اشبه بما وقع لبعضهم ، قال : « لا يقال الراكب إلا لراكب البعير خاصّة فردٍ بقول امرىء القيس :

كأنيَ لم اركب جواداً ولم اقل لخيليَ كرّي كرّةً بعد اجفالِ »

اقول : نعم انها مثلها ، وان الراكب لا يقال الا لراكب البعير خاصةً . قال بعضهم : ومن الخصائص في الافعال قولهم ظننتني وحسبتني وخلتني ، لا يقال إلا فيما فيه ادنى شكٍ . والتأبين لا يكون إلا مدح الرجل ميتاً .

ويقال : غضبت به اذا كان ميتاً . والمساعاة الزنا بالاماء خاصّةً . والراكب راكب البعير خاصةً . والح الجمل . وخلات الناقة . وحرن الفرس . ونفشت الغنم ليلاً وحملت نهاراً الى آخره . قال في « الصحاح » عن ابن السكّيت : تقول مرّ بنا راكب . اذا كان على بعيرٍ خاصّة ، فاذا كان الراكب على فرسٍ او حمارٍ او بغلٍ قلت : مرّ بنا فارس على حمارٍ ، ومرّ بنا فارس على بغلٍ . وقال عمارة : لا اقول لصاحب الحمار فارس ولكن اقول حمّار. قال ابن برّي قول ابن السكّيت : مرّ بنا راكب ، اذا كان على بعيرٍ خاصّة . انما يريد اذا لم تضفه ، فان اضفتهُ جاز ان يكون للبعير والحمار والفرس والبغل ونحو ذلك فتقول : هذا راكب جمل وراكب فرس وراكب حمار . فان اتيتَ بالجمع يختص بالابل ما لم تضفه كقولك : ركبٌ وركبان . فلا تقول ركب إبل ولا ركبان إبل ؛ لان الركب والركبان لا يكون إلا لركّاب الابل . وقال غيره : وأمّا الركّاب فيجوز اضافته الى الخيل والابل وغيرهما كقولك هؤلاء ركاب خيل وركاب ابلٍ ، بخلاف الركب والركبان . وأمّا قول عمارة : اني لا اقول لراكب الحمار فارسٌ ، فهو الظاهر لان الفارس فاعل مأخوذ من الفرس ومعناه صاحب فرسٍ وراكب فرسٍ ، مثل قولهم : لابنٌ وتامرٌ ودارعٌ وسائفٌ ورامحٌ ، اذا كان صاحب هذه الاشياء . وعلى هذا قال العنبريّ :

فليت لي بهم قوماً اذا ركبوا شنّوا الاغارة فرساناً وركباناً

فجعل الفرسان اصحاب الخيل والركبان اصحاب الابل . وهذه المسألة كمسألة المرابض والمحافل ، فان المرابض متى أُطلقت انصرفت الى الغنم ، والمحافل عند الاطلاق لا يُفهم منها الا المجالس التي يحفل فيها القوم اي يجتمعون. مع انه يقال حفل الماء واللبن والقوم كما قال صاحب الجوائب . فان اراد الشاعر الرجوع الى اصل الفعل كان لا بدّ له من التقييد كأن يقول مثلاً : محافل الماء . فأما عند الاطلاق فينصرف المعنى الى المجالس وهو مثل راكب سواء . ومن هنا تعلم ان المعترض لم يعرف الفرق بين اسم الفاعل والفعل المضارع ، وان ما ابداه من قلّة الادب في حق صاحب الجوائب هو مثل

ما ابداه في حق العلماء الاعلام الذين قالوا ان الراكب لا يُستعمل إلا للبعير خاصةً .

وقوله : « لو وقعت ، اي كلمة الراكب ، لصاحبنا لم يسلّم بها ولماحك ما شاء الله » . اقول : ورد في المثل السائر : عويل ولسان طويل . أنسيتَ عيبك يا بُجير فصرتَ تنظر عيب غيرك ؟ ام خلتَ ادراك المعاني بالسفاهة من وُكَيرك ؟ ألست انت الذي ماحك في الفحطل وقد ثبت وقوعها غلطاً ، وفي المرابض قد اوضحتُ لك ولكل من كابر معك فيها انها خاصةٌ بالغنم ؟ وفي لم اكن اتوقع مذ اليوم ، وفي المظنّة وفي الذمّة والذمم وغير ذلك مما سأقرع انفك بالجواب عنه قرعاً يبيّن لك الورد من الجعُل والصواب من الخطل . فكيف تروم من صاحب الجوائب ان يسلّم بالخطأ المبين ويروح مثلك غويّاً مع الغاوين ! فان يكن لديك برهان على صحّة ما توّهمه فأتنا به وقل لنا اي الائمة قال ان الراكب غير مختصٍ بالبعير اذا أُطلق ، اي اذا لم يضف . فهذه مسألة الراكب اوردتها برمّتها من كلام علماء اللغة .

واذا لم ترَ الهلال فسلّمْ   لاناسٍ رأوهُ بالابصــــارِ

عود الى الربض

أمّا قوله : « ثمّ انكر عليّ (اي صاحب الجوائب) توجيه مأخذ الربوض من الربض للامعاء » فالجواب : ان اقوال صاحب الجوائب لمّا كانت مبنيّة على القواعد الكليّة والادلة العلميّة أنكر على ابراهيم ما خبط فيه في هذه اللفظة عكساً للقاعدة المقررة ، اذ كيف يصحّ ان يكون المجاز اصلاً للحقيقة . فقد قال العلامة المرتضي شارح القاموس : الربض محركة : الامعاء كما في « الصحاح » ، او هو كل ما في البطن من المصارين وغيرها سوى القلب والرئة . ويقال رمى الجزّار بالحشو والربض . ويقال اشتريت منه ربض شاته ، وهو مجازٌ . قال : ومن المجاز ايضاً الربض لسور المدينة وما حولها . ومنه الحديث : انا زعيمٌ لمن آمن بي وأسلم وهاجر ببيتٍ في

ربض الجنّة . وقال ايضاً : ومن المجاز الربض ، حبل الرحل الذي يُشدّ به ، او ما يلي الارض من حبل الرحل . ومن المجاز الربض لما يكفيك من اللبن ولكل ما يؤوى اليه ويستراح لديه من اهلٍ وقريبٍ ومال ونحوه . قال الشاعر :

جاءَ الشتاءُ ولمّا أتخذ ربَضاً   يا ويحَ كفيَّ من حفر القراميصِ

ومن المجاز : رجل ربض عن الحاجات والاسفار . اذا كان لا ينهض فيها . ومن المجاز : قال الليث فانبعث له واحد من الرابضة . قال : الرابضة ملائكة اهبطوا مع آدم عليه السلام .

فقد رأيت ان الربض للامعاء مجاز عن ربض بالمكان ، وان انكار صاحب الجوائب لان يكون المجاز اصلاً للحقيقة عين الصواب . قال ابن جنّي في « الخصائص » : الحقيقة ما اقرّ في الاستعمال على اصل وضعه في اللغة ، والمجاز ما كان بضد ذلك . وانما يقع المجاز ويعدل اليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلثة وهي : الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه فان عُدمت الثلاثة تعيّنت الحقيقة اه. وحجّة صاحب الجوائب مبنيّة على هذه القاعدة الكليّة ، وهي ان الاشياء الظاهرة تكون اصلاً للاشياء الباطنة كما أخذ العقل من عقلت البعير ، والحكمة بالكسر من الحكَمَة بفتحتين ، والذكاء لتوقد الذهن من ذكت النار ومثله ثقوب الفكر ، والرجل المهذّب من قولهم هذبت الشجرة كما افاده في « سر الليال » . قال : وهذا النوع موجود في جميع اللغات ، وكأن المعترض لم يرض بقول صاحب الجوائب الاشياء الظاهرة ، فأراد ان يحيلها عن وجهها كما هو دأبه في كل الامور فقال : « ان الاشياء الظاهرة هي الاشياء المحسوسة وهي التي تُدرك بالحواس » فأقول : اذا كان المراد بالاشياء الظاهرة الاشياء التي تُدرك بالحواس فلِم لا يكون ربض بالمكان من هذا الباب ؟ فهل فقد هذا المعترض حواسه ألم يدر ان الحواس الظاهرة خمس وهي : البصر والسمع والشمّ والذوق واللمس ، وان الربوض بالمكان يُدرك بالبصر؟

وأمّا قوله : « ان الاشياء الباطنة هي الاشياء المعقولة » ، فالجواب انها تشمل المعقولة والمستترة كما يُفهم من مقابلتها بالظاهرة كالامعاء ، وهذا هو

عين ما اراده صاحب الجوائب . أمّا الامور العقلية فهي الامور الغائبة التي يدركها العقل بالوسائط ، فانهم عرّفوا العقل بانهُ جوهر مجرّد يدرك الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة . والمراد هنا الاول ، اي انه يدرك الغائبات بالوسائط وهي كقولنا آنفاً : ان الباطنة تشمل المعقولة والغائبة عن الحواس اي المستترة كالامعاء . فما الفرق بين الكلامين ؟ ألا ترى ان ربضت الغنم هو مثل عقلت البعير ، وان الربض اي الامعاء هو كالعقل ؟

أمّا قوله : « واقرب ما اراه في مأخذ الربض للامعاء انه من الربض لحبل الرحل على التشبيه » . اقول : اراد المعترض ان يصلح غلطه الاول فوقع في خطأٍ ثانٍ . فمثَله كمثل الجُعَل الذي لا يزال يتدحرج على الجباثات فينتقل من واحدةٍ منها الى أخرى . فقد أسلفنا ان الربض لحبل الرحل الذي يُشدّ به ، من المجاز . وما كفاه ذلك حتى حاول ان يقيم على هـــذا الوهم برهاناً حيث قال : « وانت تدري ان العرب كانت كيفما تقلبت فالرحال بين ايديهـــا ونصب اعينها في الحضر والسفر وفي جميع احوالها ، فالمظنون ان هذا التشبيه اقرب ما يخطر لها . اهـ » اقول : ان الظنّ لا يغني عند الله شيئاً وان هذا القول رجمٌ بالغيب ، فينبغي الرجوع الى ما قاله صاحب الجوائب .

أمّا قوله : « انني في توجهي المشار اليه انما اعتمدتُ على ما ورد في كتب اللغة فبنيتُ كلامي على ما رأيته من كلامهم في مثل هذه اللفظة ، لاعتقادي انه يصحّ ان يقاس على ما قرّروه » . فاقول له : اي العلماء قال ان ربض بالمكان مأخوذٌ من ربض الامعاء ؟ فما قوله هذا إلاّ افتراء على العلماء . ونقول : او لعلّه اراد بالعلماء استاذه البستاني ، وانه لاحبنطائه يصحّ ان يُقسم منه علماء كثيرون !

أمّا استشهاده على ان ربض بالمكان ، مأخوذ من ربض الامعاء بورك ، برك ، فاقول له : اين الرقمتان من وادي الغضا ؟ واين الورك الذي هو ظاهر من الربض الذي هو باطن ؟ فلا مناسبة بينهما إلا في ان كلّاً منهما جزءٌ من الجسم . قال في « الارتشاف » الاصل في الاشتقاق ان يكون من

المصادر ، واصدق ما يكون في الافعال المزيدة والصفات منها ، واسماء المصادر والزمان والمكان ، ويغلب في العلم ويقل في اسماء الاجناس . وقال غيره : الاشتقاق من الجواهر قليلٌ جداً ، والاكثر من المصادر . ومن الاشتقاق من الجواهر قولهم : استحجر الطين واستنوق الجمل . على اني اقول في الورك ما قاله الائمة في الربض للامعاء ، اعني انه واردٌ من وَرَكَ بالمكان يرك وروكاً اي اقام . ومثله اركَ بالمكان فان الرجل يمكنه الاقامة على وركه . ولعلّ هذا المعنى ملموحٌ في لفظ الحيوة ، ولذا جاء : ورك على الامر بمعنى قدر عليه . ولو انّا سلّمنا بان حَضَنَ من الحضن ، لم ينفِ كون الربض للامعاء مجازاً كما تقدّم ، وما بعد مخالفة النصوص الصريحة إلا الضلال والخزي والفضيحة .

في نبذة من سرّ الليال

أمّا قوله : « ولقد خطر لي الآن ما لو خطر له ، لمَا باشر تأليف هذا الكتاب ولا تجشّم لاجله عناء السهر وكدّ القريحة في غير شيءٍ » . فالجواب : ان كلّ ما اتى به هذا المعترض من المماحكات مبنيٌ على حسد صاحب الجوائب ، على تفرّده بمنهاج « سرّ الليال » وعلى ان أباه لم يخطر بباله هذا الاسلوب البديع . وكذا يقال في البستاني الذي قضى خمس عشرة سنة من عمره في تأليف «محيط المحيط» ثمّ جاء به مشحوناً بالغلط والتحريف والتصحيف فكان مثله في ذلك كمثل الجبل الذي تمخّض عن جُرذٍ . وأشهد لو انه خطر بباله هذا الاسلوب البديع لقال لاهل بيروت : انا ربّكم الاعلى ، ولاسيما انهما رأيا علماء العصر قد قرّظت سرّ الليال ، وشهدوا لمؤلّفه بالفضل والاحسان فيه . فما زال هذا التقريظ حازاً في كبدي هذين الحسودين حتى نفثا اليوم بما كان مكنوناً في صدريهما .

ولنورد هنا نبذةً من فوائد هذا الكتاب الغريبة ، وبعد ذلك نورد نبذة من تقاريظه . فمن الفوائد ما قاله في اول الكتاب : قال المصنّف رحمه الله ، الأب : الكلا او المرعى ، او ما انبتت الارض . وأبّ للسير : تهيأ

كأتب، والى وطنه اشتاق ويده الى سيفه ردّها ليسلّه، وهو في أبابه في جهازه. وأبّ أبه: قصد قصده. وأبّت أبابته: استقامت طريقته. والاباب: الماء والسراب. وبالضم معظم السيل والموج. وأبّ: هُزم بحملة. والشيء: حرّكه. وأبب: صاح وتأبب به: تعجّب وتبجّح. قلت كان عليه ان يجمع معاني الفعل كلّها في موضع واحد. وعندي ان اول هذه المعاني أبّ الشيء: حرّكه. وهو حكاية صوت. ونحوه. هبّ وهفّ: لحركة الريح. وخبّ: لعدوّ الفرس. وخفّ لصوت ركضه. وقبّ: لصوت ناب الفحل. وعبّ: لصوت جرع الماء. وأبّ للسير: اي تهيّأ، من معنى الحركة. ونحوه عبأ المتاع والامر: هيّأه. وجاء ايضاً: أهبّ للأمر وتأهّب: اي استعدّ ومن هذا المعنى قيل: أبّ: هُزم بحملةٍ. والى وطنه اشتاق وجاء. ألوبّ: التهيؤ للحملة في الحرب كالوبوبة. ونحو أبّ: أبه ام أمّه. وحمّ حمّهَ وأمّه ويمّمه. والأب: للكلاء من معنى القصد. ولك ان تقول انه من معنى الحركة المقرونة بالاشتياق، اذ هو عند العرب من اعظم ما يتشوّق اليه. ولهذا قال تعالى: ثم شققنا الارض شقاً فانبتنا فيها حباً. الى قوله تعالى وفاكهةً وأباً. وقال ايضاً: وانزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً فأنبتنا فيها حَباً ونباتاً. وجاء العم بمعنى العشب وجعل ابن فارس الاب من معنى التهيئة. قال: لانه يعدّ زاداً للشتاء والسفر كما في المصباح. ومن معنى القصد والاشتياق ايضاً جاء الاباب بمعنى الماء، وهو بالفارسية احد شطري اللفظ العربي، اعني آبَ. فاما اطلاقه على السراب، فمن تسمية المكروه بما يستحب كقولهم: نام اي مات وله نظائر كثيرة. ويظهر مما سيذكره المصنّف في عبّ، ان الاباب ايضاً مصدر أب اي تهيّأ ونحو الاباب بالضمّ: لمعظم السيل، والموج العباب: لمعظم السيل. وماءٌ عبابٌ: اي كثير. وأبت ابابته بالفتح والكسر من معنى القصد والتهيئة اذ كان للقصد معنيان الأم والاستقامة. وهذا من اسرار العربية فتأمّله. ومن معنى التهيئة أبّ يده الى سيفه. وهو في ابابه. وأبب بمعنى صاح، حكاية صوت. ومثله هبّ بالتيس: دعاه لينزو. وهبّ التيس: نبّ. وجاء ايضاً: اهاب به: اي دعا. وقيّدها المصنّف بالإبل والخيل وهو غير مراد. وتأبب به: تعجب وتبجّح، هو من معنى أبّ: هزم بحملة. وفي المصباح:

الإبّان بكسر الهمزة والتشديد : الوقت . وانما يُستعمل مضافاً فيقال : إبّان الفاكهة ، اي اوانها ووقتها . ونونه زائدة من وجهٍ فوزنه فعلان ، واصليّة من وجهٍ فوزنه فعال اهـ . قلت ومثله افان الشيء وعفانه وغفانه وتفانه وقفانه . وهذه وحدها بالفتح . والمصنف ذكر الابّان وحده في باب النون والباقي في باب الفاء . وعندي انها كلها من موردٍ واحد . ومن الغريب ان يجتمع في هذه المادة التي هي اول الكتاب المـــاء والخضرة والشوق والغلبة والفرح .

ومن ذلك ما ذكرهُ في جبَّ . واجتبَّ : قطع ، وهو حكاية صوت. ومثلهُ مقلوبهُ . بجّ ومشابهُ قبَّ ومقلوبه بقَّ . وجبَّ ايضاً استأصل الخصية. ولقح النخل . يقال جاء زمن الجباب . وجُبّ الطلعة بالضمّ ، داخلها . وجبّ ايضاً : غلب . ونظير هذا المعنى الاخير خلب ، فانه في الاصل بمعنى شقّ . ثمّ استُعمل بمعنى غلب . وقس عليه بهر . الى ان قال : ومن هذا المأخذ ، اي مأخذ القطع ، قولهم الجبّة لثوب م ج جبب وجباب . وهو على حدّ قولهم : السبّ للخمار والشقّة . الى ان قال والجباب كسحاب : القحط الشديد وحاصله انقطاع المطر . والجباب بالضمّ : الهدر الساقط الذي لا يُطلب فكأنه قيل المقطوع ثأره .

وقال في جبر : ثمّ الجبر وله معنيان اصليان احدهما ضد الكسر وهو يرجع الى جبّ النخلة اذا لقحها فتأمله . والثاني بمعنى الاجبار على الشيء وهو يرجع الى معنى جبَّ اي غلب . والاصل في ذلك كلهِ حكاية صوت جبّ بمعنى قطع . فانظر كيف انتقل معنى القطع الى التلقيح ثمّ الى جبر العظم على صورةٍ بديعة جعلت القطع وصلاً ! فمن لا يتعجب من هذا اللسان ، فما هو بانسان ، الى آخر المادة .

ومن ذلك قوله في حبَّ . ومعنى أحبّه الرباعي جعله في حبّة قلبهِ ، على حدّ قولك أوعى المتاع : اذا جعله في الوعاء ، واحرزهُ ، اذا جعله في الحرز . واضمر الشيء : اذا جعله في ضميرهِ . وأكنّه : اذا جعله في الكنّ. وأسرّه : اذا جعله في السرّ . فأما اسرّهُ بمعنى اظهره فالهمزة فيه للقلب، اي قلب المعنى وقد ذكرها في المقدّمة .

ومن ذلك قوله في خبز. وعندي ان الخبز من معنى الضرب، اي من قولهم خبز البعير : اي ضرب بيدهِ الارض ومصدره الخبز بالفتح . قال : ويؤيدهُ مجيء الملكة كمعظمة : للقرصة المضروبة باليد . وجاء : الرغيف من الرغف . وهو جمع الطين والعجين . وجاءت القرصة للخبزة ، من قرص . والطلمة من التطليم . وهو الضرب باليد ، وكأنه مقلوب التلطيم وكلها متوقف على عمل اليد . وزاد على ما قاله هنا في بعض النسخ ، وجاء عجنت الناقة الارض : ضربتها بيدها . ومنه اشتقاق العجين . وجاء حلج : بمعنى ضرب ودوّر الخبزة .

وقوله في بيع ، باعه يبيعه بيعاً ومبيعاً والقياس مباعاً اذا باعه ، واذا اشتراه ضدّ . ومنشأ هذه الضدّية ان اصله من مدّ اليد ، ومنه مبايعة الخليفة وهو مما فات المصنّف ، اي صاحب القاموس ، وحقيقة المعنى ان كلّا من البائع والشاري يمدّ يده الى صاحبه ايجاباً للعقد . ويؤيده مجيء الصفقة بمعنى البيعة ، وهو من صفق اي ضرب ضرباً يُسمع لهُ صوت . قال في « الصحاح » : وصفقت له بالبيع اي ضربتُ يدي على يده . وقال في « المصباح » : كانت العرب اذا وجب البيع ضرب احدهما يده على يد صاحبه . ثمّ استُعملت الصفقة في العقد ، فقيل : بارك الله لك في صفقة يمينك . قال الازهريّ : وتكون الصفقة للبائع والمشتري . فقد رأيت ما تميّز به سرّ البال في تبيين معنى هذه اللفظة المشكلة التي طالما شغلت خواطر الناس . أفليس ذلك بأنفع من جناس عاطل العاطل الذي افتخر أبو المعترض بانه من مخترعاته ؟

ومن ذلك قوله في عبد . عبد كفرح ، غضب . وقد تقدّم مرادفه في أبدَ وهو امدَ وخمدَ وعمد وأضمَ وأطمَ ، كلها على وزن فرح . قال : وعندي ان العبد مأخوذ من المعنى الاول وحقيقة معناه ، مَن يغضب لمالكه . ويؤيده ما قاله المصنّف في ح ش م: حشم كفرح غضب . وحشمه كسمعه . اغضبه . وحَشَمة الرجل وحَشَمه محرّكتين ، واحشامه : خاصته الذين يغضبون له من اهلٍ وعبيدٍ وجيرةٍ .

قال : ويقرب من هذا المأخذ قولهم حمو المرأة وحمو الرجل فانه مأخوذ

من حمو الشمس . وحقيقة معناه من به حموٌّ للغيرة على المرأة . ومثله لفظة الصهر ، للقرابة ولزوج بنت الرجل وزوج اخته ، فان معناه في الاصل من الحرارة . يقال صهرته الشمس اي صحرته .

ومن ذلك قوله في ع ب ر : وعبر المتاع والدراهم : نظر كم وزنها وما هي . فكأنه قيل جاز بها من حالةٍ مجهولة الى حالةٍ معلومة . ومن هذا القبيل عبر الرؤيا عبراً وعبارةً وعبّرها بالتشديد ، اي فسّرها وأخبر بآخر ما يؤول اليه امرها . الى ان قال : لان حقيقة عبّر عمّا في نفسه : اجاز المعنى من ضميره الى لسانه . والعبرة العَجب . وحقيقة معناها مـــا يعبر بالانسان من حالة الذهول والغفلة الى حالة الذكر والتفكّر . الى ان قال في آخر المادة : والمصنّف ابتدأ المادة بعبر الرؤيا والجوهري بالعبرة من الاعتبار . وصاحب « الصحاح » بعبرت النهر وهو الصواب ، لان احتياج العرب الى قطع النهر والوادي أشدّ من احتياجهم الى تفسير الاحلام .

ومن ذلك قوله في م و ت : ونقلتُ من كتابٍ عن الامام البيهقي ان اصل مات من ماتت الريح اي سكنت . وعندي ان اصله من معنى المتّ وهو النزع تشبيهاً للميت بنازع الدلو ، ويؤيده ان النزع جاء بمعنى قلْع الحياة . وجاء من جذب : جذّاب كقطام للمنيّة ومثله جباذ . وقس على ذلك سائر الكتاب .

***

فهذا النمط الغريب والاسلوب العجيب في تنسيق الالفاظ واظهـــار معانيها ، هو الذي قطع كَبِدَي ابراهيم اليازجي واستاذه البستاني صاحب التشابيه الحوشيّة ، والتعابير الوحشيّة ، وأرقهما وأباتهما على مضجعٍ حشوه القتاد ، وطال ليلهما به حتى كأنه شُدّ بأمراسٍ الى اطواد . فما زالا ينقران في هذا الكتاب عن عيبٍ ينشرانه ، وغلطٍ يشهرانه ، حتى وسوس اليهما الخنّاس ان في كل عبارةٍ منه غلطاً ، وتحت كل جملة منه سقطاً ، فجعلا صوابه خطأً . ونظرا غدقَهُ قحطاً ، لان الله تعالى أعمى بصائرهما عن الصواب فضرب ما بينهما وبين الهدى حجاباً واي حجاب ، وأنساهما الشيطان ما

« محيط المحيط » « ومفتاح المصباح[١] » من الخطأ والتحريف ، ومـا في « مجمع البحرين « ونار القرى[٢] » من اللحن والتصحيف ، ولو كان لهما عقلٌ يعقلهما عن المنكر ، او نُهى ينهاهما عن التهافت عـلى الشرّ ، او حجرٌ يحجرهما عن اتباع الهوى ، او عرضٌ يعرض بهاعن الخَنَى لنظرا اولاً عيوبهما ، واستغفرا عن ذنوبهما .

يا ايها الرجلُ المعلّم غيرهُ   لِمَ لا لنفسك كان ذا التعليمُ
لا تنه عن خُلقٍ وتأتي مثلهُ   عارٌ عليك اذا فعلتَ عظيمُ

في فوائد هذا الكتاب

ودونك برهاناً آخر على فضل « سرّ الليال » وهو ما شهرهُ المؤلف في احدى « الجوائب » ، قال : من فوائد سرّ الليال انك اذا اتخذت الفعل المضاعف اصلاً وفرّعت عليه جميع الافعال وجدتَ بينها وبينه تناسباً وتجانساً بحيث تتأمل في حقيقة الاصل لتدرك معناه ، مثال ذلك لفظة فتّ . فان معناه الدق والكسر بالاصابع ، ولازمه الفتح لان كل ما انكسر انفتح . ثم تقول فتأ كمنع : كسر واطفأ . وما فتأ مثلثة التاء ، اي مـا زال . وحقيقة معناه ما انكسر وما انقطع . إلا ان كسر العين في فتأ افصح من فتحها . وعليه اقتصر صاحب المصباح . ثم فتح ضدّ أغلق وهو ظـاهرٌ . ثمّ الفتخ اصل معناه اللين . رجلٌ افتخ الطرف : فاتره ، فلم ينقطع عن معنى التكسّر .

ثمّ فتر من بابي نصر وضرب ، فتوراً وفتاراً : سكن بعد حدّة ولان بعد شدّة . وحقيقة معناه انكسر . تقول : فتر الحر كما تقول انكسر الحرّ

ثم الفتش وهو طلبٌ عن بحثٍ . كذا تعريف صاحب القاموس له .

(١) كلاهما للمعلم بطرس البستاني صاحب مجلة « الجنان »
(٢) هما للشيخ ناصيف اليازجي

وحقيقة معناه طلب فتحه وكشفه . وهو اكثر ظهوراً في فتشتُ الثوب بالتخفيف والتشديد .

ثم فترصَه بمعنى قطعه . ومثله فرَصَه . ولا يخفى ان القطع والكسر من مورد واحد .

ثم فتَغَه كمعنه . وطئه حتى ينشدخ ، وهو مبني على الكسر والتليين .

ثم فتقه : شقه . وهو جامعٌ لمعنيي الكسر والفتح .

ثم الفتك . ان يأتي الرجل وهو غافل حتى يشد عليه فيقتله وهو غير منقطع عن معنى الكسر ، لكنه خُصص بهيئةٍ معلومة وحالةٍ مخصوصة .

ثم فتلَه اي لواه . ولك فيه وجهان . احدهما انه يرجع الى حركة اليد في الفتّ . والثاني انه مقلوب لفت . ومثله لبَتَ . واليه ذهب الجوهري حيث قال : فتلت الحبل وغيره وفتله عن وجهه فانفتل ، اي صرفه فانصرف وهو قلب لفت .

ثم فتن الذهب والفضة : أذابها للاختبار . هذا اصل المعنى وهو مبنيٌّ على التكسير والتفتيح . واصل الفتنة الخبرة ، بمعنى المحنة . ثم أطلقت على اختلاف الناس في الاراء ، وعلى الضلال والاضلال والجنون والاثم والكفر والفضيحة والعذاب وغير ذلك . وكله لا يخلو عن المناسبة .

ثم الفتى : الشباب . وحقيقة معناه تفتّح الصبيّ في سنه . والفتوى بضمّ الفاء وفتحها : ما افتى به الفقيه . وحقيقة معناه ، ما فتحه وكشفه . ويؤيد ذلك ان الفتح جاء بمعنى الحكم بين الخصمين . وفاتحه بمعنى قاضاه . ولم يذكر صاحب القاموس صيغة فاعل في قضى . وذكر في مادة فتك : فاتحه بمعنى ساومه .

مثال آخر . جمّ الماء يجمّ ويجم جموماً : اذا كثر واجتمع . والفرس جماماً : ترك الضراب فتجمّع ماؤه . والاولى ان يقال تجمّع ماؤه لترك الضراب .

ثم جمئ عليه كفرح غضب ، وهو غير محرّف عن حمي عليه ، فان الغضب كثيراً ما يأتي من معنى الامتلاء نحو حبل عليه اي غضب . واصله من حبل من الماء والشراب ، اي امتلأ . وتجمأ في ثيابه : تجمّع . والجماء الشخص وهو غير منقطع عن التجمّع .

ثم جمَح الفرس : اعتز بفارسه وغلبه . وهو يرجع الى جمّ ماؤه لترك الضراب .

ثم الجمخ : الكبر والفخر . وهو من هيئة الفرس الجامح . ومثله الزمخ والشمخ .

ثم جمد الماء وكل سائل . وحقيقة معناه تجمّع . ويؤيده مجيء اجمع بمعنى جفّف وأيبس .

ثم الجمد : الحجارة المجموعة ثم الجمرة : النار المتقدة ج جمر . وعبارة «الصحاح» الجمرُ جمع جمرة من النار . وهي عندي اولى حتى تكون مثل تمر وتمرة ولحم ولحمة . وكيف كان ، فان حقيقة معنى الجمر النار المتجمعة بعد اشتعال الحطب متفرّقاً . ومن هذا المعنى الجمرة ، وهي الف فارس . وجمرت المرأة شعرها : جمعته وعقدته في قفاها . وكل ضفيرة ، جميرة .

ثم الجمثورة : التراب المجموع ، ومثله الجرثومة . ثم الجمخور : الاجوف

ثم جمرز : نكص وهرب . وهو من معنى الجمز . ثم الجمعور : الجمع العظيم. ومثله الجمهور . والجمعرة : الجمعرة . وهو ان يجمع الحمار نفسه ويحمل على العانة ثم جمهور الناس : جلّهم . وجمهره : جمَعه .

ثم جمز : اي عدا . وهو يرجع الى جمَح الحصان .

ثم جمس الودك جموساً . من باب قعد جمَد كما في المصباح . وهو اول ما ابتدأ به المادة . وصاحب القاموس ابتدأ بالجاموس مع جزمه بانه معرّب وهو غريبٌ منكَر . وعندي ان الجاموس غير معرّب كما تشير اليه عبارة المصباح ، فانه قال : الجاموس نوع من البقر كأنه مشتق من ذلك ، اي

من جمس الودك ، لانه ليس فيه لين البقر في استعماله في الحرث والزرع والدياسة .

ثم جمش رأسه : حلَقه ، وهو ضدّ جمَع . ومثله جبش رأسه . ثم جمع الشيء ، ومعناه ظاهر .

ثم جَمَل : اي جمع . وجملة من الكلام : طائفة منه ، فكأنكَ قلت جماعة . ومعنى الجمل عندي ، حيوانٌ متجمعة فيه الفوائد والمنافع . ثم الجمعليل من يجمع كل شيء . ثمّ الجمان كغراب : اللؤلؤ ، او هنوات اشكال اللؤلؤ من فضّة . وعندي انه غير منقطعٍ عن معنى الجمع . ثم الجمّاء : الشخص من الشيء وحجمه . فكأنك قلت جملته ، وتجمّى القوم : اجتمع بعضهم الى بعض .

ولولا هذا الاسلوب لخفيت عليك اسرار اللغة ، بل كان ذلك حاملاً على اساءة الظن بالواضع ، لان الجاهل اذا وجد السلاح ، بالكسر ، والسلاح بالضمّ من مادةٍ واحدة ، تحيّر في وجه المناسبة بينهما ، فيحمله التحيّر على نسبة الشّين لكلام العرب . فاذا ردّ المعنى الى سلّ ثمّ انتقل الى سلأ وسلب وسلت وسلج حتى وصل الى سلح ، عَلِمَ ان الوجه الجامع بين السلاح المكسور والمضموم ، السلّ ، فتطمئن نفسه . وهذا المثال وحده كافٍ في لزوم اتخاذ الفعل والمضاعف اصلاً . فضلاً عن باقي الأدلة المذكورة في مقدّمة الكتاب . فاذا علمتَ هذا ، علمت ايضاً ان الكتاب ليس موضوعاً على الاشتقاق الاكبر كما ظنّ بعض من اطلع عليه ، فانهم مثّلوا للاشتقاق الاكبر بقولهم : شجرتُ فلاناً بالرمح : اي جعلته فيه كالغصن في الشجرة . وتشاجر القوم : اي اختلفوا كاختلاف اغصان الشجرة . مع ان شجَر فلاناً بالرمح ، يرجع الى شجّ البحر بمعنى شقّه . والمفازة : قطعها . ومعنى الشجر محرّكةً من الشجر مسكنة ، وهو الاختلاف . ومرجع هذا الى شج الشراب : اي مزجهُ . فان لازم المزج الاختلاف . فقد رأيت ان الشجر محرّكةً ليس اصلاً للشجر مسكّنةً خلافاً لما زعموه . هذا واني قد اتبعتُ الفعل المضاعف بالفعل الاجوف ، لاني رأيت انهما كثيراً ما يأتيان

بمعنىً واحد او بمعنيين متقاربين، يعلم ذلك من امعن النظر فيها . ثم رأيتُ في كتاب « الوشاح » ما معناهُ : ان بعض ائمة اللغة يجعلون المضاعف والاجوف من مورد واحد .

في تقاريظ العلماء عليه

أمّا التقاريظ التي حرّرتها العلماء والادباء والفضلاء الألبّاء على « سر الليال » ، فانها تكاد تكون كتاباً مستقلاً . فأول ما قالهُ العلامة الفاضل الاديب عزتلو عبدالله بك فكري من فصلٍ طويل .

وقد وفّق الله في كل عصر عظماء علمائه . ونبهاء نبلائه . لخدمة هذا العلم الشريف والقيام بازائه . فأفادوا وأجادوا . وبلغوا من احراز الثواب والصواب ما ارادوا . ولكن طالما تمنّت الناس على عزّة مأمولها . كتاباً يميّز بين فروع هذه اللغة واصولها . ويعلّل وضع كلّ كلمةٍ بازاء مدلولها . فان كتب اللغـــة التي رأيناها وان علّلت بعض كلماتها . وردّت معاني بعض المواد الى اصل مدلولاتها . لكنها لم تلتزم ذلك في جميع المواضع . بحيث يظهر في كل لفظةٍ سرّ حكمة الواضع . فلم توجد هذه البغية فيما وصلت اليد اليه . والله سبحانه وتعالى أعلم بما لم نطلع عليه . فلما أعوز الظفر بكتابٍ على ذلك الاسلوب . وكادت تعجز الليالي الحبالى عن انتاج هذا المطلوب . وفّق الله لوذعيّ الفنون الادبيّة وألمعيّها . وأبا عُبيدة هذه اللغة الكريمة واصمعيّها . خير سابقٍ في مضمار الفخار . « وأحمد فارسٍ » في ميدان البيان . لا يُجارى في مضمار . ولا يُصطلى لهُ بنار . ورافع رايات الفضل المبين عـــلى ارفع منار . فخر هذا العصر على سوالف الاعصار . والمتباهية بما لهُ من بدائع الآثار جميع الامصار . مفحم الاخصام بالقول الفصل . ومفعم الايام بما لهُ من الفضل . آية الله في فصاحة القول وبلاغتهِ . وغـاية الغايات في صناعة البيان وصياغتهِ . ربّ الصنائع الروائع . والبدائه والبدائع . والكَلِم النوابغ . والحِكَم البوالغ . واللطائف والطرائف . والعوارف والمعارف . صاحب « الجوائب » التي جابت الآفاق . وأذعن بالتسليم لبراعتها جميع الفضلاء بالاتفاق . فاستنجد العزيمة العظيمة لهذا الشان . واجهد نفسهُ الكريمة في خدمة

هذا اللسان . لالتقاط درره المكنون من زواخر البحار . واستنباط سرّه المصون في ضمائر الاستتار . وأخلص لهذه اللغة البديعة هواها . ولم يجعل في منزلتها الرفيعة سواها . فدان لهُ عصيّها . ودنا له قصيّها . وفتحت له كنوزها . وشرحت له رموزها . واجنته من بهي ازهارها الفائحة بطيب نشرها . وناجته بخفيّ اسرارها المضنون على غيره بنشرها . فاستوعب عجائبها المنعشة للفؤاد . وغرائبها المدهشة لعقول الحسّاد .

وأوعب ذلك في كتابه « سرّ الليال » . البديع المثال . الذي هو نتيجة سهر الليالي الطوال . في حبّ هذه اللغة الشريفة وخدمتها . فأودعه مـا يكشف عن الافهام القوية غشاء غمّتها . ويملك انحاء القلوب السليمة برمّتها . ويقتاد اهواء النفوس الكريمة بأزمّتها . وقد اتحفني بنسخة الجزء الاول منه ، ادام الله اتحافه . ووالى عليه الطافه . وواصل اسعاده واسعافه . فشاق ناظري روضةُ دانية المجاني من زواهر مبانيه . وراق فكري جنّة زاهية المغاني من بواهر معانيه . فألفيت ما لم يُحط به باع الاطلاع قبله في كتاب . ولا تعلقت به اطماع الاسماع في سالف الاحقاب . من الفرائد الجمة . والفوائد المهمة . والنكت المطربـة . والتحقيقات المعجبة . والابتكارات الفائقة . والاشارات الشائقة . فانه كشف استار اسرار اللغة ومزاياها . واستخرج خفايا الخبايا من زواياها .

ومن مزايا هذا الكتاب القاضية بفضله . ردّ الفرع الى اصله . وايراد الشيء في محله . وسرد المواد على اسلوبٍ حكيم . وترتيبٍ قويم . استدعاهُ ايضاح تناسبها . وابداء تجانسها . وبيان أصل مدلولاتها . ونسق معاني تلك المواد في أليق محلاتها . على وضعٍ رائع . وصنعٍ بارع . تبيّنت به وجوه مآخذها . وعلاقاتها ومناسباتها حتى انتظمت مواد اللغة على هذا المثال كقلائد الدر وانسكبت في قالب الجمال والكمال كسبائك الذهب الحرّ . مع اتباع كل دعوى ببيان بيّناتها . وجمع فرائد الفوائد من مظناتها . واستدراك ما فات صاحب القاموس على كثرة نفعهِ . وغزارة جمعه . من بيانٍ يُطلب . او مَثَل يُضرب . او لفظةٍ يُرغب في اثباتها .

ومن مزايا هذا الكتاب الجليل . ومحاسن اسلوبه الجميل . تثبيت معاني اللغة في ذهن قارئه بكثرة ما يمرّ به من التعليل . وايراد الدليل . فان المسئلة اذا ذُكرت بتعليلها . وأُتبعت بذكر دليلها . كانت بالقلب أعلق . وبالقبول أخلق . مع تسهيل العباره . وتقريب الاشاره . وترك الطويل المملّ . ومجانبة التقصير المخلّ . الى غير ذلك من الخصائص التي تبهر بحسنها ارباب الالباب . وتتقاصر دون اوصاف محاسنها اطناب الاطناب . تقبّل الله من مؤلفه الفاضل الجليل هذا السعي المشكور . وضاعف له جزيل الاجور على هذا العمل الجميل المبرور . انه غنيٌّ شكور . ولا زال فخراً لارباب الادب . وذخراً لطلاب لسان العرب . على مدى الدهور . ما ازدهى في الدجى هلال . وانتهى الى غاية كمال .

ومن ذلك ما حرّره العلامة الاستاذ الشيخ عبد الهادي نجا الابياري قال

والسابقون الاولون من احزابه وانصاره (اي اللسان العربي) والذين اتّبعوهم باحسانٍ في قطف قطوف اسراره . وان شيّدوا مبانيه . ونضّدوا مبانيه . ومهّدوا قواعده . ومدّوا في مجامع جوامعهم موائده . وجلوا عرائسه الحسان . وحلوا نصوصه بفصوص البيان . لكن لم يأتِ احدٌ منهم بما به يروق مجتلاه ومجتناه . ويوصل به ما تقطّع من بين لفظه ومعناه . حتى تنبه لذلك « فارس » ميدان البراعة . ومالك زمام القرطاس واليراعة . الفذّ الذي عقمت عن توأمه فتاة الزمان . والبذّ الذي اصبح وليبانه وبنانه في جنّتي البلاغة والبراعة عينان نضّاختان . فألف بين قلوبه . وجمع فيه بين المحب ومحبوبه . بما ألّفه من كتابه السحر الحلال . المسمّى بسرّ الليال . فلقد أحسن به كلّ الاحسان . وأقرّ به أعينَ الزمان . لاسيما بالطريقة التي أبدَعَها . والشريعة التي شرَعَها . فقلّدها تقصاراً في جيد لغة العرب . وخلّدها نعمةً سابغةً على جميع اهل الادب . أورد الافكار من سلامة اختراعه بحوراً من المعارف صافية . وألبس الاذهان من حسن تفصيله حللاً

من الفضل ضافية . اذ أطلع طرسه المسطور من اسرار اللغة كواكب واقماراً . وابنع معناه البعيد ولفظه القريب من مكنون لطائفها حدائق وازهاراً .

ولعمري لقد راقت فصوله اختراعاً . وفاقت فروعه الاصول الجامعة اجماعاً . واوضح سبيل اللغة العربية بأوضح من فلق الصبح . ووشّح عرائسها بوشاحٍ من التنقيح قد رُصع بجواهر من النصح . فهو منّةٌ من الله ملأت الصدور انشراحا . وعمّت الارجاء افراحا . كيف لا وقد كرم مفهوماً ونصّا . وذهب في مذاهب الفضل الى الأمد الاقصى . رأيته فرأيت تحت كل ذرّة منه درّة . وفوق كل طلعةٍ غرّة . وما ظنك بكتابٍ يلعب بعقول الكتّاب عجباً . وينثر على وجوه وجهاء الادب لؤلؤاً رطباً . لمعانيه من كل قلبٍ نصيب . ولالفاظه في مخامرة العقول سرّ عجيب . فصولُ نثرٍ تعلو على النثره . وعقودُ فِقَرٍ صبّ الفلك في قوالبها زهره . فِقَرٌ تقول لفكر الزمان اسمع وأجب . وطب نفساً بهذه المحاسن الباهرة ودارِ بحسن وصفها ووصف حسنها وطب . فقال الزمان ان فكري قد قام بصوغ عقود المدح . على جميل هذه المنن وجليل هذه المنَح . وقرّظه من المهذّب الكلامي بما يطرب الالباب . وهو فذلكة القياس . والعمدة في ذلك الامر عند الاكياس . وان هذا الكتاب لمُدام المسرّة ألطف كاس . ولدوام المبرّة اشرف نبراس . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . يجلس نديمه فوق السحاب المارّ . ويدور على قطبه فلكُ الفصاحة الدوّار . يتضوع به من الادب ارجاؤه . ويُجلّ به من عِقَد اللسان ما يتيسّر به لكل آمل رجاؤه . قد تبلّج في بروج الادب بدره . فبهر عقل كلّ من امر فيه امره . وتبرّج في مروج البدو والحضَر . فسلم له من أسلم وبهت الذي كفر . فلا اقسمُ بمواقع نجوم البراعة من سرّ هذا الكتاب . انه لهدىً للناس ورحمةٌ وبشرى لاولي الالباب . أخرج الناس من ظلمات العيّ والغيّ . وألحق مشايخ الادب باولاد الحيّ . ما فيه فصلٌ إلا وقد أوضح من اللسان مشكلة . ولا اصلٌ إلا وعاد الى رحم الاشباه والنظائر بالصلة . فمن ينبيء المتشوفين الى معانقة مخدّرات اللغة . المتشوقين الى طلوع شموسها البازغة . ان قد تبرّجت

عرائسها الغواني . وتيسّرت من مطالبها مسرّات الاماني . وصَفا شرابها فحلَّ بعد التحريم . وعفى حجابها فلا حرج على طلاب مكنونها ولا لغوَ فيها ولا تأثيم . بابراز ذلك الكتاب المظهر الالفاظ والمعاني . المسفر لكل عاشقٍ عن وجهٍ ليس لهُ في الجمال ثاني .

يقول للبدر في الظلماءِ طلعتهُ بأيّ وجهٍ اذا اقبلت تلقاني

ما فيه عندي مجال لقادح . ولا يقدح فيه إلا قلبُ آثرِ ابدال الاتباع بالابتداع الفاضح . فلله ما غنمهُ المؤلف من الثناء الذي تتوّج به على ممرّ الاعصار . رؤوس المنابر . وتؤرّج به ارجاءُ الاقطار . وتؤرّخ به صحف المفاخر . لا زال سحاباً وانواءُ الفضائل ماؤه . وبدراً وانواع المحامد سماؤهُ . وعَلماً منه مبدأُ الفضل واليه انتهاؤهُ .

وبما حرّره العلامة النحرير سعادتلو السيّد اباظه باشا من اعضاء مجلس الاحكام المصرية .

وبعدُ فاني اطّلعتُ على كتاب سرّ الليال . فاذا هو عزيزُ المثال . وعلى غير مصنّفه بعيد المنال . لاسيما في نوعَي القلب والابدال . فهو جديرٌ بقول القائل . هذا المصنّف لو يباع بوزنهِ ذهباً لكان البائع المغبونا . كيف لا وهو تأليف نادرة دهره . ووحيد عصره . أحمد من جال في مضمار البراعة . وفارس من اشارت اليهم بالبنان اليراعة . سلطان العاشقين لحسان هاتيك الاسرار . التي لا تكاد تخاطب غيرهُ إلا خلفَ استار . ومن وراء جدار السابق فلا يُلحق لهُ غبار . الساري على مصباحه ذوو الآداب . السائر على شاطىء شريعة آدابه كلّ جوّاب . من باصالة الرأي شهرته . وبحلية الفضل زينته . الذي تتحلّى بعقود ذكره عَطل اجياد المجالس . حضرة محرر الجوائب « احمد افندي فارس » .

متى تطلب الآداب احمد فارسٍ ذكاء ابنيناها بأحمد فارسِ

مربّي المعاني في حجور ذكائه   ومانحُها الاقوات يسر المناقسِ
فسرّ الليالي فيض بحرٍ أمدّهُ   نهاه فما يأتي بغير النفائسِ
شؤونٌ افادتها حنادس ظلمةٍ   ولكن بها ابيضّت وجوهُ المدارسِ

ولما وقفتُ على عجيب اختراعه . وأطربني بديع ابتداعهِ . سجدتُ لله شكراً . وحمدته حمد من احاط علمه بجميع آلائه قدراً . حيث قيّض مثل هذا الهمام لهذا التصنيف . الذي نبّأ عن علم من تقدم من الفحول اهل التآليف . فمشى في هذا الفجّ العميق الشقّة والالتباس . مستضيئاً بمصباحٍ لولا المشقة ساد الناس . فيا لهُ من بليغٍ في سماء اللغة بدا بدره . فقلنا اذ ذاك لله درّه . ويا ليت شعري كيف المكافأة لهذا الفاضل . وكيف يقرّظ حسانَ معانيه مثلي وجيدي من حلى العلوم عاطل . ولكن لمّا التمس مني ذلك من في سويداء القلب محبته . ولم يسعني الا اجابته . طفقتُ أقدّم رجلاً وأُؤخر أخرى . كما قيل لا ادري ايها أحرى . وما ذاك الا لقصر الباع وقلة البضاعة . وعدم الممارسة لاسباب هذه الصناعة . فهل انا في ذلك الا كمهدٍ الى البحر قطره . او جالبٍ الى غياض المشان تمره . لكن كلما تذكرتُ فكري . تحيّرت في امري . فقلت واثقاً بمقابلتي بالسماح . التشبّه باهل الفلاح فلاح .

لاستسهلنّ الصعب او ادرك المنى   فما انقادت الآمال الا لصابرِ

وما زالت القريحة تتردد بين اقدامٍ واحجام . وتقول ما لي وللولوج في مضايق هذا الزحام .

اذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه الى ما تستطيع

فقلتُ لها :

ان اخا الهيجاء من يسعى معك   ومن يضرّ نفسهُ لينفعك ؟

فاستسلمت بعض استسلام . وسالت باعناق مطيّها اباطح الكلام . فقلتُ اللهمّ انه لم ينقّط الفلك عرائس الآمالي . بمثل هذه اللالي . التي ازدرت

بالقاموس والصحاح . وجرّت ذيل التيه على المُزهر والمصباح . وكان قبلها لسان العرب . قاصراً عن نيل الارب . فعلا مقامها على المقامات . وأميط عن وجه الجمهرة تشتت وجوه الدلالات والافادات . ولعمري لو شامها ابن الاثير لم يبتدىء بالنهاية . ولعهد نهايته بالاضافة اليهـا بداية . ولو برزت مخدّراتها لشارح القاموس . لمّا وضع التاج على رأس العروس .

فيا لله ما حواهُ هذا المؤلف الجليل من النكات الغريبة . والاساليب العجيبة . فتح بها باباً كان مُرتجاً دهراً طويلاً . فسهّل بها الى التقاط مثلها سبيلاً . فهي في الحقيقة ما بين الهامٍ رحماني . او واردٍ روحاني . لم ينسج فيها على منوالٍ حائك . بل جاء منفرداً في تلك المسالك . فبلغت ركاب افكاره عند النهاية دار السلام . وقابله من القبول حسنُ الختام .

أحسن بمضمار علمٍ قال فارسهُ «اصالةُ الرأي صانتني عن الخطَلِ»
ابدى من اللغة الغرّاء ما خفيت اعلامُ مُظهرهِ عن اعين الأولِ
حتى بـدا بدرهُ نادى مؤرخه سرّ الليالي اتى عن فارسٍ بطلِ

سنة ١٢٨٥

ومما كتبه العالم الفاضل الاديب الشيخ مصطفى العدوي الازهري

بينما الناس متشوقة في كل عصرٍ لرؤية الاعاجيب . متشوفة لما يتجدد من البدائع في كل غريب . اذ لاحت عليهم لوائح انوارٍ سنيّة . وفاحت لديهم فوائح انوارٍ زُهرية . فعطّرت الآفاق من نشرها الاريج . وسطرت الاوراق من بُشرها البهيج .

أطلعت في سمائنا كوكب الكشف فأغشت ابصـارنا بالضيـاء

فرمقت العيون الناظرة . الى تلك المحاسن الناضرة . واذا هي نورٌ سرى

سرّه الساري فاشرقت منه دهمُ الليال . ونورٌ زاهر تكللت تيجانه الباهرة باللال . فاشتاقت النفوس التي على طرف الثمام . الى الاطّلاع على مطالع السعود وكشف اللثام . فصدح صادحُ التهاني معلناً باظهار هذا السر المصون. مطرباً بسجعات المثالث والمثاني فوق هاتيك الغصون . مخبراً بان هذه اشراق انوارٍ سطعت من سماء المعارف . لمن هو في مضمار الرهان واسرار العرفان « احمدُ فارس » واوحد عارف . مشتملاً ذلك الكتاب المستطاب على القلب والابدال . وهو بهذا العَجَب العجاب على سموّ شأن مؤلفه دالّ .

طربتُ عند سماعي ذكر معناهُ   فكيف لو كان هذا عند مغناهُ

فهزّتني اريحية الصبابة . ان اقتفي آثار من مدحه من اهل الاصابة . فقلتُ في الحال . على سبيل الارتجال . ممتثلاً قول من قال . وكن رجلاً رجلهُ في الثرى . وهامة همّته في الثريا .

أنسيمٌ فاح من عرف الشمالْ   يتهادى عن يمينٍ وشمالْ
ام عبيقٌ نشرُ مطويّاته   عطّر الارجاء من طيب الغوال
ام بدورٌ لائحات مذ بدا   نورها السامي ضياءُ الشمس حال
ام معانٍ سافرات اسفرت   بمبانٍ تتجلّى كالهلال
ام رياضٌ زاهيات ازهرت   بضواحي ودواحي وظلال
ضحِكَ الزهرُ بها لما رأى   همْعَ دمع المزن اضحى في انهال
صحّت الارواح فيها مذ غدت   نسمةُ الارواح تسري في اعتلال
والهوا صافٍ لارباب الهوى   وزمان الانس امسى في اعتدال
يا نديمي شنّف الاسماع من   سجع ورقاء الحمى ذات الحجال
واحس راح الروح في دوح المنى   من حلال السحر والبحر الزلال
واحي ليل الانس في حان الصفا   حيث جهراً سرّنا « سرّ الليال »
عقدُ درٍّ يزدري اذ يزدهي   بصحاحٍ جوهريّات اللال
هو بحرٌ ليس يحوي درّهُ   غيرُ غوّاص الحجا ربّ الجلال
هو مرآةٌ لارباب النهى   تُظهر الاشياء من غير صقال
غاض قاموسُ المعاني وانزوى   منه مذ سيّاله السلسال سال

ليس للمصباح نورٌ مبصرٌ مع ظهور الشمس في برج الكمال
فهو حقٌ ظاهرٌ دون خفا وسواهُ ان بدا طيفٌ خيال
اذ لغات العرْبِ طرّاً قبله قلبها خاوٍ عن الابدال خال
فأتاها فارس الهيجا على فترةٍ في كرّةٍ يبغي النزال
فاقتفى آثارها مقتنصاً غرر الالفاظ من درّ المقال
وكساها ثوب عزٍ وبها تتجلى في حلاهُ بالجمال
ببيانٍ مبدعٍ تبيانه شأوهُ السامي بعيدٌ في المنال
جاء بالايات مذ جاب الحمى فارسٌ كم في مجال العلم جال
عضد السعد عصامٌ سيّدٌ هو للتحقيق غوثٌ وشمال
كم فروع جمحت عن اصلها ردّها بالطوع في ابهى مثال
كلّ فنٍ يا سميري ولهُ دولةٌ في كل عصرٍ ورجال
ان حقاً للأولى راموا العلى ان يشدّوا صوب مغناهُ الرحال
أعطِ قوس الفضل باريها ولا تُولِها من شأنه قيلٌ وقال

***

يا إمام العصر يا من قد غدا قدرُهُ العالي على علياه دالّ
هاكَ مني بنتَ فكرٍ زُيِّنت لحماكم تتهادى بالدلال
تبتغي منكم قبولاً ورضىً فعسى تحظى وبا نعم النوال
دمتَ في عزٍ على رغم العدى راقياً أوج المعالي والكمال

وقال الاديب اللوذعي متنبيء زمانه محمود صفوت افندي

وكتابٍ تناسق اللفظُ فيهِ فهو عقدٌ مفصّلٌ من لآلي
في كلام جمالهُ في كمالٍ ومعانٍ بديعةٍ في معال
صرف النطق والبلاغة فيه ببيانٍ في القلب والابدال
عارض الدرّ بالصحاح من الجو هر والبدر طالعاً في كمال

بلغاتٍ من الفصيح بليغـا ت بيانٍ اتى بسحر حلال
أبدل القلبَ سرّها في المعاني فأرانا تصرّف الابـدال
احرز السبق فارسٌ بالمعـلّى ورأى ابن السكيت دون المجال
أحمدُ الذات والصفات جميعـاً أحمدُ القول أحمـد الافعـال
علّم البحر لافظاً بفريـد لفظهُ بالفريد والامثـال
انما البحر قلبه البحر علمـاً ويرى العلم صالح الاعمـال
كان ممـا أسرّه الدهر دهراً ثمّ نمّ التقليب بالاحوال
فهو كالبدر في سراهُ فـأرّخ المعيّ اذاع ، سر الليـال

سنة ١٢٨٥

جريدة الوقائع المصرية

وكُتب في الوقائع المصرية عدد ٢٩٧ بتاريخ الثاني عشر من صفر من سنة ١٢٨٦ ما نصّه :

استحسان وتنبيه من مطلع عارف حضرة الباشا المفخم وكيل جمعية المعارف.

قد متّعنا النظر في بعض نسخ « الجوائب » . على عادتنا من استقصاء ما فيها من المطالب . فاذا فيها في مادة افتوى تحقيقٌ رائق . وتدقيقٌ حريٌ بالاستحسان فائق . قد جمع من النقول ما يدرأ الظنون . وتقرّ به الانفس والعيون . وبالاطلاع على اصولها رأيناها في غاية التحرير . الذي لا يعزب عنه فتيل ولا نقير . ولم يسبق سواه اليه . ولم ينبّه غيره عليه . فحمدنا الله تعالى على وجود مثل هذا المحرّر . الذي يشهد بفضله كلّ فاضلٍ ويقرّ . وتيقظنا لقدر مرّ الليال . وانه بمكانٍ من التحقيق عال . يتحتم على كل انسان . ان ينظر اليه بعين القبول والاستحسان . ويجدّ في تحصيله . لان ذلك المحرّر من قبيله . اهـ .

أمّا التنبيه فمتعلق برواية حديث وهي ليست من هذا الباب .

تقاريظ علماء العراق

وجاء في تقريظ سرّ الليال من علماء العراق ما كتبه العلامة الاستاذ الشيخ عبدالباقي افندي الوسي زاده . قال :

بسم الله الرحمن الرحيم . حمداً لمن وفّقني فأوقفني في فروق . على « سر الليال . في القلب والابدال » . الذي بينه وبين سائر المصنّفات فروق . كيف لا وهو تصنيف فارس ميدان البلاغه . ومن لم يبلغ احدٌ في حلبات السبق بلاغه . مجمع البحرين . وملتقى النيّرين . جمع جوامع المحامد والمواهب . مشكوة شوارق الادب. مصباح مصابيح اسرار البلاغة للعرب. خلاصة اهل التنقيح والتوضيح . ومغني اللبيب عن التصريح بالتلويح . القاموس العباب . والحاوي لمنهج الصواب . نزهة الالباب . وروضة الآداب . المثـــل السائر في سائر البلاد . والدرّة الفاخرة لكل العباد . من الفاظه الاكسيرية لاولي البصائر درياق . حضرة احمد فارس افندي الشدياق . لا زالت رماح اقلامه تأسر كل معنى انيق . فتحرر كل لفظٍ رقيق . وعساكر افهامه تجول في مهامه كل عويص . وتيّار كل غويص . لنكس جيوش المشكلات . وفتْح حصون الخفيّات . ولا برحت الفاظه ومعانيه مصونةً من عين الحسود . في صَدَف جمان لؤلؤ مكنون مختوم بختامٍ من مسك عبيره ممدود . فلله درّ انامل ذرّت عنبر مداده على صفحات قرطاسه . ودرّ فطنةٍ اطلعت من مشكوة بلاغتها نور نبراسه . ففي مختصرهِ مطوّل المدح . وفي تلخيصه ما يغني عن الحاشية والشرح . ولعمري لقد ابدع فيه غاية الابداع . واتى بما لم تستطعه الاوائل بلا نزاع .

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالمَ في واحدِ

وهو الحريّ بان يقول فيه ذوو العرفان . ليس في الابداع ابدع مما كان .

ومما كتبهُ اخوهُ الاستاذ العلّامة الشيخ عبدالله بهاء الدين افندي قال .

لقد باحت الليالي بسرّها المكتوم . فأبدت لنا ما استنارت منه ارجاء الفضائل . وأعلنت الايام بما اخفته في صدرها من السلم المعلوم . فحققتُ لنا مقالة كم ترك الاول للاخر . ولما انجلى ذلك السرّ للعيان . وتجلّى نجمهُ في سماء البيان . علمنا ان الامر فوق ما نعلم ونعهد . ووراء طور العقول وأبعد . قد وعته أُذن واعية فأودعته صدراً رحيباً بالعلوم . وادركته مدركةٌ حاوية . فحواه فؤاد فسيح بدقائق المنطوق والمفهوم . ومن لي بمثل فارس مضمار الكمالات . الذي امتطى من الفضل صهوة كلّ محجّل اغرّ قد استصعب على من سواه . وغوّاص بحر المشكلات الذي استقصى اقصاهُ وادناه . يساهر الليالي فيستملي منها اسرارها . ويسامر الاقلام دون السُمر العوالي فيستكشف بها من مخبئات الدقائق استارها . فهو الفارس الذي ترجّل في ركابه كلّ فاضل . واحجم عن مناضلته في ميدان العلا كل مناضل . المجّلي بدقيق نظره وجليّ فِكره دقائق الآداب . فكان المجّلي في حلبتها ومن تقدّم باداء فرضها ونفلها في مسجدها الجامع لكافة الطلّاب . والمصلي في محراب قبلتها الذي جرى ملءَ العنان على جواد فكره المستقيم فادرك كلّ اعوجيّ من الشوارد . وعدا على عاديات فضائله فتبيّن الضالع من الضليع غداةَ انقطع عن شأوه كل مسابقٍ ومعاند .

ولعمري لقد اعلن هذا السر بعلوّ كعبه في المعالي . وافشى خبراً طالما حدّثتنا به الرواة عن بدره المتلالي . ولولا ذلك الفاضل لَمَا وقف على هذا السرّ المصون انسان . ولبقي الى يوم النشر مطوياً في خزائن الكتمان . ويقيناً ان من وقف على هذا السرّ فقد وجد الكبريت الاحمر من الفصاحة . ومن اطلع على دقائق هذا السفر ظفر بكيمياء السعادة من الرجاحة . فبدائع حسن ترتيبه رشيقه . ومبتكراته في لطافة ترصيفه لخرّد الابكار شقيقه . لا زال مؤلّفه الفاضل الهمام . مبرزاً بقويم همته سرّ الليالي . على

مدى الايام . ولا برح مرصفه الفارس المقدام . مظهراً عجائب الحقائق بسمر اقلامه العوالي . من حقاب الاحقاب والاعوام

وبما كتبه الاستاذ العلامة حضرة فضيلتلو الشيخ محمد امين افندي الجندي ، من اعضاء شورى الدولة سابقاً ، قال بعد البسملة والحمدلة :

وبعدُ فلما حضرتُ ثالث مرّة الى دار الخلافة العلية . والبلدة الطيبة قسطنطينية . لقيت بها العالم الفاضل . والمدقق النحرير الكامل . حريريّ زمانه . وسيبويه عصره واوانه . صاحب التآليف المطبوعة النافعة . والجوائب المفيدة الجامعة . المشتهر بالفضل في الآفاق . احمد فارس افندي الشدياق . بلّغه الله تعالى آماله . وأحسن في الدارين حالنا وحاله . فأتحفني بما وجد عنده اذ ذاك من الكتب التي حرّرها . والرسائل التي ألّفها وحبّرها . فوجدتُ كلّاً منها غاية في بابه . ونهاية شاهدة بسعة اطلاعه ووفرة آدابه . لاسيما هذه المجلة الموسومة بسرّ الليال . والمرسومة على احسن طرزٍ واعجب مثال . فاني لما تصفحت صحائف اوراقها وسطورها . واستطلعتُ بالمطالعة عرائس معانيها من خدور قصورها . الفيتُها السهل الممتنع . وذروة الشاهق المرتفع . لم يحلّق حول حماها الى الآن طائر فكر . ولا اقتطفت ثمار باسقاتها قبلُ قريحة زيد او عمرو . بل المؤلف مخترع نظامها وتهذيبها . ونسيج وحده في امر تأليفها وترتيبها . فهي البحر الزاخر . والمصداق على قولهم كم ترك الاول للآخر . ومن تأمل تأمل منصف . والتزم الحق غير متعنّت ولا متعسّف . جزم بان سوق المعارف في عصرنا رائج غير كاسد . والميل الى تحصيل العلوم والفنون متزايد . الى آخر ما قال ونعم المقال .

وبما حرّرهُ الاستاذ العلّامة الشيخ ابرهيم الاحدب في بيروت قال

وبعدُ فاني قد وقفتُ وقوف من تدبّر الالفاظ لادراك معانيها . وامعن النظر في خفايا اسرارها وكان بمن يعانيها . على الكتاب المرسوم «بسر الليال في القلب والابدال» المشحون بفرائد الدرر . المشرق في طرر جباه الكتب غرّة تزدان بها الغرر . فوجدته كتاباً محكم البنيان . متقن المعاني والبيان . كشف لنا المخبأ من اسرار لغة العرب . وأبان منهج السلوك للدخول في معرفة فنون الادب . ابدع بالقلب والابدال تصريف كلماتها . ونحا بحسن الاختراع نحو الاطلاع على دقائق آياتها . جاء بالحِكَم من مختار فرائد قاموسها . وبنى خير اساس رصّعه بصحاح الجوهري لاظهار ناموسها . خبا نور المصباح عند اشراق نوره . واصبح صاحب فقه اللغة غير فقيهٍ بظهوره . اثنى عليه بالاخلاص لسان العرب . وغدا ديوان الادب بآدابه مرغوب الطلب . وعطل جامع اللغة من ان يواظب خطيب البراعة فيه على الخمس . ولاح كتاب العين اثراً لا يفديه النـــاظر فيه بعين ولا نفس . وضع بمجمـــل الفرائد فوائده على طرف الثمام للطلّاب . ورفع راية العلم لمن وصل بيان معانيه بفصل الخطـــاب . كيف لا ومنشئه فارس الانشاء والانشاد . وأحمـــد من اجاب في كل مسئلةٍ واجاد . من رنّت حصاة فخاره . ومنّت بفوائد العلوم اخبار آثاره . معيد بديع الزمان ببديع مقاماته . ومبدي الصاحب بن عباد ببراعة عباراته . مرصّع وجنات الطروس بلالىء نظامه . وموشّع برود المعاني بازهار كلامه . يغوص رشاء ذهنه في قليب الافكار . فيستخرج من ظلمات المداد درر البحار . سجعت ورق الفاظه بفنون الادب على افنان المعارف . واشرقت مطالع كلامه ببدور اللطائف . تباهت بمآثره دار السعادة . وغدت بفضائله لهـــا الحسنى وزيادة . تفنّن فيها باساليب الانشاء حتى صار مثلاً سائراً . واغرب بابداء دراري الاملاء حتى لاح فلكاً دائراً . تحدى بانشاء الرسائل فكم صدقت له رساله . وتبدّى لايضاح المسائل فأتى بما يعجز كل مدعٍ ظنّ الناقص

مثاله . مازال يحاجي عن العرب ويناضل . ويجرّ اليهم رفع راية الشرف فوق هام المجرّة باعظم عامل . فكيف لا نخلص الثناء على شمائله الحسان. ونشكر مساعيه التي قلّدت اجياد معالينا بقلائد العقيان . وقد وضع عدّة كتبٍ في انحاءٍ شتى من العلوم . وحمـــل الينا ضروباً من بدائع المنثور والمنظوم . من ذلك هذا الكتاب الذي اظهر به المخبأ من اسرار الليالي . وسبك الفاظه بما يفوق عقود اللالي . فلذلك اثنيتُ عليه ببعض ما هو اهله. وشفعتُ نثر كلامي بوصل نظم حسن به فصله . فقلت في براعة الاستهلال. راجياً فضل من استأثر بغاية الكمال :

قد اباحت صبّها سر الليال   بسناها رغم ذي قيلٍ وقال
ووفت عهدي كما شاء الهوى   وادارت بالصفا كأس الوِصال
غادةٌ ما الشمس الا وجهها   فوق غصنٍ في رياض الحسن مال
من بنات الروم رمنا وصلها   اذ علينا دلّها حسن الدلال
ثغرها الحالي لناحٍ نحوهُ   بابتسامٍ قد جلا تمييز حال

الى ان قال :

ظبيةٌ حلّت بقلبي وحلت   اذ اباحتني جنى ثغرٍ حلال
نظمت فيهِ الثنايا لؤلؤاً   قد اذاع الحسن عن «سرّ الليال»
عن كتابٍ علق القلب بهِ   اذ بابداعٍ وقلبٍ جاءَ حال
اعرب الدرّ بمبناهُ لنـــا   مبدعاً في سلكه نظم اللال
وعلى خـــير اساسٍ نقلهُ   جاءَ مبنياً وان ابدى اعتلال
لغة العرب علت قدراً به   واليه ردها بالصدق عال
قرّب النـــازح من طالبه   ولراجي العلم قد ادنى المنال
قد خبا المصباح منه اذ بدا   ومن الدرّ غدا القاموس خال
وصحاح الجوهر اعتلّ أسىً   ولآليهِ بدت ذات ابتذال
ولسان العَرَب استعلى به   وانبرى يثني عليه بابتهال
ما لمن عارض ابواباً له   طاقةٌ تدخلهُ بيت الكمال
قال فيهِ انه روح المنى   من بظلّ الحق والانصاف قال

مــا عليه ان رآه ناقصاً   اجوف ليس له قطّ مثال
كيف والمنشي له احمــدُ من   فكرهُ في العلم قد جاب وجال
فارسُ الانشاءِ ذو الفضل الذي   بالهدى قد زاد عن طرق الضلال
قد كبا دون لحاقِ شأوهُ   من بميدان الذكا صلّى وصال
اين فضل الفاضل القاضي الذي   قد قضى من فضله السامي النوال
بالجواب الحــق يلقى سائلًا   امّه من قبل ابداء السؤال
ذو قضايا انتجت اشكالهــا   بانفصال الجهــل للعلم اتصال
اي علمٍ لم يكن قــدوتهُ   وله فيه معانٍ ومعــال
ذو يراعٍ ان علا في كفه   فوق قرطاس فما السمر العوال
واسع الخطو اذا جال دعــا   شاكياً ذو السبق من ضيق المجال
بفنون العلم افنانٌ له   اورقت تدني لجانيها الظــلال
قد عــلا الشعرى بشعرٍ نظمهُ   ببيانٍ ابدع السحر الحلال
وجــلا المنثور من الفاظهِ   في رياض العلم ازهار المقال
وبحسن النطق سكّيتاً دعا   من له ابناً ناطقاً بين الرجال

***

يا إماماً حلّ في نادي العلى   ففدا منا له شدّ الرحــال
قــد سرى سرّ حجاك المرتضى   بثناءٍ مرخصٍ طيب الغوال
فتقبّل غــادةً طلعتهــا   فضحت بالحسن ربّات الحجال
صعّرت وجنتهـا عن غيركم   اذ جلا رونقها حسن الصقال
واتت تمشي عــلى استحيائها   نحوكم ليس لهـا عنكم دلال
وعليكم عقدت ايمانهــا   بالمعاني حينما مدّت شمــال
ترفع الكف وتدعو بالبقــا   لعلاكم ما ذكا عرف الشمال
دمتَ بدراً من سنا تاريخــه   بسعودٍ ذائع سرّ الليــال

سنة ١٢٨٥

وقال الاستاذ العلامة الشيخ عبدالقادر ابو السعود من علماء القدس الشريف

لقد تقلد جيد فكري بعقود اللالي . المستخرجة من بحر سرّ الليالي . فيا لها من جواهر نُظمت في سلك الادب . ولله درّ غوّاصها حيث اتى بفنون العجب . تزيّنت بها جميع كتب الآداب . وظهر بها اسرار معاني السنة والكتاب . شمسٌ بزغت في افق سماء المفاخر والمآثر . ولما استوت اذن مؤذّنها الله اكبر كم ترك الاول للاخر . اضاءت على كل المحافل والمواكب . واختفى بظهورها جميع الكواكب . ولما امتلأت الاكوان بضيائها . طمعتُ في ان احلي كلامي بثنائها . اذ كلامي كلام . ونظامي خالٍ عن النظام . غير اني اطمع من ناظرٍ في مقالي . ان يقول هذا مادح سرّ الليالي . فهو عندي من اعظم الافتخار . واشهى والذّ من منادمة الابكار . وفي الحقيقة هي غنيّة عن الامتداح . بل ثمرة مدحها حلية المداح :

بيانٌ ختم المعالي	اتى بسحرٍ حلالِ
احيا فؤادي حلاهُ	ولطفه قد حلا لي
وبدره تمّ فضلاً	لكن جميع الليالي
لله سرّ عجيبٌ	زها ببدر الكمال
وفارس الفكر فيه	يصول بين الرجال
كم غادة فيه تبدو	كالنجم او كالهلال
تتيه بين الغواني	بحسنها والدلال
رقّت قواماً ومعنىً	كلطف سرّ الليال
في رونقٍ وبهاءٍ	وبهجةٍ وجمال
فالقلب حنّ اليها	ومالَ عن ابدال
لانها بكر فضلٍ	توشحت بكمال
رضابها ولماها	يغني عن الجريال
هذا لعمري جمالٌ	يصان عن امثالي
لله درّ همامٍ	تعزى له في المقال

ينبوع علمٍ وفضلٍ يروي رياض المعالي
وبحر فهمٍ وحبر والبحر يلقي اللآلي
اجرى الثناءَ عليه لسان حالٍ وقال
في البرّ والبحر حتى على الجبال العوالي
وفي العروض جميعاً وسائر الاطوال
والحمد لله احمد له جميل الفعال
فصلى ربي وسلّم على النبي والآل
ما دام كأس المعاني في حانة الافضال
واحمدُ الناس فضلاً وفارس في المجال
او اظهر السحر ارّخ بيان ختم المعالي

سنة ١٢٨٥

ومما كتبه الفاضل النحرير امير الامراء المفخم حسين باشا التونسي

اما بعدُ . فقد تشرّف ودودك يا احمد الخلال . وفارس ميادين الكلام والكمال . بمطالعة تأليفك الاغرّ « سرّ الليال . في القلب والابدال » . الذي لم تسمح قريحة بمثاله . ولا نسج لغوي فيما علمتُ على منواله . فلم ادرِ بعد التأمل فيه . واعتبار مزاياك التي تستأصل المدح وتستوفيه . بماذا اهنّيك واحلّيك . ثمّ باي ثناءٍ جميل اثني عليك ابنصيحتك وارشادك . في صحائف ارسالك وانشادك . واستكشافك بما خفي من مصالح الامة . كشف الله عنها كل بليّة وغمّة . مشيراً الى ما ينبغي ان تكون عليه سياسة ملكها . وتأسيس انتظام سلكها . ومناضلتك عنها دون اضدادها . والطاعنين في محاسن لغتها وشريعتها من حسّادها . ام بجمعك ما تفرق من اشتات العربية . وابدائك لما خفي من كنوز اسرارها الادبية . ومن لي بمدح من فاق اقرانه . واستعمل في مرضاة الله بيانه وبنانه . وحبس ايامه على ايضاح اصول السياسة . وتهذيب فروع واجبات الرئاسة . ولياليه على

بيان اسرار اللغات ومبانيها . واستذكاء نباريس معانيها . فوالذي لا تحيط بكمالاته الظنون . ويحمد عاقبة صنعهم لديه المحسنون . لقد أريتنا بهذا التأليف الجليل . والدستور العديم المثيل . ما يحقق لنا ان وراء المحيط محيطاً آخر . يقول لافظ جواهره كم ترك الاول للاخر . مهنئاً لك بالسرّ الذي اطلعك الله عليه . والامل الذي بلغك اجتهاداً اليه . فسبحان المانح المفضال . ومجزل النوال بلا سؤال . ما انت الا فارس الزمان . واحمد من سابق في ميادين البيان . فكم ابرزت للعيان بسناكي القلم واللسان . من مخدّرةٍ تسحر الالباب . وتختال في برود الجمال بلا احتجاب . وتخال انهـــا المعنية بقول من قال . ومن هفوات التولّه استقال .

عهدي بها في الخدر تحجب دلّها فعلى البروز لفتنتي مَن دلّها

فالله سبحانه يجازي جميلك بالجميل . ويحوطك بحفظه في الغداة وفي الاصيل . والسلام عليك . ما حنّ مشتاق اليك . من مدينة بست قاعـدة مملكة الجار . في اليوم الثالث والعشرين من الشهر المتشرف بمولد المختار سنة ١٢٨٦

وهذا نصّ ما كتبه العلّامة الفاضل الشيخ محمد الباجي المسعودي
رئيس كتّاب نظارة الداخلية بتونس

سبحان من أودع في ضمير الايام وسرّ الليال . بدائع من حكمته لا تخطر ببال . واظهر ما شاءَ من مكنونها ما شاء في كل قطر من الاقطار وجيل من الاجيال . سوراً تتلى وعرائس تجلى على غير نمطٍ سابق ولا مثال . كم ترك فيها الاول للاخر والمقدّم للتـــال . فضلاً منه ومنّةً لا ينقطع مردّهما ولا ينقضي امرهما . تبارك اسم ربك ذي الجلال . والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث بالحنفية السمحا والعربية الفصحى . المبين بها الحرام

والحلال . وعلى آله وصحبه ائمة الاقتداء . وانجم الاهتداء . في حنادس الضلال صلاةً وسلاماً تامين لا يعتريها القلب ولا الابدال .

اما بعدُ ، فان علم اللغة العربية مسلكه غامض . ومنبعه غائض . كم اسهر الفحول اقتباس فوائده . واقتناص شوارده . وايضاح موارده . وتقييد نادّه . وافترقت اغراضهم في ذلك ايدي سبا . ودونوا ما سار في المعمور مسير الصبا . وشغل اكثرهم فيما رأينا الجمع والحصر . والقصر عن ايضاح السرّ . وتمييز الحلو عن المرّ . واللباب عن القشر . الى ان قيّض الله لهاته الخبية المدّخرة . والمكرمة المبتكرة . همّة فارس الاقران . وحامل لواء البلاغة والبراعة في هذا القران . المبرّز في حلبتها يوم السباق . ناصر العربية السيد احمد فارس الشدياق . فنمّت باسرار ليلٍ كان يخفيهــا . وأوضحت سبلاً يتلوّن الخرّيت تلوّن الحرباء فيها . وبيّن من مكنون اسرارها . ووفق بين عونها وابكارها . وما وهم فيه بعض احبارها . ونقلَة اخبارها . بهذا التأليف الخطير المعنون بسرّ الليال . في القلب والابدال . ومـا هو إلا السحر الحلال . وسمط اللال . وزبدة الحقب والاحوال . وغاية ما يُملى ويقال . وخبيّة في زوايا العصور . وكرامة مدّخرة كالتي اشار اليها الوليّ ابن خلدون عند ذكر فقه اللغة لابي منصور . فاي يراع ينبري لتقريظه ولا يقصر ويصغر ويتضاءل . واين السهى والثريا من يد المتناول . وبماذا احلّي به لسان هذا الزمان . وقصاراي ان اقول قسّ وسحبان . ولا فضل لهما في غير هذا اللسان . وهو اعزّه الله من لو شاهده عالم فاراب لالقى العنان . بل لو سار في ملاعب شعب بوان لما احتاج الى ترجمان . وهذه جوائب الصحف والرسائل والاوراق . تجول الآفاق كخيل السباق وتتردد ما بين المشرق والمغرب ومصر والشام والروم والعراق . حاملةً من ذوائع فضله ما طاب وراق . ووقع عليه الاجماع والاتفاق . لكن لما شرّفني جنابه باهداء جزءٍ من التأليف المذكور . وظنّ اني ممن اقتبس جذوة من جانب الطور . حملني على اهداء هاته الاسطر الزائفة الى يد النقاد . معتمداً في الاغضاء على سالف العهد وسابق الوداد . وراجياً ان يحصل لي بمن نقيبته لهم انتساب . وان اذكر معهم ولو في صحيفة او كتاب . وان لم اكن

من اهل هذا الفنّ ولا هذا الباب . داعياً مبدع الكل وربّ الارباب . ان يمتّع ببقائه ولقائه ذوي الالباب . ويأتمّ بهديه افاضل العلماء والكتّاب .

في غرّة جمادى الثانية من عام ١٢٨٦

ومما قاله الاستاذ العلّامة الشيخ سالم بو حاجب ، وهو ايضاً من افاضل تونس

أمّا بعدُ ، فمن الغني عن البيان . ان نعمة البيان من اجلّ ما تشرّف به نوع الانسان . كما يقتضيه تخصيصها بالقران . لنعمة الايجاد في نظم القرآن . فكل من توفّر حظه من هاته النعمة . اتسعت لديه دوائر الحكمة . واستحق التقـدم على غيرهِ ولو كان لهم في الفضل اوفر قسمة . ولذلك امر الله ذوي المقام الاسمى . بالسجود لمن علمه الاسما . وكل ذلك مما يشهد بشرف علم اللغه . وبلوغ المجتهد فيه من الكمال مبلغه . وحيث كان حفظ اصول الشريعة الاسلامية . ومحاسن الاخلاق والآداب الاقدمية . لا يتمّ الا بحفظ اللغة العربية . وصونها عما يقع في غيرها من التبديلات الاصطلاحية . فلا جرم ان يكون التأليف في تحرير اصول هاته اللغة الشريفة . والبحث عما في طي اوضاعها من الاسرار اللطيفة . من اهمّ ما تصرف اليه اعنّة الاعتناء . ويجتنى حوجم فرائده من خلال شوك المشقّة والعناء . وقد اعتنى بذلك في كل عصرٍ عصابه هم كما قيل اهل الاصابه . غير ان منهم من كان مطمح نظرهِ جمع الالفاظ المتداولة الفصاح . واثبات غالب معانيها بالشواهد كصاحب الصحاح . ومنهم من تعلّقت همّته بذكر موارد استعمالها للتمرّن والاستئناس . وتمييز الحقيقة منها عن المجاز كصاحب الاساس . ومنهم من اضحى لقواعدها يحرّر . ونحا فيهـا منحى الاصولي كصاحب المزهر . ومنهم من كان همّه الاحاطة والاستيعاب . وايراد كل ما نُقل استعماله عن الحواضر والاعراب . دون تمييز بين وحشيّ ومأنوس . ولا بين حقيقةٍ ومجاز كصاحب القاموس . رحم

الله جميعهم . وجازى بالجميل صنيعهم . وقد بقي مما يعتني به في هذا الفن . وان لم يقدره الاوائل حق قدره فيما يُظن . معرفة ما يعتري مواد الالفاظ من القلب والابدال . وما ينشأ عنهما من تطورات معانيها المنسوجة على وحيد منوال . بتصرف يكون اوسع من تصرف الصرفي . وبمقاصد الاشتقاق الاكبر وفي . وقد وصل الينا في هاته الايام . جزءٌ من تأليف جليل في هذا المرام . يسمّى « سر الليال . في القلب والابدال » أتحفنا به مؤلفه فارس ميدان البيان . ومبتز راية الدراية من يدي قس وسحبان . النحرير اللوذعي . والجهبذ الالمعي . من لم يزل يوزّع اوقاته بين امـــلاء صحف الاعلام . المملوءة بنصائح الاسلام . وانشاء جفان حكمة عظـــام . تجري بعيالم العلوم كالاعلام

صدقتْ فراسةُ من دعاهُ بفارسٍ   لقباً ينمّ بما لدى الشدياقِ
من طول باعٍ في مجال براعةٍ   قد نال منها اليوم خصل سباق
وفصـــاحةٍ عربيةٍ وجزالةٍ   ادبيّةٍ وجميل ذكرٍ باق
ومريـــد علمٍ باللسانين اللذين   همـــا ملاكُ مهـــذّب الاخلاق
فله قد انكشف المخبّا عن ذوي العرفان   كشف الساق فوق الساق
ولطالما سرّ الليـــالي للورى   تبديه منـــه جوانب الآفاق
ويراعه ان يجرِ في رقّ ترى   حرّ الرقائق منه في استرقاق
او جال جولٌ منه في مستوعرٍ   فوراً يكرّ بفتح ذي استغلاق
او غاص في قاموس آدابٍ اتى   بصحاح جوهرها على استنساق
فانظر لذا التأليف كم تلقى على   اوراقـــه من رائق الاذواق
ناهيك من تعليق نفعٍ لاح في   جيد البيان من انفَس الأعلاق
كم جال في خَلَد الليالي سرّهُ   فكتمته عن غير ذي استحقاق
فبما نشا من ذلك السرّ النهى   نشوى وللاتمـــام بالاشواق

فشكر الله لك ايها النحرير . ما طرّزت لنا بمنصحة النصيحة من حلى التحقيق والتحرير . وأعانك على اكماله . وأرانا من خـدر فكرك تدرّج امثاله . فلقد غسلت به قوارير الالفاظ حتى شفّت عن معانيها . وشفيت

من آلام الاوهام افهـــام مغانيها . ووسّعت به مسالك الاشتقاق توسعةً مقبولة . واقمتَ عــلى ما استنبطته في ذلــك ادلة معقولة . ووصلت ارحام كثير من الكلمات العربية . كانت لولا تأليفك من التوحيد المادي متعاصيةً أبيّة . وأوريت حيث صَلد زند المجـــد . وقد يكبو الجواد بسماء المجـــد . وكنتَ مصداقاً لما تمثّل به من قول صاحب الكامل . ليس بقدم العهد يفضل القائل . ومستحقاً في عصرك لايثار القوس . ببيتي الطائي حبيب ابن اوس . فوالذي لا يضيع أجر من احسن عملاً . لقد حوى هذا المصنّف الغريب من صنوف الحسن جملاً . حيث سهّل بجمع اشتات الالفاظ . طرق استحضار فروع موادها العسيرة الضبط على الحفاظ . وألحق انسابها المتقاطعة . وقرّب مراداتها من مواردها الشاسعة . وحذّر عن مواقع الزلل . الناشىء عما طغا على القاموس من نفايات الخلل . وان كانت بالنسبة الى ما له من الفضل المبين . لا ينبغي ان تُنظم إلا في سلك سيئات المقرّبين . على ما في بعضها للعبد الحقير من توقف . سيعرض ان سنحت فرصةٌ لتحريره على جناب المؤلف . وبودّي ان يتمزّى علينا ثانياً جنابه المحروس . بنسخة من تأليفه الآخر المسمى بالجاسوس . لعلنا نهتدي به الى ما يحيل الاوهام ويزيل الاعجام فنسميه ح بالحاسوس . وبالجملة فممنونية اللغة العربية لبراعتكم ويراعتكم واضحة البرهان . وقد اغنى فيها العيان عن البيان . في ٥ شوال سنة ١٢٨٦

وهذا ما كتبه الفاضل النحرير الكامل السيد شهاب الموصلي الشاعر المشهور

وبعدُ فان هذا المحب الاكبر . والخادم الاصغر . في هذا العام . لا بل في هذه الايام . قَدِمَ بغداد . دار السعد والسداد ، مستمداً لاصلاح حاله . ونجاح اصله في مآله . رأياً من آراء اهـل شوراها . وصار نزيل مترجم زوراهـا . الفاضل السريّ . والمتصرف العبقريّ . مولاه علي رضا

افندي العمري . فكان مـــا أطلعه عليه . واتحفه به مما لديه . الكتاب الموسوم بسرّ الليال . في القلب والابدال . فقرأ منه ما تيسّر جهراً . فوجده كما سماه ذلك العين سرّاً . ثمّ لم يزل يتصفّحه مرّة بعد اخرى . فحدّثته نفسه بتقريظٍ على ذلك المؤلّف . الذي لم يُنسج على منواله ولم يؤلّف . مع علمه بانه قد سبقه الى تقريظه فضلاء مصر والعراق . فأحبّ ان يلحق بهم وان كان لم يدرك لهم لحاق . وها هو مقرّظاً عليه يقول . وقد عرا فكره من قراع الزمان فلول . راجياً من فارس هـذا الميدان ان يقيل عثرته ويقبل منه ما يقول . فقبوله نعم المأمول وغاية السؤل .

ان هـــذا الكتاب سرّ الليال قدّس الله سرّه ان يراما
في صدور الزمان كان مصوناً ثمّ ضاق الزمان عنه اكتتاما
فـــاذاعته فكرة تتلظّى هي كالنار اضرمت اضراما
ان تشا تجعل الظلام ضياءً او تشا تجعل الضياء ظلامـــا
أعجز الفاضلين من كل قومٍ أعجب المسلمين والاسلامـــا
كلّ مَن يدّعي التقدّم فضلاً فليكن مثل فارسٍ مقدامـــا
انمـــا فضله على من سواه كان كالعفو يفضل الانتقامـــا
واناس لم يقبلوا منه نصحاً فقريب ان يعبدوا الاصناما
هو اهدى قلباً ولبّا وأدهى لدهاه القى الزمان الزمـــاما
وهو مِمـــا حوى فضائل شتى قـــد ظنناه نالهـــا الهامـــا
ليت ذاك المليح من كل وجهٍ زار في الطيف صبه إلمامـــا
يتمنى لقاهُ من كل مصرٍ كل طرف للامع البرق شامـــا
ليرى البحر منه فضلاً وعلماً ويرى الغيث جوده والغمامـــا
عَلَمٌ ليتني حضرتُ لديهِ لاراني انادمُ الأعلامـــا
تلك والله من اجلّ الاماني لا اراهـــا تصحّ إلا منامـــا
راح يستغرق السنين علومـــاً كل حبرٍ في بحره اليوم عاما
روّح الروح مدحهُ وثناهُ مثلما روّح الامـــان الاناما
يا نسيم الصبا سألتك بالله تعـــالى بلّغه عني السلاما

قلْ له في العراق مخلصُ ودّ ... لك قد ذاب في هواك هياما
طيّب النفس اولاً واخيراً ... مدحه طاب مبدأ وختامـــا

وقال الاديب الفاضل النحرير عبد الجليل افندي براده من اهل المدينة المنوّرة

ايها الفارسُ المجلّي العالي ... فزت بالخصل من كريم الخصالِ
بليالٍ أدمتَ فكرك فيها ... اسفرت عن بدائـــع الاشكالِ
بليالٍ ألّفتَ فيها كتاباً ... عربيّ الالفاظ سهل المنال
لو رآهُ القاموسُ قام سوياً ... وحبـــاهُ بدرّهِ واللالي
او لو ان الصحاح يوماً رآه ... قال ذا الجوهر النفيس الغالي
هو في الفضل للاساس اساسٌ ... محكم الوضع فائق الامثال
فلئن جئت بالبدائع فيه ... ليس بدعاً فذاك سرّ الليال

وقال الاديب الفقيه اللغوي الشيخ محمد محمود الشنجيطي من مجاوري المدينة المنوّرة

ألا قلْ للمفاخر والمعالي ... وارباب المفاخر والمعالي
ومن امسى سمير العلم دهراً ... عليهِ عاكفاً طول الليالي
هلمّوا ظافرين بمـــا ابتغيتم ... من الآمال في سرّ الليال
كتابٌ في اللغات غدا كفيلا ... باشتات الجواهر واللالي
تجلّى في الغياهب بدر تمّ ... وأحرز في المدى قصب النضال
اقول لدى المواسم والنوادي ... على رغم الحسود ولا أبالي
تقاصرت الافاضل عن مداهُ ... ورقّاه الاله ذرى الكمال

وقال الاستاذ العلّامة النحرير الشيخ يوسف الاسير

يا فارس الفضل في ميدان حلبتهِ ومحرز السبق الخافي عن الأول
قد خضت بحر لغات العرب منتخلاً مرجانهُ مع جمانٍ غير منتحل
وصنتَ في صدف الاوراق جملتها وزنتَ تفصيلها في اجمل الجمل
وباسم سرّ الليالي منك قد وسمت تلك اللالي التي كالزهر للمسبل
فهو السلاف الذي ذا العصر مفتخرٌ على العصور به الخالي من الخلل
وهو اللباب أولو الالباب تعرفهُ وتغرف الفضل منهُ وهو لم يزل
وكم عبابٍ حوى في طيّه وثوى به عجابٌ اليه الغير لم يصل
فيهِ غنىً عن سواهُ اذ نطالعهُ وليس فيما سواهُ عنهُ من بدل
وفيه بان لنا سرّ اللغا وبدا لغوُ السوى وأزيل الشك عن عضل
ويشرح الصدر شرحُ القلب فيه وكم يهدي بابدالهِ للقلب من جذل
وكلّ فرع بفرقٍ ضمّ فيه الى مبدا اشتقاقٍ وعنهُ الكتْبُ في عطَل
وانه الشهدُ يزهو في شواهده وانهُ كزلالٍ عادم الزلل
يا احمد الفضل والافضال زدتَ علاً ودام يزجي اليك الشكر من قِبلي
ولا تزال بشكر الخلق مغتبطاً ولا برحتَ جميل الخلق والعمل
ودام نفعك في ذا الكون منتشراً حتى تدوم كبدرٍ فيه مكتمل

وهذا تقريظ آخر على سرّ الليال لحضرة الحبر الفاضل العالم العاقل
الخوري فرنسيس الشمالي (المطران جرمانس) اللبناني دام فضله للقاصي والداني

أتى سرّ الليالي باللالي وغيري قال بالسحر الحلالِ
كلا الوجهين مأنوسٌ ولكن بسرّ الليل وجهٌ للهلالِ
يسير بنورهِ الوضّاح سارٍ فيأمن بالمقال من الضلال
برؤيةِ بعضهِ قلنا هلالٌ ونرجو ان نراهُ على الكمال

كتابٌ قرَّ معنىً رقَّ لفظاً به يغني اللبيب عن السؤال
وان صال الجدالُ على اصولٍ فان قضاءَهُ حسم الجدال
حوى قلباً تملّك كل قلبٍ وابدالاً به سعة المجال
فاحسن ما له يؤتى مثالاً اذا قلنا تنزَّه عن مثال
يعود الفضل للمنشي المفدَّى فان العَود احمد للموالي
لأول فارسٍ ابدى سباقاً بمضمار المعارف للمعالي
ومن في اصغريه لكل علمٍ خزائن ليس تفرغ بالتوالي

هذا ما نُشر في الجوائب من تقريظ العلماء والوزراء والادباء والفضلاء في مصر والعراق والحجاز والشام والغرب على سرّ الليال الذي عابه ابراهيم اليازجي وهجنه ، وما ذلك الا لان اسلوبه البديع لم يخطر ببال ابيه. فلله درّ مولانا الشيخ عبد الهادي الذي أُلهم ان يقول فيما حرّره : « فسلم له من أسلم وبهت الذي كفر » . وقد بلغني ان تقاريظ أخرى صيغت لهذا الكتاب ولم تنشر بعد .

في خصائص الالفاظ

أما قول المعترض : « ان صاحب الجوائب ذكر اولاً ، ان من خصائص حرف الدال اللين والنعومة والغضاضة نحو البرخداة والخبنداة والرأدة والرخودة والرهادة والخود والعبرد والفرهد والاملود والفلهود والقرهد والقشدة والمأد والمرد والمغد والملد ، وفي سرّ الليال عوّل في تناسب معاني الالفاظ على الحرف الاخير دون اعتبار ما قبله فكل طائفة منها خُتمت بحرفٍ من حروف المعجم كانت مختصةً وهاتان العبارتان متضادتان » .
فالجواب عنه من اوجهٍ .

احدها : ان صاحب الجوائب كان ذكر في كتابه « الفارياق » الذي طُبع في باريس سنة ١٢٧٠ ان من خصائص حرف الحاء السعة والانبساط نحو الابتحاح والبداح والبراح والابطح والابلنداح والجح والرحرح والمرتدح والروح (بفتح الراء) والتركح والتسطيح والمسفوح ، والمسمح في قولهم : ان فيه لمسمحاً اي متسعاً ، والساحة والشدحة والشرح والصفحة والصلدح والاصلنطاح والمصلفح والطح والمفرطح والفشح والفطح والفلطحة . الى آخر الباب . قال : ويلحق به الفاظٌ كثيرة خفيّة الاتصال لا تُدرك إلا بامعان النظر نحو الاسجاح والتسربح والسماحة والسح .

ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر نحو أرمَ وازم وثرم وثلم وجـذم وجرم وجزم وجلم وحذم وحذلم وحسم وحطم وحلقم وخذم وخرم وخزم وخضم . الى آخر الباب . ويلحق به من الامور المعنوية: حمّ الامر ، اي قضى وحرم وحتم وحزم . فان معنى القطع ملحوظٌ فيها . ويكثر في هذا الحرف ايضاً معنى الظلام والسواد .

ومن خصائص حرف الهاء الحمق والغفلة والرثء اي قلّة الفطنة نحو ألهَ وأمه وبله والبوهة وتفه والتوه والدله والسبه ، وشدَهَ وعتَهَ وعله وعمه وتمَه ووره ، وقس على ذلك سائر الحروف . فهذه الطريقة لا تنافي طريقة سرّ الليال لاتفاق المضاعف وما زيد عليه في معنًى واحـــد إلا ما ندر فيرجع حينئذٍ الى القلب والابدال اللذين هما موضوع الكتاب .

واقول ثانياً : هب يا بغيض ان ما قاله صاحب الجوائب في الفارياق مغاير لما قاله في سرّ الليال مغايرة تامّة ، افينكر لمؤلف ان يقول قولاً في مسئلة ثم يعدل عنه ولاسيا اذا تقادم العهد ؟ ألم يرد في الاشموني غير مرةٍ ان الناظم خالف كلامه في النظم ، كلامه في التسهيل وغيره ؟ فمن ذلك ما قاله عند ذكر لكن ، ونصّ عبارته « ووافق الناظم هنا الاكثرين ووافق في التسهيل يونس فقال فيه وليس منها لكن وفاقاً ليونس وقال في يميز نعم : ظاهر عبارته هنا يشير الى ترجيح القول الذي بدأ به وهو ان ما تمييز . وكذا عبارته في الكافية . وذهب في التسهيل الى انها معرفة تامة

وقال بعده بقليل عبارته هنا . وفي الكافية توهم انه لا يجوز تقديم المخصوص، وان المتقدم ليس هو المخصوص بل مشعرٌ به . وهو خلاف ما صرّح به في التسهيل . وقال ايضاً في باب الجمع : «تردد كلام المصنّف في ان فعولاً مقيس في فعل او محفوظ » فمشى في التسهيل على الاول وفي شرح الكافية على الثاني . وقال بهاء الدين العاملي في الكشكول صفحة ١٠٠ : قال الفاضل البيضاويّ عند قوله تعالى في سورة هود ، ليبلوكم ايّكم احسن عملاً . ان الفعل معلّق عن العمل . وقال في سورة الملك نقيض ذلك . وصرّح في سورة هود بان التوراة كانت قبل اغراق فرعون . وقال في سورة المؤمنين نقيض ذلك . وقال عند قوله تعالى في سورة مريم ، وكان رسولاً نبياً ، ان الرسول لا يلزم ان يكون صاحب شريعة . وقال في سورة الحج نقيض ذلك . وصرّح في سورة النمل بان سليمان ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، توجه الى الحج بعد اتمام المقدس . وقال في سورة سبا نقيض ذلك . ومثله ما حُكيَ عن الإمام الرازيّ كما في صفحة ٣٤١ ، وامثال ذلك لا تعدّ ولا تحصى . فانظر الى تعنّت هذا اللئيم كيف تعقّب صاحب الجوائب بقولٍ قالهُ منذ خمس عشرة سنة وهو ليس من الاحكام المنقولة بل مجرّد رأي ، فما ذلك إلا بطرٌ وطغيان .

في المناسبة بين الالفاظ ومدلولها

واقول ثالثاً : ان الذي لحظه صاحب الجوائب في الفارياق موافقٌ لما ذهب اليه بعض علماء اللغة من قبل . فقد نُقل عن عباد بن سليمان الصميري وكان من المعتزلة ، انه ذهب الى ان بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على الوضع . قال : وإلا لكان تخصيص الاسم المعيّن بالمعنى المعيّن ترجيحاً من غير مرجح . وكان بعض من يرى رأيه يقول انه يعرف مناسبة الالفاظ لمعانيها . فسُئل ما مسمّى اذغاغ ، وهو بالفارسية الحجر . فقال : اجد فيه يبساً شديداً وأراه الحجر . وانكر الجمهور هذه المقالة وقالوا:

لو ثبت ما قاله لاهتدى كل انسانٍ الى كل لغةٍ ، ولما صح وضع اللفظ للضدين كالقرء للحيض والطهر ، والجون للابيض والأسود . واجابوا عن دليله بان التخصيص بارادة الواضع المختار ، خصوصاً اذا قلنا ان الواضع هو الله تعالى فان ذلك كتخصيصه وجود العالم بوقتٍ دون وقت . واما اهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الالفاظ والمعاني ، لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد ، ان عباداً يراها ذاتيةً موجبة بخلافهم وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الاصلح في افعال الله تعالى وجوباً . واهل السنّة لا يقولون بذلك مع قولهم انه تعالى يفعل الاصلح ، لكن فضلاً منه ومنّاً لا وجوباً ولو شاء لم يفعله .

وقد عقد بن جني في الخصائص باباً لمناسبة الالفاظ للمعاني وقال : هذا موضع شريف نبّه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول . قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ، فقالوا صرّ ، وفي صوت البازي تقطيعاً فقالوا صرصر . وقال سيبويه في المصادر التي جاءَت على الفعلان انها تأتي للاضطراب والحركة نحو الغليان والغثيان ، فقابلوا بتوالي حركات الامثال توالي حركات الافعال . قال ابن جني : وقد وجدتُ اشياء كثيرة من هذا النمط ، من ذلك المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير والزعزعة نحو القلقلة والصلصلة والقعقعة والقرقرة ، والفعلى تأتي للسرعة نحو الجمزى والزلقى . ومن ذلك باب استفعل جعلوه للطلب لما فيه من تقدم حروفٍ زائدة على الاصول كما يتقدم الطلب الفعل ، وجعلوا الافعال الواقعة عن غير طلبٍ انما تفجأ حروفها الاصول او مـــا ضارع الاصول نحو خرج واكرم . وكذلك جعلوا تكرير العين نحو فرح وبشر ، فجعلوا قوّة اللفظ لقوّة المعنى وخصّوا بذلك العين لانها اقوى من الفاء واللام اذ هي واسطةٌ لها ومكفوفةٌ بها فصارا كأنهما سياج لها ومبذولان للعوارض دونها ، ولذلك تجد الاعلال بالحذف فيهما دونها . ومن ذلك قولهم : الخضم لأكل الرطب ، والقضم لأكل اليابس . فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس والنضح للماء ونحوه ، والنضخ اقوى منه . فجعلوا الحاء لرقتها للماء الخفيف والخاء لغلظها لما هو اقوى . ومن ذلك قولهم :

القد طولاً والقطّ عرضاً ، لان الطاء أحصر للصوت واسرع قطعاً له من الدال المستطيلة فجعلوها لقطع العرض لقربه وسرعته ، والدال المستطيلة لما طال من الامر وهو قطعه طولاً . قال : وهذا الباب واسعٌ جدًّا لا يمكن استقصاؤه ، قلتُ (اي الامام السيوطي) ومن ذلك ما في الجمهرة : الخنّ في الكلام اشد من الغنّ ؛ والخنّة اشدّ من الغنّة ، والانيت اشدّ من الانين ، والرنين اشدّ من الحنين .

وفي الابدال لابن السكيت يقال : القبصة اصغر من القبضة . قال في الجمهرة : القبص الاخذ باطراف الانامل ، والقبض الاخذ بالكف كلها . وفي الغريب المصنّف عن أبي عمرو : وهذا صوغ هذا ، اذا كان على قدرِه . وهذا سوغ هذا اذا وُلد بعد ذاك على اثره . ويقال نقب على قومه ينقب نقابةً من النقيب وهو العريف . ونكب عليهم ينكب نكابة وهو المنكب وهو عون العريف . وقال الكسائي : القضم للفرس والخضم للانسان . وقال غيرهُ : القضم بأطراف الاسنان ، والخضم بأقصى الاضراس . وقال الاصمعي : من اصوات الخيل الشخير والنخير والكرير . فالاول من الفم والثاني من المنخرين والثالث من الصدر . وقال ايضاً : الهتل من المطر اصغر من الهطل . وفي الجمهرة : العطعطة باهمال العين تتابع الاصوات في الحرب وغيرها . والغطغطة بالاعجام صوت غليان القِدر وما اشبه . والجمجمة بالجيم ان يخفي الرجل في صدره شيئاً ولا يبديه . والحمحمة بالحاء ان يردد الفرس صوته ولا يصهل . والدحداح بالدال الرجل القصير . والرحراح بالراء الاناء القصير الواسع . والجفجفة بالجيم هزيز الموكب وحفيفه في السير . والحفحفة بالحاء ، حفيف جناحي الطائر . ورجلٌ دحدح بفتح الدالين واهمال الحاء ، قصير . ورجلٌ دخدخ بضم الدالين واعجام الخائين ، قصيرٌ ضخم . والجرجرة بالجيم ، صوت جرع الماء في جوف الشارب . والخرخرة بالخاء ، صوت تردد النفس في الصدر وصوت جري الماء في مضيق . والدردرة صوت الماء في بطون الأودية وغيرها اذا تدافع وسمعت له صوتاً . والغرغرة صوت ترديد الماء في الحلق من غير مجّ ولا اساغة . والقرقرة صوت الشراب في الحلق . والهرهرة صوت ترديد الأسد زئيره ، الى ان قال : فانظر الى بديع مناسبة

الالفاظ لمعانيها فجعلت الحرف الاضعف فيهـــا والألين والأخفى والاسهل والاهمس لما هو ادنى وأقل وأخف عملا او صوتاً ، وجعلت الحرف الاقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملا واعظم حساً . ومن ذلك المدّ والمطّ ، فان فعل المط اقوى لانه مدّ وزيادة جذب فناسب الطاء التي هي أعلى من الدال . (انتهى من المزهر باختصار)

فانت ترى ان العرب قد لحظت مناسبة الالفاظ للمعاني وائمة اللغة جعلت هـــذا النوع من خصائص اللغة ومحاسنها ومزاياها . فمن ثم كان قول المعترض ، ان الحكم بالاضطراد لا يكون إلا من باب العبث ، محض مكابرة وهذيان أنطقه به نافض الحسد وناغض الكمد . فالآن حصحص الحق وتبيّن لكل من تحرّى الصدق ، وأحق اي الفريقين تبع العلماء واستقرى اقوال الائمة العظماء . لعمري ! ما يتفوّه بانكار الاطراد الا من نشأ على المكابرة والعناد وتعمّد المماحكة والجدال وقمس في الضلال وسقط في حمأة الموبئات واحتبطى بالترّهات وان هو إلا من القائلين بالصدفة والاتفاق الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق .

في الاشتقاق الكبير

وقال صاحب المثل السائر : وأما الاشتقاق الكبير فهو ان تأخذ اصلا من الاصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنًى واحداً يجمع تلك التراكيب وما تصرّف منها ، وان تباعد شيءٌ من ذلك عنهـــا رُدّ بلطف الصنعة والتأويل اليها . ولنضرب لذلك مثالاً فنقول : ان لفظة ق م ر من الثلاثي لها ستّ تراكيب وهي : ق ر م ، ق م ر ، ر ق م ، ر م ق ، م ق ر ، م ر ق . فهذه التراكيب الستّ يجمعها معنًى واحد وهو القوّة والشدّة . فالقَرَم شدّة شهوة اللحم . وقمر الرجـل اذا غلب من يقامره . والرقم الداهية وهي الشدة التي تلحق الانسان من دهره . وعيشٌ مرمق اي ضيّق ، وذلك نوعٌ من الشدة ايضاً . والمقر ، شبه الصبر . يقال أمقر الشيء اذا امرّ ،

وفي ذلك شدّة على الذائق وكراهة . ومرق السهم اذا نفذ من الرمية وذلك لشدّة مضائه وقوّته .

واعلم انه اذا سقط من تراكيب الكلمة شيءٌ ، فجائزٌ ذلك في الاشتقاق لان الاشتقاق ليس من شرطه كمال تركيب الكلمة ، بل من شرطه ان الكلمة كيف تقلّبت بها حروفها من تقديم حروفها وتأخيرها أدّت الى معنًى واحدٍ يجمعها . فمثال ما سقط من تركيب الثلاثي ، لفظة وسق . فان لها خمسة تراكيب وهي : و س ق ، و ق س ، س و ق ، ق س و ، ق و س . وسقط من جملة التراكيب قسمٌ واحد وهو : س ق و . وجميع الخمسة المذكورة تدلّ على الشدّة والقوّة ايضاً . فالوسق من قولهم : استوسق الامر اي اجتمع وقوي . والوقس ابتداء الجرب (لعله الجرَب) وفي ذلك شدّة على من يصيبه وبلاء . والسوق متابعة السير ، وفي هذا عناءٌ وشدّة على السائق والمسوق ، والقسوة شدة القلب وغلظه . والقوس معروفة وفيها نوعٌ من الشدة والقوة لنزعها السهم واخراجه الى ذلك المرمى المتباعد . اه

وقال حمزة بن الحسن الاصبهاني في كتاب « الموازنة » : كان الزّجاج يزعم ان كلّ لفظتين اتفقتا ببعض الحروف وان نقص حروف احداهما عن الأخرى ، فان احداهما مشتقة من الأخرى ، فنقول الرحل مشتقّ من الرحيل ، والثور انما سُمي ثوراً لانه يثير الارض . والثوب انما سمي ثوباً لانه ثاب لباساً بعد ان كان غزلاً ، وان القرنان انما سُمي قرناناً لانه مطيق لفجور امرأته كالثور القرنان اي المطيق لحمل قرونه . وفي القرآن : ما كنا له مقرنين ، اي مطيقين . قال وحكى يحيى بن علي بن يحيى المنجّم انه سأله بحضرة عبدالله بن احمد بن حمدون النديم ، من اي شيء اشتقّ الجرجير فقال : من الجرّ ، لان الريح تجرجره . قال : وما معنى تجرجره . قال تجرّرهُ كما ان ثادق اسم فرسٍ اشتق من ثدق المطر اذا سال وانصبّ فهو ثادق .

وقال ابن فارس في فقه اللغة : اجمع اهل اللغة إلا من شذّ منهم ان للغة العرب قياساً ، وان العرب تشتق بعض الكلام من بعض ، وان اسم

الجن من الاجتنان وان الجيم والنون ابداً تدلاّن على الستر ، تقول العرب للدرع جنّة ، وأجنّه الليل ، وهذا جنين اي هو في بطن أمّه ، وان الانس من الظهور . يقولون آنست الشيء ابصرته ، وعلى هذا سائر كلام العرب ، علم ذلك من علم وجهله من جهل . وقد افرد الاشتقاق بالتأليف جماعةٌ من المتقدمين ، منهم الاصمعي وقُطرب وابو الحسن الأخفش وابو نصر الباهلي والمفضّل بن سلمة والمبرّد وابن دريد والزجاج وابن السراج والرّماني والنحّاس وابن خالويه . انتهى من المزهر مع تصرّف . فلو كان ابراهيم اليازجي معاصراً لهؤلاء الائمة ، لقال لهم : لو خطر لكم ما خطر لي الآن لما باشرتم تأليف كتابكم ، او انكم تأولتم للالفاظ تأويلاً سخيفاً ، كما قال في حق مؤلف سرّ الليال ، كبر . ذلك افتراءٌ فالله حسيبه

في تأليف سر الليال

أما اعتراضه على محرّر الجوائب لقوله في ردّه عليه ، انه كان يحرّر سرّ الليال كما كان يحرّر الجوائب ، اعني صفحةً صفحة ، وانه كان نبّه قديماً في احدى الجوائب على فضل سرّ الليال بما يدلّ على ان هذا الكتاب كان مكتوباً من قبل . ومن هنا اطال المعترض لسانه على عادته فقال : « ان صاحبنا اصبح شديد النسيان وقاتل الله الكِبَر » . فاقول له في الجواب : بل قاتل الله المتكبرين المتصلّفين الذين بعد ان عرفوا ضرب زيدٌ عمراً ، صاروا يظنّون انهم احاطوا بجميع الامور خبراً ، فان المتواتر عند جميع اصحاب محرّر الجوائب ، الذين طهّر الله قلوبهم من الحسد والمعايب ، ان سرّ الليال الذي نوّه به في الجوائب كان مختصراً فلم يكن المراد منه سوى اظهار سرّ الاشتقاق ومناسبة بعضها لبعض ، فلما حصل على نفقته من مكارم الوزير الاكبر ، وزير تونس الافخم ، كما اشار اليه في مقدمة الكتاب ، عدل عن الاسلوب الاول واخذ في استيعاب كل ما في القاموس . فان شاء هذا السفيه السيء الظنّ المخاطرة على هذا خاطرناه على

كل كُتب ابيه وابرزنا له اصل سرّ الليال ، وإلا فليستغفر عن طعنه وسبّه، وليعلم ان المجازي العادل يؤاخذه بذنبه

في حبّ وأحبّ

أما اعتراضه على قول محرّر سرّ الليال في ح ب ب فمعنى حبّه اصاب حبّة قلبه ، وهو على حدّ قولهم : شغفه حباً ، اي اصاب شغافه . وهو غلاف القلب او حبّته . الى ان قال وقالوا : خلب نساء للرجل الذي تحبّه النساء وأصله من الخلب وهو الحجاب الذي بين القلب وسواد البطن الخ . فقال المعترض ان هذا التأويل يفسد المعنى . فالجواب عن ذلك انه قد تقدّم ان محرّر سرّ الليال قال : ومعنى أحبّه الرباعي جعله في حبّة قلبه على حدّ قولك أوعى المتاع ، اذا جعله في الوعاء وأحرزه ، اذا جعله في الحرز وأضمر الشيء اذا جعله في ضميره . وأكنّه ، اذا جعله في الكنّ . وأسرّه، اذا جعله في السر . وهو قولٌ جديرٌ بالقبول ، ولازمه انه لا بدّ من الارتباط والمناسبة بين أحبّ الرباعي وحَب الثلاثي ، والجامع بينهما حبّة القلب . وتحرير المعنى ان اصل الحبّ او المحبّة ، من حبّة القلب اعني اصابة حبّ القلوب من ميل النفس الى شيء . وبذلك صرّحت عبارة صاحب تزيين الاسواق. فاذا قلت : عجبت من حب زيدٍ ، كان اصل المعنى من اصابة حبّة قلب زيدٍ . فهو هنا مقصورٌ على زيد ، ومثله قول الشاعر :

اذا كان حبّ الهائمين من الهوى بليلى وسلمى يسلب اللبّ والعقلا

وكذلك اذا قلت : عجبت من حبّ زيدٍ لهند . فان اللام هنا للتعليل ثمّ عدي الى مفعول حملاً على جويه . فانّ اصل الجوى الحزن الباطل وشدّة الوجد . ثم قيل : منه جويه كرضيه ،اي كرهه فتغيّر المعنى عن اصله . هذا ما ظهر لي في تأويل عبارة المصنف . وكيفما كان فلم يكن من اللائق بمن ادّعى انه نشأ على الآداب وتزيّن بحلية الكتّاب ان يتهافت على التخطئة ثم يهيم بعدها في بحر الغرام ويدخل في ابواب العشق والهيام ويبدي

ما فُطر عليه من الخلاعة والالتواء والخراعة ، فكأنه تذكّر عند ذلك ما لقّنه اياه استاذهُ ومؤدبه صاحب « الجنان » فيما ذكرهُ في الهيام برياض الشام من الراقصات الحسان ، وهصر الذوائب ومغازلة الكواعب . فمن ذا الذي لا يتعجب من هذا الاستاذ ومن خرّيجه الذي اخذ عنه فنون الادب فصار يُحسب كاتباً في من كتب ، ومتعقباً لمن شهدت بفضله ائمة العرب . أما قوله انه لم يرَ في آخر الجزء الاول من سرّ الليال تصحيح الغلط ، فالمفهوم من عبارة المصنف ان بيان الغلط يكون في آخر الكتاب لا في آخر جزءٍ منه .

أما انكاره على صاحب الجوائب انه يقيّد في تعاريفه ما هو مطلقٌ كقوله : بكأت الناقة . قل لبنها . اقول : عبارة صاحب الجوائب هي عبارة القاموس بحروفها ، وقد زاد الشارح لفظة الشاة بعد الناقة . وعلى كلٍّ فلا ملام على صاحب الجوائب وانما اللوم على من يتصدّى للتخطئة .

تراهُ معدًّا للخلاف كأنه بردٌ على اهل الصواب موكلُ

في الاب

وكذا يقال في انكاره الاب ، فان عبارة سرّ الليال فيها كعبارة القاموس سواءً وهي أولى من عبارة استاذ المعترض، اعني صاحب قطر المحيط حيث جعل جمع الأبي للأسد بالواو والنون

أما قوله بتع الفرس ، فاقول : ان قول صاحب القاموس البتع بالتحريك طول العنق مع شدّة مغرزها ، وهو كالجنس . ثم ان قوله بتع الفرس هو كالفصل . وانشد الصاغاني لسلامة بن جندل يصف فرساً :

يرقى الرسيع الى هادٍ له بتعٍ في جؤجؤٍ كمداك الطيب مخضوب

على ان تقييد المادة بالفرس لا ينافي غيرهُ فهو من قبيل الاكتفاء كقوله تعالى : سرابيل تقيكم الحر ، اي والبرد . وقوله : « والمسائل التي

خطّأهُ فيها » . اقول : اذا كانت المسائل هي بكأت الناقة ومادة الاب، فقد علمت ما فيها فلا يتفوّه بهذا الكلام إلا من تضلع في المماحكات البستانية .

وأمّا قولهُ : « ويجري هذا المجرى قوله بجدل ، اسرع في المشي ومثلهُ بهدل وبجدل ايضاً ، مالت كتفه وكأنه مسبّبٌ عن المشي وهو من التأويلات الغريبة » . اقول : كان حق المعترض ان يقيم الدليل على قوله هذا ، فان المدّعي يلزمه الدليل وهو لم يقمهُ . فثبت من ذلك فساد ادعائه وبطلانه وثبوت صحة قول محرّر الجوائب . والذي يظهر لي في هذه العبارة هو ان بجدل اصلها موضوعة للمشي ، ثم استعلمت بمعنى مالت كتفه مجازاً مرسلًا علاقتهُ السببية ، اعني لما كان المشي سبباً في ميلان الكتف استعملوه فيه لهذه العلاقة وهو كثيرٌ في كلامهم ولا يستغربهُ إلا من لم يسمع بالمجاز وعلاقاته التي من ضمنها السببية والمسببيّة الى آخره . فكيف يكون من التأويلات الغريبة وهو مبنيٌ على القواعد العلمية .

في البهق

أمّا اعتراضه على قول سرّ الليال : البهق محرّكةً . بياض رقيق ظاهر البشرة ، ومعنى البياض في بهر ، لكنه قبح هنا بالحاق القاف . قال المدّعي: وفيه نظر من اوجه ، احدها انه لم يذكر في تعريف البهق انه يكون قبيحاً . اقول : ما هذا الاعتراض السخيف الذي يشفّ عن لؤم وحنق أظهر من البهق . فان كون البهق قبيحاً امرٌ معلوم هو أشهر من قبح المعترض ، لانه بياضٌ مخالفٌ للون الجسد فهو شبيهٌ بالبرص . فالمؤلف ذكر اصل المعنى الذي تشترك فيه هاتان اللفظتان ، ثمّ بيّن ما تنفرد به احداهما اشارةً الى ان بينهما العموم والخصوص المطلق ، وهو اجتماعهما في مادةٍ وانفراد احداهما في مادةٍ أخرى كالانسان والحيوان فيجتمعان في الانسان وينفرد الحيوان في الحمار وهو الحيوان الناهق ، وفي الكلب وهو الحيوان

النابح . فقول المعترض انه لم يذكر في تعريف البهق انهُ يكون قبيحاً تعنّتٌ منه ، بل هو سفسطة لزمها ولزمتهُ في جميع اعتراضاته . وانما يتأتى هذا الاعتراض لو لم يقل المصنف لكنه قبح هنا بالحاق القاف . وهنا قد قال ذلك فلا يتأتى ، وايضاً فان المؤلف قال لكنه . ولكن حرف استدراك ، والاستدراك هو تعقيب الكلام برفع ما يتوهم ثبوتهُ او نفيه .

مثال الاول : زيدٌ شجاع . فيتوهم انهُ كريم فيُرفع بان يقال : لكنهُ بخيل . والبهق محرّكةً : بياض رقيق ظاهر البشرة ، فيتوهم انه بياضٌ مليح فيقال لكنه قبح بالحاق القاف . والثاني : ما زيدٌ شجاع . فيتوهم ثبوت نفي الكرَم عنه . فيقال لكنه كريم . وهذا لا يخفى على من له ادنى المام بكُتب الادب فما بال ابراهيم يتمطّى للاعتراض ويتلظّى من الامتعاض ! وما ادراك ما ابراهيم وهو الشيخ الذي قلّدهُ المشيخة استاذهُ صاحب الجنان ، لانه حذا حذوهُ في الامتراء والبطلان .

وقوله : « انه جعل الحاق القاف منشأ القبح وهو أظهر من ان يبيّن » اقول : السكوت عن هذا الاعتراض اولى ، وانما نقول :

ومن البليّة عذل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهمُ

أمّا قولهُ : « ومن الغريب عدولهُ هنا الى الالحاق مع ان كتابه مبنيٌّ على القلب والابدال » اقول : وهذا ايضاً سفاهة لا تحتاج الى الجواب . فحسبنا ان نقول :

فقر الجهول الى قلبٍ بلا أدبٍ فقر الحمار الى رأسٍ بلا رَسَنِ

وكذا يقال في قوله : « ومقتضاهُ ان الحمرة نشأت من اللام هنا كما نشأ القبح من القاف » . فان ذلك كله هذيان محموم او تمعّض مسموم .

وقوله : « هذه المناقشة كشفت بيننا سرّاً طالما كان محجوباً بزخرفة المقال » اقول بالايجاب : نعم ان هذه المناقشة قد كشفت عن سفاهة المعترض وتهوّره كما كشفت عن حقيقة استاذه وان كانت معروفةً من الالفاظ

« الجنانيّة » الدالة على جهله وتجاسره على افساد لغتنا العربية الشريفة . ألا فضَح الله كلَّ مَن تعمّد افساد هذه اللغة بالالفاظ الانثويّة والعبارات الركيكة الفرنجية . وكيف لا تكشف هذه المناقشة سرًّا كان محجوباً ، وهي قد بيّنت ان ابراهيم ينكر الفصيح من كلام غيرهِ ويبرّىء نفسه من الغلط الذي وقع فيه كتمحّله لكسر الذمم وتنصّله من فتح المظنّة وغير ذلك كما سيأتي بيانه في محله . لا جَرَم ان من لم يعرف قدره لم يتعدَّ طورهُ ، وان البغي يصرع اهله ، والظلم مرتعه وخيم . فلله درّ الحماسي حيث قال:

فاني أرى في عينك الجذع معرضاً   وتعجب ان أبصرت في عينيَ، القذى

أمّا قوله : « ان محرّر الجوائب قد سطا على علماء اللغة وانه ذهب مذهباً لا يليق بالعلماء » . فجوابه : انه اذا اراد بهؤلاء العلماء أبا المعترض لكون محرّر الجوائب قد انتقد عليه لفظة الفحطل ، فأبوه لا يُحسب في عداد العلماء . كيف ومقاماته وقصائدهُ مشحونة بالغلط الفاضح واللحن الفاحش.

أمّا كتابه الذي ألفهُ في النحو متطاولاً به على ابن مالك فقد جاء كله بهرجاً وحسبك ما قاله صاحب « ارشاد الورى[1]» الذي تصدّى لتخطئته ، وهو من العلماء الاعلام الذين جاوروا في الجامع الازهر واشتهروا بالعلم بين الخاص والعام : « واني أريك بعض ما في شرح نار القرى كهذه الابيات من السقطات التي تدلّ على التمادي في الجهل ، بل هي اكبر دليل على عدم العقل . وقال ايضاً : « والحاصل ان النحو لو كان امرأة لطلّقها المنصف من ناصيف الف طلاق » . وقال ايضاً : « وتزعم الفئة المتعصبة له ان كُتب السلَف معقدة معترضة مشتتة ، وان صاحب نار القرى ومن نحا نحوه قد أحسنوا كلَّ الاحسان وهذّبوا كتب الادب وأخرجوها الى التمدّن من

(١) للشيخ ناصيف اليازجي كتاب في النحو يسمى « نار القرى في جوف الفرا » . قد انتقده الشيخ يوسف الاسير مبيناً ما فيه من الاغلاط ، ونشر نقده هذا تباعاً في جريدة الجوائب ثم جمعه بكتاب على حدة وطبعه في مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٠ ، بعنوان « ارشاد الورى في تخطئة جوف الفرا » ، ويقع في ٩٣ صفحة كبيرة ، وذيّله الشيخ الاسير بنقد واسع لقصيدة الشيخ ناصيف : لا تبكِ ميتاً ولا تفرح بمولودِ ...

التخشّن وكسوها التحسّن . وهم لعمري من الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ، ومن الذين اعمالهم كرمادٍ اشتدّت به الريح في يومٍ عاصفٍ او كسراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً ». اه.

في كون صاحب الجوائب لم يسط على العلماء خلافاً لزعم ابراهيم

وان كان المراد بالعلماء صاحب القاموس وغيره من ائمة اللغة ، فان محرّر الجوائب قال في سرّ الليال صفحة ٢١ : « واعلم ايها القارىء الصافي السريرة الصادق البصيرة اني لم اقصد فيما اوردته من نقد القاموس الازدراء بقدر مؤلفه او تزييف كلامه وبخس زخرفه . معاذ الله تعالى ، اني اشهد الله ، وهو على كل شيءٍ شهيد ، اني لولا بركة القاموس وغوصي على جواهره ، لما تعلّمتُ من اللغة ما اوصلني الى تحرير هذا الكتاب . فأنا مقرّ بما لصاحبه عليّ من الفضل والمنّة ، ولو كان حياً في عصرنا هذا لمَا قام بخدمته غيري . فرحم الله روحه الطاهرة وأرواح جميع من خدموا هذه اللغة الباهرة . الخ » . وأقرّ ايضاً في موضعٍ آخر بانه دون العلماء علماً وفهماً . واعظم شاهد على انه لم يسيء الى أحدٍ من العلماء ، كون علماء مصر والشام والعراق والحجاز والغرب قرّظوا كتابه . فهل يقال ان العلماء لم يفهموا كلامه حتى قرّظوه ؟ لا جَرَم ان من يقول ان مؤلف سرّ الليال سطا على العلماء ، هو الذي سطا عليهم اذ نَسَبهم الى الجهل والتهاون بحقوقهم . او ليس ان هذا المعترض افترى على علماء الشام ، وعلى حنا بك ابي صعب من دون سبب[1] وكذلك ابوه طاول الحريري وابن مالك . وكذلك استاذهُ صاحب «الجنان» افتخر على علماء اللغة وادّعى ان مؤلفه المشحون بالغلط والتحريف يغني عن كتبهم . واقبح من هذا انه خلط كلام العامة بالكلام الفصيح من دون تحرّجٍ . أفلا تخجلون ؟

(١) يظهر من هذا الكلام ان الشيخ ابرهيم اليازجي انتقد مقالاً او قصيدة لبعض علماء الشام ، ولحنا بك ابي صعب ، مما لم نسمع به من قبل

في صحة قول صاحب الجوائب ان الناقة تستبعر

ثم ان هذا المعترض لم يكفه هذا القدر من الاعتراض على سرّ اللبال، بل اخذ ينقر في جميع ما ألفه صاحب الجوائب من منثورٍ ومنظوم، فاعترض على قوله في كتاب الساق على الساق، ان الناقة تستبعر. فقال: «ان البعير يستعمل للذكر والانثى فالتوى عليه الطباق وفسد المعنى». فالجواب: انه لا يلتوي الطباق إلا على من التوت نيّته وفسدت طويّته. قال في المصباح: ووقع في كلام الشافعي، رضي الله عنه، في الوصية. لو قال اعطوه بعيراً لم يكن له ان يعطوه ناقة، فحمل البعير على الجمل، ووجهه ان الوصية مبنيّة على عرف الناس لا على محتملات اللغة. الى آخره. ومما يؤيد ذلك قول صاحب القاموس: وقد يكون للانثى. وقد هنا، حرف تقليل. على انه قد قامت قرينة هنا تُفهم بها ان المراد هنا الجَمَل لا غير، اذ لا يعقل كون الناقة تصير ناقة لان هذا محال. ولا يعترض مثل هذا الاعتراض إلا من التوى فهمه وغاص في السفاهة كلّ مغاص. وهل نسي ما انتحله ونقلَه من كتب بعضهم على المشترك، فانه قال قبل هذا الاعتراض بقليل: «ان الاشتراك عندهم ان يورد المتكلم لفظة تشترك بين معنيين يسبق ذهن السامع الى غير المراد منها فيأتي المتكلم بما يصرفها الى مراده» الى آخر ما نقلَه، وهي تؤيد صحّة قول صاحب الجوائب: الناقة تستبعر. فان الذهن يسبق الى ان المراد بالبعير هنا الجَمَل كما أوردنا عن الامام الشافعي، لان قولهُ الناقة صَرَفه الى مراده، اي الجَمَل. ولقد صدق هذا القول على صاحب الجنان وتلميذه، فان كلّا منهما ناقة استبعرت. وما أجدرهما بان تطرب مسامعهما بقول الشاعر:

لقد عظم البعيرُ بغير لبٍّ ... فلم يستغنِ بالعظمِ البعير
يصرّفه الصبيّ بكل وجهٍ ... ويحبسهُ على الخسف الأجير

في صحة قوله فأجمعا رأيهما

أما اعتراضه على قوله : « فأجمعا رأيهما على ان يستبضعا » . اقول : انها عبارة صحيحة لا ينكرها إلا مَن قصر فهمه والتوى تصوره . قال ابو هشيم : الاجماع جعل الامر جميعاً بعد تفرّقه . قال : وتفرقه انه جعل يديره . فيقول مرّةً : افعل كذا ومرّةً افعل كذا . فلما عزم على امرٍ محكم اجمعه اي جعله جميعاً . قال: وكذلك يقال اجمعت النهب والنهب ابل القوم التي اغار عليها اللصوص فكانت متفرّقةً في مراعيها فجمعوها من كل ناحية حتى اجتمعت لهم ثمّ طردوها وساقوها . فاذا اجتمعت قيل اجمعوها وانشد لأبي ذؤيب يصف حمراً :

فكأنها بالجذع بين نبائعٍ   واولات ذي العرجاء نهب مجمّع

فانت ترى ان الاجماع كما قال ابو هشيم، هو جعل الامر جميعاً بعدتفرّقه . وقال في لسان العرب : جمع الشيء عن تفرقةٍ يجمعه جمعاً وجمّعه (بالتشديد) وأجمعه فاجتمع واجد مع وجمع امره واجمعه وأجمع عليه ، عزم عليه كأنه جمع نفسه له . والامر مجمع ويقال ايضاً : اجمع امرك ولا تدعه منتشراً . قال الفراء : الاجماع الاعداد والعزيمة على الامر واحكام النية . وقيل الجمع ان تجمع شيئاً الى شيءٍ . والاجماع ان تجمع الشيء المتفرّق جميعاً . وأجمعت الابل سقتها جميعاً . وأجمع المطر الارض اذا سال على رغامها وجهادها كله. وأجمع الناقة وبها صرّ اخلافها ، جمع . فاقتصر المعترض على الاجماع بمعنى العزم والتصميم تمويهاً ومكابرةً . وهو لا يليق بمن ادّعى انه نشأ على الادب وطالع كلام العرب . فتبيّن بما قرّرناه ان عبارة صاحب الجوائب في محلها فان معناها هو انهما جعلا امرها جميعاً بعد تفرّقه على ان يستبضعا وهي صحيحة وفصيحة وصريحة . وفي بعض كتب الادب قال ابو طالب : يحكى ان هرّاً كان قد أفنى الجرذان فاجتمعت بقيتهنّ وقلنَ تعالين نحتل بحيلة

لهذا الهرّ ، فأجمعن رأيهنّ على تعليق جلجل في عنقه حتى اذا رأينه سمعن الجلجل فهربن منه فجئن بجلجل وشددنهُ في خيط ثمّ قلن : من يعلقه في عنقه . فقال بعضهنّ هذا اشدّ ما بقي من الرأي .

وبعض الداء ملتمسٌ شفاهُ وداء النوك ليس لهُ شفاء

في قوله الى ان تصيروا كهلا واقامة المفرد مقام الجمع

أمّا اعتراضه على قوله : « الى ان تصيروا كهلاً ، لان كهلاً مفردة وحقها الجمع » . فالجواب عنه من عدة اوجه . الاول : ان كهلاً اذا كانت غير مشكولة فهي جمع كاهل بوزن ركع . قال في المحكم : الكهل : الرجل اذا وَخطهُ الشيب ورأيت له بجالة والجمع كهلون وكهول وكهال وكهلان. قال ابن عباده :

وكيف ترّجيها وقد حال دونها بنو أسدٍ كهلانها وشبابهـــا

وكهل وأراها على توهم كاهل . الثاني : ان محرّر الجوائب لما ألّف كتاب الساق على الساق كان وقتئذٍ في باريس ، وقبل اتمام طبعه سافر الى لندرة فكان ما يطبع من الكتاب يُوسل اليه ليصححهُ فيها بل لم يكن ذلك مطرداً ، فلا غرو اذاً ان يكون قد وقع في الكتاب بعض سهوٍ وتحريف . الثالث : انه من سنن العرب ذكر الواحد والمراد الجمع كقولهم: قررنا بها عيناً اي عيوناً . وفي القرآن الشريف : فان طبن لكم عن شيء منه نفساً . وقال تعالى : وكم من ملكٍ في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً ، وتقديره وكم ملائكة في السماوات . وقال : فانهم عدوّ لي إلا رب العالمين. وقال هؤلاء ضيفي ولم يقل اعدائي ولا أضيافي . وقال ايضاً : لا نفرق بين أحدٍ منهم . والتفريق لا يكون إلا بين اثنين . والتقدير لا نفرق بينهم . وقال : يا ايها النبيّ اذا طلّقتم النساء . وقال : وان كنتم جنباً فاطهروا.

وقال : والملائكة بعد ذلك ظهير كما في فقه اللغة للثعالبي . وقال الشاعر :

فلولا انهم سبقت اليهم　　سوابق نبلنا وهمُ بعيد

وقال آخر :

اذا اخصبتمُ كنتمُ عدوًّا　　وان اجدبتمُ كنتم عيالا

ومثل ذلك الصديق والخصم .

في صحة قوله لا بد وان يكون

أمّا اعتراضه على قول محرّر الجوائب : لا بدّ وان يكون . فان كان ذلك عن جهلٍ زادهُ الله جهلًا ، وان كان عن مكابرةٍ سلّط الله عليه من يكابرهُ ويكاربه ويرابكه . وان كان لعدم وجود الكتب العربية عنده أتحفناه ببعضها ليرى منها طغيانه وعجرفته . قال ابو البقاء في الكلّيات وعن ابن السيرافي انه قال : الواو تجيء بمعنى من . ومنهُ قولهم : لا بدّ وان يكون اه. وعلى ذلك جرت عبارة العلماء قديماً وحديثاً . قال صاحب المثل السائر في صفحة ٢٩٥ : وان كل ما يعدهم به لا بدّ وان يصيبهم . وقال في صفحة ٣٠٠ : لا بدّ وان يقع في زمنٍ من الازمان . ولو اردنا ايراد كل ما قالته العلماء من امثال هذا التركيب لضاق المجال . فما تقول يا ابراهام في هذا ، وما اعتذارك عن التشدّق به ؟ فرحم الله من قال فيك وفي امثالك : من تصدّر قبل اوانه فقد تصدّى لهوانهِ . لا جَرَم ان تخطئتك في هذا هوان لك واي هوان .

تجلّلت عـــاراً لا يزال شبيهُ　　سباب الرجال بنثرهم والقصائد

في حذف النون

أمّا اعتراضه على حذف النون من قوله :

ألم تفقهوا لابن الحسين مقـالةً   تقيكم عنا غمّاء فيهـا تخاطروا

وقوله :

فلم يبق الا من درى سؤ رأيكم   بـه وبدا من امركم ما تحاذروا

ومن قوله ايضاً : أتعنيهمُ أم تعنيهنّ . فالجواب عن الاول : ان القصيدة لما كانت رائيّة تعذّرت النون فيها فهو من قبيل الاكتفاء . وقد استعملته الشعراء المتأخرون كثيراً ، وهو على حد قول الشبلي : هكذا شيمة الملوك بالممالك يرفقوا ، ونحوه قول الحاجري :

قد كنت لما كنت في نعمةٍ   أحبّ طول العمر حباً كثير

ومثله ما يكون في الضرب كقول ابي فراس :

وراء القافلين اذا يعـدّوا   واول من يغير اذا اغاروا

وكقولهِ ايضاً :

فاذكراني وكيف لا تذكراني   كلما استخون الصديقُ الصديقا

قوله : استخون جاء به على الاصل كما تقول العامة الآن وهو مما فات صاحب القاموس . وهنا ملاحظة وهي ان هذه القصيدة الرائيّة قد نظمها المؤلف منذ اكثر من ثلاثين سنة . وذلك يدلّ على ان داءَ هذا المعترض في اعتراضاته قديم ، ولعلّه ورثه عن ابيه . ولعمري ان حذف النون هنا أسوغ من اثبات الياء في قول أبي المعترض :

ايها العائف الكفاف تمنّى　　لو أدام الزمان خبزاً وماءَ

والجواب عن الثاني من الكفراوي وهو شرح الأجرومية يُقرأ في مدرسة الاميركيين بمصر وفي سائر المدارس الوطنية لتعليم الصبيان الذين لم تتجاوز سنّهم عشر سنين ، وذلك عند ذكر الجوازم حيث قال ماملخّصه : العاشر ما يجزم فعلين وهو أنّى نحو قول الشاعر :

فأصبحتَ أنّى تأتها تستجر بها　　تجد حطباً جزلاً وناراً تأججـــا

ثمّ قال في اعراب هذا البيت : تأججا فعل ماض . وغلط من قال اصله تتأججا . ثم حُذفت احدى التائين تخفيفاً ، لان نون الرفع حينئذٍ تكون محذوفةً لغير علة ويكون اصله تتأججان . ان جعل صفة لكل من الحطب والنار . فان جعل صفة للنار كان اصله تتأجج وزيدت الالف للاطلاق ، اللهمّ إلا ان يقال ان حذف النون في الاول شائعٌ مشتهر ولو من غير علة على حدّ قول الشاعر :

أبيت أسري وتبيتي تدلكي　　شعركِ بالعنبر والمسك الذكي

اذ اصله تبيتين وتدلكين . حُذفت النون تخفيفاً اه. ولم نرَ في الحواشي التي عليه ما يخالف قوله . وفي الحديث لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا . الأصل لا تدخلون ولا تؤمنون ، لانه هنا نفي لا نهي. وقالوا : ساحران تظاهرا ، اي يتظاهران . فأدغم التاء في الظاء وحذَف النون . كذا في التصريح وغيرهِ . وقال ابن هشام في المغني في حرف النون: ونحو تأمروني يجوز فيه الفكّ والادغام والنطق بنون واحدة وقد قرىء بهنّ في السبعة وعلى الاخيرة . فقيل : النون الباقية نون الرفع ، وقيل نون الوقاية وهو الصحيح . قال الشارح : لان نون الرفع وان سبقت عهد حذفها في الجملة عند الناصب والجازم فحذفها مألوف بخلاف نون الوقاية . وما عهد حذفه اولى بالحذف من غيرهِ اه. ومما حُذفت فيه النون في فصيح الكلام قول الحماسي :

وحنّت ناقتي طرباً وشوقاً الى من بالحنين تشوقيني

اصله تشوقينني . وقال آخر :

ان يحسدوني فاني غير لائمهم قبلي من الناس اهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات اكثرنا غماً بما يجـــدُ
انا الذي يجدوني في صدورهم لا أرتقي صَدَداً منها ولا أردُ

وقال آخر :

الله يعلم إنا لا نحبّكمُ ولا نلومكمُ ان لا تحبّونا
كلٌّ لهُ نيّة في بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا

وقال محمد بن الرهيب :

اني لأعلمُ اني لا أحبّهمُ كما همُ بيقينٍ لا يحبّوني

وقال ابو نوّاس :

أما ترّقي لصبٍّ يكفيه منك قطيره

وقال ذو الوزارتين ابو بكر بن عمار :

فديتكمُ لو تعلموا السرّ انما قليتكمُ جهدي فأبعدتكم جهدي

وقال ابن معتوق :

انا ابن جلا القريض متى شككتم وطـّـــلاع الثنا أفتعرفوني
فكم قوم لديك ترى محلي فتغبطني وقوم يحسدوني

في لفظة تطالل ونحوها

أمّا اعتراضهُ على لفظة تطالل ، فقد رأيناها في نسخ القاموس الموجودة بأيدينا خطاً وطبعاً هكذا بفك الادغام وذلك في مادة ط و ل حيث قال : وتطاول تطالل . وفي نسخةٍ عليها شرح السيّد المرتضى : وتطاول الرجل مثل تطالل . اذا قام على اصابع رجليه ومدّ قوامه لينظر الى الشيء . قال:

تطاولتُ كي يبدو الحصير فما بدا   لعيني ويا ليت الحصير بدا ليا

ويسوّغه عندي كون تفعل صنو تفاعل فحمل عليه . وقد استساغ صاحب القاموس فك الادغام في غير هذا الموضع وذلك في مادة بغض حيث قال : والتبغّض ضد التحبب والتحابب والتحبّب . وقوله في حبّ وككتاب المحاببة . كذا في النسخ . وجاء في قلائد العقيان صفحة ١٥ : فأحلى حلى الملوك التصامم عن سماع القدح في وليّ والتعاظم عن الوضع لعليّ . وفي المثل السائر : والمسامحة في موضع والمحاققة في موضع . وقال في صفحة ٩٦ : واذا حوققوا عليه ظهر عجزهم وقصورهم . وعن المأمون انه كان يقول : لعن الله الملاححة . كذا في نسخ سيرته . وقال المتنبي :

ولا يبرم الامر الذي هو حاللٌ   ولا يحلّل الامر الذي هو مبرمُ

قال العكبري شارح ديوانه : أظهر التضعيف في حالل ، وهو من باب الضرورات ولو قال مكانه : ناقضٌ . لسلم من الضرورة . وربما فعل الشاعر هذا ليشعر انه يعلم بالضرورات كقول قعنب :

مهلا اعاذل قد جرّبت من خُلُقي   اني أجود لأقوام وان ضننوا

وكقول زهير :

لم يلقها الاّ بسكّة باسلٍ   يخشى الحوادث حازمٌ مستعدُ

وجاء في كلام العجّاج : تعمدا لذي الجلال الاجلل . وقوله : وطول املال وظهر بملّل . وقال غيره : فان يوضح بالحبيث الأقلل . وامثال ذلك كثيرة .

في صحة قوله لا يغررنكم

ومن نحو ذلك اعتراضه على قول محرّر الجوائب : لا يغررنّكم كثير جموعهم . وقوله : لا يغررنّ الغرَّ منهنَّ تقيّ . قال : « فك الادغام في الموضعين وهو واجب لان حركة الراء الثانية فيها لازمة لبناء الفعل عليها مع نون التوكيد » . فأقول : ان هذا القول رمية أعمى ، فان الفعل ههنا ليس مبنياً على الفتح بل هو مجزوم بلا ، وعلامة جزمه السكون والفتح هنا عارض. فقد نقل بعضهم انه معرب وان اتصلت به نون التوكيد . أفاده ابن عقيل . وقال الأشموني : ذهبت طائفة الى اعراب المضارع مطلقاً . وقال الصبّان : لكنه مع النون المباشرة ، اي نون التوكيد مقدّر مُنع من ظهوره حركة التمييز بين المسند للواحد والمسند للجماعة والمسند للواحدة . واما نون الاناث، فقال ابن مالك في شرح التفصيل : ان المتصل بها مبنيّ بلا خلاف . وذهبت طائفة منهم ابن درستويه وابن طلحة والسهيلي الى انه معرب باعراب مقدّر منع من ظهوره سكونٌ عرض فيه من الشبه بالماضي وجعل السكون عارضاً للمضارع باعتبار ما صار كالمتأصّل فيه من الاعراب . فمن هنا يُعلم ان الفعل المضارع معرب مع نون التوكيد المباشرة ، وان الحركة الموجودة ليست حركة بناء بل عارضة . وقال الأشموني : ان من شروط الادغام ان لا يعرض تحريك ثانيها وهو ما عناهُ ابن مالك بقوله : ولا كاخصص ابي ، لان الاصل اخص بالاسكان فنُقلت حركة الهمزة الى الساكن فلم يعتدِ بها لعروضها . وقال السعد على قول العزّي : والادغام جائز اذا دخل الجازم على فعل الواحد ، اي الى جازمٍ كان فيجوز عدم الادغام نظراً الى ان

اشتراط الادغام تحرّك الحرف الثاني وهو ساكن هنا فلا يُدغم . ويقال : لم يمدد . وهو لغة الحجازيين . قال :

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضله على قومهِ يستغن عنهُ ويذمم

فان قوله يذمم مجزوم لكونه عطفاً على يستغن وهو جواب الشرط ، اعني من يكُ . ويجوز الادغام نظراً الى ان السكون عارض لا اعتداد به فيحرّك الثاني ويُدغم فيه الاول فيقال : لم يذمّ بالضمّ او الفتح او الكسر لما سيأتي وهو لغة بني تميم . والاول هو الاقرب الى القياس . وفي التنزيل : ولا تمنن تستكثر . اه. فتلخّص اذاً ان الفعل المضاعف اذا دخل عليه الجازم اي جازم كان ، جاز فيه الفك والادغام فنقول من غر لا يغرّ ولا يغرر . فاذا اتصلت به نون التوكيد صار لا يغررنّ كما قال صاحب الجوائب وعلى الادغام جاء قول الشاعر :

لا يغرنّ امرءاً عيشهُ كل عيشٍ صائرٌ للزوال

وعلى الفك جاء قول زيد الخليل :

اقول لعبدي جرول اذ اسرته اثبني ولا يغررك انك شاعر

وقال آخر من شعراء الحماسة :

ردي ثمّ اشربي نهلاً وعـــلاً ولا يغرركِ اقوال ابن ذيبِ

وقال آخر منهم :

اذا كنت في سعد وأمّك منهمُ غريباً فلا يغررك خالك من سعدِ

وقال آخر :

ولا يغرركمُ مني ابتسامٌ فقولي مضحكٌ والفعل مبكي

وهذا كافٍ ، ومن هنا تعلم ان ما ادّعاه المعترض من ان صاحب الجوائب يجهل قوانين الصرف ، انما هي دعوى عليه لا له . فمـــا أجدره بقول الشاعر :

يصيبُ وما يدري ويخطي وما درى   وكيف يكون النوك إلا كذلكا

وانما اراد ان يظهر لاستاذه صاحب « الجنان » انه قد حفظ كل ما اخذه عنه ووضعه في موضعه . وهيهات ان يرعويا عن غيّهما بما يظهر لهما من عبارة العلماء ، او ان ينظرا بذلك جهلهما كما قال الشاعر :

ان المرايا لا تريك عيوب وجهك في صداها
وكذاك نفسك لا تريك عيوب ذاتك في هواها

في جواب احد الاصلبة

أما اعتراضه على قوله : وانهم وان يكونوا سيئي الادب على الطعام فهم متأدّبون ، اذ يجب هنا اسقاط الفاء . وقوله . وهما وان اظهرا له الخضوع ففي قلوبهما منه حزازات . وقوله : فاني وان كنت بشراً مثلك لكني وكيل . الى ان قال : « فما ادري كيف صحّ عنده هذا التركيب » . فالجواب : ان تلقي ان الوصلية بألا . ولكن قد نصّ عليه ابو البقاء في الكليّات وعليه قول الزمخشري ، لانه وان كان (اي الكيد) في الرجال ايضاً الا ان النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلةً . وقال الشيخ الملوي: فانه وان كان يشترك في معناه افراد باعتبار أبوّته لهم لكن الخ .

وقال ابن عرب شاه في تاريخ تيمورلنك : وان عسكرهُ وان كان كالسيل الهامر إلا انه لا مقاومة لهُ ببحرهِ وتيّارهِ . وفي نسخة : فانه لا مقاومة له . وقال الامام السيوطي في المزهر : وان كان مقام الخليل ينزّه عن ارتكاب مثل ذلك الا انه لا يمنع الوثوق به . وقال ابن هشام : فانه وان كان تابعاً مقصوداً بالحكم لكنه بواسطة حرف العطف وهو اكثر من ان يُحصر ومثل ذلك تلقيها بالفاء . قال الامام علي رضي الله عنه :

واني وان اصبحتُ بالموت موقناً   فلي أملٌ دون اليقين طويلُ

وقال بعضهم : ان الدنيا وان عظم امرها وتناهى فخرها بما يوجد فيها من الاعمال الصالحات فهي آئلة الى الفناء والزوال . وقال آخر : ان البصرة وان كانت داخلة في حدّ العراق فليس لها حكمهُ . وقال آخر : ومعنى قوله صلّى الله عليه وسلم : الدنيا سجن المؤمن . ان المؤمن وان كان في نعمةٍ واسعة فهو بجنب ما انعم الله به عليه في الجنّة ، فقير . وامثال ذلك لا تحصى .

قومٌ اذا خرجوا من سوءةٍ ولجوا   في سوءةٍ لم يجنّبوهـا بأستار

في مجيء اللام زائدة

ثم قال : ومن زياداته المخلة ، اي زيادة مؤلف كتاب الساق على الساق قوله : تنبّه الغافلين ان وراءها لقولاً شديداً . والجواب ان هـذه العبارة صحيحة بدليل ما جاء في المغني وهو قوله : القسم الثاني اللام الزائدة وهي الداخلة في خبر المبتدا في نحو قوله : امّ الحليس لعجوزٍ شهر به . وقيل : الاصل لهي عجوزٌ شهربه . وفي خبر ان المفتوحة كقراءة سعيد بن جُبير. إلا انهم ليأكلون الطعام ، بفتح الهمزة . وفي خبر لكن في قولِهِ : « لكنني من حبّها لعميدُ » وليس دخول اللام مقيساً بعد ان المفتوحة خلافاً للمبرّد ، ولا بعد لكن خلافاً للكوفيين . وقيل اللامان للابتداء على الاصل ، وذلك إن المفتوحة هي فرع المكسورة ولذا لم يذكر ابن مالك في تسهيله ان المفتوحة وهو كصنيع سيبويه حيث قال : هذا باب الحروف الخمسة ، فعاملها المبرّد معاملة ان المكسورة ، وعلى هذا فهي صحيحة . فقوله خطأ ، هو من بعض ما يتهافت به على التخطئة مجازفةً ، اذ ظاهرهُ انـه لا يجوز اقحام اللام على اسم ان ، وانه لو أقحمت على خبرها لصحّ وهو احدى سيئاته الظاهرة التي لا تحتاج الى تنبيه . وقال الاشموني عـلى قول ابن مالك (وتصحب) هذه اللام ، اعني لام الابتداء ايضاً (الوسط) بين اسم لا وخبرها

(معمول الخبر) بشرط كون الخبر صالحاً لها، نحو ان زيداً لعمراً ضاربٌ. الى ان قال (و) تصحب ايضاً (الفصل) وهو الضمير المسمّى عماداً، نحو ان هذا لهو القصص الحق اذا لم يعرب هو مبتدأ. وتصحب اسماً لان (حلّ قبله الخبر) نحو ان عندك لبرّاً، وان لك لأجراً.

وأمّا اعتراضه على قوله: الذي يظهر لي ان في المنات والجليدات لضرراً عظيماً. قال: «وهي واقعة في خبر المبتدأ مع انه لم يصرّح أحدٌ بهذا». فأقول: قال ابن عقيل على قول ابن مالك:

وهمز ان افتح لسدّ مصدرِ مسدّها وفي سوى ذاك اكسرِ

قال: يجب فتح ان اذا قُدّرت بمصدر كما اذا وقعت في موضع مرفوع فعل نحو يعجبني انك قائمٌ، اي قيامك. او منصوبة نحو عرفت انك قائم، اي قيامك. او في موضع مجرور بحرف نحو عجبت من انك قائمٌ، اي من قيامك. وانما قال لسدّ مصدر مسدّها، ولم يقل لسد مفرد مسدّها، لانه قد يسدّ المفرد مسدّها. ويجب كسرها في نحو ظننت زيداً انه قائمٌ. وان سدّ مسدّها مفرد لانها في موضع المفعول الثاني. الى ان قال: فان لم يجب تقديرها بمصدرٍ لم يجب فتحها. فهذه هي المواضع التي يجب فيها فتح ان. ولم يذكر ابن عقيل انها اذا وقعت في خبر المبتدأ يجب فتحها كما زعم المعترض. وقال الاشموني ايضاً على قول ابن مالك (وهمز ان افتح) وجوباً (لسدّ مصدر مسدّها) مع معموليها لزوماً بان وقعت محلّ فاعل نحو أو لم يكفهم انّا أنزلنا. او مفعول غير محكى بالقول نحو ولا تخافون انكم اشركتم. او نائب عن الفاعل في نحو قل أوحى اليّ انه استمع. او مبتدا نحو ومن آياته انك ترى الارض خاشعةً. او خبر عن اسم معنىً غير قول ولا صادق عليه خبرها نحو اعتقادي انك فاضل. بخلاف قولي انك فاضل واعتقاد زيد انهُ حقٌ. ومجرور بالحرف نحو ذلك بان الله هو الحق. او الاضافة نحو مثل ما انكم تنطقون. ومعطوف على شيءٍ من ذلك نحو اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضّلتكم على العالمين. او مبدل منه نحو واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم. ولم يذكر الاشموني ما ذكرهُ المعترض. وأقول

ايضاً خير القول اني أحمد الله ، ففي هذه العبارة يجوز الفتح والكسر . فالفتح على معنى خير القول حمدالله ، يعني سبك ان مع ما بعدها بمصدر . والكسر على الاخبار بالجملة لقصد الحكاية ، اي حكاية لفظ الجملة ، اي الاتيان بها بلفظها . وليس المراد انها من مقول القول فكأنك قلت خير القول هذا اللفظ .

في سوّل اليه واستعدّ اليه

أمّا اعتراضهُ على قولهِ : سول اليه واستعدّ اليه . فالجواب : ان هذا الاعتراض مبنيٌّ على انهُ يسوّغ لنفسه مبادلة الحروف حيثما شاءَ ولا يسوّغها لغيرهِ ، وهو شأن البطِر العاتي ، لان صاحب الجوائب لما انتقد عليه قولهُ : « ينيف عن ستين سنة » اذ الصواب تعدية أناف بعلى ، فغرَ فاهُ بالمقاذعة والصخب ورغا كأنه جمَلٌ أضربهُ الجرب وزعم انهُ يجوز ان يقال ذلك . ولا غروَ .

فعين الرضى عن كل عيبٍ كليلةٌ   كما ان عين السخط تبدي المساويا

وغاية ما اقول في هذا الباب : ان المؤلف ضمّن سوّل معنى وسوس . على ان الى كثيراً ما تأتي بمعنى اللام كما في قولهِ تعالى : والامر اليك . وقال ايضاً : فاذا حبالهم وعصيّهم يخيّل اليه من سحرهم انها تسعى . وفي المثل السائر ص ٣٢ : يخيّل الى السامع ان هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها . مع ان ائمة اللغة عدّوا خيّل باللام . قال في المصباح : خُيّل لهُ ، كذا بالبناء للمفعول من الوهم والظن . وتخيّل لي خيالهُ ، وعبارة القاموس : تخيّل لهُ الشيء ، تشبّه . وعبارة الصحاح : وتخيّل لهُ انه كذا ، اي تشبّه وتخايل . يقال : تخيّلته فتخيّل لي . وقال صاحب المثل السائر ايضاً في ص ٢٨٣ : وما رأيت أحداً من علماء الصناعة تعرّض اليه . وعلى ذلك

يقال : هداهُ للطريق واليه ، ووفقهُ الله للشيء والى الشيء ، وقصد لهُ واليه. وعمد لهُ واليه وقس عليه استعد كما جاءت اللام بمعنى الى في قوله تعالى : بان ربك أوحى لها ، وكلٌّ يجري لاجل مسمّى، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

في مبادلة حروف الجرّ من كلام ابي المعترض

ومن هذه المبادلة قول أبي المعترض :

تصرّف بالغرائب عن فؤادٍ لاغلاق المشاكل فضّ ختما

اذ الأصل : في الغرائب . مع ان دخول في هنا لا يكسر الوزن . ومثلهُ قولهُ : « وليس بهِ التصرّف من قضاكا » . وقوله : « أخذ الطبيب بان يداوي غيرهُ » . وانما يتعدّى أخذ بالباء اذا كان بمعنى أمسك . وقوله : « وعلى مناظرة الحسان مشوقُ » . اذ حقّه ان يُعدّى بالى . ومثل ذلك كثيرٌ شائع .

وان عناءً ان تفهّم جاهلاً فيحسب جهلاً انه منك أفهمُ

في قول صاحب الجوائب شُدّا الى قرنٍ

أمّا اعتراضهُ على قولهِ : ودرس ثورين قد شدّا الى قَرَنٍ . فقال : « الصواب ان يقال شُدّا بقَرَنٍ » . فجوابهُ : ان القَرَن معناهُ حبل يجمع به البعير والبعير المقرون بآخر ، وهو المراد هنا . او تقول : ان شدّا الى قَرَنٍ ، معناهُ جرّاً وسحباً الى حبل يجمعها . وأمّا قولهُ : « ان البيت كلهُ سخيف » فجوابه :

ومن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضاً يجد مرّاً بـــه الماءَ الزلالا

ولعمري ! ان هذا البيت أحسن من قول أبي المعترض في مطلع القصيدة التي مدح بها حضرة ملكة الانكليز وهو :

ان قلت ويحك فافعل ايها الرجلُ لا يصدق القول حتى يشهد العملُ

فانظر ان كان قوله : فافعل يصحّ ان يكون براعة استهلال في مدح ملكة عزيزة الشأن ، ولا يصحّ ان يُفسّر القران بالبعير . على ان مؤلف كتاب الساق على الساق كان يمكنه ان يقول : وددرس ثورين مشدودين في قرَنٍ . كما قال امرؤ القيس : بكل مغار الفتل شُدّت بيذبلِ . في احدى الروايات .

.

في ورود الفاء مع لم في جواب اذا

ثم اعترض على ورود الفاء مع لم في جواب اذا في قول مؤلف كتاب الساق على الساق :

فاذا رضيت فكل سخطٍ هيّنٌ واذا وصلت فلم أبالِ بهاجرِ

فأقول : اذا كان الفعل ماضياً لفظاً ومعنىً ، وجب اقترانهُ بالفاء نحو ان كان قميصه قُدّ من دبرٍ فصدقت ، وقد معه مقدّرة . واذا كان الفعل مستقبلاً معنىً وقُصد به وعد او وعيد جاز اقترانه بالفاء نحو ومَن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . قال في شرح الكافية : لانهُ اذا كان وعداً او وعيداً حسن ان يُقدّر ماضي المعنى فعومل معاملة الماضي حقيقةً اي مبالغةً في تحقيق وقوعه . وان كان مستقبلاً في الواقع وقوله عومل معاملة الماضي حقيقةً اي الماضي لفظاً ومعنى ، اي عومل معاملته في مجرّد الاتيان بالفاء . وان كان الاتيان بها في الماضي حقيقةً على سبيل الوجود

وفي هذا على سبيل الجواز . وفي المغني عند ذكر أقسام الفاء : الثالث ان تكون زائدة في الكلام كخروجها . وهـــذا لا يثبتهُ سيبويه . وأجاز الأخفش زيادتها في الخبر مطلقاً وحكى اخوك فوجد . الى ان قال : وقال ابن برهان تزاد الفاء عند أصحابنا جميعاً . قال الشارح : قوله عند اصحابنا ، اي البصريين ، لانه منهم اي سواء كان في الخبر او غيره . قلت : ولهذا اجاز ابن مالك دخول الفاء في جواب لما . وعند الفارسي ان الفاء في قولـــه تعالى : بل الله فاعبد ، زائدة . وعلى هذا قول صاحب المثل السائر في ص ٢٧: واذا ثبت فساد ما ذهبت اليه فلم يكن المراد بالجلود الا الفروج خاصةً وهو كقول صاحب الجوائب سواء .

في صحة ايراد كذلك بعد كما

ثمّ ان صاحب الجوائب كان قد ردّ على ابن اليازجي ما اعترض به عليه من ايراد الجاده والجاهده على ما تقدّم في اول هذا الكتاب . وكان من جملة ما قاله كما يصحّ ان يقال مثلاً عظم جدّهُ وطال جهدهُ ، كذلك يصحّ ان يقال جاده وجاهده . فاعترض عليه ابن اليازجي ايضاً في هذا التركيب وزعم لفساد عقله وطبعه انه فاسد مع انه فصيحٌ صحيح وقد استعملتهُ العلماء قديماً وحديثاً . قال ابن هشام في المغني عند ذكر الفاء : تنبيه . كـــما تربط الفاء الجواب بشرطه كذلك تربط شبه الجواب بشبه الشرط . وقال الاشموني في باب جمع التكسير ما نصّه : تنبيهان الاول كما يغني احدهما عن الآخر وضعاً كذلك يغني عنهُ استعمالاً . وقال ايضاً : فكما يقال في جماعتين من الجمال جمالان كذلك يقال في جماعات جمالات . وقال في باب الحال : فكما لا يتقدّم ما يتعلّق بالصلة على الموصول ، كذلك لا يتقدّم ما يتعلّق بالمضاف اليه على المضاف . وقال ايضاً : كما يعرض للحال وجوب التأخير عن صاحبها كما رأيت ، كذلك يعرض لها وجوب التقديم

عليه . وقال أبو حيّان : وهل التراكيب العربية الا كالمفردات فكما لا يجوز احداث لفظ مفرد ، كذلك لا يعطف عليه عطف بيان (كذا باصلهِ) وقال في كتاب الف باء ص ٤٠٣ : كما يتخيّر الرجل الارض لغرسه كذلك فليتخيّر الزوجة لنفسه ونجابة ولدهِ . وفي المطالع النصرية ص ١٤٦ : كما ان للعرب زيادة بعض حروف لمعانٍ في بعض كلمات كذلك للكتاب زيادة بعض حروف في بعض كلمات . ومثل ذلك ما قاله في ص ١٧٩ : ومن العلماء من استعمل كذلك مقرونة بالفاء وذلك كقول المعرّي على شرح ديوان المتنبي : كما ان الغمام يسحّ ماؤهُ بطبعه دون ان يبعث اليه باعث ولا يقدر أحدٌ ان يحبس مطرهُ ، فكذلك هذا الرجل لا يمكنه ان يمتنع عن العطاء لان الله تعالى فطرهُ على ذلك . وقال في المثل السائر : فكما ان مجاهدة النفس عن هواها قتال بغير سيفٍ فكذلك قطعها عن هواها ذبح بغير سكّينٍ . وقد كررها على هذا النسق اكثر من خمسين مرّة . فان أصرّ ابن اليازجي على تخطئة جميع هؤلاء الأئمة اوردنا له ما افاده الصبّان في شرحه قول الشيخ الملوي في السلم : فكما ان نسبة النحو للسان كونه يعصمهُ عن الخطأ كذلك نسبة المنطق للجنان كونه يعصمه عن ذلك . قال : يظهر لي في مثل هذا التركيب انه يحتمل ان تكون ما ، نكرة تامة . وقوله ان نسبة بدل او عطف بيان . وان تكون زائدة ، وعلى كلٍّ يُقدّر ان قبل قوله نسبة المنطق الخ . وان تكون مصدريّة صلتها محذوفة لان الحرف المصدري لا يدخل على مثله . والتقدير فكما ثبت ان الخ . وعلى هذا يقدر . ثبت ان قبل قوله نسبة المنطق والاولان اقلّ تكلّفاً . وقوله كذلك تأكيد للتشبيه السابق اه . فاعرض ايها المتهافت على الاعتراض ، هذه التراكيب على استاذك صاحب الجنان الذي شهد لك بالمشيخة ، والتمس منه ان يوقفك على معانيها :

كن ابن من شئت واكتسب ادباً يغنيك مضمونهُ عن النسبِ
ان الفتى من يقول ها انا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

في صحة ايراد في بعد سوى الاستثنائية

وكذلك اعترض عليه قوله في تلك الجوائب : لم يكن لي همٌّ سوى في اظهار معاني الالفاظ . فقال : ان الصواب في سوى . فكأن استاذه قال له : انه ورد في الاشموني حديث : ما انتم في سواكم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود . فاستدل على عدم تقدم سوى على الجار . والجواب ان تقدم سوى على في ، ورد في كلام الفصيح . قال ابو محجن نصيب بن رباح مولى عبدالعزيز بن مروان :

فلا النفس ملّتها ولا العين تنتهي　　اليها سوى في الطرف عنها فترجعُ
وأنها فما ترتدّ عنهـــا سآمةً　　ترى بدلاً منها به النفس تقنعُ

وذلك من قصيدته التي منها :

فيا لك من ليلٍ تمتّعت طوله　　وهل طائفٌ من نائمٍ متمتّعُ
نعم ان ذا شجوٍ متى يلقَ شجوهُ　　ولو نائماً مستعتبٌ او مودّعُ
له حاجةٌ قد طالما قد أسرّها　　من الناس في صدر بها يتصدّعُ
تحمّلها طول الزمان لعلهـــا　　يكون لها يوماً من الدهر منزعُ
وقد قرعت في امّ عمروٍ ليَ العصا　　قديماً كما كانت لذي الحلم تقرعُ

وكان نصيبٌ معاصراً لكثير . والأحوص وكان شاعراً فحلاً فصيحاً مقدماً في النسيب والمديح ، ولم يكن لهُ حظٌّ في الهجاء ، وكان عفيفاً . كذا في الجزء الاول من كتاب الاغاني لأبي الفرج ص ١٤٥ .

وقال العلم الشهير العلامة النحرير حضرة عزتلو رفاعه بك في نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز ، في العدد الرابع من « روضة المدارس » :

لا يطربون سوى بذكر حبيبهم　　ابـــداً فكلّ زمانهم أفراحُ

فان زعَم البستاني وتلميذهُ ان هذا لضرورة الشعر . قلتُ : لا ضرورة هنا ، فان الاول كان يمكنه ان يقول :

فلا النفس ملَّتها ولا العين تنتهي   اليها بغير الطرف عنها فترجعُ

وكذلك قول رفاعه بك : «سوى بذكر حبيبهم» . فقد كان يمكن لهُ ان يقول : بغير ذكر حبيبهم . وقد أجرى بعضهم غير مجرى ، ألا وذلك كقول القطب السيّد عبدالرحمن العيدروس :

ليت شعري ولم أقل ليت شعري   غير من حالةٍ ترى الليث وغدا

في صحة قول صاحب الجوائب

ما من شاعر قال شعراً الا واخذ عليه

ومن أفحش ما هذى بهِ وتهوّع وتشدّق وتبلتع بما دلّ على ان الصلَف قد ذهب ببصرهِ وبصيرته ، والسفاهة قد جرت كالدم في جبلته ، انكاره الواو في قول صاحب الجوائب : ما من شاعرٍ قال شعراً إلا وأُخذ عليه . قال : «والصواب أخذ بترك الواو على مذهب الجمهور» . ولم يسند هذا القول الى احـدٍ ، وانما هو محض افتراء منه . ونقول : قال أبو البقاء في الكلّيات وقد تزاد الواو بعد إلا لتأكيد الحكم المطلوب اثباته اذا كان في محلّ الردّ والانكار كما في قولهِ : ما من أحدٍ الا ولهُ طمع او حسد . وقال صاحب المثل السائر في صفحة ٣٢٣ : واعلم انهُ قـد حُذفت الواو وأثبتت في مواضع . فأمّا اثباتها فنحو قوله تعالى : وما اهلكنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلوم . وأمّا حذفها فنحو قولهِ تعالى : وما اهلكنا من قرية إلا لها منذرون . وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو واثباتها في كل

موضع ، وانما يجوز ذلك فيما هذا سبيلهُ من هاتين الآيتين . ولنبيّن لك في ذلك وسماً تتبعهُ فنقول : اعلم ان كل اسم نكرة جاءَ خبرهُ بعد إلا يجوز اثبات الواو في خبره وحذفها كقولك : ما رأيت رجلاً الا وعليه ثياب . وان شئت قلت إلا عليه ثياب بغير واو . فان كان الذي يقع على النكرة ناقصاً فلا يكون الا بحذف الواو نحو قولك : ما اظن درهماً إلا هو كافيك . ولا يجوز الا وهو كافيك بالواو ، لان الظن يحتاج الى شيئين فلا يعترض فيهِ بالواو لانه يصير كالمكتفي من الافعال باسمٍ واحد . وكذلك جواب ظننت وكان وان واشباهها . فخطأ ان تقول : ان رجلاً وهو قائمٌ ونحو ذلك . ويجوز هذا في ليس خاصةً تقول : ليس أحدٌ الا وهو قائمٌ ، لان الكلام يتوهم تمامه بليس وبحرف نكرة . ألا ترى انك تقول : ليس احدٌ وما من احد . فجاز فيها اثبات الواو ولم يجز في اظن ، لانك لا تقول : ما اظن احداً فاما اصبح وامسى ورأى ، فان الواو فيهنّ أسهل لانهنّ توأم في حال . وكان واظن ونحوهما بُنين على النقص ، الا اذا كانت تامة . وكذلك لا في التنزيه وغيرها نحو لا رجل وما من رجل . فيجوز اثبات الواو فيها وحذفها اه. فأنت ترى ان قول صاحب الجوائب : ما من شاعرٍ قال شعراً إلا وأُخذ عليه ، صحيح فصيح لان شاعر اسم نكرة جاء خبرها بعد الا . وقال البوريني عند قول ابن الفارض :

ما شممتُ البشام إلا وأهدى لفؤادي تحيّـــةً من سعادِ

قولهُ إلا وأهدى ، اعلم انه قـــد ترد الجملة الحالية الماضوية بعد اداة الاستثناء ويكون الاستثناء مفرغاً ويكون المستثنى منه أعمّ الاحوال كقولهِ صلّى الله عليه وسلّم ، ما يئس الشيطان من بني آدم الا وأتاهم من قبل النساء . ولا يحتاج الفعل الماضي حينئذٍ الى قد ، لوقوعهِ بعد اداة الاستثناء (انتهى) . واعلم ان هذه الواو تتقدم الفعل والاسم والحرف . فمن امثلة تقدّمها على الفعل من النظم ، قول زهير بن أبي سلمى :

نعم امرءٍ هرمٌ لم تعر نائبةٌ الا وكان لمرتاع بها وزرا

وقول الحريري :

ولاسيا يفتح مستصعباً مستغلق البـاب منيعاً مهيب
إلا ونودي حين يسمو لهُ نصرٌ من الله وفتحٌ قريب

وقول ابن الفارض :

ما رنّحت ريح الصبا شيح الربى الا وأهدى منكمُ أفراحـا

وقول البهاء العاملي :

ما حـلّ بروضة بهائكمُ الا وسقى رياضهـا بالدمعِ

وقول النواجي :

وقلما أبصرتهُ عين ذي أدبٍ إلا وراح بذاك البرّ مكتفيا

وقول الشيخ حسن بن زين العاملي :

ما أومض البرقُ في داجٍ من الظلل الا وهاجت شجوني أو نمت عللي

وقول ابن زريق البغدادي من قصيدته المشهورة التي مطلعها : لا تعذليه فان العذل يوجعهُ :

ما آب من سفرٍ الا وأزعجهُ رأيٌ الى سفرٍ بالبين يجمعهُ

وقول ابي فراس :

ولا اشتورت الا وأصبح شيخها ولا احتربت الا وكان فتاها

وقول آخر :

ما استكمل المرءُ من لذّاته طرفاً الا وأعقبهُ النقصانُ من طرف

وقول ابن معتوق :

ما اشتاق سمعي ذكر منزل طيبةٍ إلا وهمتُ بساكني وديانهِ

ومن النثر ما جاء في الحديث الشريف : ما بعث الله نبياً الا وامّه بعض قومه . وفيه ايضاً : ما منع قومٌ الزكاة الا وحبس عنهم القطر . وفي المثل السائر : وما من أحدٍ منهم ولو شدا يسيراً من الأدب الا ويمكنه ان يؤلف الفاظاً مسجوعةً . وفيه وهذا المعنى قد تداولته الشعراء حتى انه ما من شاعرٍ الا ويأتي بـه في شعره . وفيه لم اترك ديواناً لشاعرٍ مفلقٍ يثبت شعرهُ على المحكّ الا وعرضتهُ على نظري . وفيه ما من أحـدٍ الا ويحب ان يتكلم فيه . وقال بعضهم : مـا أعطى الدهر شيئاً بيمينه الا واستلبهُ بشماله . ومثال دخولها على الاسم من النظم قول : تأبط شرّاً .

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً   بهِ الخطب الا وهو للقصد مبصرُ

وقول المتنبي :

ما شيّد الله من مجدٍ لسالفهم   الا ونحن نراهُ فيهم الآنـا

وقول ابن معتوق :

ما كان في الأولى له نظرٌ   الا ومطمحـهُ الى أخرى

ومن النثر ما جاءَ في الحديث الشريف : ما من مولودٍ يولد الا والشيطان يمسّهُ حين يولدُ . وفيه : ما في الجنّة من شجرةٍ الا وساقها من ذهبٍ . وفيه : ما قدّر الله من نسمةٍ الا وهي كائنة . وفيه : ما رأيتُ منظراً قط الا والقبر أفظع منهُ . وقول المتنبي : « فلم تغضِ الا والسنان لها كحلُ » . وقال أبو المعترض في المقامات : فما تصرّم النهار الا ونحنُ في الانبار . ومثال دخولها على الحرف من النظم قول المتنبي :

ومن جسدي لم يترك السقمُ شعرةً   فما فوقها الا وفيهـا لهُ فعلُ

ويروى الا وفيه على عود الكناية الى ما . وقوله :

ولا تجاوزها شمسٌ اذا شرقت   الا ومنه لهـا اذنٌ بتغريبِ

. وقول ابن هاني الاندلسي :

فما برحت إلا ومن سلك مدمعي   قلائـد في لبّاتهـا وعقودُ

ومن النثر ما جاء في الحديث الشريف : ما من صلاةٍ إلا وفي اثرها ركعتان . ما من أصحابي الا وقد كنتُ قائلاً فيه إلا أبا عبيدة . وفيه : ليس من أصحابي أحدٌ الا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء . وهذا الحديث كان سبب قراءة سيبويه النحو . فانهُ لما سمعهُ قال : ليس أبو الدرداء فصاح بهِ حماد : لحنتَ يا سيبويه . انما هذا استثناء فقال : والله لأطلبنَّ علماً لا تلحنني معهُ . ثمَّ مضى ولزم الاخفش وغيره . وقال ابو الحسن موسى بن جعفر فيما كتب به الى الرشيد : ما من شيءٍ تراهُ عينك الا وفيه موعظة . ومن هنا تعلم ان قول المعترض على مذهب الجمهور ، كذبٌ ومين وافتراء وزور . فمن لم يجزهِ هذا فما شيء بمجزيه ، ولكن وبك الحق على الباطل يجزيه .

تشبّه في النحو بالاخفشين فجاء باعجوبةٍ مطرفـــه
فان لم يكن أخفش الناظرين فان الفتى أخفش المعرفه

في لفظة مزيال

ثمّ ان محرّر الجوائب كان نظم قصيدةً طويلةً في وقائع الحرب الاخيرة التي جرت ما بين فرنسا والمانيا ومن جملتها قوله :

فهذي جيوشي وهو فيها محكّمٌ رئيسٌ عليهـــا آمرٌ أمر مزيال

فاعترض على لفظة المزيال وقال انها غير مطابقة للمعنى ، وهو محض ضلال وخبال . قال في القاموس : والمزيل كمنبر ومحراب : الرجل الكيّس اللطيف . ولا يخفى ان الكيّس بمعنى العاقل الفطن . ومنه الحديث : هذا من كيّس ابي هريرة اي من فقهه وفطنتهِ . فأي معنًى أصحّ من قولهِ انه

رئيسٌ عليها آمرٌ أمر عاقل لبيب فطن . وقال بعض شرّاح ديوان المتنبي عند قولهِ :

ان دون التي على الدرب والأحدب والنهر مخلطاً مزيالا

الاحدب اسم الجبل الذي عليه قلعة الحدث . والمخلط من الرجال من يخالط الحرب . والمزيال : الرجل الداهية لا يعرف كيف يدخل في الامر ولا كيف يخرج منه . وقال العكبري : وفلان مخلط مزيال ، اي موصوف بالشجاعة وجودة الرأي ، وقد وصفوا بـه الفرس اذا طلب الخيل الغارة خالطها ، واذا طلبته وجدتهُ مزيالاً لا تلحقهُ .

في لفظة تصهال

ثمّ اعترض على قوله :

واكثرهم صخباً وشغباً واحنةً غرامون شيخ ذو هياجٍ وتصهال

فقال : انه لم يسمع ذو تصهال ، يعني انـه لم يسمع هذه اللفظة من استاذهِ صاحب الجنان ، والا فهي مسموعة من العرب . قال الحارث بن حلزة اليشكري :

من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصهال خيلٍ خلال ذاك رغاءُ

وقال المتنبي :

وان تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جريٍ فلي فيهنّ تصهالُ

قال الشارح : جعل التصهال مثلاً لثنائهِ على الممدوح وكان فاتك هذا

الممدوح ينطوي على بغض كافور ومعاداته . وكان ابو الطيّب يحبّهُ ويميل اليه ولا يمكنهُ اظهار ذلك خوفاً من الاسود . فقول صاحب الجوائب : ذو تصهال كقول المتنبي لي تصهال .

في تحريك الساكن من كلام أبي المعترض

واعترض ايضاً على قولهِ صخباً . فقال : « ان الوزن يقتضي اسكان خائهِ واللغة تقتضي تحريكها » اقول : هذا أضرّ ما مرّ به ، لان الصخب هو رأس مالهِ فهو لا يريد تسكينهُ ، وتسكينه هنا للازدواج كما اشرنا اليه في الكلام على احكام الفاصلة وذلك عند قول العتبي : وشمل الهرج والمرج وعمّ الاضطراب والهيج . فقال الشارح : الهيج ساكن ، والظاهر ان المصنّف استعملهُ هنا محرّكاً لازدواجه مع المرج الذي الاصل فيه التحريك . وقد جمع ابن مقل الابواب على أبوبة في قولهِ : هتّاك أخبية ولاج أبوبة للازدواج . ومن هذا القبيل قولهم : فعل به ما ساءهُ وناءهُ . وجعل منه الحريري هنأني الشيء ومرأني وهو رجس نجس وقد توزع فيه . فقد حكى ابن برّي عن بعض اهل اللغة : ان مرأني وامرأني لغتان . فامّا رجس نجس فقالوا : ان كل اسم على وزن كتف يجوز فيه جوازاً مطرداً فتح اولهِ وكسر ثانيهِ على الاصل وتسكين عينه مع فتحه فائه وكسر أوله مع سكون ثانيه . فان كانت عينهُ حرف حلقٍ كفخذ ، ففيه لغة رابعة وهي اتباع الفاء لحركة العين لقوتها كما في شرح درّة الغوّاص للشهاب الخفاجي . ولعمري ان تسكين الخاء من الصخب ألطف على السمع من قول أبي المعترض :

اليك اشكو اشتياقي فارعني سمعك   بمن على كرم الأخلاق قد طبعك

وقوله ايضاً : « ان يحسن القول لم يحسن لهُ سمعٌ » فتحريك الميم في السمع من اعظم ما يثقل عليه . وقوله ايضاً :

أعجزتني عن حصرها فأضعتُ فذلكة الرَّقَمِ

حرّك القاف من الرقم وهو قبيح جداً فان الرقم بالتحريك الداهية ونبت كما في القاموس . وفي المصباح : رقمت الثوب رقماً من باب قتل وثّقته فهو مرقوم . ورقمتُ الكتاب كتبتهُ فهو مرقوم ورقيم . ومثل ذلـــك في كلامهِ كثير .

في لفظة منوال

ثمّ اعترض عليه قولهُ :

ويا يوم فلّوا في بروت وأدبروا شماطيط فلا عزّ عن كل منوال

فقال : ان قوله عزّ عن كل منوالِ ، لا معنىً لهُ فكأنه نظر الى اصل معنى المنوال وهو الخشبة التي يلفّ عليها الحائك الثوب ولم يسوّغ التوسع فيها . فان جميع المؤلفين استعملوها بمعنى الوجه والنوع . يقولون اصنعهُ على هذا المنوال . والى ذلك تشير عبارة الصحاح حيث قال : ويقال لا ادري على اي منوال هو ، اي على اي وجهٍ هو . وقال في القاموس في ن و ع : المنواع المنوال . قال الشارح قال أبو عدنان قال لي اعرابي في شيءٍ سألتهُ عنه ما ادري على اي منواع هو . هكذا اوردهُ الصاغاني . وانا اقول : انه بمعنى النوع كقولك ما ادري على اي نوعٍ هو ، اي ، اي وجهٍ .

في افشال

ثمّ اعترض على قولهِ :

وسار الى حصنٍ يسمّى بفردنٍ يظنّ به امناً وارجاء افشالِ

فقال : ان أفشل الرباعي لا يأتي بمعنى الثلاثي . والجواب : ان الافشال هنا يصحّ ان يكون جمع فشل كفرح وافراح ، ويصحّ ان يكون مصدر أفشل . وعلى كلٍّ فالمعنى صحيح لمن خلا عن الزيغ والعناد ، ولكن من لم يهدِهِ الله فما لهُ من هادٍ .

في قيتال والوحشي من الالفاظ

ثمّ اعترض على قوله :

واكثر من هذا ابادتهمُ الوغى وذلك من بعد اقتحامٍ وقيتالِ

فقال : ولا يخفى ما في قوله قيتالِ ، من الكراهة والغرابة . والجواب ان الكلمة الغريبة هي الوحشية التي ينفر منها السمع ، او كما قال بعضهم ان تكون وحشية لا يظهر معناها فيحتاج في معرفتها الى ان ينقّر عنها في كُتب اللغة المبسوطة كما روي عن عيسى بن عمر النحوي انه سقط عن حمار فاجتمع عليه الناس فقال : ما بالكم تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جنّةٍ افرنقعوا عني اي اجتمعتم وتنحّوا ، او يخرج لها وجه بعيد كما في قول العجّاج : وفاحماً ومرسناً مسرجاً فانه لم يعرف ما اراد بقولهِ مسرجاً حتى اختلف في تخريجه فقيل : هو من قولهم للسيوف سريجية منسوبة الى قين يقال لهُ سريج يريد انه في الاستواء والدقة كالسيف السريجي . وقيل من السراج يريد انه في البريق كالسراج . ولا يخفى ان كلمة قيتال ليست من هذا القبيل ، فاذا اراد ان يعرف مثالاً للفظ الذي فيهِ غرابة وكراهة، قلتُ لهُ : هي لفظة الرهز التي أوردها ابوهُ في قوله :

هذا الذي تعد الأم البنين بهِ منذ الولادة قبل الرهز في السررِ

واعود فأقول كما قلتُ مراراً عديدة : ان السكوت سترٌ للغبي من الفضائح وهو كحجابٍ يستر ما به من القبائح .

في تلال وتعريف المجاز

ثمّ اعترض على قولهِ :

وقد حصلا في كفّ جرمانيا معاً كمثل لجامٍ للفرنسيس تلّال

فقال : الاظهر انه يريد بقولهِ تلال ، ان يكون فعّالاً من قولهم أتلّ الدابّة اذا ارتبطها وقادها ، جعلهُ صفة للجام ، ولا يجوز ان يقال أفعل فهو فعّال . والجواب : ان تلال هنا صيغة مبالغة من تلّهُ اي صرعهُ وهو مجاز فالمماحكة في هذا انكار للمجاز رأساً . والمجاز عند اهل المعاني عقلي وهو اسناد الفعل او اسناد ما في معناهُ الى غير ما هو لهُ . وله ملابسات شتّى فيلابس الزمان والمكان لوقوعه فيهما والمفعول لوقوعه عليه والسبب عاديّاً او عقليّاً او شرعيّاً ، ومن امثلته : نهاره صائمٌ فيما بُني للفاعل وأُسند الى الزمان مجازاً . والاصل هو صائم نهاره . وعيشة راضية . والأصل هو راضٍ عيشته . وسالت الاباطح . والأصل سال الماءُ في الاباطح . وأخرجت الارض اثقالها فيما أسند للمفعول بواسطة من . والأصل أخرج الله من الارض أثقالها . وأنبت الربيع البقل فيما أسند للسبب العادي فان المنبت حقيقة هو الله تعالى . وبَنى الامير المدينة فيما أسند للسبب الآمر فان الباني حقيقةً هم العَمَلة . وكذا شدّ اللجام الحمار ، فانه كأنبت الربيع البقل . اذ الاصل شدّ الانسان الحمار باللجام . او انه هنا مجازٌ مرسل والعلاقة الآلية ، وهو ايضاً كقولنا : نشر المنشار . او كتب القلم . او فتح المفتاح وغيره من الأوجه الصحيحة . وعندي ان الاعتبار الثاني أوجه . فترى من هنا انه لشدّة ما بالمعترض من الزيغ المبين والضلال المكين أنكر حقيقة المجاز .

في افلال

ثمّ اعترض على قوله :

فان جيوش الامبراطور اعتقت   من الاسر بعد الصلح من دون اقلال

فقال : لا معنى لقوله من دون اقلال ، في هـذا الموضع ، ولكن ساقتهُ القافية . والجواب : ان المعنى هنا أظهر من الصبح ، فان مراده ان عساكر الامبراطور قد اعتقت من الاسر من دون نقصٍ ولا اقلال . فأي حشوٍ في هذا ؟

ثمّ اعترض عليه قوله :

ومن عوز القوت الذي سدّ بابه   عليهم معادوهم ولا سدّ ادحالِ

فقال : ان الادحال هنا لا معنى له لانهُ لا يوصف بالسدّ . واقول : ان الادحال جمع دحل بالفتح ويُضمّ وهو نقبٌ ضيّق فمهُ متسع أسفله ، او خرقٌ في بيوت الاعراب يجعل لتدخله المرأة اذا دخل داخل . ومعلوم ان كلّا من النقب والخرق يوصف بالسدّ كما يوصف بالفتح . ومعنى البيت: ان اعداهم سدّوا عليهم باب القوت أبلغ من سدّ الادحال .

في الجمهورية

ثم اعترض عليه قوله :

وقـــام بأمر الجمهورية ناهضاً   تيار ومعهُ اهل شورى وانقال

فان الوزن ينكسر بالواو في الجمهورية . والجواب : ان الناظم قال قبل هذا البيت :

وان صلاحي دولة جمهرية   تسدّد اعمالي وتُنجح أحوالي

فلا بدّ اذاً من ان نحكم بانه أَراد في البيت الثاني ما اراد في البيت الاول ، وانما زاد فيها جمّاعو الحروف واواً لطول الفتهم بلفظ الجمهورية .

وهنا ملاحظة وهي : ان محرّر الجوائب قد اودع في هذه الصحيفة وفي كتاب الساق علـى الساق ، وفي كشف المخبا ، من اشعارهِ الفائقة وقصائدهِ الرائقة ما يكاد يكون ديواناً ، ولم نرَ لهُ فيها زحافاً ولا سناداً . فكيف غرب ذلك عنه في لفظ الجمهورية . فان أبى المعترض الا المماحكة على عادته شارطناهُ على ان النسخة التي سلّمها للجمّاعين لم يكن فيها لفظ الجمهورية . فان قال انهُ كان يلزمهُ اصلاحها : قلنا لهُ بالموجب انه كان يجب على أبيه اصلاح ما وقع في ديوانه ومقاماته من اللحن القبيح الذي لا يخفى على أدنى طَلَبة العلم . فكيف بمن فاخر الحريري وابن مالك ؟ وفي الجملة فان هذه القصيدة التي نظمها صاحب الجوائب في الحرب ، في غاية الجزالة والانسجام ، فما يعترض عليها الا مَن قمس في الضلالة ومقس في الرذالة . ولولا خوف الاطالة لاوردناها هنا برمّتها . وهنا أضربنا عن مجاراة المعترض في مماحكات اخرى ، فان الكلام عليها لا طائل تحتهُ ، وان هو إلا اضاعة للوقت فحسبنا هذا القدر .

***

واعلم ايها القارىء اللبيب ان الخواجه ابراهيم اليازجي الذي نال المشيخة في اللغة العربية في هذا العصر الذي هو عصر الاعاجيب من معلّمه المعلم بطرس البستاني صاحب « الجنان » لما ردّ على صاحب الجوائب اول مرّة ارتكب بعض اغلاط قبيحة أبانت عن جهله وجهل معلمه معاً فبيّنها له صاحب الجوائب . وقد كان ينبغي لهُ ان لا يجاوبهُ ولا يخاطبه اصلاً . وهذا رأي جميع العلماء . فقد قيل : ما جواب السفيه الا السكوت .

في المظنة

فمن هذه الاغلاط قوله : المظنّة . ضبطها بفتح الظاء وهي بالكسر . وما كفاهُ انهُ غلط فيها حتى اعتذر عنها في الردّ الثاني بقوله : وعلى فرض اني علّقتُ هذه الحركات بيدي ورآها بخط قلمي ، فأيّ غلطٍ جسيم ارتكبتهُ . فأقول له بالموجب واي غلطٍ جسيم رأيته بعينك التي تنظر القذى في عين أخيك وتعمى عن الذي هو فيها في حركة كهلاً . افلا تخجلون من هذا الاعتذار ؟ واذا كانت الحركة لا تضرّ ولا تنفع ، فاي حاجة الى كتب اللغة يا مهذار ؟

يا واعظ الناس قد اصبحت متّهماً اذ عبتَ منهم اموراً انت تأتيها
كمن كسا الناس من عريٍ وعورته للناس بادية ما ان يواريها

في الذمّة والذمم وابطال القاعدة التي اوردها ابراهيم

وأقبح من هذا اعتذارهُ عن شكل الذمّة والذمم بالضمّ ، اذ حقّهما الكسر كما لا يخفى . فانه هنا حاول ان يجعل ذلك قاعدة مطردة في كل ما كان مكسور الاول وأورد عليه شاهداً لفظة الصور والحلى . فأقول : قد قالت العلماء انه لم يأتِ مثل حلية وحلى وحلي ، اي بالضمّ والكسر إلا قولهم لحية ولحى ولحي ، وجزية وجزى وجزي ، وجذوة وجذى وجذي . والجذوة مثلّثة القبسة من النار . وبنية وبنى وبني ، وبغية وبغى وبغي ، ومرية ومرى ومري . وفي هذه نظر . ومدية ومدى ومدي . الى غير ذلك مما حصروهُ في الفاظٍ معدودةٍ . أمّا الصور ، فقال الأشموني على قول ابن

مالك : وقد يجيء جمعهُ على فعل . قال في شرح الكافية : وقد ينوب فعل عن فعل ، فالأول كحلية وحلي ولحية ولحى . والثاني كصورة وصور وقوّة وقوى . قال الصبّان قوله : وقد ينوب فعل عن فعل . قال الفارضي : ولعلّ هذا خاص بما لامهُ ياء او واو اه. فانت ترى ان الذمم ليست من هذا الباب ، فلا يجوز فيها إلا الكسر لتطابق المفرد كما انهُ لا يجوز في الدرر إلا الضمّ لتطابق المفرد . ومن رأى خلاف ذلك فقد انتهك حرمة اللغة واستحق ان يُصفع على قذالهِ بالبلغة . ولعلّ هذا الوهم ، اي انه يجوز الضمّ والكسر في كل لفظة على وزن فعلة هو الذي سوّل لأبي المعترض ان يقول : حبر وعبر بالضمّ . فهذا الخطأ انتقل الى المعترض بالارث . وليس هذا بأعجب من سكوت صاحب « الجنان » محبّ وطنه عن هذا الحنث .

في فساد قوله لم اكن اتوقع مذ اليوم

ثمّ تنصّل من غلطه في قولهِ : وشهد الله اني لم اكن اتوّقع مذ اليوم الخ. لان صاحب « الجوائب » خطّأه في قوله : مذ اليوم . وقال : ينبغي ان يقال الى اليوم كما هو ظاهر ، فاستشهد ابراهيم بقول القاموس مستدلاً به على صحّة كلامهِ . فالظاهر انه لم يفهم عبارة القاموس ، اذ لو فهمها لمَا استشهد بها لانها تكذّبهُ . فلنورد لهُ بعضاً من نصوص الائمة ليتبيّن لهُ عبارة القاموس فأقول : قال ابن عقيل عند قول ابن مالك :

ومذ ومنذ اسمان حيث رفعا او اوليا الفعل كجئتُ مذ دعا
وان يجرّا في معنى فكمن هما وفي الحضور معنى في استبن

فقال : اي تستعمل مذ ومنذ اسمين اذا وقع بعدهما الاسم مرفوعاً ، او وقع بعدهما فعل . فمثال الأول : ما رأيتهُ مذ يوم الجمعة او مذ شهرنا.

فمذ اسم مبتدأ (وهذه العبارة هي مثل عبارة القاموس سواء) والمسوّغ مذ ومنذ مع كونها نكرة ومع كون الخبر معرفة نحو : مذ يوم الجمعة . النظرُ للتعريف المعنوي (لان نحو مذ يوم الجمعة ، معناهُ مدة عدم الرؤية يوم الجمعة) وخبرهُ ما بعدهُ . وكذلك منذ ، فلو خرّجت عبارة ابراهيم على هذا الوجه لجاءت فاسدة ، لان تقديرها على هذا الوجه ، مدة عدم توقعه اليوم ، ولا معنى لهُ لان مراده ان يقول : انهُ لم يتوقّع الى هذا اليوم.

ولنرجع الى كلام ابن عقيل فنقول : قال وجوّز بعضهم ان يكونا خبرين لما بعدهما . ومثال الثاني : جئتُ مذ دعا . فمذ اسم منصوب المحلّ على الظرفية ، والعامل فيه جئت . وان وقع ما بعدهما مجروراً فهما حرفا جرٍّ بمعنى من ، ان كان المجرور ماضياً نحو : ما رأيته مذ يوم الجمعة . وبمعنى في ان كان حاضراً نحو : ما رأيته مذ يومنا ، اي في يومنا . اه. وكل هذه المعاني لا تطابق قول ابراهيم لانك لو قلت ان مذ في كلامه بمعنى من ، او في لفسد كلامهُ . ولنورد ما قالهُ الاشموني في هذا المعنى لزيادة التقرير ، قال على قول ابن مالك : ان مذ ومنذ هما اسمان حيث رفعا اسماً مفرداً ، او اوليا جملة كما اذا اوليا الفعل مع فاعله وهو الغالب ، ولهذا اقتصر على ذكرهِ ، او المبتدا مع خبرهِ . فالأول نحو : ما رأيتهُ مذ يومان ، او منذ يوم الجمعة . وهما حينئذٍ مبتدآن وما بعدهما خبر . (وقولهُ هذا كقول صاحب القاموس) والتقدير امد انقطاع الرؤية يومان. وأول أمد انقطاع الرؤية يوم الجمعة . وان جُرّا فهما حرف جرٍّ . ثمّ ان كان ذلك في مضى فكمن هما في المعنى نحو : ما رأيتهُ مذ يوم الجمعة ، ومنذ يوم الجمعة . وفي الحضور معنى في استبن بها نحو : ما رأيتهُ مذ يومنا ، اي في يومنا هذا مع المعرفة كما رأيت . فان كان المجرور بهما نكرةً كانا بمعنى من والى معاً كما في المعدود نحو : ما رأيتهُ مذ او منذ يومين . ومعناهُ : ما رأيته من ابتداء هذه المدة الى انتهائها . اه. ملخصاً . فيتضح من هنا ان عبارة ابراهيم فاسدة ، لان قولهُ : لم اكن اتوقّع ، يدلّ على طول الامد في الماضي . وقوله : مذ اليوم ، يدلّ على حدّ ابتدائه وهو خلف . ومثل هذا التعبير لا ينطق به عجميٌّ ، فضلاً عن عربيٍّ ، ولا يجوز

في لغة من اللغات ، اللهمّ إلا اذا كان صاحب « الجنان » قد اجازهُ وعدّهُ من جملة مخترعاته . وكذلك لا يصحّ ان يقال : طالما توقّعتُ مذ اليوم .

فتبيّن من هذا ان ابراهيم لا يفهم معنى ما اوردهُ ، لانه يريد ان يقول ان اعتقاده بحسن نيّة محرّر الجوائب كان ثابتاً منذ زمانٍ ، فلم يكن يتوقّع منهُ خلافه الى هذا اليوم ، فلا يصحّ التعبير هنا الا بالى . فأنت ترى ايها المطالع صحّة ما قرّرناه سابقاً ، وهو ان ابراهيم بعد ان يتورّط في الخطأ يردف ذلك بالسفاهة الزقاقيّة ، فانهُ نسب تخطئة صاحب الجوائب الى سوء الفهم ، بل هو من سوء فهمهِ للنصوص لا محالة انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

في فساد قوله ينيف عن ستين سنة

ثمّ تنصّل ايضاً من قولهِ : حفظه له زمناً ينيف عن ستين سنة . لان صاحب الجوائب قال : ان أناف يتعدّى بعلى . قال في القاموس : وأناف على الشيء أشرف . وأناف عليه زاد كنيفَ . وقال في الصحاح : ونيف فلان على السبعين ، اي زاد . وأناف على الشيء ، اي أشرف . وأنافت الدراهم على المئة ، اي زادت . وقال في المصباح : وأنافت الدراهم على المئة ، زادت . قال : « وردت برابيةٍ راسها على كل رابيةٍ نيف » . وهنا أخذ ابراهيم يتشدّق ويتمطّق ليخفي على الناس غلطه ، فانه قال : ان عن تأتي لمعنى الاستعلاء نحو : اني أحببتُ حبّ الخير عن ذكر ربي . فأقول : هذا التأويل غريب ممن لم يجوز مبادلة الحروف ، وجزَم بان سوّل اليه غلط ، فالظاهر انهُ يريد ان يتصرّف في اللغة لتبرئة نفسه وتخطئة غيره لا غير . فنعوذ بالله ممن طغيانه يوصله الى هذه الحالة ويوبقهُ في هذه الضلالة !

أغـــلا الحديد بأرضكم   أم ليس يضبطك الحديد ؟

ثم اقول ايضاً : نعم ان عن قد تأتي للاستعلاء ، وعليه تُحمل اقوال البلغاء ، إلا انه ليس شائعاً كمعناها الاصلي الذي هو المجاوزة ولذا ترى العلماء يؤولون مثل هذه الآيات . قال بعضهم في قوله تعالى : فانما يبخل عن نفسه . تحتمل التضمين ، اي فانما يبعد الخير عن نفسه بالبخل . وقالوا في اني احببتُ حبَّ الخير عن ذكر ربي ، اي قدّمتهُ عليه . وحب الخير المراد به الخيل ، والذكر صلاة العصر حتى غربت الشمس وهو مشغول بالخيل . وقولهُ : قدّمته عليه ، تفسيرٌ لقولهِ : احببتُ حبَّ الخير الخ . اي قدّمتُ حبَّ الخير عن ذكر ربي . وهذا فيه تضمين حبَّ ، معنى الايثار والتقديم ، وجعل عن بمعنى على وهو بعيد . وقيل : ان الآية على بابها ، اي للمجاوزة لا للاستعلاء وتعلّقها بحالٍ محذوفة ، اي منصرفاً عن ذكر ربي . وحكى الرُماني عن ابي عبيدة : أن احببت من احب البعير إحباباً ، اذا برك فلم يثر (اي ولم يقم) فعن متعلّقة باعتبار معناهُ التضمني وهي على حقيقتها ، اي اني تثبّطتُ عن ذكر ربي ، وعلى هذا فحبَّ الخير مفعول لاجله . فمن هنا ترى ان الاقرب ان عن في هذه الآية على حقيقتها ، اي للمجاوزة لا للاستعلاء . وان ما يوهم خلاف الظاهر هو من باب التضمين ، وان اناف تتعدى بعلى كما نصّت عليه ائمة اللغة . وكذلك أربى ، تقول اربى على الخمسين ، اي زاد عليها ، وهي مثل اناف في المأخذ ، فان أربى مأخوذٌ من الربوة ، واناف من النوف وهو الطول والارتفاع . وفي معنى اربى ارمى بالميم ، وكذلك زاد فانها تتعدى بالباء ، وكذا كل ما تضمن الاستعلاء نحو : فاق وعلا وسما وبرع وأبر .

في فساد قوله كما اشار

ثمَّ تمحّل ايضاً لتصحيح قوله : كما اشار ، من دون العائد الى ما ، فان حقهُ كما اشار اليه ، كما قال صاحب الجوائب . فاعتذر عن ذلك

بان قال : ان مرادي في العبارة مجرّد الاشارة فقط دون قصد المشار اليه بها ؟ فأقول : كيف تتأتى الاشارة بدون مشار اليه وهي نسبةٌ بين المشير والمشار اليه ، كما ان التنبيه نسبةٌ بين المنبّه والمنبَّه عليه ؟ فحذف المتعلق الذي هو اليه ، مخلٌ اذ يكون جلّ كلامه : ان غلط الوهم لا يخلو منه أحد كالاشارة . ولا يخفى ان هذا الكلام خالٍ من المعنى . ولنضرب هنا صفحاً عن سفاهته التي جاء بها بعد هذا التمحّل ولنكِلهُ الى خنّاسه الذي يؤزّهُ ويزدهيه ويستفزّهُ .

في مدة تأليف كتاب الساق على الساق

وقبل ختمنا هذه الرسالة يجب أن نشكر هذا الشيخ الجديد على انه لم يرد ان يوهن جسمهُ اللطيف في انتقاد « الجوائب » كما فُهم من عبارته حيث قال : واني في كل ذلك لم اتعرّض لعبارة الجوائب على ما فيها من الخلل الفاضح لاحتمال ان يعتذر فيها بالعجلة ، يعني انه بيّن خطأ كتاب « الساق على الساق » « وسرّ الليال » ، وشعر صاحب الجوائب تبييناً يغنيه عن تبيين غلط الجوائب ، ولكن اذا كانت العَجَلة عذراً فلِمَ لم يعف عن كتاب الساق على الساق ، فان المؤلف ألّفهُ في ثلاثة أشهر ، كما اشار اليه في القصيدة التي صدّرهُ بها حيث قال :

لكن تولّد في ثلاثة أشهرٍ　　وحَبا على عَجلٍ وشبّ لطيفا

في مدح الجوائب

أمّا تخطئتهُ الجوائب ، فأجيبهُ عنها بما قاله شاعر تونس حين ثارت

المناقشة بين الجوائب وبوجيس باريس ، وقد نُشر في مطبعة تلك المملكة وهو :

يا نابحاً بدر الجوائب انما في نوره نكَسْتَ ظلّك ناحبا
يا أقرعاً تستنّ في مضمار من قادت جوائبُه الفنون جنائبا
يا غائباً لا زلت ذا غبنٍ بلا عينٍ فكيف زعمت نفسك عائبا
لا تحسبنّ جميع ما تأتي بـه إلاّ سراباً في المجاهل ساربا
وهمٌ يخيل وليس يشغل حيّزاً أتراه يزحم ويك بحراً زاعبا
كاد التهافت ان يخيلك هازئاً وهوى التجنّي ان يحيلك كاعبا
تعساً لجدّك اي طوق معرّة طوّقته يلوي بليتك ساحبا
فغدوت من كل الجوانب لاقياً خزياً ومنتظراً عذاباً واصبا
لا تحسب الامهال عن بقيا فما أمهلت إلا كي تزيد مثالبا
ولسوف توثبك الجرآءة فينةً وثبَ الفراش لان تصادف ثاقبا

وقال آخر وهو ايضاً من شعراء تونس المفلقين :

لقد طاب في الآفاق نشر الجوائبِ فحفّت بشكرٍ من جميع الجوانبِ
وخصّت باقبالٍ من الناس كلهم لما أودعتهُ من فنون الغرائب
أحاطت باخبار الزمان كأنهـا قبول الليالي الوالدات العجائب
سبتنا بمغناطيس لفظٍ مهذّبٍ بليغٍ حديدات البصائر جاذب
فوائدها عمّت وخصّت فلن ترى اخا مسكةٍ في طرسها غير راغب
ولا غرو ان كانت حقيبة فارسٍ بها خير ما يُلفى بطيّ الحقائب
وقادت بأرسان البراهين من غدا عن الحق والانصاف ينأى بجانب
وذادت عن الاسلام حمقى تشدّقوا بلغوٍ هراءٍ للمعرّة جالب
فكانوا كمن أضحى ينمّق ريشةً يروم بها نحت الجبال الشناخب
وكالواضع النبت الغثاء بكفّه لصيد طيورٍ في السماء نواعب
فكم هزمت جند الضلال وحققت لنا ان للكتّاب فعل الكتائب

وكم رجت ضدًا يوم كفاحها　　بشهب ردودٍ محرقاتٍ ثواقب
ولكن لاكثار الملاعن انظروا　　وذا لسوى الشيطان غير مناسب
فقدكَ أبا العبّاس انقاذ من عسي　　بزيغٍ بترويج الجهول المشاغب
شهرتَ بهاتيك الصحيفة صارماً　　رددتَ به دعوى غبيٍّ وكاذب
وغايرت ما بين التمدّن والهدى　　وشتّان ما بين الثرى والكواكب

الى ان قال :

وهـذا لعمري واضحٌ ومشاهدٌ　　وليس بيان الواضحات بواجب

في الترصيع

لا جرَم ان الذين مدحوا « الجوائب » اكثر من الذين قرّظوا سر الليال ، فان جمعية المعارف المصرية وكانت مؤلفة من الف شخصٍ من بين عالمٍ مشهور ، وفاضل مذكور ، وامير ومأمور ، قد اتفقت على مدحها في « تاج العروس في شرح القاموس » عند ذكر لفظة الجوائب في مادة ج و ب . وهذا نصّ عبارتها : وبالجوائب سمّى الفاضل الاديب احمد فارس صحائفهُ التي ينشرها الى الافاق ، وناهيك بها من سفط درر نكات ولطائف تقرّ بحسنها عين كل كامل عارف . وهي في عصرنا أنفع صحف الوقائع ، تستحسنها النواظر وتستلذّ بها المسامع اه.

كيف لا وقد جاء محرّرها فيها بفنون من الكلام عجيبه ، وأساليب من البيان غريبه . وناهيك تلـــك المقالة التي التزم فيهـا الترصيع من أولها الى آخرها . أولها : من الناس من تخلج فكرهُ من فنون الاقتراح خوالج ، وتلعج صدرهُ من شجون الاجتراح لواعج . وعلى ذكر الترصيع يحسن هنا ان اقول : ان صاحب الجوائب استشهد لهذا النوع من القرآن بقوله تعالى : ان الينا ايابهم ثمّ ان علينا حسابهم . غير ان صاحب

المثل السائر على إمامته في علم البيان أنكر وجوده في القرآن . وهذا نص كلامه : وهذا لا يوجد في كتاب الله لما هو عليه من زيادة التكلّف . فأمّا قول من ذهب الى ان في كتاب الله منه شيئاً ومثّله بقوله تعالى : ان الابرار لفي نعيم ، وان الفجّار لفي جحيم . فليس الأمر كما وقع له ، فان لفظة لفي قد وردت في الفقرتين معاً . وهذا يخالف شرط الترصيع الذي شرطناه لكنه قريب منهُ اه. وهو غريب ، بل العجم ايضاً أقرّوا بتفضيل الجوائب على جميع الصحف. وناهيك ما كتبه في هذه الايام صاحب الجرنال المسمّى (بمال مال كازت) وهو من اشهر صحف لندره ، وذلك حين ترجم المقالة التي حرّرها صاحب الجوائب في مصر وبلاد الحبشة. وهذا نصّ كلامه باللغة الانكليزية: The Djawaib by far the best arabic paper in the East. وتعريبهُ: « الجوائب أفضل صحيفة عربية في الشرق بمراحل » .

في الجنان

فهل يرجو صاحب « الجنان » ان يرى اسم صحيفته مذكوراً بالمدح من أحدٍ من العلماء . كلا انها لصحيفة مستنكرة وبومة مستقذرة لا تأتي من الاخبار إلا بما يسوء وبالخزي يبوء ، وذلك كقوله : « ان مأمورية الضابطين في البلاد المصرية لا تسمح لأيٍ كان من تبعة الدولة العلية ان يدخل مصر إلا ويُغرَّم غرامات جسيمة » . فهذا صريح في انه يريد ان يلقي الفتنة بين الحكومة الخديوية والباب العالي . وكقولهِ ايضاً : « قد صدر أمر في الاسبوع الماضي بجمع قرضٍ من الأهلين » . الى ان قال : « ان هذا نافعٌ لقيام المصالح الميرية لا يأتي الأهالي بمنفعة » . وكقوله : « ان مولانا السلطان قال انه وعد عاهل فرنسا بالمساعدة في قيام الحرب على بروسية وانه يقدّم لنجدته العمارة البحرية الهمايونية ، وعندما سمع ذلك سفير دولة بروسيا طلب ايضاحاً عن ذلك » . وكقوله في عزل المأمورين واستبدالهم بغيرهم : « ما الفائدة من عزل الفاسد واقامة رجل مثله اذا لم نقل دونه » . وغير ذلك

مما يطول ايرادهُ ويملّ انتقاده . فهل يقيس أحدٌ « الجنان » « بالجوائب » ؟ أو مقامات أبي ابراهيم هذا البذيء بما انشأهُ صاحب الجوائب من الفصول المسجعة والمقالات المبتدعة التي شهد لمؤلفها علماء العصر بالسبق والبراعة ؟ . وناهيك ما قالهُ العلامة الاستاذ المحقق الشيخ عبدالهادي نجا الابياري في كتابه « النجم الثاقب » : « صاحب الجوائب هذا هو فارس البلاغه وغارس ادواح البراعه ، التي لم يبلغ أحدٌ فيها بلاغه ، ذو الفكرة التي تظل كواكبها في أفلاك المعارف ساريه ، والقريحة التي تتوقد بالمعاني وما ادراك ماهيه ، نارٌ حاميه ، ساحب أذيال الفخار في الآفاق ، وصاحب كتاب الساق على الساق » . الى ان قال : « لهُ النظم الذي تهتزّ لهُ المناكب ، وتغار لرونقهِ غرر الكواكب ، والمعاني التي تترّفع عن كل معاني ، وتطرب بها الافئدة والالباب طرَبًا بالمثالث والمثاني » اه.

في من كان فريداً في فنه

ولنختم كلامنا هنا بما قالهُ العَلم الشهير العلامة النحرير عزتلو رفاعه بك ، في الرسالة التي سمّاها : القول السديد في الاجتهاد والتجديد ، مما طُبع في « روضة المدارس » في صفحة ٢١ في فصل عنوانه : بيان من كان فريداً في فنّه . وهذا نصّ عبارته :

ذكر بعضهم من كان فريداً في فنّه فقال : انفرد ابو بكر ، رضي الله عنهُ ، في الانساب وفي القوّة بأمر الله عمر بن الخطّاب وعثمان في الحيا وعلي في القضا ، وأبي بن كعب في القراءة ، وزيد في الفرائض ، شيّد الله ثناءهُ ، وأبو عبيدة بن الجرّاح في الامانة شهير ، وابن عبّاس رضي الله عنه ، في التفسير ، وأبو ذرّ في صدق اللهجة ، وعمر وباعه وخالد بن الوليد في الشجاعة ، والحَسَن البصري في التذكير ، ووهب بن منبه في القصص ، وابن سيرين في التعبير ، ونافع في قراءته وأبو حنيفة في فقهه وروايته ، وابن

اسحاق في المغازي ، ومقاتل في التأويل . وبالعروض انفرد الخليل ، وفضيل بن عياض في العباده وسيبويه في النحو أطلق جياده ، ومالك في العلم فاز بالسير الحثيث ، والشافعي في فقه الحديث ، وأبو عبيدة في الغريب ، وعلي ابن المدائني في العلل نعم المجيب ، ويحيى بن معين في الرجال ، وابو تمّام في الشعر من الابطال ، وأحمد بن حنبل في السنّه ، والبخاري في نقـل الصحيح ، شيّد الله ركنه ، والجنيد في التصوّف مشهور ، ومحمد بن زكريا في الطب صادفهُ السرور ، وأبو معشر في النجوم ، والكرماني في التعبير بلا وجوم ، وابن نباته في الخطب الفاخره ، وابو الفرج الاصبهاني في المحاضره ، وأبو القاسم الطبراني بالعوالي يفاخر ، وابن حزم في الظاهر ، والحريري في مقاماته ، والمتنبي في الشعر صاحب السمعه ، والصولي في الشطرنج شاه الرقعه ، والخطيب البغدادي في سرعة القراءة والضبط ، وعلي بن هلال في الخط ، والموصلي في القضا ، وعطاء السلمي في لحوق الرضا ، والقاضي الفاضل في الانشا ، والاصمعي حلل النوادر قد وشّى ، ومعبد في الغنا ، وابن سينا للفلسفة جَنى . انتهى .

وجمعه غير حاصر فلم يذكر مثل شهرة القاموس باللغة ، ولا مثل شهرة سراج الدين بن الملقن بكثرة التصانيف البالغـه ، ولا العراقي بدراية الحديث . وسكت عن كثير ممن انتهت اليهم الرئاسة بالانفراد ، يأمر في القديم والحديث ، ولو كان في عهدهِ فارس الجوائب ، صاحب سرّ الليال ، لحكم لهُ بانهُ في احياء مآثر العرب بهذا العصر مقدم الرجال . وعلى كل حال فأرباب المعارف ، يستفيد بالمعارضة في الفنون بعضهم من بعض .

انتهى

رسائل الشدياق

للشيخ فارس الشدياق صاحب « الجوائب » ومحررها عدة رسائل خطية في اغراض وشؤون عامة وخاصة ، ارسل معظمها الى اخوانه وابناء اخوانه وبعض انسبائه ، ولم يزل الى الآن قسم منها في يد احد ابناء اسرة الشدياق ، وقد وقفنا عليها وهي كلها بخط فارس الجوائب ، وامست قريبة من التلف لتقادم عهدها ولكثرة تداول الايدي لهـا وهي لم تر النور بعد . ظفرنا بأربع رسائل للشدياق من مصادر مختلفة، تثبتها في هذا الكتاب. ونحن أول من نشر الرسالة الأولى والثانية في مجلة «رسالة السلام» البيروتية ، السنة السادسة ، العدد ٢ ، شباط سنة ١٩٢٤ صفحة ٦٧ بعد ان علقنا عليها كلمة وجيزة . والرسالة الأولى نشرناها هناك مقتضبة . وهذه هي الرسائل الاربع .

الرسالة الاولى بعث بها الى شقيقه طنوس

جناب اخي العزيز الاكرم ، حرسهُ الله

انهُ في أبرك وقت تشرفتُ بورود رسالتكم العزيزة المؤرخة في غرّة محرّم سنة ١٢٥٥ (١٨٤٠) وحصل لي بورودها من السرور ما لا يكاد يتحمله متحمّل . وأكد لي صفو عيش في المستأنف ايضاً ، غير اني كنتُ ارجو عند فضّ ختامها كثيراً من التعاريف لِما انه قد مضت علينا سنون دون مراسلةٍ ما ، واذا بها قد أتحفتني بسطرين فقط ، غير انهُ قد عمّ كل الصيد جوف الفرا ، وذلك لاني احرزتُ منها ما كنت ابتغي خاصةً وهو وجودكم سالمين ، فالحمد لله على ذلك .

فأما اجمالكم في الاخبار عن صحة جميع الاهل ، فانه وان سرّ فـلا يقوم مقام التفصيل ولاسيما مع أهمية المقام . فقد، والله ، أبيتُ الليالي قلقاً

للاطلاع على سلامة والدتنا العزيزة . وقد استخبرتُ عن سلامتها من اخي غالب غير مرّة فيخبرني عنها أخباراً مجملة . فكيف بالاقناع ، والقلب في التياع ، والدمع في تهماع ، ومن اين السلوّ ، والبين في غلوّ ، والوجد في نموّ . فيا لله :

أما تغلط الايام فيّ بأن أرى حبيباً يداني أو عدوّاً مباعدا

هذا وقد جدّت بعدنا وقائع شتى ، وهرمت فتيان ، وخلفت اخلاف ، وربما استنسرت البغاث ، وتصقرت الغربان ، والعين غير شاهدة ، والخواطر غير جاحدة .

ثم اني اسأل اولاً عن صحتكم وعن توفيقكم وهل انتم متعاطون الطب على ما بلغني . وهل لكم إلمام باحدى اللغات الاجنبية كالطليانية والتركية ونحو ذلك . وكيف احوال البلاد الآن من حيث الحكومة والتمدن . وهل شهرت الصنائع المصرية في البلاد الشامية مثـــل المطبعة والتدريس والاشغال والملابس ، او لا . فاني ظميء الى الوقوف على ذلك كله . وقد كنتُ في السنين الحوالي تشرّفت بورود رسالة من اخي منصور وأرسلت اليه جواباً وانقطع بعد ذلك الوارد ، فلا ادري هل بلغه الجواب او لا . وقد كنتُ كتبت ايضاً عدة رسائل وأرسلتها مع رئيس المطبعة التي لمجمع الانكليز بهذا الطرف ، وكان مراده ان يسافر الى مصر ثمّ الى برّ الشام ، غير انه لما ذهب الى مصر أُصيب بداء فيها أوجب رجوعه الى مالطـــة فرجع بالرسائل . وكان من جملة تلك الرسائل ألوكة ودادية الى والدتي العزيزة التمستُ بها منها رضاها ودعاءها وعرّفتها باني خدمتُها بارسال شيء من الدراهم تحت يد الخواجه طمسون الانكليزي المقيم ببيروت وذلك على قدر ما امكن وقتئذ . وحيث ان الامر لم يتحيز الى الوجود اقتضى تسطير رسالة الى الخواجه المذكور ، ان يدفع لحضرتكم خدمةً لوالدتي العزيزة عشرين ريالاً فرنساوياً تبلغ قروشها ، والله أعلم ، اربعمئة . وكان بودّي ان أزيد الآن على هذا المقدار لكونه لا ينبغي ان يرسل وحده مع مضي

عدة سنين خلواً من نظائرهِ ، غير ان الوقت لا يسمح باكثر من ذلك ، فان شاء الله تعالى نخدمها مرةً أخرى .

واخبركم اني حين قدومي من مصر الى مالطة كنتُ مستخدماً .... ثم أدّت الوسائل الى خدمة الميري (الحكومة) ايضاً في الجامعة الكائنة بمالطة لتعليم اللغة العربية فانقسم شغلي قسمين : اربع ساعات في خدمـــة الجمعية وثلاث في خدمـــة الميري . واني من حيث الصحـــة والراحة والحرية بخير . وقد تزوجت وانا بمصر باحدى بنات العيال الشامية ورزقني الله ولداً اسمه فائز ، سنّهُ الآن نحو عشرين شهراً ، ونحن الآن جميعاً سالمون متمتعون بالراحة والطمأنينة والعيش الهني .

فالمرجو الآن من مكارم طباعكم ان تعرّفوني عن جميع ما جدّ عندكم من الامور تعريفاً مفصحاً جامعاً مانعاً . وهل تودون اذا صحّت الفرصة ان تروا البلاد الافرنجية ، فلعلما يحدث مـــا يمكّن من ذلك . وهل الامراء الشهابيون في حالهم القديم . وهل الحدث والحارة[1] ايضاً لم يزالا كُفيراً صغيراً ام صارتا أمصاراً . وهل الخواجه يوسف ميخائيل غب توجهه من مصر صار قاضياً او مفتياً . وهل انكسار ابراهيم ياغي لما يجبر . وهل الاسعار الآن غالية والخصب حاصل . فأمّا ما سمعنا من الاخبار الطارئة فمنه ان سعادة عزيز مصر وجد معدن ذهبٍ بالقرب من الحبشة ، وان الصلح بينه وبين حضرة السلطان غير مستحكم ، ولا نعلم علم اليقين فلعلّ ذلك من اكاذيب الوقائع والموقعين . وانما نعلم ان العيش بمصر الآن رغيد والرعية امينة . فيا ليت شعري هل يمكنكم ان تشتروا لي كتاب الفصاحة من محلّ او تنسخوهُ بحيث يكون صحيح العبارة ، مضبوطاً . وهل الكتب المصرية تُجلب الى الاقطار الشامية وذاك ككليات أبي البقاء وألف ليـلة وليلة . وهل بينكم وبين المعلّم ناصيف اليازجي اتصال في شيء . فان كان فأبلغوهُ منا السلام .

---

(١) حدث بيروت . والحاره ، يريد بها : حارة البطم، حيث هو بيت والده ، وهي ملاصقة للحدث

والذي ينبغي ايضاً ان نعلم من احوال البلاد احوال اولاد عمومتنا جميعاً كلٌّ على حدته . وقد كنا سمعنا ان ابن عمنا انطون وجيه في الدولة البشيرية ، وان جفـالاً مستخدم عند الامير بمقام كريم . فأمّا اخوهم يوسف فانه بعد ان سافر من مصر الى ناحية السودان لم يصل لنا منه تعريف فلا نعلم سبب ذلك . وقد كانت حالته بمصر غير راضية ولهذا اضطر الى السفر عنها . وهل بينكم وبين عيلة جناب بحري بك معرفة . وهل المعلم بطرس كرامه في وجاهة المومأ اليه . أما من حادث يقتضي التعريف . اي الكتب تطالعون . واي الاحوال تؤثرون . وماذا هناك من المضحكات .

واخبركم ان اهل مالطة ، لغتهم العربية لكن ثلثيها فاسد . وقد فسدت بها لغة زوجتي لانها لا تعرف الانكليزية ولا الطليانيـة . اكثر كلامي بالاولى ، واذا كلّمت مالطيّاً عوّجت لساني نظيرهُ . ليس من الكتب النفيسة ما يرى له اثر عندنا بمالطة ولاسيما في المطبعة ، فان أغلبها متعلق بالدين وعربيتها ركيكة ، والا لبعثتُ اليكم بعدةٍ منها . ليس بمالطة كلها احدٌ من بلاد العرب الا ما مرّ بها مستوفزاً ، على انها قريبة من المغرب غاية القرب . في رومية قسيس من برّ الشام اسمه دانيال يدرس اللاهوت يدّعي معرفة عيلتنا فهل تعرفونه . وهل اذا صحّ لكم شغل فيها تتعاطونه . هل اخوالنا في كسروان سالمون . وهل ابن خالنا بولس (البطريرك بولس مسعد) رجع من رومية وصار اكليروسياً . وهل اهل بعبدا لم يزالوا اهل جدال ومماراة ، واهل الحدث اهل هلع ومداراة . وهل من خبرٍ عن عينيّو وبيغزلي . كل هذا التعريف عنه ينفي من وحشتنا في هذه الغربة وينقص من كيد الدهر لنا . فأما لو كنا في أطرافكم لما كان فيه كبير مزية . كلما فرغتُ ساعةً من الاشغال اتذكر اهل مودتي ومَن أحسنَ اليّ ، فان هذه الذكرى من اعظم اللذات عندي .

وأخبركم انني ألّفتُ كتاباً أودعته ما شاهدتُ بجزيرة مالطة من العوائد والاحوال وذيّلته بفصلٍ طويل يتعلق باللغات . ومرادي ان شاء الله ، طبعه إما هنا او بمصر . ولو صح لي طبعه عندكم بمصروف غير وافر كان ذلك

أوفق ، فان المطبعة هنا كما ذكرتُ ، لا يُطبع فيها الا كتب دينية لا تعلّق لها بالمعارف اصلاً . القسيسون الروحانيون بمالطة اكثر من العدد ، فهم يمشون افواجاً افواجاً ، وقلّ ان يرى في العالم كله بلدة فيها ما في هــذه الجزيرة من القسيسين والرهبان القانونيين ، فكل اثني عشر رجلا من العوام عليهم قسيس .

وان تكرمتم بالتعريف عن حال أخينا منصور وأحواله وكمية ما عنده من الاولاد ، وعن كمية سنّ والدتنا المحروسة ، وسنّ كلّ منكم . وسنّ أخينا المذكور ، كان لكم الفضل الجزيل . أمّا أخونا غالب فلسنا نجهل سنّه . وارجو ان تطالعوا رسالتي هذه قبل ردّ جوابها ، ولا تؤاخذوني باطالة المقال فان الوجد يوجبه . وبلّغوا مني السلام لمن ذكرنا جميعاً ، ولثم ايدي والدتنا المكرمة ، وان شئتم الى سعادة الامراء بجيرتكم . ومن هنا زوجتي تهديكم ووالدتنا الدعاء والسلام .

١٨ محرم سنة ١٢٥٥، الموافقة سنة ١٨٤٠

اخوكم الداعي لكم
فارس الشدياق

الرسالة الثانية كتبها الى أحد أصحاب المقامات

الجناب الاكرم المقام المحترم ، حرسهُ الله

وبعد اهداء سلامٍ تودّ الصدور ان تعيه ، والسطور ان تحويه ، والرواة ان ترويه ، ويتعجب من ان معناه لا يقدر على حصرِه في حروف وهو غير محصور ، وان يغادر المداد ليعرب عنه وهو في مكنونه نور .

ولطالما شغل فكري ، وخلج صدري ، ان اطرف سيدي من السلام طرفا ، وأضمّنه الشوق الذي قد وفى ، واذكر معهُ ما ألمّ بي بعد غيابي عن تلك الحضرة ، وفقدي تلك النضرة ، وأرى من الايام لي زاجراً ، ومن

الهموم متتابعاً ومتواتراً، لاسيما وقد كان لواء الحرب منصوباً، ووجه الاماني محجوباً، والطرق معطلة، والالباب مبلبلة، ولكني رأيت الاستعانة ببثه على لواعج الوجد أولى، وان التأخير في أغلب الاوقات يُحرم نيلا، ويجرّ ويلا، فبادرتُ استميح من كرم سيدي عفواً عما فرط، واقالةً بما به هذا المحبّ تورّط، ويستأذنك ان تأذن له شرح قصّة، كتمها عنك الى غصّة، ولا بدّ من عرضها عليك، وانهائها اليك، وهي:

ان لي أخاً... من ذوي المعارف الطائلة، والمتصفين بحسن الذمّة في المعاملة، وانهُ أرسل اليّ رقيماً منذ أيامٍ يتضمّن ما حلّ بنا من مصائب الدهر. وهو وفاة والدتنا، وثلاثة اخوة لنا، وثلاثة من اقاربنا في خلال هذه الحروب، وقد نُهبت بيوت اخوتي أجمع، ولم يبق لهم شيءٌ يدفعون به الاضطرار والحاجة. وان أخي المذكور سُلب ما كان عندهُ من المتاع، واصبح والاكدار محيطة به من كل جانب. ولقد عزّ عليّ مصيره الى هذه الحال، فضلًا عمن فقدنا وهو أعزّ من المال، ولا سبيل الى تسكين هائج الزمن عنه الا بان اكون اداة تعريف لهُ بجنابكم، ووسيلة يتقرّب بها اليكم، ولا يخلو من ان تكون ضاعت له حقوق او كادت تضيع، او يكون قد تُعدّي عليه بتحوّل الاحوال، وكُلف ما لا مقام للحرّ عليه مما يضطره الى ان يأوي منه الى ركنٍ يقيه، وسندٍ يحميه.

فالمرجو سيدي من همتكم التي يندفع بها الهمّ، وينجلي الغمّ، وينكشف الضرّ، ويجاز البرّ، ان تستخلصوهُ لكم وتخصّوه بعنايتكم، وتشملوه بحمايتكم، فهو جديرٌ بان يستخلص من امثالكم، ويسدى اليه ما يحفظ حرمته، ويصون ماء وجهه. والكريم، ابقاك الله، يعرف اهل السمت، وسيّان عنده الكلام في استمالته لهم او الصمت. ولو كنتُ اعهد من اخي المذكور امراً يخلّ به، او خصالاً يشطّ بها عن الحق، او انه غير جدير بان ينوّه به ويُذكر فضله عند نظير جنابكم محبّ الفضل وذويه، وعارف بقدر العلم وشيعته، لمّا كلّفت خاطركم السني بهذا التعارف. وحيث يقال: من ارتفعت به الدرجات رُفعت اليه الحاجات، اقتضى رفع هذه القصّة الى ساحتكم، واستنهاض همتكم لها.

فالمرجو يا سيدي اظهار ما طبعت عليه تلك الاخلاق من النخوة والكرم نحو اخي المذكور ، وبذلك تصيرونا ممنونين لفضلكم ، ومديين الثناء عليكم. ومثلكم ، حرسكم الله ، لا يحتاج الى اغراء على شراء الاحرار بفعاله ، فصدّ عن العبيد بماله ، والله اسأله ان يديم عليكم نعمه الوافية ، ودرجاته العالية ، وان يحفظكم ملجأ ومقصداً .

الداعي المخلص
فارس الشدياق

من مالطة ، في ٣ اذار سنة ١٨٤٢

الرسالة الثالثة بعث بها الى الشيخ اسد الدحداح
مدير فتوح كسروان

الجناب الافخم كريم الشيم سني الهمم ، دام بمزيد السرور والنعم

المعروض بعد الدعاء المفروض ، ان ولدنا يوسف الشدياق كثيراً ما شنّف سماعنا بذكر محامدكم وادرجنا مآثركم في « الجوائب » ، لانه يجب علينا التنويه بحسن افعال الناس الكرام حتى يكونوا قدوةً لجميع الأمم ، فصار من معتقدنا ان جنابكم الكريم عمدة لأهل الجبل ، وفي كلّ امر عظيم عليه المعوّل . وبناءً على ذلك نرجو من همتكم العالية الآن ان تشملوا بنظركم ولدنا الخواجه يعقوب الشدياق الذي حصل لهُ في هذه السنة مصائب كثيرة حتى رُبطت يدهُ عن الشغل ، فاذا كان يمكن لجنابكم وضعه في محل من خدم الحكومة بما يكون محتاجاً الى الامانة وصدق الكلمة ، فالمذكور متصف بهذه الصفة . ولولا املنا بغيرتكم على ابناء الوطن لمّا تجاسرنا على تكليف خاطركم مع كثرة اشغالكم ، ولكن عندنا من المؤكد ان جنابكم ترتاحون الى المعروف طبعاً وخصوصاً مع من يشيد بمحامدكم ، وادام الله تعالى بقاءكم .

الداعي للجناب
احمد فارس
محرر الجوائب

في ١٠ شوال سنة ١٢٨٧ (الموافقة سنة ١٨٧٠)

الرسالة الرابعة كتبها الى احد أبناء اخوانه

كن المعزّي لا المعزّى به ان كان لا بدّ من الواحدِ

جناب ولدنا الاعز المحترم

المعروض غب الدعاء المفروض ، انهُ بلغني خبر مصابكم في فقد ابنتكم فزاد حزني وهاج شجني ، فان غمّكم يغمّني وهمّكم يُهمّني ، ولكن يا ولدنا هذه الدنيا طبعت على كدر ، وجُبلت بالغِيَر فلا يسلم الانسان فيها من رزءٍ إمّا ببدنه وإمّا بسكَنه فلا يزال عيشه فيها منغصاً وحظه منقّصاً ، فيكفي ان اقول في تعزيتكم : انه في عين تلك الساعة التي منتكم بهذا الفقد والبؤس مات الوفّ من الناس ما بين سائدٍ ومسود ورئيس ومرؤوس ، فما لهذا الداء سوى الصبر ولولاه لضاقت بنا الدنيا مذ لدن عرفنا الخير من الشرّ . كفاكم الله مزيد الصبر ودمتم سالمين .

عمكم

احمد فارس

في ١ ت١ سنة ١٨٧٤



كتاب الخطب البيعيّة

نسخة مكتوبة بالحرف السرياني (الكرشوني)

بخط الشيخ فارس الشدياق

أطلَعنا حضرة الصديق الوفي والكاتب الكبير الالمعي ، الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك على كتاب « الخطب البيعية » التي تتلى في مساء الآحاد والاعياد وصباحها ، قد نقلها عن اللسان السرياني الى اللسان العربي صاحب الافضال العميمة على الامة اللبنانية القس جبرائيل فرحات الحلبي الراهب الماروني اللبناني (المطران جرمانس) وهذا الكتاب هو بخط فارس الشدياق (صاحب الجوائب) كتبه بالحروف السريانية (الكرشوني) التي تُلفظ بالعربية . وهو يحتوي على مئة واربع عشرة خطبة . أُثبت في اوله الفهرس ثم البسملة ثم هذه السطور وهي :

« وبعد فهذه خطب معيّنة تُقال في مواسم السنة وبعض اعيادها مترجمة من اللغة السريانية الى اللغة العربية ، قد ترجمها واعتنى بها جبريل بن فرحات القس الراهب الحلبي الماروني من اخوية الرهبان اللبنانيين في دير مار اليشع النبي العظيم في الوادي المقدس من جبل لبنان المبارك في عهد حياة أب الاباء ورئيس الرؤساء الاقدس مار يعقوب (عواد) بطرس البطريرك الانطاكي على الملة المارونية ، وذلك سنة الف وسبعمئة وسبع للتجسد الالهي . وسمّي كتاب الخطب البيعية . اللهم اجعل ابتداءنا بك وانتهاءنا اليك برحمتك يا ارحم الراحمين آمين » .

ثم تبتدىء هذه الخطب في « عشية الاحد العظيم » . وأولها : لنرفعنّ السبح والمجد والاكرام ... وقد علّق الشدياق الناسخ بخط عربي نسخي فوق هذه

العبارة ، الجملة الآتية بقلمٍ من رصاص وهي : « والاحسن ان يُقال التسبيح عوضاً عن السبح » .

وهذا الكتاب نسخه الشدياق بالحبر الاسود وعناوين الخطب بالحبر الاحمر. يقع في ٢٤٠ صفحة ، مجلد بكرتون وقماش ، ولتقادم عهدهِ كُشط قسم من الكرتون عن الصفحة الاولى منه . وقفاهُ مجلد اسود نُقشت عليه نقوش مذهّبة . طوله ٣٠ سنتيمتراً بعرض ٢١ سنتيمتر ، مكتوب على ورق عبّادي سميك . عرض هامش صفحته ٣ سنتيمترات . وعرض الهامش من الرأس ٢ ونصف سنتيمتر وميلي واحد . وهو حقلان كأنهر الصحف السيّارة . طول كل نهر ٢٤ سطراً والسطر نحو ٥ كلمات . وهذا الكتاب لا يزال صحيحاً نظيف الورق والخط مع انه مضى على نسخه مئة وخمس وعشرون سنة . وقد كتبه الشدياق بقطّة قلمين الواحد مائل الى الثخانة والثاني الى النحافة ، كما ظهر لنا عند تقلّب صفحاته .

وجاء في آخر خطبة « الاربعين شهيداً » وهي الاخيرة من الكتاب ، عبارة علّقها الشدياق ناسخه بالخط العربي ووضع عليها الحركات ، تشير الى تاريخ انتهائه من نسخه وأثبت اسمهُ في ذيلهِ ، وهذه هي بالحرف الواحد : « كان تمام تحريرهِ ومقابلته[1] بيد أحقر الناس فارس بن يوسف الشدياق ، في كانون الثاني في قرية الحدث في ساحل بيروت سنة ١٨٢٥ مسيحية » .

وعلى قفا هذه الورقة كتب الشدياق بالحرف العربي هذا البيت من الشعر وهو :

ان تجد عيباً فسدّ الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

ولا يخفى ان تلامذة المدارس في عهد الشدياق كانوا يتقنون صناعة الخط ، لنسخ الكتب التي يدرسون فيها او يطالعونها لندرتها ولقلة وجود المطابع في ذاك الزمان . والشدياق هو احد تلامذة مدرسة عين ورقا الاكليريكية

(١) على النسخة التي نقل عنها .

على ما هو معروف وقد اتقن هناك الخط العربي والسرياني مع ما اتقن من اللغات واشتهر بحسن الخطّ وجودته وبرع به اي براعة فيما بعد ، على ما صرّح هو نفسه بذلك في الصفحة ٣٤ من الفصل الخامس من كتابه الساق على الساق .

ونظراً الى ضخامة كتاب الخطب البيعية هذا وتسهيلاً لاحرازه في الكنائس اخذ المطران يوسف الدبس عجالةً منهُ وطبعها بالحرف السرياني (الكرشوني) في المطبعة العمومية الكاثوليكية سنة ١٨٨٤ ، نقلاً عن نسخةٍ خطيّة كانت في كاتدرائية القديس جرجس المارونية في بيروت بخط الخوري يوسف المطران سنة ١٧٦٢ .

وقد تلطف الاستاذ يزبك الموما اليه وأعارنا هذا الكتاب العزيز عليه ، الموضوع في خزانته الخاصة المقفلة ، فنقلنا الصفحة الاخيرة المحتوية في آخرها اسم الشدياق ناسخه ، على الزنكوغراف واثبتناها في هذا الكتاب ، ثم أرجعناه اليه مع رسم سليم افندي فارس نجل الشيخ فارس الشدياق ، الذي تكرّم علينا به ، ملفوفين بعاطفة الشكر والثناء على اريحيته ومروءته .

نص الصفحة السريانية المصورة

« شجرة عطرية قد ثارت من ارض قبادوقيا : اربعون جفنة حاملة اربعين عنقوداً روحياً في كرم المسيح قد تنعمت البيعة المقدسة بخمر عصيرهم . اربعين ربّاناً عظيماً قائمين في رأس الزاوية . يرافقون سيّدهم الملك السموي الى السماء . اربعون جسداً طاهراً قد ذابوا في برد البحيرة . وفيها سُبكوا . وصعدت رائحة تقدمتهم الى السماء ولهذا يوسم تذكارهم في السماء في بيعة الابكار . وفيهم يرتل داود النبي قائلاً .. أدخلتنا النار والماء وأخرجتنا الى الراحة . فهؤلاء الذين تعبوا مبتهجين وكمّلوا جهادهم وهم يقولون مع داود

النبي . ان هذه كلها اصابتنا وما نسيناك يا الهنا . فلقد تعجبت الملائكة من مصافهم ولهذا تصرخ عظماء الملائكة قائلين . طوباكم يا ايها الشهداء الأربعون القديسين الجاري من اعضائكم المعونة والشفاء لبني البشر . طوباكم يا ايها الشهداء الاربعون القديسون الشريف اكليلكم في السماء والارض . فامنحنا ايها المسيح الهنا ان نستحق الاختلاط معهم بصلوات قديسيك . وان ننتظم في مصافهم . وان ننزع عنا العالم بطلباتهم . ونعان بصلواتهم . وان يعطى العالم بأمان وسلام بواسطة تضرعاتهم . وأهلنا نحن الحقيرون الخطأة عبيدك . ان نرتّح يوم عيدهم المجيد بتراتيل الروح القدس يا ايها المسيح الهنا . وأهّل امواتنا المؤمنين ان يقوموا بالدالة امام منبرك المخيف . ونحن وهم نصعد لك المجد الآن وكل اوان والى ابد الابدين آمين » .

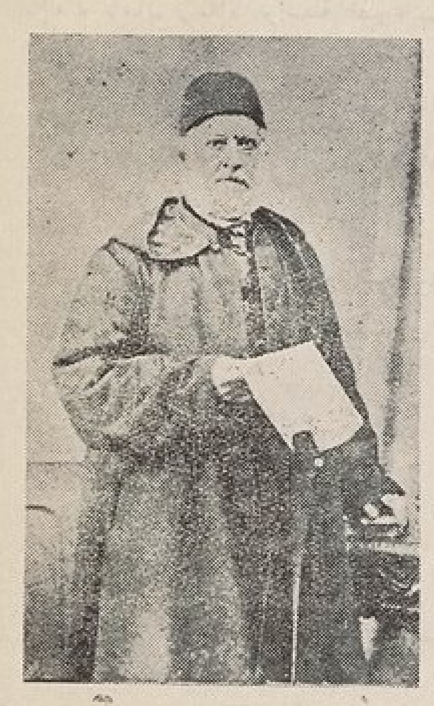
« كان تمام تحريره ومقابلته بيد أحقر الناس فارس بن يوسف الشدياق في كانون الثاني في قرية الحدث في ساحل بيروت سنة ١٨٢٥ مسيحية »

مختارات

التريذ علاج سوء الطبع البشري

بقلم فارس الشدياق
صاحب الجوائب ومحررها

قد أطنب المتقدّمون والمتأخرون في ذمّ الدنيا فقالوا : انها ختالة غدارة خدّاعة مكّارة ، خيتعور غرّارة ، لا تبقي على ذمام ولا تحفظ عهداً للكرام ، فشأنها ان ترفع الوضيع وتضع الرفيع ، وتهضم الحقوق وتنصر العقوق ، وتعادي اهل الفضل والادب وتنتهك حرمة ذوي النسب ، وتنصر الظالم على ظلمهِ والمجرم على جرمه ، وترتاح لعكس ذوي الاستقامة واهانة أولي الكرامة ، وتصل الفجّار وتقطع الابرار ، وتسلب الحر خلاقه وتقتر على اللبيب ارزاقه ، وتعطي من ليس اهلاً للعطاء وتشقي من هو جديرٌ بالسعادة والهناء ، وانها آل لا يروي صادياً ووبال يعمُ من كان دانياً وقاصياً ، وانها اذا وعدت أخلفت او اوعدت انجزت ووفت ، وانها طُبعت على الكدر وجُبلت على الضرر ، فما يسلم مسالمها من آفاتها ولا ينجو عازف نفس عنها من عاهاتها ، وقد عزوا اليها كل ما يحدث فيها من الشرور وجرّدوها



الشيخ فارس الشدياق
١٨٠٤ — ١٨٨٧

هو فارس الشدياق عين زمانه
من كان في نكت البلاغة أوحدا
جابت «جوائبه» البلاد بأسرها
وغدت لها غرر المعاني سجدا
عرف الجميع علو رتبة علمه
وبفضله اعترف الاحبة والعدى

فيليب دي طرازي

عن كل ما للعين به قرة وللنفس سرور ، كما ان الترك نسبوا ذلك الى الفلك والافرنج الى الزمان . والحق انه ليس شيء من الدنيا والفلك والزمان بملوم على هذه المثالب والمعايب ، وانما اللوم كلهُ على الانسان ، وانما شأن المذنب ان يتبرأ من ذنبه ويحيله على غيره . فانك اذا تأملت في الدنيا حق التأمل ، وجدت ان الخالق عز وجل قد خلق للانسان فيها كل ما ينفعه ويرضيه . فقد سخر له ما ظهر منها وما بطن وما خفي وما علن ، وأقدره على استخراج منافعها من المأكول والمشروب ، والملبوس والمفروش والمركوب ، ومكّنه من ان يتخذ من حيواناتها وارضها غذاءً ينمو به بدنه وتصلح حاله ، ومن معادنها حلياً يزداد به شارة وحسناً ، ومن اشجارها ما يركبه ويطوف عليه في البحار وما يركب منه آلات طرب تطربه في الليل والنهار ، وما يدفئه في اوقات البرد ويبرده عند الاحرار ، فلم يعوزه سبب من اسباب الحظ والسعادة ولا اراد شيئاً إلا وانفذ فيه مراده وادنى ابعاده . الا ان هذا الانسان المنهوم بالظلم والعدوان حوّل جميع تلك الحسنات سيئآت واتخذها لاهلاك غيره حيث اعتقد ان سائر الخلق بمنزلة الضرائر عليه ، فليس لهم حق في ان يتمتعوا بما يتمتع هو به فاراد ان يستبد بكل ما في الدنيا لنفع نفسه خاصة . ومن شاركه في شيء من هذا النفع فهو له عدو مبين ، وهذا شأنه من اول الخلق . فقد ورد في الكتب المنزلة ان قايين ولد آدم عليه السلام ، قتل اخاه هابيل على حين لم يكن في الارض سواهما . فاذا ضاقت الدنيا على رحبها عن اخوين شقيقين ، فأحرى ان تضيق الآن عن امم مختلفة وشعوب متنوعة .

ثم لما كان الانسان مطبوعاً على هذه الطباع كان لا بد له من وازع يردعه عن الشر ويهديه الى الخير ، فسلط الله على كل قوم ملكاً او اميراً وسخّرهم لطاعته كما سخّر للانسان كل ما خلقه في الارض . ولا بدع في ذلك ! فانّا نرى كثيراً من اصناف الحيوان تنقاد لرئيس فيسرع بها ويعود معها الى وطنه . الا ان الغرابة في ان ذلك الامير او الملك اذا اتخذ غيره من الملوك والامراء عدواً له ، يقول لقومه : يا قوم ! اني اميركم وان ذلك الامير عدوّ لي ، فينبغي لكم ان تكونوا جميعكم اعداء لقومه . فهذه النتيجة

لا محيد عنها ولا بد منها ، فان جميع الفلاسفة والمناطقة تقول بهذا . فاذا كان بينهم رجل رشيد يقول له : يا اميرنا ومولانا ، ومالك رقابنا وارواحنا واموالنا ! انك سيدنا لا محالة وإنا عبيدك على كل حالة . الا ان اولئك القوم ليسوا باعدائك لأنا نجوب في بلادهم ولا يؤذوننا كما انهم يجوبون في بلادنا ، بل بالأحرى في بلادك ولا نؤذيهم ، وإنا نأكل من طعامهم ونشرب من شرابهم ونلبس من ثيابهم ونزيّن ديارنا بأمتعتهم ، كما انهم يأكلون من طعامنا ويشربون من شرابنا ويلبسون من ثيابنا ويزينون ديارهم بامتعتنا ، وان بيننا وبينهم مواصلة ومعاملة ومصاهرة ومبايعة منذ أزمنة متقادمة فما ندري كيف نتخذهم متخذ الاعداء ، فلو بينت لنا سبب هذه العداوة لهان علينا الخطب . فيقول لهم والغضب متقد في أسرّته : ان الله تعالى سلّطني عليكم بالحق لتطيعوني في كل ما اريده ، لا لتخالفوا لي امراً او تردوا عليّ قولاً ، او لستم مكتنموني من عساكر جرارة وبوارج مخّارة وقلاع حصينة وعدد للحرب متينة ؟ فان لم تعادوا اولئك القوم كما عاديت اميرهم فاني اضري بكم هذه العساكر فتنتقم منكم اي انتقام . فان قالوا له ان نوابنا في مجلس الشورة لدى سدتك السنية وسلطتك الملكية يرون كما نرى ، وما احد منهم يستصوب ما تأمر به بطراً وتقترحه شرّةً وأشراً ، قال لهم :

ايها المغفلون !

انكم تقولون ما لا تعون ! او ليس نوابكم واهل مشورتكم هم الذين فوّضوا اليّ ان اباشر الحرب ؟ فلي ان آمر بها أيان شئتُ وعليكم ان تقوموا بنفقتها ، فان الله سخركم لي كما سخرّ الحيوان لكم . وحينئذٍ يأمر الجنود بغزو اولئك القوم الذين عاداهم لمعاداة اميرهم ، فينتدب ذلك الامير للدفاع عن نفسه ويوهم قومهُ انهُ قائمٌ للدفاع عنهم لكونهم وديعة الله في قبضته . ويقول لهم : ان قومَ ذلك الامير الظالم صاروا بالامس اعداءً لكم، فما كان لكم بهم من علاقةٍ من قديم الزمان فقد انقطعت اليوم ، فعليكم ان تدافعوا عن الوطن وعمّا لكم فيه من سكن . فيحشد القبيلان للقتال والطعن والضرب والنكال ، ولتخريب الديار وتعطيل العقار ، وتيتيم الاطفال وترميل

النساء وافساد الآمال ، فلا يكفّ احدهما عن الآخر إلا بعد اهلاك مئات من الوف النفوس ، وهو نصف الشر . والنصف الثاني توارث العداوة والبغضاء في ذراري ذينك الجيلين ، فكلٌ منهم يزعم ان لهُ ثأراً على الآخر ، فلا يزال يتربّص به الشرّ . فما ذنب الدنيا هنا ؟ وما جرم الفلك والزمان ؟ فهل للارض ان تقول : اخرجوا معدني الحديد واصنعوا منهُ مدافع لدكّ الحصون وتدمير المدن ؟ وهل للبحر ان يقول : اني ذلّلت لكم لتركبوا ظهري وتغيروا على البرور ؟

***

فان قيل : اذا كان الانسان مجبولاً بالطبع على الشرّ فما وجهُ اصلاحه؟ وهل يمكن ان يُحمل على غير ما جُبل عليه ؟ قلتُ : ان الانسان يمكن لهُ ان يذلل السباع الكاسرة ويحملها على التعليم وهو تغييرٌ لما جُبلت عليه. وقد قالت الاطبّاء : ان الانسان اذا تعوّد أكل السم من صغره فلن يضرّهُ في كبرهِ . فيمكنهُ والحالة هذه ان يتغيّر من حالة الشر الى حالة الخير، ولكن لا يكون ذلك بعد ان يُمرّن على الشر ويكلف به ، وانما يكون عند ترعرعه وتربيته بان يقول لهُ مربيه : ان جميع الناس من نسلٍ واحدٍ فهم في الحقيقة اخوان وان اختلفوا في الآراء والاديان . وكما انهُ لا يسوغ لاحد ان يعادي احداً لمخالفته لهُ في السحنة والكلام والعادة والاطوار ، كذلك لا يسوغ لهُ ان ينتقم منه لمجرّد مخالفته لهُ في الرأي والمعتقد او لمجرد قول رئيسه له انه عدوٌ له ، فاذا دُرب الولد على هذا عشر سنين وأغري بالصبر والحلم والعفو والمجاملة أثّر فيه ذلك كما يؤثر فيه التعليم والتأديب ، وهذا الامر فرض على كل من المربين والمعلمين والمؤدبين والوعاظ والخطباء ، وما ارى وجهاً لاصلاح الانسان غير هذا .

***

اما مطالعة الكتب التي تحث على مكارم الاخلاق وتهذيب الطباع فانها وان تكن في نفس الامر مفيدة ، إلا انها قلما تنفع في حال الكبر ، وانما

يكون نفعها في حال الصغر مع نصائح المربي ، فنلخص اذاً ان التربية وحدها هي علاج سوء الطبع البشري ، وانه ما دام الانسان مفكراً في أذى غيره فهو عارٍ عن التربية وان رأيته يبش لقدومك عليه ويطأطأ رأسه اكراماً لك ، فهذا كله تصنعٌ وتكلفٌ لا خير فيه ، فيا ليت شعري ! متى تربى الاولاد على اعتقاد ان جميع بني آدم اخوان ؟ وانه لا ينبغي ان يكون بينهم حسدٌ ولا ضغنٌ ولا مشاحنة فان ما قُدر للانسان من رزقٍ فهو آتيه لا محالة . وليس الضغن والمشاحنة سوى اسقام من أضمرها وجلبها على نفسه .

ثم متى تصلح الدنيا ويصلح اهلها اذا رأينا كتّاب الاخبار يغرون بعض الناس بعداوة بعض ولا يزالون مبربرين مثوثرين على تخطئة غيرهم مع انهم هم المكلفون بالقاء الصلح بين العباد وبارشادهم الى طريق السداد . ولكن منشأ ذلك انهم لم يتربّوا على الوجه الذي قدمناه ، وانما نشأوا على التعصب والزيغ منذ صباهم ، واذا كان لا بد من الاعتذار عنهم بكونهم كسائر الناس على الطريقة القديمة ، فلنجتهد في احداث هذه الطريقة الجديدة لازالة فاعلية ما كتبوه في صحفهم في المستقبل ، لا جرم انهم لم يكتبوا ما كتبوه الا بقصد ان يكون معمولاً به في مستأنف الزمان ؛ وأغرب من ذلك كله ان هؤلاء الذين يغذّون مسامع المنصتين لهم بالتحريض والتذمير والاغراء يدعون بانهم يفعلون ذلك حباً للحق . فكأنهم يقولون ان وظيفتهم تقضي عليهم بحمل الناس على المباغضة والمباعدة ، فبئست الوظيفة ! الا ليتهم يتذكرون يوماً أن الناس كلهم خلقوا من نفس واحدة ، وانّا نحن جميعاً اخوانٌ مكلفون بان يساعد بعضنا بعضاً بالالفة والاتفاق والمودة الخالصة ! وليتهم يقلعون عن الاستشهاد بالاقاويل القديمة التي تظهر في كل لون ، ويواظبون على الطريقة الجديدة التي اوضحناها لهم اذ لا لون لها إلا القاء السلم والمودة والمصافاة بين جميع الناس . فليعِ هذا من له أُذنٌ واعية .

(الجوائب)

في هواء مالطة ومنازهها

(من فصل له ايضاً)

... وممن ذكر مالطة ايضاً المطران جرمانوس فرحات في كتابه المسمّى «باب الاعراب عن لغة الاعراب» ، قال : ومالطة جزيرة عاصية متقاصية قرب صقلية ، سكانها لصوص البحر . قلتُ لعلّ تأليفه هذا الكتاب كان قبل سفرهِ الى رومية والا لمَا قال متقاصية ، او انه جاء بها للمجانسة . أمّا قولهُ سكانها لصوص البحر ، فينبىء بما كان لاهلها حينئذٍ من الشهرة الذميمة عند اهل المشرق . وكأن هذه الصفة كانت غالبةً عليهم حتى أنسته ان يقول : لغتهم العربية ودينهم النصرانية . فأما الصحاح فذكر ملطيّة في بلاد أرمينية ، والآن تعدّ من الممالك العثمانية .

أمّا هواء مالطة فلا يحمدهُ من ألف البرور الواسعة ، لانه كثير التقلب فيختلف في الليل والنهار عدة مرار . فقد يكون في الصباح صحوٌ فلا تشعر الا والغيم قد طبق اعنان السماء ، فيكفهر الجوّ ويهيج البحر وتثور الزوابع وتزمر الرياح فترقص لها الابواب ، بل قد يكون في النهار بردٌ وفي الليل حرّ ، هذا في الشتاء . فأما في الصيف فلا ترى في الجوّ لطخة سحاب ولا غادية اصلاً . وفصل الشتاء يبتدىء فيها من شهر تشرين الاول وينتهي الى ايار والباقي صيفٌ شديد ، وان وقع في خلال ذلك يومٌ معتدل فتأتي فيه نفحةٌ من الريح باردة وأخرى حارّة ، او تكون النعور ، وهي من الرياح ما فاجأك ببردٍ وانت في حرّ او عكسه . وفي الجملة فانها جديرة بان تسمّى مخزن الرياح فهي لا تخلو منها باردة كانت او حارّة ، واكثر رياحها في الصيف السافياء تأتي بغبار وتراب دقيق تطيّره على وجوه الناس وتدخله في الديار من خصائص الزجاج .

ومن الغريب ان الريح الشرقية التي تكون في الشتاء زمهريراً تصير في

الصيف سموماً فتتشقق بها اخشاب المنازل وهي مصبوغة وتصرصر بها روافد السقوف ويجفّ بها الزجاج ويتصلّب فيُكسر بأدنى مسّ ويقرمد بها الجلد والورق ، بل يتأثر بها الحديد والنحاس والعظم ونحوه وينتن شمع الشحم فتكون الشمعة في البيت كالجيفة ، وقد تبلغ درجات الحرّ فيها فوق المئة فيقضي الومد حينئذٍ بالمباس الخفيف من الكتان وبالنوم من دون غطاء . واكثر اهل مالطة ينامون ليلاً على السطوح لكون سطوح ديارهم غير مسنّمة بخلاف الديار في اوربا . واذا مشى الانسان خطوات في الصيف يعوم في عرَقه ثمّ لا يلبث ان تلفحه لفحةٌ من الريح فينبغي ان يكون أحذر من غراب . هذا ولما كانت ارض الجزيرة خالية عن الاجم والغياض والجبال والانهار ، اذ هي عبارة عن صحنٍ في وسط البحر فمتى اصابتها الشمس مسحتها مسحاً على السواء ، فلا ملطأ فيها من شيء ، وربما زاد حرّها ايضاً بسبب النار التي تخرج من جبل صقلية . ومع قربها من ايطاليا فليس في ديارها رخام كديار تونس ، وليس في شيءٍ منها مياهٌ جارية كديار الشام .

ومن جملة الاسباب التي تجعل شتاءها عارماً مكروهاً كون بنائها من حجرٍ رطبٍ لو جُعل في مقمأة بضع سنين لأكلأ ، وحين يُستخرج اولاً من مقطعه يكون اخضر مائثاً ولا يبيض الا اذا نُصب للهواء والشمس سنين . ومن خواصه انه قابلٌ للنقش فلهذا ترى منه في الديار والكنائس نصمات شتى وقد يُبعث منه على سبيل التجارة الى جميع البلاد ، وكثيراً ما تتوارى الشمس في فصل الشتاء فلا تطلّ فيه ولا من شبّاك ، فأين هذا من شتاء مصر حين يترحب بالشمس طالعةً وتشيّع غاربةً ، وفي الصيف يطفو نيلها فيرطّب الارض وينتظم بهِ شمل الاحباب وعقود المسرات . واذا اتفق في مالطة يوم صحو في الشتاء رأيت الناس جميعاً يعددون محاسنه ويصفونه ويلهون عن سوء ايامهم الأخر حين ان الرياح تأخذ بناصية السائر والمياه تهطل من أنف كل سحاب والزكام ملازم للانوف والسعال قابض على الحلقوم . وأشد ما يسوء منها استمرار الرياح اياماً متوالية من دون مطر ، فأنه قد يأتي عليها من السنين ما لا يغزر فيه المطر ، والرياح مع ذلك لا تهدأ اصلاً . وقد احتاجوا في بعض السنين الى الغيث غاية الاحتياج

حتى فرض عليهم اسقفهم دعاءً للاستمطار ، في الكنائس مع الصيام ، والريح مع ذلك تزيد عصوفاً ، فقلتُ :

ولما لم يطق كانون قطراً   تولّى وهو يحبق بالرياح
فيا قوم اغسلوا بالدمع فيه   وجوهكمُ وصوموا عن سفاح

وفي الجملة فان صيف مالطة وشتاءها شاقان جاهدان يهجمان بغتةً ، فآخر ذَنَب الشتاء معقود بناصية الصيف ، فليست كمصر والشام ، فان الانسان فيهما يتعود على تخالف الفصول شيئاً فشيئاً ، وليس من علامات الربيع شيءٌ بمالطة سوى تكاثر البراغيث فهي آفةٌ من الآفات ، ولا من علامات الخريف سوى تناثر اوراق الشجر المعدودات ، ومع ذلك فان كثيراً من الانكليز يأتون اليها ليقضوا فيها الشتاء . أمّا عدم المطر فيها في الصيف فسببه قلة الشجر والغياض ، فان السحب اذا مرّت فوقها لم تجد مـا تجذب منه رطوبة ، ولعلّ الادوية والعقاقير التي تبقى مدة طويلة في مالطة تفسد بالكلية ويزول ما بها من الخاصة ، فان التبغ والنشوق والخمر اذا بقيت فيها زماناً يزول طيبها رأساً لان مبلط الديار وحيطانها وسقوفها من حجر ندّ كما مرّ ، فاذا وضعت مثلاً ملحاً في خزانة لا يلبث ان يندى كأنه خُلط بالماء . وكذلك تعفن المأكولات والمشروبات اذا وُضعت في مخدعٍ من خشب مصبوغ ، فان النداوة تسري الى الصبغ ، ولذلك كان البدل وهو داءُ المفاصل شائعاً في مالطة وقلّ من يسلم منه ، وقد أصبتُ به اول سنة ، فكنتُ أقوم في الصباح موجع الاعضاء لا انشط الى شيءٍ ، ومـا زال ذلك يتزايد بي حتى لزمتُ الفراش ، فلما عادني الطبيب ورأى مبلط المنزل أخبرني بالسبب فعظم عليّ ذلك . ثم لما سمعتُ بان اكثر الناس ممنيون به هان عليّ ما لاقيتُ وتأسيتُ بهم . ودواء هذا الداء الاقامة في محل مواجه للشمس عند طلوعها . وقد كان يعلو كتبي من أثر النداوة عطنٌ يلتصق به بعض الورق ببعض . ومن جعل مرقدهُ قرب حائط فلا يأمن غائلة صداع او وجع اسنان ، ومن يكن ذا علةٍ في صدرهِ فأعظم خطرٍ عليه التعرض للريح بعد ان يكون في محلٍّ دفيء ، مع ان الغالب على اهلِ مالطة الشدة

والقوة ، غير انهم وُلدوا على هذه الحال فلا تؤثّر فيهم رداءة المكان ولا الزمان . ومما توصي به الاطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلانلّه صيفاً وشتاءً . أمّا في الشتاء فللدفء ، وأمّا في الصيف فلتنشيف العَرق ومنع ضرر الريح النافذة في المسام ، حتى انهم يخشون من الريح على الحيوانات فانهم اذا اوقفوا الحصان في سيرهِ أداروا وجهه الى غير جهة الريح ، وقس على ذلك .

أمّا ارض مالطة فانها ملطة صخرة جرداء قليلة الثرى والشجر والنبات، ودائرها كله صخر لا ينبت فيه شيء ، إلا انه لشدة اجتهاد اهلها وفرط كدحهم ينبت فيها اكثر اصناف البقول والفاكهة لكن غلّتها لا تكفيهم اكثر من اربعة اشهر والباقي يُجلب اليهم من بلاده .. أمّا حدائقها فأشهرها حديقة « صانت انطونيو » مقرّ الحاكم في الصيف وهي التي نزل بها الامير بشير شهاب بأهله ، أخلاها له الحاكم اجلالاً لشأنه وهي نضيرة حسنة الوضع إلا انها في منخفض من الارض ، وليس فيها مقاعد او مواضع ليأكل فيها المتفرّج او يشرب ، وليس للمالطيين عادة ان يأخذوا الى مثل هذه المتنزهات طعاماً لا في الاعياد ولا في غيرها اتباعاً لعادة الانكليز ، اذ لا يمكن لهم الجلوس إلا على كرسي ، فغاية حظهم من ذلك انما هو المشي ، او ان يضع احدهم ذراعه بذراع صاحبه ويمشيان الجيلاء ، او ان يمشي وحده وهو يصفر ويمكو ، وعلى تقدير وجود رصف عندهم او روضة فلا يعرفون كيف ينبسطون عندهما سوى بالمشي . واعرف رصفاً يسمّى « البياتا » انيقاً جدّاً ، ولكن ليس فيه محل للقهوة ولا للمثلوج ولا مطعم ولا آلة طرب ولا كرسي يجلس عليه ، ولو كان مثله في باريس او في مصر او الشام ، لرأيته من أوله الى آخره مرصوفاً بالكراسي والمتكآت ومشتملا على كل ما تطيب به النفس . وفي الجملة فان الانكليز والمالطية جميعاً لا ذوق لهم في مثل هذه الامور ...

(الواسطة في معرفة احوال مالطة)

نبذة في القمر

(لهُ ايضاً)

سعة قطر القمر ٢،١٥٣ ميلاً ، وبُعدهُ عن الارض ٢٣٧،٠٠٠ ميل ، ونورهُ أقلّ من نور الشمس بنحو ٨٠١،٠٧٢ مرّة ، وهو يدور حول الارض في كل تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم مرّة واحدة ، وذلك عبارة عن ٢٢٧ ميلاً في كل ساعة . ومتى كان موقعه بين الشمس والارض اختفى عنا ، ومتى قابل الشمس صار بدراً فيكون طلوعه عند غروبها وغروبه عند طلوعها ، وثقل الهيولى الموجودة فيه هو بمناسبة جزءٍ واحد من تسعين جزءاً من اجزاء الارض او اكثر بشيءٍ ما ، فاذا كانت اجزاء الارض مثلاً مليوناً على التساوي كان جرم القمر مساوياً منها لأحد عشر ألفاً وثلاثمئة وتسعة وتسعين جزءاً . قالوا : وليس للقمر جوٌّ ولا سحاب ولا ماء . أمّا الماء فلأنه لو كان موجوداً فيه لكان من شأنه ان يتولّد عنه بخارٌ او سحاب ، ولو كان فيه شيءٌ من هذين لكنا نشعر به من اختلاف النور والظلّ اللذين يتكوّنان عنه بالضرورة ، واذا ثبت الدليل على عدم وجود الجوّ والماء فيه قلّت الجدوى مِن دعوى مَن يدعي بانه مسكون بخلائق أمثال الخلائق الارضية . ويؤيد الدعوى بعدم وجود الماء فيه إنّا لا نرى فيه ما نرى من منظر الماء الدائم الحركة ، وعلى فرض ان له جوّاً وليس له ماءٌ فلا يكون ذا سحابٍ ولا صالحاً لان يعكس النور .

ثمّ انه ليس لنور القمر خاصية محرقة ، فان بعض الطبائعيين قد جمَعهُ في مرآة مجوّفة فلم يرَ له فيها تأثيراً ، ولو كان ما جمَعه من نور الشمس قدر ما جمعه من ذلك ، لأحدث فيها تأثيراً بليغاً ، إلا انه اذا ثبت ان نور القمر غير محرق فليس من الصواب ان يقال انه بارد ، اذ لا يؤثّر شيئاً في ميزان الهواء إلا حرارة ولا رطوبة . وقد لحظ فيه مواضع نور ومواضع ظلّ لا تتغير ابداً ، وحين يكون هلالاً ويُنظر منه بالمنظار ذلك

الحاجز المقعّب الذي فيه ، وهو الذي ينتهي اليه النور ويبتدىء منه الظلام يُرى في هذا التقعّب أمتّ وتفاوت ، وهو من الأدلة على ان فيه ارتفاعاً وانخفاضاً ، اذ لو كانت صفحته كلها محتثة متساوية الانبساط لم يُرَ فيه مثل هذا التفاوت . وحاصل الدليل ان فيه جبالاً وأودية وذلك لا ينفي كون جرمه كرويّاً ، وقد اصطلحوا على تسمية هذه الجبال باسماء مخصوصة منها : غلاويوس دورته اثنا عشر الف ميل مربّع . ومنها بتوليماوس دورته ستة آلاف ميل مربّع ايضاً وطيخوس وهو لكبره يرى في القمر اذا كان تمّاً من دون منظار . وقد كان بعض المتقدمين من مشاهدتهم فيه ندحاً ذات لون ترابي يتوهمونها بحوراً فسمّوها ايضاً باسماء معيّنة ، غير انه بعد اتقان المناظير الكبيرة وُجدت انها كسائر المواضع من صفحته في الارتفاع والانخفاض فجزموا بانها ليست مياهاً ، وانما هي تخالف سائر البقاع في كثرة وجود الجبال بها ، واكثر المواضع بياضاً هي الجبال التي تفوق غيرها في المقدار والارتفاع ، وعلوّها بالنسبة الى مقدار جرم القمر أعلى من جبال الدنيا . وزعم هرشل ان في القمر جبالاً تشبه جبال النار .

ثمّ ان الذي عليه ارآء الناس قديماً وحديثاً ، ان للقمر تأثيراً في الهواء من حيث الصحو والنوّ وذلك عند صيرورته هلالاً غالباً فانهم يزعمون انه اذا كان قبله صحو يعقبه نوء وبالعكس ، وكذا عند تنقله في كل ربعٍ من ارباعه ، غير ان المحققين من المتأخرين استقروا هذه القضية بغاية التدقيق والتحري ، فاتضح لهم ان هذا التأثير ليس صحيحاً على اطلاقه ، ولكن هناك بعض مناسبة بين احوال القمر والمطر مثلاً بالنظر الى موقعه من الشمس لا بالنظر الى مطلق التأثير ، فعلى هذا فيكون هذا التناسب مشتركاً بين كلٍّ من الشمس والقمر .

ثمّ بناءً على الزعم الاول نسبوا اليه التأثير في جريان الماء في النامي وفي نموّ الشجر وقطعها حيث قالوا : ان القمر اذا احمرّ في اواسط نيسان وسلخ تموز فانه يكون مؤثّراً في النبات ، فانه اذا صحا الجوّ وقتئذٍ وأصاب النبات نور القمر احمرّ وذوى كما لو اصابه الصقيع ، فاذا تخلل الجو

سحابٌ يمنع نوره اندفع الأذى . وكذلك زعموا انه يؤثّر في قطع الخشب ولذلك لا يقطعونه إلا عند نقصانه ، لانه اذا قُطع عند الزيادة ينخر ويبلى. وهذا الزعم قد بلغ من الشهرة والانتشار بحيث انه بُني عليه حكمٌ من احكام دولة فرنسا من جهة الشجر ، وعليه مشت الانكليز ، الا ان الدكتور دهمال الفرنساوي أثبت بالتجربة ان قطع الخشب في حالتي الزيادة والنقصان على حدٍّ سوى .

ثمّ زعموا ايضاً ان نور القمر يؤثّر في سحنة الانسان ، وهو ايضاً مظنّة للانكار وان كان لا يُنكر ان للنور تأثيراً في الاجرام المادية بدليل تقصير الثياب وهي معرّضة للشمس وتثبيت النبات في موضعٍ لا يصيبه نورها ، فان ألوانها حينئذٍ تأتي مخالفةً لما يبرز منها في نحو مضحاة ، غير ان الطبائعيين وضعوا في نور الشمس هذا المائع الأبيض المتخذ من الفضة ويقـــال له : « كلورين » فاسودّ ، وعرّضوه ايضاً لنور القمر فلم يؤثّر فيه شيئاً فاستدلوا من ذلك على عدم تأثيره ايضاً في السحنة .

وزعم الجزارون ان القمر يؤثّر في عظم الحيوان ، فانهم وجدوا النخاع فيه على انواعٍ مختلفة وهو ايضاً وهمٌ . وزعم بعضٌ انه يؤثّر في محار البحر ، فانهم توهموها في مدة زيادته اكبر منها في مدة نقصانه ، وليس زعمهم بشيء . وزعم آخرون ان ولادة الاطفال ونتاج الحيوان تكون في مدة النقصان اكثر . وقد علم بالتجربة والاستقراء ان ذلك غير صحيح .

فأمّا تأثيرهُ في الامراض فان الزعم به متمكن في خواطر الخاصة فضلاً عن العامة ، وحسبك ان بقراط مع جلالة قدره كان يقول : ان الطبيب الذي لا يعرف علم النجوم لا يُعتمد عليه ، فانه يلزمه ان يتحرّى أصلح الاوقات لاعطاء الدواء . وكذا قال غاليناوس من بعده ، وكانا يزعمان ان بحران المريض يأتي في اليوم السابع والرابع عشر والحادي والعشرين ، وهي الايام التي ينتقل فيها القمر من حالٍ الى حال ، بل جعلا ايضاً جسم الانسان بمنزلة عالمٍ صغير فنزّلا القلب فيه منزلة الشمس في الافلاك والدماغ منزلة

القمر . وكذلك نسبا للكواكب تأثيرات في الاعضاء ، فزعما ان المشتري يتولّى الرئة ، والمرّيخ يتولّى الكبد ، وزحل يتولّى المرّة ، والزهرة تتولّى الكليتين ، وعطارد يتولّى آلات التناسل ، وهلمّ جرّا . وهذه الاوهام وان تكن قد تقلّصت إلا ان تأثير القمر في المريض لم يزل مذهباً لكثيرٍ من حذّاق الأطباء الى يومنا هذا .

(الجزء الاول من كنز الرغائب في منتخبات الجوائب)

ادب الدارس بعد المدارس

من خطاب الشيخ ابراهيم اليازجي القاه في اثناء الاحتفال بتوزيع الجوائز على طلبة المدرسة البطريركية في بيروت في ٢٠ تموز سنة ١٨٩٠

ايها السادة . قد دُعيت للكلام بين ايديكم بما يتنزل منزلة خطاب اصرف به مسامعكم الى غير ما يُتلى عليكم من هذه الاسماء المتتابعة والاعلام المتناسقة استدعاءً لجمام الخواطر ودفعاً لما ينشأ عن مثل ذلك من ثقل الملل ، وان كان ولا ريب مما ترتاح اليه نفس كل وطنيّ يرى سباق فتياننا الاذكياء ومباراتهم الى نيل قصب السبق في مضمار الفلاح . غير ان ضيق الوقت واشتراط الايجاز في القول يمنعانني من تخير غرضٍ ذي بال أفيض فيه في هذا الموقف الحافل ، ولاسيما ونحن في معمعان الفصل وتوقد وطيسه ، مع اعترافي بقلة البضاعة وقصر الباع . ولذلك رأيت ان اوجّه كلامي الى الحلقات الأوَل من طلبة هذه المدرسة الماثلين في هذا المقام مقام الوداع ليكون بمنزلة درسٍ أخير القيه عليهم في هذه السنة تثبت في محفوظهم آثارهُ ولا يذهب من نفوسهم تذكارهُ . والله المسؤول ان يتولاني واياهم بهدايته وتسديده.

فانكم ايها التلامذة النجباء ، بل الاخوان الاحباء ، قد قضيتم ههنا الشهور بل الاعوام حتى بلغتم الحد الذي فيه عرفتم من انفسكم معنى تحمّلكم

مشاق الدرس والسهر وحمل طبائعكم على الجهد والنَّصَب وفطم انفسكم عن ملاهي الحداثة واعطاء قياد اهوائكم لمن يسوسها دونكم ، ومهاجرة المنازل التي ألفتموها والاهل الذين نشأتم بينهم والاخوان الذين جمعتكم وايام دار المولد وألّفت بينكم وبينهم عشرة الصباء . وما فيكم من يجهل ما في انشاء هذه المدرسة من مهات التكاليف بين تشييد بنائها وإعداد مُحلاتها وتوفير الرجال فيها على سياستكم وتهذيبكم والقيام عليكم في دروسكم وغذائكم ومنامكم وسائر احوالكم ، وما يتجشم اولياؤكم من النفقات الطائلة والاهتمامات المتواصلة ، وان ذلك باجمعه وقفٌ على مصلحتكم وسعيٌ في شؤون آتيكم وتبليغكم الطور الذي تكونون فيه اهلاً لان تقبضوا على ازمّة عصركم وتحلوا المحلات الاولى من مجتمعكم ، وتكون لكم القدم السابقة في نشر المدنية وتعزيز شأن الوطنية والسعي فيما يعود نفعه عليكم وعلى البلاد .

فاذا خرجتم من هذه المدرسة وفي ايديكم الاجازات المؤذنة باستكمالكم دروسها ، فاول ما اوصيكم به المثابرة على درس ما تلقيتموهُ فيها وتعهّد الذاكرة به مخافة ان يسرع اليه النسيان ، فان آفة العلم كما قيل اهماله. فاجعلوه حديث النفس في خلواتكم وتذاكروه في مجالسكم وروضوا باسراره خواطركم حتى تستحكم ملكته في اذهانكم وترسخ مسائله في مخيّلاتكم وتمثل صوره في بدائهكم ، ولا تقنعوا منه بالقدر الذي بُلّغتموه في حلقات الدرس ولكن استزيدوا ما وصلت اليه ايديكم منه وخذوا انفسكم بادمان البحث والاستقراء لادراك كنه المسائل والاحاطة باطرافها واستظهار نادّها وغريبها ، فان المدرسة لا تضمن لاحد ممن تلقّى علومها ان يخرج منها عالماً ولا ذلك في غاية شيء من المدارس ولا في طوقه ، وانما العالم يصير عالماً في بيته وفي مقام شغله وهو استاذ نفسه على الحقيقة يبلّغها الكمال بادمان الجهد وتكرار المطالعة والاشتغال . ولستُ انكر على آحاد منكم بلغوا في التحصيل مبلغاً عزيزاً واحصوا من الاصول والقياس حظّاً جليلاً ، غير اني لا أطرىء احداً منهم بانه قد استولى على شيء من غايات العلم ولا تقرّب من حدود الكمال فيه ، ولكني أبشر الذين بلغوا هذه المنزلة وانتهوا الى آخر درجة من سلّم الدروس بانهم قد صاروا اهلاً لان يضعوا قدمهم في اول درجة

من سلـّم العلم ، ورجائي بما عهدت من ذكاء افئدتهم وثبات عزائمهم انهم سيُحصون عن قليلٍ في سواد اهل العلم القائمين برفع مناره والتطريس على آثاره ، اذا لم تهبّ عليهم ريح الكسل التي تطفىء نور الذكاء وتنسف حصون الثبات ، الا وهو الآفة التي أحذركم شرّها واسأل لكم العافية منها ، واذا جاوزتموها لم اخشَ على عزائمكم ان تُكسع بوهن ولا على جهدكم ان يُنال بضياع .

ولست ازيدكم بياناً ، ان العالم لا ينفع بعلمه الا اذا كان راسخ القدم فيه مستبطناً لاسراره ودخائله ، محيطاً بما تشعب من فروعه ومسائله وذلك مما لا يُنال الا بطول المزاولة وتكرار المراجعة وتفريغ الذهن لما يُتوخى حفظه واخلاء الذرع لاحصائه . ولذلك فاني انصح للمستزيد منكم ان لا يتعرض لما لا يعنيه من العلم ولا يتجاوز ما درسه الى غيره قبل ان يستوفي حظه منه ويرسخ في ملكته . وان وجد من نفسه قدرةً على التوسع وميلاً الى المزيد فليكن فيما يجانس مأخذه وينضمّ في سلكه بحيث لا يكون انتقال الذهن بعيداً ، ولا تتعارض فيه صور العلوم بما يُضعِف ملكتها فيه وتضيق الحافظة عن احصائه . على ان المرء مفطورٌ على التطال مولعٌ بالاطلاع عـلى ما لم يعلم ، ولكل علمٍ فائدة تتوفر بها مادة العقل ويتسع مذهب الفكر ويبعد مرمى البصيرة ، فلا يمتنع على من شاء منكم ان يزين علمه بما يضمّ اليه من سائر العلوم ويشحذ ذهنه بما يصل اليه اطلاعه من المدارك ، ولكن ليكن ذلك بحيث لا يصرفه عما هو فنّه الجدير بالتوسع فيه ، وليقتصر فيه على حد المشاركة دون التبحر وقصد الاحاطة لئلا يقصر باعه عن تناول كل واحد من العلوم التي يتوخّاها فيخرج متخلفاً في الجميع . وان سمعتم ان فلاناً المنعوت بعلامة العلماء وفيلسوف العصر قـد احاط بمتفرق العلوم وأصبح في كل منهـا إماماً فانما هو تزيين المحال وتلقين الغرور ، وهؤلاء مشاهير علماء المتقدمين والمتأخرين لا تكادون تجدون واحداً منهم ممن يشار اليه بالسبق والتبريز الا وهو قـد اشتهر بجنس من العلم ولم يكن لهُ في سائر العلوم الأخر إلا مشاركات .

واذا ضمكم مجلس ادب وتشمرتم للبحث فيه فلا تتفرغوا للنقد والتخطئة

والتنبيه على هفوات اهل العلم ارادة ان تكاشفوا الناس بمبلغ علمكم وتوهموهم انكم ارفع ممن تخطئونه مقاماً واوسع علماً ، فان ذلك يبعث النفار منكم في النفوس والاشمئزاز في الصدور ، وتُلحظون بعين الكراهة من وصفائكم واغاطكم وتنصبون انفسكم اغراضاً للقارضين واهدافاً للطاعنين ، وتغرون الالسنة بالغض من مزيتكم واحسانكم فيكون ذلك سبباً في حط مقامكم ونصب العداوة لكم والوقوف لكم بالمرصاد فيما تتوخونه من المقاصد وتتجهون اليه من الرغائب . واحذركم كل التحذير من الطعن على من اشتهر بفضلٍ او مزية واعترف له سواد الناس ولاسيما اهل العلم بالتقدم ، فانكم ان فعلتم جعلتم انفسكم غرضاً لكل من تشيّع له فاكثرتم اعداءكم ومناصبيكم في حين انتم على حدثان امركم احوج الناس الى الاستكثار من الصحابة والاصدقاء والمشايعين في احوال الدنيا والدافعين الى التقدم في مراتب الشهرة والفضل . ولا تحسبنّ الناس سواءً في معرفة الصواب فان ذوي العلم فيهم نفرٌ معدود والمنصفون من اولئك قليل ، وفيهم من لا يهمه ان يعرف موضع الحق فلا يتفرّغ للبحث في دعواكم وانما يحكم بمجرد ما تقرر في علمه او سبق الى وهمه من افضلية الاشهر فلا تحصلون منها على طائل . واذا كان ذلك حال العلماء ، وهو الواقع في كثير من الامر ، فما الظن بغيرهم ممن لا اداة له للحكم ولا موقع عنده للفصل ......

(الضياء . السنة السادسة)

نقد الدرة اليتيمة

(من بحثٍ له أيضاً)

اهدى الينا حضرة الاديب خليل افندي الخوري صاحب المكتبة الجامعة في بيروت نسخةً من هذه الرسالة الأنيقة وهي من تأليف الكاتب البليغ المشهور عبدالله بن المقفّع أودعها فنوناً من الحكمة وآداب المخالفة والمعاشرة

وما ينبغي للانسان ان يتزيّا به من الاخلاق في مصاحبة الحكّام ومخالة الاصدقاء ومداراة الشانئين والحسّاد وما يسلكه من الطرُق لاتقاء الاعداء واصحاب الطوائل والتسبب الى النيل منهم وردّ كيدهم اليهم . وكل ذلك مما لقنته التجربة واعانته عليه الحنكة وارشده اليه ذكاء قلبهِ وتوصّل اليه بعين النقد والاعتبار وتتبّع الامور بالنظر الصادق والقلب الحافظ بحيث كان لا تمرّ به واقعةٌ ولا يجري امامهُ امرٌ إلا تمثّل فيه عبرةً وانتزع منهُ حكمةً واستفاد به بصيرةً . فاتى في عامّة الكتاب بما لم يُسبق اليه ولم يجمعهُ من قبله جامع . ولا غرو ان يصدر مثل ذلك عن هذا الرجل الكبير على ما اشتهر بهِ من سعة عقله وبُعد نظرهِ وغزارة علمهِ وقوّة عارضتهِ وما عُرف بهِ من بلاغة الكلام وسحر البيان والحكمة الرائعة . وكيف لا وهو معرّب كتاب كليلة ودمنة المشهور الذي لو لم يكن لهُ فيه إلا انه كساه من ديباجة لفظه ووشي بيانه ما كان بهِ نسيج وحده في التصانيف العربية فضلاً عن المعرّبة وما لا يزال بهِ على الدهر جديداً لا تبليه الليالي ولا تغيّره الايام ، لكفاهُ دليلاً على غزارة فضله ورئاسته بين ارباب البلاغة وامراء الانشاء .

ولا بأس ان نورد هنا لمعةً يسيرةً في المقابلة بين كلامه في هذه الرسالة وعبارتهِ في تعريب كليلة ودمنة ، لا نقصد بذلك غير فائدة النقد وما يترتب عليه من استخراج الحقائق وارشاد البصائر ، فان من تتبّع الكتابين بالنظر النقّاد وتصفّح اسلوبهما بالذهن الشفّاف واعتبر بعضهما ببعض فلا جَرَم انهُ يرى كلامه في كليلة ودمنة اخلص الفاظاً وانقى ديباجةً وأنصع الواناً واشدّ انسجاماً حتى تُرى عبارتهُ هناك جوهراً صافياً ونسقاً مطّرداً لا يتوقف دونها الفهم ولا تُجهد عندها الرويّة ولا يعترض بيانهُ فيها لبْسٌ ولا اشكال . واذا اعتبر كلامهُ في الدرّة وجد كثيراً منهُ غير خالصٍ من التعقيد والاضطراب قَلِق الاسلوب صعب الاستخراج غير نضيجٍ على الجملة ولا منقّح العبارة . بلى ان النسج في كلا الكتابين واحدٌ وطبقة الكلام لا تختلف ولكن هناك من الاندماج والسلاسة وانقياد الاغراض واطراد السبك ما لا تجدهُ هنا . ولعلّ ذلك اذا تتبّعت اسبابهُ واردٌ من

كثرة تداول الايدي لذاك دون هذا ، فكان مثلهُ مثل الدينار الذي كثر التعامل به وطال تنقله من يدٍ الى يد حتى ازالت الايدي حرشتهُ وعاد املس ناعماً . وذلك ان كتاب كليلة ودمنة قد رُزق من الشهرة والاستحسان واجماع العقول على ايثاره ما لم يُرزقه كتاب في بابه ، وهو الى اليوم اشهر من نارٍ على علمٍ ، ولا تكاد ترى متأدباً إلا وقد اطلع عليه وشُغف به ، وطالما كان موضع ارتياح للملوك والرؤساء والعلماء والادباء، وقد كثرت عنايتهم به وخدموه خدمةً لم يخدمها كتاب فما منهم إلا من انتسخه او استنسخه فضلاً عمن نظمه من شعرائهم فكان الناسخ من اهل الذوق والبصر بالانشاء اذا رأى فيه منقفاً أزالهُ او أوَداً أقامه فلم يغادروا فيه عبارةً نافرة ولا لفظةً قلقة ولا تركيباً ثقيلاً ، بحيث انه على تمادي الزمن وتكرر النسخ تمّ تهذيبه وتنقيحه . والذي يدلّك على صحة ما نقول انك لا تكاد تجد نسختين منهُ تتواطآن على لفظٍ واحد حتى ان دساسي فيما روينا عنه في « الطبيب » (الجزء الثاني عشر صفحة ٢٣٨) كان بين يديه سبع نُسخٍ منه كل واحدة مباينةٌ للاخرى . وهذا مما يدل على فضل هذا الكتاب ولا يغض من قدر معرّبه شيئاً اذ الكلام لا يزال كلامه والأسلوب اسلوبه ، وبمقابلته بالدُرّة التي نحن في الكلام عليها يظهر لك مصداق ذلك وترى ان ديباجته مع ما تبدّل عليها من النقوش والزخارف لم يتبدل متنها ولا تنكّر لونها ولكنها ما زالت تُعرف لأول لمحةٍ لا تغيب عن معرفة الناقد وتمييز العارف .

على أنّا لا ننكر ان اكثر ما في عبارة الدرّة من السقم والاضطراب انما ورد عليها من قِبَل النسّاخ وشتّان ما بين صنيعهم هنا وصنيعهم هناك، ولكن كل ناسخٍ انما فعل بمقدار علمه فان الذين نسخوا هذه الرسالة لم يَعْدوا في الاكثر حال سائر الناسخين ممن لا علم لهم بما ينسخون ، والذين تولوا نسخ كليلة ودمنة كان الكثيرون منهم من فحول اهل الانشاء والمعرفة باسرار اللغة واساليب الكلام ، فلا عجب ان جاء كلٌّ من نُسخ الكتابين على ما وصفنا ، والله اعلم .

واثباتاً لما ذُكر وتنزيهاً لعهد المؤلف عن كثيرٍ مما جاء في هذه الرسالة ،

ننقل هنا بعض المواضع التي اشرنا اليها مما أفسده تحريف النسّاخ ، وما لعله اجتمع اليه من اغلاط الطبع التي هي فاشية في كتبنا العربية لا يكاد يسلم منها كتاب ، والتي هي ولا جَرَم اعظم ضربة على المصنّفين والكتّاب. فمن ذلك ما جاء في صفحة ٩ ، وهي الصفحة الاولى من الرسالة «غير ان الذي نجد في كتبهم هو المنتحل في آرائهم والمنتقى من احاديثهم» فان قوله «المنتحل في آرائهم» غريبٌ في هذا الموضع لا يستقيم له معنىً ولا هو مما يحتمله سياق الكلام وصوابه «المنتخَل» بالخاء المعجمة وهو بمعنى المنتقى الوارد بعد مع تبديل لفظ «في» بلفظ «من» وهو الوجه السديد الذي لا غبار عليه كما ترى .

ومن ذلك في صفحة ١٠ «في تحرير صنوف العلم وتقسيم اقسامه وتجزئة اجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذهم» فان هذه المخالفة في صيغ الضمائر لا وجه لها بل منها ما يُفسد المعنى كما ترى . والوجه ايرادها جميعاً بلفظ التذكير والافراد عَوداً على العلم .

وفي صفحة ١١ «واعلم ان من العجب ان يُبتلى الرجل بها (اي بالامارة) فيريد ان ينتقص من ساعات نَصَبه وعملِه فيزيدها في ساعات دعته وشهوته» فقولهُ «من العجب» لا معنىً لهُ في هذا المقام كما ترى ولا ما ذكرهُ بعدهُ مما فيه عجبٌ اذ اكثر الناس على هذا السبيل من ايثار الدعة واللذة . بل الاظهر ان الاصل «من العجز» فأبدلهُ الناسخ سهواً أو عمداً لانه لم يفهم معنى العجز هنا وهو نقيض الحزم فانثلم بذلك المعنى وتشوّهت صورته كما ترى .

وفي صفحة ١٣ «لئلا ينتشر من ذلك ما يجترىءُ بهِ سفيهٌ او يستخفّ لهُ شأنٌ» ، ولا معنىً للشأن هنا كما ترى . والصواب «شانئٌ» .

وفي الصفحة نفسها «واعلم انك ما شُغلت من رأيك بغير المهمّ أزرى بالمهمّ» شُكلت الشين من «شغلت» بالضمّ فتنكّر المعنى واضطربت سلسلة الكلام لان «ما» صارت على هذا شرطية زمانية والمقصود ان تكون

اسماً موصولاً يرجع اليه ضميرٌ محذوف بعد شغلت ، وذلك على حدّ قولهِ بعدُ « وما صرفتَ من مالك بالباطل فقدته حين تريده للحق وما عدلتَ به عن كرامتك الى اهل النقص أضرَّ بك في العجز عن اهل الفضل ».

وفي صفحة ١٦ « لا يلومنّ الوالي على الزلة من ليس بمتّهم على الحرص على رضاه » والصواب في « الحرص ».

وفي صفحة ١٨ « لا يعرفنّك الولاة بالهوى في بلدةٍ من البلدان ولا قبيلة من القبائل فيوشك ان تحتاج فيها الى حكاية او مشاهدة فتُتّهم في ذلك » وفيه خطأ يعلم الله مكانهُ والا فهذا الكلام لا يمكن ان يصدر عن قلم المؤلف . ثمّ ان قولهُ « في بلدةٍ من البلدان » فيهِ تحريفٌ بزيادة التاء على بلدة ، لان فَعْلة لا تُجمع على فُعلان وانما البُلدان جمع بَلَد مثل حَمَل وُحملان وجمع البلدة بلاد .

وفي صفحة ٢١ « لا تُحضِرنّ عند الوالي كلاماً لا يعني ولا يؤمر بحضورهِ إلا لعنايةٍ بهِ او يكون جواباً بالشيء سُئلت عنه » وفي هذا الكلام من الاضطراب والابهام ما لا يخفى ولا تُعين حروفهُ على معرفة أصلهِ ، بيد ان قولهُ « جواباً بالشيء » فيهِ تكرار حرفين . وصوابهُ « جواباً لشيء »

ومثلهُ في صفحة ٢٢ « اذا قال لك السائل ما اتاك سألتُ او قال لك المسؤول عند المسئلة يعاد لهُ بها دونك » .

وفي صفحة ٢٤ « فليست عليه مؤونةٌ في تبذّل يتبذّل لهُ عندهُ » وفيهِ زيادة لام . والصواب « يتبذّلهُ عندهُ » .

وفي الصفحة نفسها بعد ما ذُكر « او رأي يستنزله منه » والصواب « يستنزله » .

وامثال ذلك كثيرة في الكتاب ذاهبةً كل مذهب ما بين نقصٍ وتبديل واحالةٍ لبعض الكلم عن مواضعه مما تنكرت به صُوَر التراكيب والتبست وجوه المعاني وذهب ما فيه من الفصاحة والسبك . وانت خبيرٌ بان ما

يوصف من الكتب بالسقم والغثاثة او بالتكلف والتعقيد لا يستلزم ان تكون كل عبارةٍ فيه كذلك ، ولكن الجملة الواحدة بل اللفظة الواحدة في الصفحة اذا نزلت في غير منزلها فقد تكون كافيةً لأن تخدش رونقها وتشوّه سائر ما فيها من المحاسن كالوجه الجميل اذا كان على احدى عينيه كوكب او في احدى وجنتيه قرحة فقد تنبو العين عن النظر اليه وان كان سائرهُ سليماً لا عيب فيه .

لا جَرم ان ذلك لما يشعر له بالاسف كل من عانى هذا الشأن ، اي شأن الكتابة والتأليف وتمثّل ما بذل المؤلف رحمه الله من الاغراق في النظر وتحرّى من الصحة والاحكام في وضع هذا الكتاب الذي هو نتيجة تجاربه وثمرة عقله ومعرض بيانه . وكم مثله من السلف ممن لو عادوا اليوم وعاينوا ما صارت اليه مصنفاتهم وما مُنيت به من صنوف الجدع والصلم لتمنّوا انهم لم يُجروا فيها قلماً ولم يُعمِلوا فيها فكراً .

على ان النسّاخ من قبل عصرنا هذا كانوا ادنى الى العذر من اهل الطباعة اليوم ، اذ لا يتسنى لكل ناسخٍ ان يكون عارفاً بما ينسخ ولا ان يتخذ مصححاً ينبهه الى مواضع الخطأ ويرشده الى وجوه تصحيحها ، ثمّ هو ان أخطأ أخطأ في نسخةٍ مثلاً وصحح غيره في غيرها فلا يعمّ من ضرره ما يعمّ من ضرر الطابع الذي اقلّ ما يطبع من الكتاب في المرّة الواحدة الف نسخة او فوقها ، فاذا فرط فيهِ شيءٌ من الاغلاط تكرر في تلك النسخ كلها وخرجت بأسرها صيغةً واحدة فلم يبقَ فيها مجالٌ للمقابلة ولا مطمعٌ في التصحيح . بل كثيراً ما رأينا من المطابع ما يكون مفسَدةً للكتب وان كان اصلها الذي تُنقل عنه صحيحاً لان منضد الحروف اليوم ليس بأبصر من الناسخ بالامس بل ربما كان من النساخ مَن هو من اهل العلم ولا تجد في المنضدين من يكون على شيء من ذلك ، بل العارف العارف منهم من يقدر على قراءة الخط الواضح ... ثمّ الامر على قدر ما يكون من اولئك فان اتفق ان جاءوا بصُوَر ما ينقلون صحيحةً فذاك وإلا بقي ما وضعوه على وضعه إلا فيما ندر في بعض المطابع الكبرى التي قد أُرصد لها مصححون

من اهل العلم ، بل قد رأينا كتاباً في فنونٍ من دقيق اللغة وغريبها قد طُبع في احدى تلك المطابع عينها فكانت عدّة ما فيه من الاغلاط ٩٠٠ غلطة (لا غير) والكتاب كله لا يتجاوز ٣٠٠ صفحة .....

فاللهَ ايها الناس في أمانات اولئك الاقوام انكم كنتم عليها انتم المؤتمنين وانهم ليسوا بشاهدي امركم فارحموهم انهم كانوا للرحمة اهلاً وكانوا من المحسنين . واعلموا ان ما وقع اليكم من تلك الاوراق ليس مما أنبته التراب وسقاه السحاب وانضجته الشمس والضباب ، ولكنه مما أضنيت فيه الاجساد وأفنيت العيون بالسهاد ، وصُدّعت لاجله الرؤوس ، وأذيبت الادمغة على صفحات الطروس ، وانه لممّا بيعت به الاعمار فلا تبيعوه بيع الرخيص ، وبُذلت لاجله الدنيا وهي أحقّ ما ضنّ به حريص ، وانما فعل أربابه ذلك بغية الذكر حتى اذا فنيت اعيانهم عاشوا بالاثر ، ولكي يُعرفوا بصوَر عقولهم اذا ذهبت الاجساد فكيف بلغت الينا تلك الصوَر ، تالله ما الارضة التي تأكل الكتاب فتمزّقه بَداد ، ولا النار التي تحرقه فتصيّره الى الرماد ، ولا الماء الذي يُغرقه فيضرب بينه وبين الوجود بالاسداد ، بأضرّ عليه ممن يحرّف عباراتهِ ويبدّل حسناتهِ وينسخ محاسن آياته ، وان ذهاب الكتاب جملةً بداهيةٍ من نوازل القَدر ، وضياع فضل مؤلفهِ وما يرجو ان يُبقي به من جميل الاثر ، لاهونُ على قلبه من ان يُنشر بعدهُ بين ايدي الناقدين ، وقد حُمل عليه من العيوب ما يجعلهُ عُرضةً للمفنّدين وغرَضاً لسهام المندّدين . عصمنا الله مما تزلّ به اقلامنا انها الزلة الباقية على كرور الليال ، وكفانا شرّ من يُفسِد آثارنا من بعدنا ، انه كفى العبد ما يتوقع من فساد كيانه ومصيره الى الانحلال . وحسبنا الله وكيلاً ، ولا حول ولا قوّة الا بالله .

(السنة الاولى من البيان)

سطح القمر

(لهُ ايضاً)

كان المتقدمون يذهبون الى ان القمر جرمٌ صقيل اشبه بالمرآة وان ما يُرى فيه من المحو اي السواد انما هو شبح ما في الارض من الجبال والبحار وغيرها . واقلّ ما في هذا القول انه لو صحّ لوجب ان تتغيّر الصور التي تنطبع فيه كلما انتقل عن جهةٍ من الارض الى غيرها ، مع انك اذا راقبت ذلك السواد في طول مسير القمر من لدن طلوعه من المشرق الى ان يغيب في المغرب لا تجد فيه تغييراً . وذهب آخرون الى ان القمر شفّاف بمنزلة الزجاج ، وان ما يُرى فيه من السواد هو صورة ما في النصف المظلم منه وبطلان هذا القول لا يحتاج الى تنبيه . وقيل بل هو اجزاءٌ لا تقبل النور كسائر اجزائه القابلة لهُ ، وبعبارة أُخرى لا تعكس النور لانها تتشرّبهُ وهو اقرب تلك الاقوال لان فيه شيئاً من الحقيقة بل هو الحقيقة كلها اذا نُظر الى القمر في اوان الاستقبال كما سيتضح لك بما سيجيء . على ان هذه الاقوال وما ماثلها مبنيّة على ان القمر جرمٌ أملس منقاد السطح شبيه بالكرة المخروطة ، وهو ولا جرَم ما يسبق الى الذهن قياساً على ما يُرى من حدّهِ بحيث لا يظهر فيه أمتٌ ولا خلاف .

ولكنك اذا نظرت الى القمر ولو بمنظارٍ ضعيف ظهر لك وجههُ كأشدّ جبال الارض وعورةً واكثرها قمماً وتضاريس ، ولون تربته وصخرهِ على الجملة اصفر كَمِدٌ ولاسيما اذا نظرت اليه نهاراً ، فان انعكاس اشعة الشمس عن ذرّات الهواء المحيط بالارض يضعف الاشعة المنعكسة منها عن القمر فلا يظهر لهُ من النور واللمعان ما يظهر في مدة الليل حين يكون الجوّ خالياً من اشعة الشمس . على ان ذلك اللمعان في القمر ينقص كثيراً اذا نُظر اليه بآلةٍ مقرّبة لانفراج النقط العاكسة لاشعة الشمس فلا يُرى أنوَر من بعض الجبال الصخرية في الارض اذا كانت مواجهةً للشمس بخلاف ما اذا نُظر اليه بالعين المجرّدة فانه لصغر جرمهِ اذ ذاك واجتماعه تتقارب تلك النقط وتجتمع الاشعة المنعكسة عنها

فتراها العين أنوَر وأشدّ سطوعاً . ومن هنا يُعلم أنّا لو نظرنا الى الارض عن مثل بُعد القمر لرأيناها منيرةً مثله ويدل على ذلك النور الأغبر الذي يُرى على القمر في زمن الهلال منعكساً اليه عن الارض فانه ليس اضعف من نور القمر الواقع على الارض حتى يمكن ان ترى سائر سطحه المظلم وما عليه من التفاصيل .

وأوضح ما تكون رؤية القمر وما يتخلل سطحه من جبال وأودية وغيرها عندما تكون اشعة الشمس واقعةً عليه منحرفةً وذلك في اوان احد التربيعين وما اليهما ، فان تلك الجبال تُلقي ظلّاً اسود على ما ورآءها من الارض الى الجهة المخالفة للشمس فيتميز كل جبلٍ وحيدٍ ونتوٍ وتُرى الاخاديد والاودية والصحاري واضحة تمام الوضوح ولاسيما في جوار الكفاف اي الحدّ الفاصل بين النور والظلام . فانك ترى ذلك الحدّ كثير التضاريس يتخلل جوانبهُ من الجهة النيّرة بُقعٌ سوداء هي ما بين قمم الجبال من ظلال السفوح والاودية ، ومن الجهة المظلمة بُقعٌ ونقطٌ منيرة هي قمم الجبال التي لم تنل الشمس الا اعاليها وباقيها في الظلّ فيكون هنالك منظرٌ من ابهى المناظر واحراها بالتأمل. ثمّ انه كلما امتدّ ضوء الشمس على سطح القمر قصرت الظلال المجاورة للقمم وانتقل المنظر الى ما ورآءها الى ان يتكامل القمر بدراً فتزول تلك المناظر جملةً اذ يصير كل المواجه لنا من سطحه نيّراً وتخفى الظلال ورآء القمم البادية فلا يُرى منها شيء . وحينئذٍ لا يبقى في صفحة القمر ما يخالف لون سائرهِ الا بعض البقاع القاتمة من طبيعتها وهي المحو الذي يُرى من هنا متفرقاً على وجه القمر يخيّله للناظر على هيئة وجه انسان .

ثم ان جبال القمر من أغرب الاشياء منظراً ، ومن اغرب ما فيها انك تراها كلها متشابهة فانها بأسرها مستديرة الشكل جوفآء حتى يُرى اعلاها كأنه سورٌ مبني ، وباطنها على الغالب اعمق من مستوى سطح القمر ، وما اتسع منها يُرى قعرهُ سطحاً مستوياً يشخص من وسطه نتوءٌ هرميّ الشكل خشن الجوانب ينتهي بقمة مستديرة. ومنها ما ينتأ من وسطه عدة قمم ، فهي على الجملة اشبه بفوّهات البراكين الارضية . وربما شوهد حول بعضها خطوطٌ بيضآء مستقيمة تتشعب الى كل جانب ممتدةً الى مسافاتٍ بعيدة في سطح القمر فتكون اشبه بشعاعٍ مركزه تلك الفوّهة .

وجبال القمر عظيمة الارتفاع حتى ان منها ما يقارب ارتفاع اعلى جبال الارض ، فقد قاس بير ومدلر من علماء برلين ١٠٩٥ جبلاً من جبال القمر وذلك بقياس الظلّ الواقع على جوانبها مع اعتبار ميل اشعة الشمس فكان منها ما بلغ ارتفاعه ٨٨٣٠ متراً وهو الجبل المسمّى بجبل كورتيوس ، مع ان اعلى جبال حملايا لا يزيد ارتفاعه على ٨٨٩٠ متراً . ومنها ما بلغ ارتفاعهُ ٦٩٠٠ متر وهو جبل نيوتن ، وما بلغ ٦٤٧٠ متراً وهو جبل كاساتوس وهلمّ جرّا ، فتكون تلك الجبال بالقياس الى جرم القمر أعلى كثيراً من جبال الارض . واما مساحة فوّهاتها فهي ذات مسافات هائلة فان منها ما بلغ قياس قطرها ٨٧٥٠٠ متر ، ومنها ما بلغ ٩١٢٠٠ متر حال كون اعظم فوهة في براكين الارض وهي التي في جزيرة سيلان لا يتعدى قطرها ٧٠٠٠٠ متر .

وجملة الامر ان من تأمل منظر القمر تبيّن لهُ انه لم يمرّ في نفس الاطوار التي مرّت فيها الارض ، فان الارض كان العامل فيها الماء والهواء ولا تزال آثارهما ولاسيما آثار الماء ظاهرة في كل مكان من سطحها . وبخلاف ذلك سطح القمر فان الحرارة تصرّفت فيه وحدها فلا يُرى على سطحه الا آثار براكين هاجت فرفعت من سطحه في اماكن وغطته بمقذوفاتٍ من جوفه في غيرها ، وكل ذلك بقي على الهيئة التي كانت بفعل النار فلا تكاد ترى فيه ما يشبه المناظر الارضية من هذا القبيل الا بعض السهول المنبسطة على جوانب بعض البراكين وهي مكسوّة بالمواد المصهورة يتخللها بعض الفوّهات بارزةً فوق سطحها او غائرة الى اعماق شاسعة . ولون هذه السهول اغبر في الغالب تشوبهُ زُرقةٌ او دُكنةٌ ولذلك توهمها الراصدون الاولون بحاراً واطلقوا عليها اسماء بعض بحار الارض كالبحر المتوسط والادرياتيك وغيرهما ، واطلقوا على ما سواها اسماء بعض بقاع الارض وجبالها وجزُرها كفلسطين وجبل سيناء وصقليّة وغير ذلك . واول من سماها بذلك هفليوس احد علماء الالمان في الخريطة التي رسمها للقمر وهي اول خريطة رُسمت لهُ سنة ١٦٤٧ . ثم تلاهُ الاب رنشيولي في نحو ذلك التاريخ فرسم تفاصيل القمر وغيّر اسماء البقاع والبحار فسمّاها على وفاق ما كان المنجمون يذهبون اليه من تأثير القمر في سكان الارض كبحر النوم وبحر الاحلام وبحر العواصف وبحر السكينة وكأرض الصحة وارض الهجير وارض الجدب وارض

الخصب ... ومع ان القمر لا بحار فيه كما هو متحقق اليوم فانهم تركوا الصحارى التي سميت بحاراً كما سميت لاشتهارها بين اصحاب هذا العلم .

على ان من العلماء وفيهم الاب سكي (اليسوعي) من يذهب الى ان اللون الاغبر في سهول القمر او ما يسمى بالبحار هو لون غابات من الشجر ، ويستدلون على ذلك بكون تلك البقاع تمتصّ اشعة النور فلا تؤثر في الصفائح الفوتغرافية ولذلك تُرى هذه الاماكن في الصور الشمسية اشدّ سواداً مما تُرى بالنظر المجرّد او بالآلات البصرية ، وهذا من الخصائص المعروفة في النبات .

اما الجبال فلا تظهر قممها وحيودها إلا بيضاء ، بيد ان منها ما يظهر انوَر من غيرهِ حتى ان بعضها يُرى بلون الثلج . وقد وُجد من السهول ما يختلف لونه بين وقتٍ وآخر ، فبينا يُرى عند اول شروق الشمس عليه بلون الثلج اذ يُرى بعد ايامٍ حين توشك الشمس ان تغيب عنه بلون الصخر الطبيعي . وهذا ولا ريب من الاسرار التي يصعب كشفها ، غير ان آخر ما ذهب اليه المحققون منهم ان هناك ثلجاً حقيقياً ينعقد في مدة ليل القمر الطويل الذي هو نحو نصف شهر ، فاذا اشرقت الشمس عليه ظهر بلونه الناصع ، ثم بعد ان تستمر فوقه مثل ذلك الزمن وهو مدة نهار القمر انحلّ وانكشف الصخر من تحتهِ . وهذا الثلج انما ينعقد من الهواء الجوّي المحيط بالقمر اذ قد ثبت لهم وجود جوٍّ هناك في غاية النزارة ، فاذا انحل ذلك الهواء من جمودهِ لم يجرِ سيولاً ولا انهاراً ولكن ينتشر في الجوّ على عهدهِ ، ولذلك كان الهواء على القمر يظهر احياناً ويخفى تبعاً للساعة من اليوم والله اعلم .

(الضياء ، السنة السادسة)



ضاق نطاق هذا الكتاب عن استيعاب كل ما أردنا اثباته فيه من مختارات اقلام الشيخين الشدياق واليازجي ، فنلتمس من الكرام عذراً .

فهرس الكتاب

	صفحة
مقدمة لجامع الكتاب	٣
الشيخ فارس الشدياق	١١
يوسف منصور الشدياق	١٥
طنوس يوسف الشدياق	١٧
منصور يوسف الشدياق	١٧
اسعد يوسف الشدياق	١٨
غالب يوسف الشدياق	٢٠
فارس يوسف الشدياق	٢١
مؤلفات فارس يوسف الشدياق	٤٩
الشيخ ابراهيم اليازجي	٥٥
بدء المناقشة	
الشدياق يرثي اليازجي الكبير	٦٢
رد الشيخ ابراهيم اليازجي	٦٧
رد سليم افندي فارس	٧٥
ردّ الشدياق على اليازجي	٧٦
ردّ اليازجي على الشدياق	٨٣
في عدم التصريح باسم الشدياق	٨٥
في الفاصلة والفحطل	٨٦
في الوجه القبيح المبرقع	٨٩
في الخلل في احكام الفاصلة	٨٩
في السجع	٩٢
في عيوب الفاصلة	٩٥
في السناد	٩٦
في مفرد الفحاحل	٩٧
في المرابض والمرابط	٩٨
هل الاشياء الظاهرة تكون اصلاً للباطنة	١١٠
في تخطئة سر الليال	١١٢
في الشغف والبهق	١١٥
في الدراري	١١٦
في مظنة الانفراد والذمّة	١١٧
في كلمة التصدي	١١٨
في عبارة اني مذ اليوم	١٢٢
في التعدية بعن وعلى	١٢٢
في غلط الوهم	١٢٣
في تخطئة الساق على الساق	١٢٥
في المناداة للتحزّب	١٢٩
في المحاماة عن حقوق العربية	١٣٠
في العصمة من الغلط	١٣٣
في الاستعانة بصاحب الجنان	١٣٤
في تخطئة المقامات	١٣٥
في نقد قصيدة	١٣٥
في اعتذار	١٣٨
في اتفاقات غريبة	١٣٩
في فائدة المباحث والمطارحات	١٣٩
في الختام	١٤٠
غضبة الشدياق على البستاني	١٤١
جواب صاحب الجنان	١٤٢
نقد أعلى عبارة الجنان	١٤٧
الشدياق يهجو البستاني	١٥٥
تصويب سهام التغليط على قطر المحيط	١٥٧
سلوان الشجي في الرد على ابراهيم اليازجي	١٦٤
مقدمة — في الحسد	١٦٧
في محيط المحيط	١٦٩
في ترجمة ابراهيم اليازجي	١٧١
في تخطئة مقامات ناصيف اليازجي	١٧٤
في لفظة الفحطل	١٨٠
في الاسم الرباعي المفتوح الفاء	١٨٢
في الوجه القبيح المبرقع	١٨٥
في احكام الفاصلة	١٨٧

	صفحة
في سناد الاشباع	١٩١
في عدم التقيد بالسجع	١٩١
في مراعاة المعاني	١٩٨
في ايراد كلام العامة في كتب اللغة	٢٠٢
في مسئلة المرابض	٢٠٦
في غَلَتَ القدر	٢١٤
في لفظة الراكب	٢١٦
عود الى الربض	٢١٨
في نبذة من سر الليال	٢٢١
في فوائد هذا الكتاب	٢٢٦
في تقاريظ العلماء عليه	٢٣٠
تقاريظ علماء العراق	٢٤٠
في خصائص الالفاظ	٢٥٦
في المناسبة بين الالفاظ ومدلولها	٢٥٨
في الاشتقاق الكبير	٢٦١
في تأليف سر الليال	٢٦٣
في حبّ وأحبّ	٢٦٤
في الأب	٢٦٥
في البهق	٢٦٦
في كون صاحب الجوائب لم يسط على العلماء	٢٦٩
في صحة قول صاحب الجوائب: الناقة تستبعر	٢٧٠
في صحة قوله فأجمعا رأيهما	٢٧١
في قوله ان تصيروا كهلًا واقامة المفرد مقام الجمع	٢٧٢
في صحة قوله لا بدّ وان يكون	٢٧٣
في حذف النون	٢٧٤
في لفظة تطالل ونحوها	٢٧٧
في صحة قوله لا يغررنكم	٢٧٨
في جواب ان الاصلية	٢٨٠
في مجيء اللام زائدة	٢٨٢
في سوّل اليه واستعد اليه	٢٨٣
في مبادلة حروف الجر من كلام أبي المعترض	٢٨٤
في قول صاحب الجوائب شدا الى قرن	٢٨٤
في ورود الفاء مع لم في جواب اذا	٢٨٥

	صفحة
في صحة ايراد كذلك بعد كما	٢٨٦
في صحة ايراد في بعد سوى الاستثنائية	٢٨٨
في صحة قول صاحب الجوائب :	
ما من شاعر قال شعراً الا وأخذ عليه	٢٨٩
في لفظة مزيال	٢٩٣
في لفظة تصهال	٢٩٤
في تحريك الساكن من كلام أبي المعترض	٢٩٥
في لفظة منوال وافشال	٢٩٦
في قيتال والوحشي من الالفاظ	٢٩٧
في تلاّل وتعريف المجاز	٢٩٨
في اقلال وفي الجمهورية	٢٩٩
في المظنة والذمة والذمم	٣٠١
في فساد قوله لم اكن اتوقع مذ اليوم	٣٠٢
في فساد قوله بنيف عن ستين سنة	٣٠٤
في فساد قوله كما اشار	٣٠٥
في مدة تأليف الساق على الساق	٣٠٦
في مدح الجوائب	٣٠٦
في الترصيع	٣٠٨
في الجنان	٣٠٩
في من كان فريداً في فنه	٣١٠
رسائل الشدياق	٣١٢
كتاب الخطب البيعية، بخط الشدياق	٣٢٠
نص الصفحة السريانية المصورة	٣٢٢
مختارات	
الترية علاج سوء الطبع البشري لفارس الشدياق	٣٢٤
في هواء مالطة ومنازهها » »	٣٢٩
نبذة في القمر » »	٣٣٣
ادب الدارس بعد المدارس لابراهيم اليازجي	٣٣٦
نقد الدرّة اليتيمة » »	٣٣٩
سطح القمر » »	٣٤٦

اصلاح غلط

صوابه	خطأ	سطر	صفحة
انها من اوسع	انها اوسع	٣	٤
مُلىء	مُلي،	٢	٦
فتأمل	متأمل	٢١	٨٩
حزازات	حرازات	١٠	١١٤
يتزيّا	يتزيٌ	١٥	١٢٠
وتقويمها	وتأمينها	١٨	١٩٢
يجب حذف لابن	وساداً لابن	٢٤	١٩٢
الخنن	الختن	٤	٢٦٠
قال ما ملخصه	قال ملخصه	٤	٢٧٥
صنو	صنعر	٧	٢٧٧
صائرٌ	صائرِ	١٢	٢٧٩
يوقفك	يوفقك	٢٣	٢٨٧
فيا لك من ليل	فيا لك من دليلِ	١١	٢٨٨
مودّع	مودّع	١٢	٢٨٨
نعم امرىءٌ هرمٌ	نعم امرىءِ هرمِ	٢٥	٢٩٠
ظمىءٌ	ظميءٌ	١٣	٣١٣
٣٠ سنتيمتراً بعرض ٢١ سنتيمتر	٣٠ سنتيمتر بعرض ٢١ سنتيمتراً	٦	٣٢١

وغير ذلك من الاخطاء التي لا تفوت بصيرة القارىء اللبيب .

طُبع من هذا الكتاب ١٠٠٠ نسخة
ثمن النسخة ٣٥٠ غ. ل.

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة المرسلين اللبنانيين * جونيه – لبنان

Library of



Princeton University.